

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر – باتنة

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الأفعال الكلامية في القرآن الكريم

(سورة البقرة)

دراسة تداولية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي

إشراف الدكتور :

جودي مرداسي

إعداد الطالب :

محمد مدور

أعضاء اللجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د. محمد بوعمامة	أ . ت . ع	باتنة	رئيسا
د . جودي مرداسي	أ . م . ا	باتنة	مشرفا ومقررا
د. لخضر بلخير	أ . م . ا	باتنة	مناقشا
أ.د. صالح خديش	أ . ت . ع	خنشلة	مناقشا
أ.د. أبوبكر حسيني	أ . ت . ع	ورقلة	مناقشا
أ.د. لبوخ بوجملين	أ . ت . ع	ورقلة	مناقشا

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، الذي نزل على عبده كتابا محكم الآيات ، وجعله محفوظا لا يتطرق لساحته تحريف ، ولا يشوبه تبديل ولا تزيف ، وهو الذي تولاه برعايته ، وأسكت الفصحاء بفصاحته ، وأخرس البلغاء ببلاغته ، والصلاة والسلام على خير الأنام المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . وبعد :

اللغة سلوك اجتماعي يعبر به الناس عن أفكارهم ، ونشاط تقوم به جماعة من الناس بهدف التواصل وتحقيق المصالح ، والفرد يستخدم اللغة في مواقف الحياة حين يوجه شكرا ، أو يقدم اعتذارا ، أو يصدر قرارا ، فالكلام المصاحب لهذه الأنشطة وغيرها ، هو مادة صالحة للدراسة.

ولقد أبدى علماء اللغة والفلسفة اهتماما كبيرا في العصر الحديث بالعناصر الموقفية في اللغة ، والتي لها ارتباط بغرض المتكلم . ولماذا يتكلم ؟

إن اللسانيات العربية اليوم تعرف انفتاحا حضاريا واسعا على النماذج والتحليلات ، والنظريات التي عرفها العالم الغربي منذ عقود ، ولعل هذا الوضع الحضاري يفرض على الفكر اللساني العربي أن يعقد حوارا مثمرا بين الماضي والحاضر ، أي بين ما يزخر به هذا الفكر من طرق التحليل ومفاهيم ، وبين ما يعج به الفكر اللساني الحديث من نظريات في سبيل تحقيق انفتاح حضاري واع ، يتجنب الوقوع في الإسقاط المنهجي .

إن التداولية مصطلح جديد يحمل مفهوما قديما ، كان يستخدمه القدماء في التراث العربي ، ضمن أنساق وسياقات بلاغية ، ونحوية ، وكلامية ، وأصولية وغيرها . فهي تمتلك الإمكانيات التي تسهم بها في وصف اللغة العربية ، ورصد خصائصها الخطابية التواصلية .

والتداولية كنسق معرفي استدلالي يسعى إلى الوقوف على أغراض القائل المقامية ، من خلال معرفة الإستراتيجية الخطابية للنص . ومن ثم يكون المعنى المقامي عمدة التفسير ، وذلك بالكشف عن قيمة القول خارج العالم اللساني ، بمعنى البحث عن البعد العملي للقول . فالتداولية تجعل الفعل اللغوي حدثا في العالم يسعى إلى التعبير عن طريق التواصل . وكان المنهج البنيوي قد أقصى أثر السياق في فهم وتأويل الدلالات ، واكتفى بحصر دراسة اللغة في الكشف عن مكونات البنية اللغوية ، لكن هذا الجانب من اللغة يهتم بالاستعمال اللغوي ،

ويكشف عن طرقه وخصائصه الخطابية ، عوضا عن دراسة اللغة ؛ أي حينما تكون اللغة متداولة بين مستخدميها ، وكيف يكون استعمالها ؟ .

وقد انبثقت التداولية من أبحاث الفلسفة التحليلية ، التي تدرس وظائف المنطوقات وخصائصها وظهرت نظرية أفعال الكلام بجهود الفيلسوف الإنجليزي جون أوستين J.L.Austin (1911-1960) في محاضراته (نظرية أفعال الكلام العامة) وازدهرت على يد تلميذه الفيلسوف (جون سيرل J Searle)، ومواطنه (بول غرايس Paule Grice) . وقسم أوستين أفعال الكلام بحسب اشتراكها في سمات وظيفية محددة . إلى خمسة أقسام .

لقد أتاحت تداولية أفعال الكلام لتحليل الخطاب منهجية لسانية جديدة ، من حيث إنها نظرت للكلام بوصفه فعلا لغويا (Speech act) يدل عليه قصد المتكلم . وترمي هذه الأفعال إلى إنجاز الأشياء بالكلمات ، أو صناعة أفعال ، ومواقف اجتماعية وذاتية بالكلمات ؛ أي ترمي إلى التأثير في المخاطب بحمله على فعل ، أو ترك ، أو تقرير حكم من الأحكام ، أو تأكيده ، أو التشكيك فيه ، أو نفيه ، أو وعد ، أو وعيد ، أو إبرام عقد ، أو فسخه ، أو إفصاح عن حالة نفسية معينة .

إن غاية هذا البحث هي : استثمار نظرية أفعال الكلام في قراءة الموروث اللساني العربي ، ومحاولة التأصيل لهذه النظرية في التراث اللغوي العربي ، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث الموسوم بـ : الأفعال الكلامية في القرآن الكريم ، (سورة البقرة) . دراسة تداولية .

وأما عن سبب اختيار سورة البقرة ، فلأن هذه السورة متميزة بكونها جاءت في مرحلة مهمة من مراحل الدعوة الإسلامية ، فهي سورة مدنية نزلت عقب صلح الحديبية ، حين تأزمت العلاقات بين المؤمنين والمشركين ، وسط ترقب اليهود والمنافقين ، ومن ثم اتسع السياق بتعدد المخاطبين ، وتعددت الموضوعات ، وتنوع الزمان والمكان ، وسائر مؤشرات السياق الوجودي مما سمح ببروز التبادل الخطابي بين سائر الأطراف ، وفي ظل هذه الظروف تتابع نزول الوحي ضمن أطر مقامية مختلفة ، وسياقات نصية متنوعة ، بما تتضمنه من وحدات لغوية ، وعبارات ، ومحاورات ، وأخبار ، وقصص ، وحجاج ، وتقارير وغيرها . وهذا يفسح المجال لتنوع الأساليب والصيغ ، مما يجعل هذه المدونة ميدانا خصبا تتجلى فيه القضايا التداولية .

ينطلق هذا البحث من إشكالية مفادها : كيف يمكن الكشف عن البعد التداولي في الخطاب القرآني من خلال نظرية الأفعال الكلامية ؟ وما مدى كفاية المنهج التداولي لدراسة الأسلوب القرآني ؟ وإلى أي مدى يمكن استثمار نظرية الأفعال الكلامية في الكشف عن الآليات التعبيرية المستعملة في الخطاب القرآني ، للدلالة على القوى الإنجازية لهذا الخطاب ؟ وإن التداولية عموما تطرح الإشكالات التالية :

- كيف يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر ؟ (في نوع الأفعال الإنجازية غير المباشرة)
- كيف يكون ممكنا أن يسمع المخاطب شيئا له معنى ويفهم منه معنى آخر ؟
- كيف تعمل الإنشائيات ؟ كيف تعمل الإيقاعيات؟ كيف نوقع بالقول فعلا ؟ كيف ننجز الأشياء بالكلمات؟
- وكيف تساهم اللغة في التغيير ؟ وأخيرا كيف يمكن للخبر أن يكون أمرا ؟

وإننا نسلم ابتداء بوجود بعد تداولي في المدونة القرآنية ، ومن ثم يتجه البحث لكشف ذلك البعد ، وإمطة اللثام عنه ، ورصد القضايا التداولية المتعلقة بنظرية الأفعال ، واستخراج المعاني وكشف قوتها الإنجازية ووظيفتها الحجاجية .

لا يرمي هذا البحث إلى دراسة معاني القرآن من خلال النص ، بل إلى توظيف فهم المفسرين لمعاني الأفعال المتضمنة في القول . وإن المفسرين يراعون كثيرا قواعد اللغة والإعراب والبلاغة ، التي من شأنها أن تكشف عن المعاني القرآنية ، و يأخذون في الاعتبار كثيرا مقامات القول القرآني يفسرونه بها ، ويتأولونه في ضوءها.

إن التوجه التداولي بمختلف نظرياته استطاع أن يفتح آفاقا جديدة لتحليل مختلف الخطابات ،

لاعتمادها على أبعاد جديدة في التحليل ، وهو الأمر الذي جعلها تتسع ، في الوقت الذي عجزت فيه النظريات البنيوية عن الوصول إلى معرفة مكونات الخطاب .

ترمي الدراسة إلى استخدام الأداة التداولية في الكشف عن الخصائص الخطابية للنص القرآني ، وأثر المفاهيم التداولية في تحليل الخطاب . وقد أسهمت التداولية بكل فروعها النظرية في إثراء مفاهيم تحليل الخطاب ، ومن بين فروعها الأساسية نظرية أفعال الكلام . ويعد مفهوم القوة الإنجازية أو القوة المتضمنة في القول من أهم المفاهيم هنا . فقد نقل هذا المفهوم إلى مجال تحليل الخطاب ، وهو محاولة للتحقق من فعاليته في تحليل الخطابات ،

باعتبار الخطاب سلسلة من الأفعال الكلامية ، ولهذا فإن فهم نص ما هو إجابة عن سؤال تداولي هو : لماذا ؟ أو لأي غاية حجاجية تم إنتاج هذا النص ؟.

تتطلب إجراءات التحليل وفق التقسيم الخماسي الذي وضعه سيرل لأصناف الأفعال الكلامية بتناول نص المدونة على رواية حفص جزءا جزءا ، بحيث يمثل كل جزء وحدة خطابية، تتضمن فعلا كلاميا واحدا أو أكثر بحسب الموقف اللغوي. والوحدة الخطابية عند أوستين هي الفعل الكلامي ، ثم نقوم بالكشف عن ظروف إنتاج الخطاب ، بذكر أسباب النزول ، والظروف المحيطة بالموقف الكلامي ، مع تحديد أطراف الخطاب ، وتحديد الصيغة التعبيرية :

خبر/ إنشاء . ثم تحديد القول المراد ، والكشف على الفعل الكلامي وبنية الأفعال المتفرعة عنه أي تقسيمه إلى مستوياته :

1- فعل القول : Acte locutoire

2- الفعل المتضمن في القول : Acte illocutoire

3- الفعل التأثيري . (الناتج عن القول) : Acte perlocutoire

ثم تصنيف بنية الفعل الكلامي إلى كونه مباشرا أو غير مباشر ويليه ذكر قوته الإنجازية ، وتحليل دور الوسائل اللغوية المستعملة في تعديل هذه القوة ، ثم تقف الدراسة على توضيح الشروط التأسيسية لنجاح الفعل الكلامي . (شروط الملاءمة) وقضايا تداولية أخرى مثل : اتجاه المطابقة ، ويتبع ذلك أحيانا إبراز حجاجية الفعل الكلامي ، أو تحديد الأفعال الكلامية الكبرى التي لها دور أساسي في تحديد جنس الخطاب ، وفق منظور (فان دايك Van Dijk) وننتهي بذكر الفعل التأثيري الناتج عن القول كلما أمكن ذلك ، وبيان علاقة الفعل الكلامي بغيره من الأفعال الكلامية الأخرى .

وتجدر الإشارة إلى أن المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي ، وأن طريقة التناول تستند إلى الاتجاه التداولي بمختلف آلياته التي تمتلك - فيما نرى - القدرة على إضاءة مختلف جوانب الخطاب . وتنتقل الدراسة إلى طريقة عرض الأفعال ، وبيان مقاصد المتكلم ، استنادا إلى أقوال المفسرين وآراء علماء المعاني وغيرهم ، مع مراعاة الموقف في الشروط التحضيرية ، وإعادة تكييفها وفق مقام الربوبية ، ومقتضيات تنزيه الخالق عز وجل عن

العوارض البشرية . وإن تأثير المؤسسة في المواقف يكون شديداً على المتخاطبين ، فأفعال الكلام في ذلك تتحقق لا محالة ، ومن ثم يمكن أن يكون الخطاب الإلهي مقابلاً للإطار المؤسساتي .

وقد اهتم الأصوليون بآليات المنهج التداولي ، كون دراساتهم قائمة على أساس البحث في سياقات الخطاب ، ومقاصد المتكلم ، ومن أبرز الدراسات القديمة التي عالجت بعض جوانب المنهج التداولي نذكر : الشاطبي في الموافقات ، والغزالي في المستصفى ، والقرافي في الفروق ومن هنا نحوهم .

وفي العصر الحديث أسهم بعض الدارسين بأعمالهم في المزج بين الدراسات العربية والدراسات الغربية ، نذكر منهم : طه عبد الرحمن في دراساته التداولية خاصة في كتابيه : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، واللسان والميزان حيث يعالج قضايا الحوار والخطاب والحجاج . ومنهم محمد يونس علي ، الذي بحث في كيفية تحليل الفقهاء للخطاب الفقهي تحليلاً تداولياً ، و جهود أحمد المتوكل الذي اتخذ من النحو الوظيفي إطاراً عاماً لها خاصة وقد حاول أن يوفق بين النحو العربي ، وبين دراسات النحو الوظيفي عند (سيمون دايك (Simon Dijk).

ومن كتب المتوكل نذكر : الوظائف التداولية في النحو العربي ، وآفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي ، كما نذكر موازنته بين مفاهيم الطالب عند السكاكي وقواعد التخاطب عند غرايس . وهناك بعض الدراسات البلاغية من أبرزها ما قام به محمد العمري في دراسته : البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول .

و كذلك الدراسة الحجاجية التي قام بها عبد الله صولة في كتابه الحجاج في القرآن . ومن الدراسات التداولية التطبيقية نذكر جهود صابر الحباشة في كتابه : الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقرطبي . وكذلك عمر بلخير في كتابه تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية . ومحمود طلحة في كتابه : تداولية الخطاب السردي . ومحمد العبد في أبحاثه ، وخاصة : الحدث اللغوي ، وتعديل القوة الإنجازية .

وهناك بحث قدم في رسالة ماجستير بعنوان أفعال الكلام في الخطاب القرآني... لصاحبته حليلة بوالريش سنة 2012م .

كما تعاقبت البحوث والدراسات ، منها ما يتناول نظرية الأفعال ، ومنها ما يتناول القضايا التداولية مثل : الإشارات ، والاستلزام الحوارية ، والقصدية ، والحجاج ... الخ

ويتميز النص القرآني بكونه نصا مقدسا ، أنزل وفق قواعد اللغة العربية ، واستعمال العرب لها . والدارس للأوامر الشرعية وموقف المكلف منها، إنما يدرس في الحقيقة نسق العلاقة بين المولى والعبد ، التي هي علاقة أمرية ؛ أي نمط خاص من القوى المتضمنة في القول ، وكل عنصر من القرآن هو سبب من أسباب إعجازه .

إن القرآن خطاب يحتوي على الإقناع والتأثير ، وهو إلى ذلك ميدان تجري فيه الأحداث ، وتتحرك فيه الذوات وتتجاوز وتتجادل ويحاج بعضها بعضا ، ومن ثم تبرز فيه الخاصية الحجاجية التداولية ، وفيه معان خاصة به كالتعجيب ، والتنديد ، والتحسير .

إن من أبرز العوائق التي تواجه الباحث في هذا الميدان هو الإبهام ، الذي يميز عددا كبيرا من المصطلحات والمفاهيم . ومرد ذلك إلى أن التداولية ذاتها هي مجموعة من النظريات نشأت متفاوتة من حيث المنطلقات والمشارب .

وكان أوستين قد جعل لمقصد المتكلم أهمية كبرى، لكن بعض محلي الخطاب رغبوا في أن يبرهنوا على أن القوة الإنجازية هي ما يعتمد إليه المستمع لا ما يقصده المتكلم ، فالإشكال إذن في الاعتماد على مقصد المتكلم أو تفسير المستمع ؟ فكان توليد قوة المنطوق الإنجازية مظهرا من مظاهر الاختلاف بين أوستين و سيرل . فالأول يراها تحقيقا لمقصد المتكلم ، والثاني يرى أن القوة حاصل تفسير المستمع للمنطوق . وقد تطرق دافيد هولذكروفت. David Holdcroft لمعالجتها في كتابه: & Deeds. Problems in the theory of Speech Acts

Words

ويقوم المتكلم بتبليغ المستمع ، معتمدا على قوى الإدراك والاستدلال العامة عند المتلقي . واعتمادا على كفاءته التداولية .

إن الفعل الكلامي يمتلك أغراضا إنجازية متباينة بتباين ملابسات استعماله ، كما تتعدد الأفعال غير المباشرة بتنوع مقاصد المتكلم ، وأحيانا يتعذر الوقوف على معنى مجازي معين ، لأن القرآن حمال ذو

وجوه ، ولأن الشكل اللغوي للعبارة لا يدل وحده على الغرض الإنجازي . وللتكفل بالإجابة عن هذه

الأسئلة اتخذ هيكل البحث الصورة التنظيمية التالية :

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة . نذكر ذلك فيما يلي :

الفصل الأول : تبدأ هذه الدراسة بتمهيد يتناول تعريف التداولية كإطار عام لنظرية الأفعال الكلامية .

الفصل الثاني : يتناول مفهوم نظرية الأفعال الكلامية وخلفيتها الفلسفية ، وترعرعها في أحضان الفلسفة التحليلية ومدرسة أوكسفورد ، وتطوير بناء تلك النظرية في ظل الجهود التي قدمها جون أوستين ، ثم نضج هذا المفهوم الإنجازي بجهود تلميذه جون سيرل ، الذي قام بسد الثغرات في هذا البناء . ويتطرق هذا

الفصل إلى الأفعال الكلامية بنوعيتها المباشرة وغير المباشرة . وإلى تقسيمها إلى الأصناف الخمسة وهي : الإخباريات ، التوجيهيات ، الإعلانيات ، التعبيرات ، الوعديات ويعرض هذا الفصل للقوة الإنجازية والوسائل اللغوية المستعملة في تقويتها أو تلطيفها أو إضعافها ، بحسب مقتضيات المقام ومقصد المتكلم.

الفصل الثالث : يتناول الصنف الأول من الأفعال الكلامية وفق تصنيف سيرل وهو الإخباريات ، ويلحق به القصص القرآنية الواردة في المدونة مثل: قصة بقرة بني إسرائيل ، وقصة إبراهيم عليه السلام مع الطاغية النمرود ، وقصة نبي الله "عزير" ، وقصة "طالوت وجالوت" ، وغيرها

الفصل الرابع : يتناول صنف التوجيهيات ، ويتعلق الأمر بالأفعال التوجيهية بفرعيها : الطلبية و النفسية ، ويدخل تحتها (الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والنداء ، والعتاب ، والطمأننة...) والأفعال الكلامية المتفرعة عنها .

الفصل الخامس : يتناول صنف الوعديات : وهو الفصل المتعلق بأفعال : الوعد ، والوعيد ، والتخويف والتهديد ، والتحذير ، والترغيب ، والترهيب ، وغيرها .

الفصل السادس : يتناول صنف التعبيرات (البوحيات) : وهو الفصل المتعلق بمجال الأفعال الكلامية الإفصاحية ، وتشمل الأفعال التعبيرية النفسية والاجتماعية ، كأفعال التمني ، والامتنان ، والتعجب ، والتوبيخ ، والتهويل والتحسر ، والمدح ، والذم... الخ .

الفصل السابع : يتناول صنف الإيقاعيات (الإعلانيات) : وهي المتعلقة بأفعال التعهد وما يتصل بالأفعال الكلامية المنجزة في إطار العرف غير اللغوي ، أو الإطار المؤسساتي ، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : أفعال القرارات والأحكام ، وأفعال التصرفات (المنع والجواز) ، وأفعال العقود.

الخاتمة : وهي حوصلة لما سبق في البحث وتتضمن خلاصة النتائج .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على مجموعة من المصادر العربية والأجنبية ، القديمة والحديثة و كتب التفسير ، غير أن استعانتنا ستكون من منظور تداولي ، وهو أن الخطاب القرآني يتضمن البعد التداولي ، الذي يركز على أهم أسسه وهو الفعل اللغوي ، والقضايا المتصلة به ، ونذكر من هذه التفاسير :

تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور: وهو تفسير يغلب فيه التحليل اللغوي والبلاغي على الجوانب الأخرى، وهو جماع التفاسير القديمة ، وفيه فضل عليها ، بما اجتهد صاحبه فيه وأضاف إليها . قال ابن عاشور مباهيا بتفسيره : "إني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير ، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبوا إليه هم النحارير ، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير ، ففيه أحسن ما في التفاسير ، وفيه أحسن مما في التفاسير." ومما يتميز به هذا التفسير هو تطرقه إلى معالجة بعض

القضايا التداولية التي تتعلق بتحليل بعض المواقف الحجاجية والمنطقية ، وتحديد وظائف الأفعال اللغوية ، والمعاني الصريحة والضمنية ، واعتبار المقامات إلى غير ذلك .

أما تفسير **روح المعاني** للألوسي (تـ1270هـ): فإن صاحبه من أبرز المفسرين الذين كشفوا عن روح المعاني وظلالها ، وهذا يدل على امتلاكه حسا لغويا ، وعبقريّة فذة ومعتقدا صحيحا تنق فيه وتطمئن إليه.

وتفسير **الكشاف** للزمخشري (تـ528هـ) : فهو يراعي كثيرا جوانب اللغة والإعراب ، والبلاغة ، وإن كان لا يخلو من اعتزال سخر له آلة البلاغة . إضافة إلى التفسير الكبير للفخر الرازي (544-604هـ) ، وكتاب **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي (تـ671هـ) ، والبرهان في

علوم القرآن للزركشي (تـ794هـ) و كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (849-911هـ)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (تـ311هـ).

ونذكر من كتب البلاغة : دلائل الإعجاز للجرجاني ، ومفتاح العلوم للسكاكي ، والإيضاح للقزويني ، وعروس الأفراح للسبكي .

ومن الكتب الحديثة نذكر : كتاب نظرية الأفعال الكلامية لسيد هاشم طبطبائي ، الذي كان رائدا في هذا الحقل المعرفي ، وكتاب التداولية عند العلماء العرب لمسعود صحرابي ، وكتاب آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر لمحمود نحلة ، وكتاب الأفعال الإنجازية لعلي محمود الصراف ، وكتاب تحويلات الطلب لحسام أحمد قاسم .

أما المراجع الغربية فنذكر منها : كتاب كيف ننجز الأشياء بالكلمات ؟ لجون أوستين ، وأفعال الكلام لجون سيرل ، والتداولية لجورج يول ، ومشكلات في نظرية أفعال الكلام لدافيد هولذكروفت ، والنص والسياق لفان دايك .

وفي الختام ، أتوجه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الدكتور جودي مرداسي الذي تولى الإشراف على هذا البحث ، وتتبع مراحلها وهو في كل ذلك يوجهنا، بملاحظاته إلى أن استوى العمل ناضجا .

كما أتقدم بالشكر إلى كل من الدكتور محمد بوعمامة الذي كان له إسهام مشكور بما قدم لنا من مقترحات أضاءت مسار البحث ، و الدكتور مسعود صحرابي وهو رائد من رواد هذا الحقل المعرفي ، والأستاذة دريد ثريا أستاذة اللغة الإنجليزية التي ساعدتنا في ترجمة بعض النصوص وغيرهم ممن أسهم في هذا العمل ممن لا يتسع المقام لذكرهم .

وأخيرا . أتوجه إلى المولى العلي القدير بأعظم الثناء وأشرف المحامد ، أن يمتن علينا بالتوفيق والمعونة لإتمام هذا العمل ، الذي نسأله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، والحمد لله رب العالمين .

(اهـ)

تمهيد

القرآن الكريم خطاب إلهي ، موجه لهداية الناس ، وإرشادهم نحو صلاح معاشهم ومعادهم ، وقد ورد الخطاب بتعريفات متنوعة ، بوصفه فعلا يجمع بين القول والعمل ، فهذا من سماته الأصلية . وتردد لفظ الخطاب في عدة مواضع من القرآن الكريم كقوله تعالى :

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ ﴾ [ص. الآية 20]

والغرض من إيراد هذا التمهيد ، هو أن نبين من خلاله مسوغ اختيارنا للتقسيم الخماسي للأفعال الكلامية الذي وضعه (جون سيرل J.Searle) ، والذي على ضوءه نقسم أصناف الأفعال في سورة البقرة كما نبين من خلاله التمييز بين النص والخطاب ، وإشكاليات تعدد المعاني للمنطوق الواحد ، في ظل كثرة المعاني الاحتمالية الظنية ، ونبين طرق الاستدلال على القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا ، كما نتطرق إلى خصائص المدونة (سورة البقرة) وخصائص كل من المتكلم (المرسل) ، والمتلقي (المرسل إليه)

وحول مفاهيم الخطاب يقول فخر الدين الرازي : "وإن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ، ويحضر في الخيال ، بحيث لا يختلط شيء بشيء ، ينفصل كل مقام عن مقام." ⁽¹⁾ ومن هذا التفسير يتضح تفاوت الناس في قدرتهم على التعبير عن أفكارهم .

أما النحاة فقد استعملوا كلمة (المخاطب) للدلالة على طرف الخطاب الآخر ، الذي يوجه إليه الكلام ، ووضعوا له ضوابط نحوية كالضمائر وغيرها ، كما ورد لفظ الخطاب عند الأصوليين فقد كان محور بحثهم من خلال إيرادهم لاسم الفاعل (مخاطب) واسم المفعول (مخاطب) بوصفهما طرفي الخطاب. وقد عرف الأمدي (ت631هـ) الخطاب فقال : "هو اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه." ⁽²⁾

أما مفهوم الخطاب عند الغربيين فقد ناله التعدد والتنوع ، وهو يطلق إجمالا على أحد المفهومين : الأول : أنه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير بإفهامه قصدا معينا . الثاني : الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة .

(1) - فخر الدين الرازي . التفسير الكبير ومفاتيح الغيب . ط/1981 . دار الفكر للطباعة والنشر . 13/ 188
(2) - سيف الدين أبو الحسن الأمدي . الإحكام في أصول الأحكام . ط/1981 . دار الفكر . بيروت . 1/ 72 .

أما الخطاب بوصفه ما يتجاوز الجملة، فهو المفهوم الغالب في الدراسات اللغوية الحديثة ، فقد ورد مفهوم الخطاب عند الباحثين بأنه : "الملفوظ منظورا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل ، والمقصود بذلك الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم معين في مقام معين، وهذا الفعل هو عملية التلفظ ، وبمعنى آخر يحدد بنفنست (Benveniste) الخطاب بمعناه الأكثر اتساعا بأنه : كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعا ، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما." (1)

وقد أدت كثرة التعريفات إلى تباين المفهوم والخلط بين مفهومي الخطاب والنص "والحق أن بينهما اختلاف ، فالنص: هو مجمل القوالب الشكلية النحوية والصرفية والصوتية ، بغض النظر عما يكتنفه من ظروف أو يتضمنه من مقاصد ، في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي ، وكذلك في تأويله ، مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه ، كما أن هناك فرقا في العلامات المستعملة فقد ينتج الخطاب بعلامات غير لغوية". (2) يقول عبد الله صولة : "إننا ننطلق من فكرة بديهية جدا ، وهي أن القرآن خطاب وكونه خطابا يقتضي أنه إقناع وتأثير ، ومما يثبت أنه خطاب ، كثرة مخاطباته حتى جعلت معرفة هذه المخاطبات في القرآن علما من علومه ، والمخاطبون فيه نوعان على الأقل :

-نوع يذكر داخل النص القرآني كخطاب الرسول (ص) ، وخطاب بني إسرائيل (أو أهل الكتاب) ، وخطاب الذين آمنوا ، فهؤلاء هم المتلقون الأولون ويسمون (الجمهور الخاص) .
-ونوع آخر من مخاطبين واقع خارج النص القرآني غير مذكور ، ولكنه مع ذلك معني بخطاب القرآن ، وهو جمهور السامعين والمتلقين على اختلاف عصورهم وأمكناتهم ، ويسمون : (الجمهور الكوني)". (3) وقد ذكر الإمام الزركشي بعض وظائف الخطاب القرآني يقول : "فهو خطاب تهيج ، وإغصاب ، وتشجيع وتحريض ، وتنفير ، وتحبيب ، وتعزيز ، وتحسير ، وتكذيب ، وتشريف وغير ذلك". (4)

والقرآن فضلا عن كونه خطابا موجهاً إلى متلق فعلي أو محتمل ، فهو مسرح عليه تتحاور الذوات ، وتتجادل ، ويحاج بعضها بعضا . أما أنواع المتلقين -على الحقيقة - كثيرة ، والحدود بين بعضها

(1) - سعيد يقطين . تحليل الخطاب الروائي . الزمن ، السرد ، التبدير . المركز الثقافي العربي . 1989م . ص 19 .

(2) - عبد الهادي ابن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . مقاربة لغوية تداولية . ط1/2004 . دار الكتاب الجديد بيروت . ص 39 .

(3) - عبد الله صولة . الحجاج في القرآن . ط2/2007 ، دار الفارابي ، بيروت . ص 41 .

(4) - الزركشي . البرهان في علوم القرآن . 247/251 . تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت .

متداخلة فهناك (المتلقي المطلق) بوصفه مفهوما مجردا عن المكان والزمان ، و(المتلقي الفعلي) وهو الذي يتلقى النص فعلا في زمان بعينه ومكان بعينه ، وهناك (المتلقي الضمني) وقد يكون هو المتلقي (المحتمل)، والمتلقي (المثالي) الذي يجد النص فيه من يفهمه على الوجه الأمثل.⁽¹⁾ وهو المتلقي الذي يريده الخطاب القرآني . ويمكن القول أنه مهما تعددت الخطابات وتتنوع أصنافها ، فإنها لا بد أن ترجع إلى القسمة الثنائية المعروفة التي تجعل الكلام ينقسم إلى حقيقة ومجاز. فإن جاء الخطاب على الحقيقة فإنه لا تقوم الحاجة معه إلى تأويل ، لما فيه من وضوح الدلالة على المقصود منه ، وإن كان الخطاب من المجاز فإنه يلزم إخضاعه للتأويل ، حتى تتلاءم دلالاته مع ما يطلب في التواصل .

دور الخصائص الأسلوبية في تحديد الأفعال الكلامية :

قد تدل نغمة الصوت على فعل كلامي معين بفضل الاختلافات النغمية ، فالنغمة الصاعدة والنغمة الهابطة تحدد مثلا الأسلوب الكلامي ، فالخبر يستعمل المتكلم معه نغمة هابطة ، ويستعمل مع الاستفهام نغمة صاعدة فإذا قلنا : جاء محمد . باستعمال صور نغمية متعددة ، فهي تكون تقريرية حرة ، أو إستفهامية ، أو تهكمية ، أو تأكيدية ، أو تأتي للموافقة ، أو الرفض ، أو الدهشة ، أو الاحتقار ، أو الاشتمزاز بحسب ما يلبي حاجة المتكلم إلى الكلام المنطوق.⁽²⁾ وقد تدل الوحدة المعجمية على وظيفة حجاجية ، أو تساهم في تعديل القوة الإنجازية ، وكذلك الحروف المقطعة ، وهي من المستويات التي تحمل تلك الوظائف ، بل إن البنيات الكبرى كالقصة والسورة القرآنية بأكملها ، وما ينعقد بين أجزائها من مناسبة وتناسق فهذه جميعا مجالات لظهور الوظائف التداولية للفعل اللغوي. وكذلك الصيغ الصرفية والخصائص الأسلوبية في مستوى التركيب . أما على صعيد الصورة ففيه صور فنية تعبر عن الغرض الإنجازي بواسطة التعابير المجازية خاصة على المستوى الضمني، المعبر عن المعاني الثانية ، أما على مستوى الإيقاع ، فإن الإيقاع جزء من معنى الكلام ، يجعل الغرض من الفعل ذا تأثير وإقناع ، كما أن المعنى التداولي قد نعثر عليه في حرف من حروف المعاني داخل السياق ، لأن المستويات المذكورة ليست وحدها المستويات الحاملة للمضامين الإنجازية

(1) - ينظر : عبد الله صولة . مرجع سابق . ص 41 .

(2) - تحسين عبد الرضى الوزان . الصوت والمعنى . ط1/ 2011 ، دار دجلة ، عمان ، الأردن . ص 398 .

الإنجازية ،أو الطاقة الحجاجية⁽¹⁾ وكذلك مختلف الظواهر الأسلوبية والبلاغية فإنها تعبر عن الغرض الإنجازي للفعل الكلامي ،أو تسهم في تدعيم القوة الإنجازية تقوية أو تلطيفا أو إضعافا . وهكذا تسلمنا دراسة الأسلوب تداوليا إلى نظرية تحليل الخطاب ، في شقها المتعلق بتداوليات أفعال الكلام والنظريات المتصلة بها.⁽²⁾

أقسام التداولية في الدراسات الغربية :

اتسعت التداولية في محاولة منها للإجابة عن تساؤلات من قبيل من يتكلم ؟ مع من نتكلم ؟ من أجل ماذا نتكلم ؟ ومن ثم أصبحت التداولية تداوليات لخصها هانسن (Hansson) في برنامجه في 1974. الذي يرمي من خلاله إلى توحيد فروع الدرس التداولي وفق درجات ثلاث :

1-تداولية الدرجة الأولى :

تختص بدراسة الرموز الإشارية التي تشير إلى عنصر الذاتية في الخطاب ، وتدرس الأقوال والصيغ التي تتجلى مرجعيتها ودلالاتها في سياق الحديث ، وهي العبارات الغامضة نسقيا ، إذ تعد هذه الأقوال مبهمة إذا درسناها خارج السياق ، وتعتمد هذه التداولية على جملة من المعطيات : كالسياق الوجودي المتمثل في المتخاطبين ،والزمان ،والمكان ، وتمثلها أعمال دارسي الإشارة ، الباحثين في أعمال الإشارات والرموز نحو : بيرس (Peirs) ، و كودمان (Cauldman) وغيرهما.⁽³⁾

2 - تداولية الدرجة الثانية :

وهي تدرس الطريقة التي تتصل فيها القضية المعبر عنها بالجملة المنطوقة ، لتبين كيفية انتقال الدلالة من المستوى الصريح إلى المستوى التلمحي ، وفي الحالات المهمة ينبغي أن تتميز القضية المعبر عنها عن الدلالة الحرفية للجملة ، والسياق هو معناه الموسع عند ستالنيكر (Stalnaker). أي هو موسع حتى يمتد إلى ما يفترضه المتخاطبون ، وهو سياق معلومات و معتقدات مشتركة ،ويندرج ضمن هذه الدرجة التضمن والافتضاء ،والمعنى الحرفي ، والمعنى السياقي ، وقوانين الخطاب وأحكام المحادثة ، وما ينبثق عنها من ظواهر خطابية كالاقتراض المسبق ، والأقوال المضمرة ، والحجاج.⁽⁴⁾

(1) ينظر : أحمد كروم . الاستدلال في معاني الحروف ،دراسة في اللغة والأصول . ط1/2009 . دار الكتب العلمية .بيروت .ص 211 .

(2) - ينظر : عبد الله صولة . مرجع سابق . ص 59 .

(3) - ينظر : صابر الحباشنة . الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزويني . ط1 / 2010 . الدار المتوسطة للنشر . تونس . ص 46 .

(4) - ينظر : نعمان بوقرة . محاضرات في المدارس اللسانية . منشورات جامعة باجي مختار . غنابة 2006 . الجزائر . ص 191 .
وينظر أيضا : صابر الحباشنة . الأسلوبية والتداولية مداخل لتحليل الخطاب . ط1/2011 . عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن . ص 57 .

3- تداولية الدرجة الثالثة :

وهي نظرية أفعال اللغة وتشمل كل الدراسات التي تدخل ضمنها ، بمعرفة ما يتم إنجازه عبر استعمال بعض الملفوظات ، وإن وجود الأعمال اللغوية غير المباشرة يجعل المشكلة أكثر تعقيدا .⁽¹⁾

الأفعال الكلامية :

وهي نظرية ذات خلفية فلسفية ومنطقية ، ظهرت بجهود **فجنشتاين** Wittgenstein (1898-1951) . ثم تبناها **جون أوستين** Austin (1911-1960) . وعمقها **جون سورل** (Searle) وتوصف بأنها أحد أهم محاور الدرس التداولي الحديث ، وهي مجال أساسي "لدراسة مقاصد المتكلم ونواياه ، فالمقصد يحدد هدف المرسل من وراء سلسلة الأفعال اللغوية ، التي يتلفظ بها ، وهذا ما يساعد المتلقي على فهم الخطاب ، ومن ثمة يصبح توفر اللقصد والنية مطلباً أساسياً ، وشرطاً من شروط نجاح الفعل اللغوي ، الذي يجب أن يكون متحققاً ودالاً على معنى".⁽²⁾

ومؤسس هذه النظرية هو **أوستين** أحد أبرز الفلاسفة التحليليين، ومن أهم أعماله في هذا المجال كتابه : **How to do thing with words** وترجم إلى الفرنسية تحت عنوان **Quand dire c'est faire** وترجم إلى العربية : **كيف ننجز الأشياء بالكلمات**. أونظرية أفعال الكلام العامة.

وقد سعى **أوستين** من خلال جهوده في جامعة **أوكسفورد** إلى رسم مسالك جديدة للدراسات التداولية إنطلاقاً من أن "إنشاء جملة لسانية هو في حد ذاته فعل لغوي ينتمي إلى نظرية اللغة ، التي تعد جزءاً لا يتجزأ من نظرية الفعل ، حيث يحقق فعل القول في إطارها أفعالاً اعتقادية من قبيل : التأكيد ، أو الأمر ، أو النهي ، أو الاستفهام ، أو التعجب".⁽³⁾ والهدف من استعمال الفعل اللغوي هو تغيير الواقع ، والتأثير فيه لا مجرد أداة إخبار ووصف . "اللغة ليست مجرد أداة للإخبار والوصف ، بل وسيط لبناء الواقع والتأثير فيه وتحويله ، وعليه فموضوع البحث يركز على ما نفعله بالتعبير التي نتلفظ بها (أفعال الكلام)".⁽⁴⁾

(1) - ينظر : فرانسواز أرمينكو . المقاربة التداولية . ترجمة : سعيد علوش . المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع . ط1/ 1997 . سوريا . ص 38

(2) - نعمان بوقرة . نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية . مجلة اللغة والأدب ، عدد 17/ 2006 . ص 170 .

(3) - عبد السلام عشير . عندما نتواصل بغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج . ص 65 .

(4) - حسان الباهي . الحوار ومنهجية التفكير النقدي . إفريقيا الشرق ، المغرب 2004 . ص 123 .

إن القرآن يقدم نفسه على أنه تغيير لوضع ، وحل لمعضلة ، ونبذ للعنف الذي هو عكس الحجاج ، واستجابة لسؤال أمة.⁽¹⁾ فهو يرمي إلى تغيير وضع ذهني يترتب عليه ضرورة تغيير وضع مادي ، على أن خطة التغيير الوضعي هذه منصوب عليها في عبارات واضحة مثل قوله تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ [إبراهيم 1]. وعلى هذا يكون القرآن كتاب إصلاح بمعنى أنه يرمي إلى تغيير وضع قائم وهذا جزء من وظائف الحجاج ، إذ من تعريفات الحجاج أنه: "عمل غرضه دائما أن يغير وضعاً قائماً"⁽²⁾

التقسيمات العربية للخبر والإنشاء : قسم العرب أفعال الكلام انطلاقاً من :

1- الغرض الذي يرمي المتكلم إلى بلوغه (حمل الشخص على القيام بفعل معين) وهو ما يطابق

مفهوم أوستين وسيرل للغرض الكلامي .

2- مختلف العلاقات التي تربط الواقع بالتمثيلات الذهنية للمتكلم .

3- وضعية المتكلم بالنسبة للمخاطب .

وقدم عدد من العلماء والبلاغيين العرب تقسيمات نذكر منهم : البيضاوي ، الاستربادي ، التفتازاني السبكي وابن الكيسان الذي صنف الكلام إلى أربعة أصناف هي : الإثبات (الخبر) والاستخبار (الاستفهام) ، والنداء (الدعاء) ، والطلب (الأمر والنهي) . أما ابن قتيبة فقد أسند أنماط التعبير إلى الفلاسفة وصنفها إلى أربعة : الأمر ، الاستفهام ، الإثبات ، والرغبة.⁽³⁾ ويقسم السكاكي الأسلوب إلى قسمين : طلب وغير طلب . والطلب يشمل : الاستفهام ، الأمر ، النداء ، النهي ، التمني.⁽⁴⁾ " وما سوى ذلك نتائج امتناع إجراء الكلام على الأصل."⁽⁵⁾

وأما الخطيب القزويني (ت730هـ) فهو يقسم الكلام إلى خبر وإنشاء ، ويقسم الإنشاء إلى ضربين : طلب ، وغير طلب . "والطلب يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب ، لامتناع تحصيل الحاصل ، وهو المقصود بالنظر."⁽⁶⁾

ويشمل الإنشاء الطلبي : الأمر ، النهي ، الاستفهام ، النداء ، والتمني .

(1) – ينظر : عبد الله صولة . الحجاج في القرآن . ص 43 .

(2) – Ch. Perlman and L. Olbrechts tytéca : The new rhetoric , a tretise on argumentation ,translated by john Wilkinson and Purcell weaver , University of notre dame Press 1971 . p 73 .

(3) – ينظر : عمر بلخير . مقالات في التداولية والخطاب . ط1/ 2013 . دار الأمل للطباعة والنشر . الجزائر . ص 182

(4) – ينظر : السكاكي . مفتاح العلوم . ضبط وتعليق : نعيم زرزور . ط2/ 1987 . دار الكتب العلمية . بيروت . ص 131 .

(5) – نفسه . ص 164 .

(6) – الخطيب القزويني . الإيضاح في علوم البلاغة . اعتنى به وراجعته : عماد بسيوني زغلول،مؤسسة الكتب الثقافية، ط3. ص 95 .

ويشمل الإنشاء غير الطلبي : الترجي ، القسم ، المدح ، الذم ، التعجب ، وصيغ العقود .
وهذه الأساليب هي أفعال كلامية بتعبير التداوليين .

لقد ميز العرب بين الأفعال الكلامية المباشرة ، وغير المباشرة ، وإن لم يعرفوا هذه المصطلحات ، ولم يستعملوها ، فإنهم عرفوا ما يدخل فيها وما يندرج تحتها ، وأطلق عليها مصطلحات أخرى .

أما أحمد المتوكل فقد وضع تقسيما يتلخص في أن الكلام يمكن أن يختصر في أسلوب الطلب وغير الطلب ويشمل الطلب : الاستفهام ، والتمني ، والنداء ، والطلب بنوعيه : الإيجابي والسلبي.⁽¹⁾

وحول هذا التقسيم يبدي د/ محمود نحلة رأيه بقوله : "من هنا أرى أننا إذا عدلنا عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء ، وقسمناه تقسيما أوليا إلى أفعال يكون اللفظ بها إيقاعا لفعل ، وأفعال تصف وقائع العالم الخارجي ، أو تخبر بها (إيقاعية - وإخبارية) فسوف نضع اللبنة الأولى في بناء نظرية عربية للأفعال الكلامية ، ونتخلص في الوقت نفسه من تقسيم مضطرب وملتبس."⁽²⁾ ويميل الباحث محمود نحلة إلى تصنيف فلاسفة اللغة المعاصرين وتقسيماتهم ، ومن ثم فهو يدعو إلى تقسيم الأفعال الكلامية في اللغة العربية بالاستفادة من تقسيم أوستين وسيرل ، وما وضعوه من ضوابط التقسيم بقوله : "وهكذا نرى أن من الممكن تقسيم الأفعال الكلامية العربية تقسيما خماسيا يطابق ما قدمه سيرل ويفيد من بعض ضوابطه ، فيما عدا ما أطلق عليه سيرل "الإعلانيات" وأطلقنا عليه "الإيقاعيات" ، لإنسجامه مع طبيعة الاستعمال في اللغة العربية ، فضلا عن أننا اخترنا أن نطلق على قسم منها "الطلبية" ، واختار أن يطلق عليه "التوجيهيات" . ولسنا نزع أن ما قدمناه من تقسيم للأفعال استوفى كل الأغراض التي يريد المتكلم أن يحققها بكلامه ، ولكنها محاولة للتقسيم أقرب إلى واقع الاستعمال ، منها إلى نوازع الاستدلال ، وظواهر الأشكال."⁽³⁾ ومن جهة أخرى فهو يرى أن منطلق التفكير في هذه النظرية واحد .

وأما منطلق أوستين لوضع نظرية الأفعال هي : أن من الكلام ما يكون فعلا ، أو إيقاع لفعل بلفظ يقارنه في الوجود.⁽⁴⁾

(1) ينظر : عمر بلخير . مرجع سابق . ص 182 .

(2) - محمود نحلة . آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر . ط 2006/1 دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية . ص 97 .

(3) - المرجع نفسه . ص 105 .

(4) - ينظر : المرجع نفسه . ص 97 .

تقسيم أوستين للأفعال الكلامية :

لقد شكلت أبحاث أوستين Austin منطلقا جديدا للكثير من اللسانيين الذين جاؤوا بعده :سيرل Searle، وديكرو Ducrot، وبيرندونر Berrendonner ، وغرايس Grice. ولقد إرتأى أوستين أن يصنف الأعمال التي ينجزها إلى خمسة أقسام إستنادا إلى قوتها الإنجازية وهي الحكميات (Verdictives) نحو: الإدانة أو الفهم أو الوصف أو إصدار أمر أو التحليل. التنفيذيات (Exercitives) وتعني متابعة الأعمال نحو :الاستعالة ،الاستقالة ،طرد ،تحويل ونقل. وهي أعمال تنفيذ. الوعديات (Commissives) مثل : الوعد ،الموافقة ،التعاقد ،العزم والقسم . السلوكيات (Behabitives) نحو :الاعتذار ،الشكر ،التهنئة ،الترحيب ،الكره والتحريض . العرضيات (Expositives) وهي تتضمن أفعالا لتقديم وجهات النظر، وإثبات الحجة نحو : أوكد ، أعترض ، أنكر.⁽¹⁾

ويعترف أوستين بصعوبة التصنيف بسبب تعدد الأفعال وتداخلها مع بعضها البعض ، ويقر بأن تصنيفه غير نهائي . العلم أن الأفعال الكلامية لا يحصى عددها مع تداخلها الشديد ، ومن ثم جاءت صعوبة التصنيف .

لقد صنف أوستين المنطوقات الإنجازية في مجموعات تشترك في سمات وظيفية محددة (الاستفهام والأمر النصيح ،النهي ، التحذير ، والوعد) بينها سمات مشتركة هي دفع السامع إلى أن يفعل شيئا أو يكف عنه. "قالنقسم قائم على أساس الوظيفة التي يؤديها المنطوق لا على أساس النواحي الشكلية ، والتي تبين أنها غير كافية في تحديد هذه المنطوقات ".⁽²⁾ وقد اعترض كثير من الباحثين على هذا التقسيم ، وعلى ما بين الأقسام من تداخل ، وقد اعترف أوستين نفسه بهذا ومن ثم يبدي محمد حسن عبد العزيز رأيه بقوله : "ومع ذلك فنحن نرى أن نظريته قوية ، وما تزال تثير الجدل بين اللغويين والفلاسفة ، بل ونقول مطمئنين : إنها جزء هام من التراث الفلسفي واللغوي المعاصر ، ولا يمكن لباحث في وظيفة اللغة ومناهج التحليل اللغوي أن يتجنبها ، أو ألا يستفيد منها "⁽³⁾

(1) – Voir : Austin , How to do things with words ,2nd ,Oxford University press 1975 . p 152

(2) محمد حسن عبد العزيز . علم اللغة الاجتماعي . ط1/ 2009 . مكتبة الآداب القاهرة . ص 325 .

(3) المرجع نفسه . ص 325 .

ومن سمات الإضطراب في تقسيم أوستين أنه لم يصنف الأفعال اللغوية حسب أسس منهجية عدا الأفعال المنهجية "الوعديات" التي صنفها باعتبار الغرض الإنجازي ، ومن سمات الإضطراب كذلك أنه يمكن للمتكلم أن ينجز القوة الغرضية بأكثر من فعل لغوي .⁽¹⁾

إعادة سيرل النظر في تصنيف أوستين للأفعال

أعاد سيرل (Searle) النظر في تصنيف أوستين للأفعال الإنجازية فبين ما فيه من ضعف ولم يسلم منها إلا صنف واحد هو التعهديات . فقد صنفه على منهج واضح هو الغرض الإنجازي ، فقدم سيرل تصنيفا بديلا وأقام تقسيمه على الأبعاد الثلاثة التي يختلف بها كل فعل إنجازي عن الآخر وهي : الغرض الإنجازي ، اتجاه المطابقة ، وشرط الإخلاص . وقد جعلها خمسة أصناف .

1- الإخباريات : (التقريريات) Assertives

وغرضها الإنجازي هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية يعبر بها عن هذه الواقعة ، وأفعال هذا الصنف كلها تحتل الصدق والكذب ، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم ، ويتضمن هذا الصنف معظم أفعال الإيضاح عند أوستين . والحالة النفسية التي تعبر عنها هي الاعتقاد.⁽²⁾

2- الوعديات (الالتزاميات) Comissives :

وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل (غرض وعدي) واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات وشرط الإخلاص هو القصد . والمحتوى القضوي فيها دائما فعل المتكلم شيئا في المستقبل . والمسؤول عن إحداث المطابقة هو المتكلم ، والشرط المعد هو قدرة المتكلم على أداء ما يلزم نفسه به .⁽³⁾

3- التوجيهيات (الأمريات /الطلبات) Directives :

وغرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما (الغرض الأمري الطلب) واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الإرادة والرغبة الصادقة ، والشرط العام للمحتوى القضوي هو دائما فعل السامع شيئا في المستقبل . أما الشرط المعد لها فهو قدرة المخاطب على أداء المطلوب منه ، ويدخل في هذا الصنف الاستفهام ، والأمر ، والرجاء ، والاستعطاف ، والتشجيع ، والدعوة ، والإذن ، والنصح .

(1) ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 157 .

(2) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 78 ،

(3) - ينظر : طالب سيد هاشم الطبطبائي . نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب . مطبوعات جامعة الكويت . ص 30 .

إن المرجع في الالتزامات هو المتكلم ، أما في التوجيهيات فهو المخاطب. ولذلك لا يمكن ضم الالتزامات و التوجيهيات في قسم واحد ، كما أن المتكلم في الإلتزاميات لا يحاول التأثير في السامع وفي التوجيهيات يحاول التأثير فيه .⁽¹⁾

4- التعبيرات (البوحيات) : Expressives

و غرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي ، حيال الواقعة التي تعبر عنها القضية ، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة ، فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات وهذا ما يسميه سيرل : **الاتجاه الفارغ** ، وكل ما هو مطلوب الإخلاص في التعبير عن القضية . وتحقق المحتوى القضوي سلفا ويدخل في هذا الصنف أفعال : الشكر، التهنة ، الاعتذار ، التعزية ، والترحيب.⁽²⁾

5- الإعلانيات (الإيقاعات) : Declaratives

والغرض منها إحداث تغيير في العالم بحيث يطابق العالم المحتوى القضوي بمجرد الإنشاء الناجح للفعل الكلامي ، فإذا أديت فعل إعلان الحرب أداء ناجحاً فالحرب معلنة ، وأهم ما يميز هذا الصنف أنها تحدث تغييراً في الوضع القائم فضلاً عن أنها تقتضي عرفاً غير لغوي . واتجاه المطابقة قد يكون من الكلمات إلى العالم ، ومن العالم إلى الكلمات وهذا ما يسميه سيرل **الاتجاه المزدوج** .⁽³⁾

" ويكون إيقاع الفعل فيها مقارناً للفظه في الوجود فأنت توقع بالقول فعلاً ."⁽⁴⁾

وهي تتسع لتشمل أفعال : البيع ، الشراء ، الهبة ، الوصية ، الوقف ، الإجارة ، الإبراء من الدين ، التنازل عن الحق ، الزواج ، الطلاق ، الإقرار ، الدعوى ، الإنكار ، القذف ، الوكالة ... الخ وهذه كلها يقع الفعل بمجرد النطق بلفظها كما نص على ذلك الفقهاء .⁽⁵⁾

ملاحظات حول تقسيم سيرل :

كان سيرل قد عبر عنه بأنه تقسيم للأفعال لا القوى المتضمنة في القول ، ويمكن ملاحظة ما يلي :

ارتكزت إعادة التصنيف عند سيرل على عدد من المعايير بلغت اثني عشرة معياراً - و سيأتي ذكرها -

(1) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 31 .

(2) - ينظر : المرجع نفسه . ص 80 .

(3) - ينظر طالب هاشم طبطبائي . نفسه . ص 31 .

(4) - محمود نحلة . مرجع سابق . ص 98 .

(5) - ينظر : محمد مصطفى شلبي . المدخل في الفقه الإسلامي . ط 1985/10 . الدار الجامعية . بيروت . ص 434 .

كان أولها معيار الاختلاف في الهدف من الفعل اللغوي ، فيمكن أن يحدد الهدف من الأمر على أنه محاولة جعل المرسل إليه يفعل شيئاً ، والهدف من الوصف هو تمثيل الشيء ، والهدف من الوعد هو تعهد المرسل بإلزام نفسه أن يفعل شيئاً ، وإن الهدف الإنجازي للطلب

هو ذاته الهدف الإنجازي للأمر ، كلاهما يحاول أن يجعل المتلقي يقوم بفعل شيء ما.⁽¹⁾

منشأ المشكلة بين الوعديات ، والأمريات اشتراكهما في اتجاه المطابقة .

هناك فرق في تقديمه للغرض بين كتابه الأول (Expression and meaning) و كتابه المشترك مع فندركن ، ففي هذا الأخير نجد أن الغرض من التقريريات هو الغرض التقريري ، بينما كان الغرض منها في كتابه الأول هو: تحمل المتكلم صدق القضية .

ففي كتابه الأول يشير سيرل إلى صنف من الإيقاعات، تمثل منطقة تداخل مع التقريريات، ومن أمثلتها : قرارات القضاة مثل : المتهم مذنّب ، وقرارات الحكام : هذه إصابة . لأن بعض المؤسسات تتطلب إصدار إدعاءات تقريرية تحمل قوة الإيقاع من أجل حسم الخلاف ، وهذه المجموعة تسمى : **الإيقاعات التقريرية** وهي تختلف عن باقي الإيقاعات في أنه من الممكن لقرار القاضي ، وقرار الحكم أن يكونا كاذبين ، وهي تختلف عن التقريريات في أنه فيما يتعلق بالأغراض القانونية :إذا اعتبرك القاضي مذنباً فأنت مذنب حتى لو كنت غير مذنب في الواقع⁽²⁾

الاختلاف في اتجاه المطابقة :

" فاتجاه المطابقة في بعض الأفعال الإنجازية من الكلمات إلى العالم كالأخباريات ، وهو في بعضها من العالم إلى الكلمات كالوعد ، والرجاء ."⁽³⁾

وكان سيرل يشير إلى اتجاه المطابقة بصفته أمراً آخر يمكن الاستناد إليه في التمييز بين أقسام الأفعال المتضمنة في القول وهو في كتابه الأخير مع **فندركن** يستفيد من فكرة اتجاه المطابقة في تبرير دعوى محدودية أنواع الأغراض ، ولابد من الإشارة إلى أن وجود عدد من الأغراض زائد عن عدد اتجاهات المطابقة له ما يبرره ، فإن كلا من الوعديات والأمريات لهما اتجاه مطابقة واحد هو الاتجاه من العالم إلى القول ، ولما كان المسؤول عن تحقيق المطابقة في الوعديات هو المتكلم ، والمسؤول عن تحقيقها في الأمريات هو المخاطب صار هناك غرضان متضمنان في القول متميزان أخذ كل منهما مجموعته

(1) - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . مرجع سابق . ص 158 .

(2) - ينظر : هاشم طبطباني . مرجع سابق . ص 24 .

(3) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 78 .

من الأفعال .يتردد سيرل في تحديد فكرة موقع المطابقة من النظرية عموما وفي بيان علاقتها بالغرض المتضمن في القول خصوصا ، فهل هي جزء منه أم هي مستقلة عنه ؟ وقد يحدّث القارئ بأي آراء سيرل الثلاثة يأخذ؟⁽¹⁾ إن سيرل يبني عدد التقسيمات على مبدأ اتجاه المطابقة ، مؤكداً أن الغرض المتضمن في القول لأية قوة يقوم دائماً بربط المحتوى القضوي بالعالم ، نسمي كلا منها اتجاه المطابقة ومن ثم يكون تأكيد سيرل على محدودية العدد خمسة أفعال غير مؤسس ، ومما سبق من النقد الموجه لمفهوم اتجاهات المطابقة تبين لنا أوجه النقص في هذا المفهوم والتي نوجزها فيما يلي :

- غموض مبدأ اتجاهات المطابقة لا سيما في الإيقاعيات ، و البوحيات .

- التشكيك بالقول في انحصار الأفعال في عدد معين .⁽²⁾

لقد أعاد سيرل النظر في تحديد معاني كل من "البوحيات" و "الإيقاعيات" وغيرها من أصناف الأفعال ، ويرى الدكتور مسعود صحراوي أن ذلك التعديل يحتاج إلى مراجعة وبخاصة المبالغة في الاعتداد بفكرة اتجاه المطابقة ، التي هي فكرة بسيطة لكن سيرل لا يقدم فكرة المطابقة بهذا المفهوم الواضح ، وهي في عرضه غامضة ، ومضطربة من جوانب متعددة : فهي لا تتصف "بالتناظرية" كما في المطابقة المعهودة (ا تطابق ب) يعني أن

(ب تطابق ا) ، كما أنه لا يحدد موقعا ثابتا للمطابقة من نظريته وما علاقتها بالغرض المتضمن في القول . هل هي جزء منه ؟ ، أم هي مستقلة عنه ؟ ، كما أن سيرل قسم المطابقة إلى عدة اتجاهات ، فمن الطبيعي أن العقل الإنساني يتصور بداهة قسمين مباشرين هما : اتجاه المطابقة من القول إلى العالم ، وهو ما يلائم الإيقاعيات والتقريريات ، واتجاه المطابقة من العالم إلى القول ، وهو ما يلائم الأمريات والوعديات ، لكن سيرل أضاف إتجاهين آخرين هما : اتجاه المطابقة المزدوج وجعله خاصا بالإيقاعيات ، واتجاه المطابقة الفارغ وجعله خاصا بالبوحيات.⁽³⁾

(1) - ينظر : هاشم طبطباني . مرجع سابق . ص . 28 .

(2) - ينظر : مسعود صحراوي . التداولية عند العلماء العرب ط. 2008/1 . دار التنوير للنشر والتوزيع . الجزائر . ص 63 .

(3) - ينظر : هاشم طبطباني . المرجع نفسه . ص 120 .

ومما يترتب على ذلك فإن الأمر يستوجب إعادة النظر في تصنيف الأفعال الكلامية وعدم حصرها في خمسة ، ولو لم يبين سيرل مفهوم الغرض المتضمن في القول على أساس مبدأ إتجاهات المطابقة، لبقى تصور الفيلسوف "فتجنشتاين" بعدم محدودية الأفعال الكلامية تصورا وجيها ، ومن ثم يكون تأكيد سيرل على محدودية العدد ، وانحصاره في خمسة أفعال غير مؤسس على مبادئ موثوقة ومسلم بها . ولذلك اقترح الدكتور صحراوي أن يضاف صنف جديد هو (الاستفهاميات)⁽¹⁾

تصنيف إستعمالات اللغة عند سيرل :

يؤكد سيرل أنه يتبنى هدف الخطاب معيارا محوريا لتصنيف استعمالات اللغة فإنه سيوجد لدينا عدد محدد من الأشياء الأساسية التي نفعها باللغة وهي كما يلي :

- نخبر الناس عن كيفية الأشياء : إخباريات .
- التأثير عليهم لفعل أشياء : التوجيهيات .
- نلزم أنفسنا بفعل أشياء : التزاميات .
- نعبر عن مشاعرنا ومواقفنا : تعبيريات .
- نحدث تغييرات معينة بملفوظاتنا : إيقاعيات . وغالبا ما نفع أكثر من واحد من هذه الأشياء بتلفظ واحد.⁽²⁾

ثم أعاد ليتش تصنيفها على أساس علاقتها بالهدف الاجتماعي . بتفعيل مبدأ التأدب فجعلها أربع درجات

- 1- أفعال التنافس : Compétitive : هي التي يغلب فيها الهدف الإنجازي الهدف الاجتماعي مثل : الأمر ، والسؤال .
- 2- أفعال المناسبات : Convivial : وهي التي يتطابق فيها الهدفان ، الإنجازي والاجتماعي مثل : التهنية ، والدعوة ، والشكر ، والتحية .
- 3- أفعال التعاون : Collaborative : وهي التي لا تتأثر أهدافها الخطابية بأهدافها الاجتماعية مثل التبليغ ، والتعليمات ، والتصريحات .
- 4- أفعال التعارض : Conflictive : وهي التي تتعارض أهدافها مع الأهداف الاجتماعية ، مثل : التهديد ، والالتهام .⁽³⁾

(1) ينظر : هاشم طبطباني . مرجع سابق . ص 274 .

(2) ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 158 .

(3) - Voir : Leech , Geoffrey . Principles of pragmatics , longman , New York 1983 , p 104

تصنيف ريكاناتي وفندرليش :

إن تصنيف سيرل لم ينجح من الانتقادات ، أهمها تلك التي وجهها فاندريش و ريكانتي Vanderlich & Recanati ، يرى هذان العالمان أن التقسيمين غير مقنعين ؛ أي تقسيم أوستين وسيرل ، وأن أفعال الوعد مثلا لا تشكل نمطا كليا لأفعال الكلام ، إنما يتعين اعتبارها مجرد استجابات لأفعال التوجيه . فسيرل يعتبر أن الاستفهام مثلا هو جزء من أفعال التوجيه ، "في حين أن الاستفهام من الناحية النحوية نجده معلما أو موسوما فإنه لابد أن يشكل بذاته فعلا كلاميا مستقلا".⁽¹⁾

أضف إلى ذلك أنه لا مكان في تقسيم سيرل للتحذيرات والاقتراحات ولا حتى للنداء والتضرع والدعاء . لذلك ولتقديم بديل لهذا التصنيف اقترح فاندريش شروطا أخرى تؤسس تصنيفا جديدا وهي أربعة :

1- اعتماد العلامات اللغوية لأفعال الكلام مثل : أدوات الاستفهام ، وصيغ الأمر .

2- اعتماد المحتوى والغاية الكلامية .

3- اعتماد وظائف الأفعال في الكلام .

4- اعتماد مصدر الأفعال كأن تكون الأفعال أفعالا كلامية وطبيعية واجتماعية .

أما التصنيف الذي اقترحه ريكانتي فيتلخص في الآتي :

هناك أفعال كلامية ممثلة أساسا ، وأخرى غير ممثلة ، الأولى تتمثل في التعبير عن سلوك اجتماعي تجاه المستمع ، فتتقسم إلى أفعال متحققة (إنشائية) ، وأخرى تقريرية . والفعل الإنشائي ينقسم بدوره إلى فعل الوعد ، وفعل الإعلان ، وفعل الأمر.⁽²⁾

"بحيث تسوغ هذه المؤسسة للفعل الإنجازي عند أدائه بصورة ناجحة إحداثا للتغيير المطلوب ... ولا تحتاج الأفعال هنا من شرط الإخلاص سوى الاعتقاد بأن الفعل الذي وقع ناجحا . فإذا أديت فعل إعلان الحرب أداء ناجحا فالجواب معلنه".⁽³⁾

وأفعال هذا المجال عند أوستين كانت مبعثرة بين مجال الأحكام ومجال القرارات . وكان لسيرل الفضل في تجميعها في مجال واحد.⁽⁴⁾

وذهب الدكتور نعمان بوقرة إلى القول بتجاوز التعقيدات المنطقية والوضعية في أقسام الخبر والإنشاء وصفة الصدق والكذب "بإمكان الانطلاق من تقسيم الكلام إلى أفعال يكون اللفظ بها إيقاعا لفعل ، وأفعال أخرى تصف العالم وتخبر عنه".⁽⁵⁾ وهو الرأي الذي دعا إليه أوستين في المرحلة الأولى .

(1) - عمر بلخير . مقالات في التداولية والخطاب . دار الأمل للطباعة والنشر ، 2013 . الجزائر . ص 173

(2) - Voir : F . Recanati , le potentiel illocutoire des phrases declaratives (un cahier de linguistique française 2, 1^{er} partie , Genève 1981 . p

(3) - محمود الصراف . في البراجماتية . الأفعال الإنجازية . في العربية المعاصرة ط2009/1 . مكتبة الآداب . القاهرة . ص 63 .

(4) - ينظر : محمد مصطفى شلبي . المدخل في الفقه الإسلامي . ص 434 .

(5) - نعمان بوقرة . نحو نظرية لسانية عربية الأفعال الكلامية . اللغة والأدب . العدد 17 . 2006 .

لقد عايننا من خلال هذا العرض لوجهات النظر في تقسيم الأفعال الكلامية ، وحصرها في عدد محدود، ووجدنا الدارسين منقسمين إلى صنفين : - صنف يرى أن أفعال الكلام كثيرة غير محدودة ولا يمكن حصرها ، وتزعم هذا القول الفيلسوف فتجنشتاين . - وصنف يرى أن الأفعال كلها تنحصر في خمسة أقسام ، ويمثلها تقسيم أوستين ، ثم تقسيم سيرل المعدل، وهناك من صنفها في أقل من ذلك مثل تقسيم فند رليش وريكانتي ، مع إضافتهما لقسم الاستفهام .وتقسيم ليتش الرباعي المبني على الهدف الاجتماعي .

أما الدارسون العرب فمنهم من اكتفى بتقسيم أوستين في المرحلة الأولى تقسيما ثنائيا : (إقاعيات – وتقريرات) ، كما دعا إلى ذلك نعمان بوقرة ، و محمود نحلة ، ومحمد حسن عبد العزيز. مع دعوتهم إلى الاستفادة من تقسيم أوستين وسيرل في تصنيف الأفعال الكلامية في اللغة العربية ، مما يسمح بتشكيل نظرية عربية موازية للأفعال الكلامية .

أما هاشم الطبطبائي فقد وافق على تقسيم سيرل الخماسي ، مع عدم إدراج التعبيرات النفسية ، والاكتفاء فقط بالتعبيرات الاجتماعية ، كما يوافق على إضافة قسم جديد هو : الاستفهام . لأن الاستفهام يراد منه أن يبلغ المتكلم ذهن المخاطب قولا مطابقا للعالم ، وعلى هذا الأساس تكون المطابقة من القول إلى العالم ممثلة في الاستفهام ، ومن ثم يمكن اعتباره صنفا مستقلا مقابلا للوعديات و الأمريات.⁽¹⁾ واقترح مسعود صحراوي أن يضاف صنف جديد هو الاستفهامات أيضا ، وإعادة النظر في تقسيم سيرل وكذلك إعادة النظر في اتجاهات المطابقة .

كما سعى كثير من الدارسين العرب المعاصرين إلى محاولة تأصيل نظرية الأفعال الكلامية ، والبحث عن جذورها في التراث اللساني العربي ، كما فعل محمد حسين عبد العزيز ، ونعمان بوقرة ، ومسعود صحراوي ، ومحمود نحلة ، وكان بحثهم في هذا الحقل يهدف إلى التوجه نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية .

وبعد هذه المحاولات لا يزال الباحثون إلى حد الآن يستكشفون تطوير هذه التقسيمات ، والتي ظهرت عاجزة على الاتفاق على تقسيم موحد ينبني على معايير مشتركة . كما نلاحظ أن كل الجهود المبذولة في هذا المجال لم تتجاوز محاولات أوستين وسيرل في تصنيف الأفعال الكلامية ، باستثناء بعض الملاحظات والاقتراحات ، ومن ثم فإننا في هذا العمل نستقر على التقسيم الخماسي لسيرل ، باعتباره أقرب النماذج المعاصرة رغم ما قيل فيه من أقوال واعتراضات. مع الموافقة على فكرة استقلالية الاستفهام كقسم جديد .

(1) - ينظر : سيد هاشم طبطبائي . مرجع سابق . ص 165 .

الفصل الأول

اللسانيات التداولية

المبحث الأول : مفهوم التداولية وأقسامها.

المبحث الثاني : الأصول الفلسفية للفكر التداولي .

المبحث الثالث : أسس التداولية .

المبحث الرابع : علاقة التداولية بالعلوم الأخرى .

المبحث الخامس : التداولية في الدراسات العربية القديمة والحديثة.

التداولية مفهوم متعدد الأطراف ، متشعب الاتجاهات ، يتجاوز دراسة المستوى الدلالي ، ويبحث في علاقة العلامات اللغوية بمؤوليها ، كما قال شارل موريس Charle Moris مما يبرز أهمية دراسة اللغة عند استعمالها ، وبالتالي فإنه يعنى بدراسة مقاصد المتكلم ، وكيف يستطيع أن يبلغها في مستوى يتجاوز مستوى دلالة المقولة الحرفية ، كما تعنى التداولية بكيفية توظيف المتكلم للمستويات اللغوية المختلفة في سياق معين ، حتى يجعل إنجازَه ملائماً لذلك السياق ، وذلك بربط إنجازَه اللغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه . وتسهم تلك العناصر في تحديد الدلالة إذ يعتمد عليها المتلقي في تأويل الخطاب وفهم مقاصده ، ومن ثم نلاحظ أن العمل الذي أنجزه الفيلسوف أوستين Austin يعد ذا فائدة لسانية هامة لأنه لفت الأنظار إلى أن وظيفة اللغة هي التأثير في العالم وصناعته وتغييره ، وليست مجرد أداة للتفكير أو نقل الأخبار .

ونتناول في هذا الفصل مفاهيم التداولية وأهميتها ومميزاتها ، والخلفية الفلسفية لنشأتها في ظل جهود العلماء والفلاسفة بدءاً من دي سوسير ، وبيرس ، وموريس ، وفتجنشتاين ، وكارناب ، وفريجة ، وديكرو ، وبيرلمان وغيرهم . ونقوم بشرح الأسس التي تقوم عليها وهي :

- الافتراض المسبق الذي وضعه الفيلسوف غوتلوب فريجة .
- الأقوال المضمرة ودور السياق في تفسيرها .
- الاستلزام الحوارى وقواعد التخاطب التي وضعها غرايس .
- الإشارات : الشخصية - الزمانية - المكانية - الخطابية - والاجتماعية .
- الأفعال الكلامية ، والقوى الإنجازية .
- أصول الحوار وشروط الاستعمال .
- التداولية وعلاقتها بالعلوم الأخرى اللسانية (النفسية - الاجتماعية - التعليمية) - النحو الوظيفي - الأدب - الأسلوبية - علم الدلالة - الحجاج - وتحليل الخطاب .
- القضايا التداولية في التراث العربى : الاستلزام الحوارى - معاني الأساليب والأغراض البلاغية - مراعاة حال المخاطبين - المعرفة الخطابية واستعمال اللغة - الدلالة عند الأصوليين - مفاهيم تداولية لدى البلاغيين .

المبحث الأول : مفهوم التداولية وأقسامها ومحاورها

1 - المفهوم المعجمي للتداولية :

أصل المصطلح من مادة (دَوَّلَ) و جاء في أساس البلاغة : " دالت له الدولة ، ودالت الأيام بكذا ، وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكثرة لهم عليهم، والدهر دول...وتداولوا الشيء بينهم "(1) وفي معاجم أخرى منها القاموس المحيط : "الدولة انقلاب الزمان من حال إلى حال ، الدولة :العقبة (النوبة) في المال ، وتداولوه : أخذوا بالدول"(2).
أما في لسان العرب : " تداولنا الأمر أي أخذناه بالدول"(3).

ومن الشواهد القرآنية قوله تعالى : ﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ [الحشر 7] ،
وقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران 140].

المفهوم الاصطلاحي للتداولية :

هي فرع من فروع علم اللغة ، يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم ودراسة معناه، لأن المتكلم كثيرا ما يعني أكثر مما تقوله كلماته ، فالتداولية هي دراسة اللغة في الاستعمال ، أو في التواصل لأن المعنى ليس متأصلا في الكلمات وحدها ، ولا يرتبط بالمتكلم و السامع وحدهما ، وإنما في تداول اللغة بين هذه الأطراف .(4)

ويعود مصطلح Pragmatique في أصل وضعه إلى الكلمة اليونانية Pragma التي تعني (الفعل) ومن هذه الكلمة تم اشتقاق الصفة Pragmatikos التي تعني كل ما هو متعلق بالفعل (Action). ثم تطورت دلالة هذا المصطلح في العصور الوسطى فأصبح يوظف في اللغة الفرنسية في المجال القضائي وتحديدًا عبارة Pragmatique sanction التي تعني المرسوم أو المنشور.(5) ثم صارت تطلق على كل ما له قيمة عملية ، أو نظرية عملية théorie Pragmatique(6). ثم دخلت إلى مجالات

(1) - الزمخشري . أساس البلاغة . تحقيق : عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة . ص 139.

(2) - مجد الدين الفيروز أبادي . القاموس المحيط . دار الجبل ، بيروت . 4 / 42 .

(3) - ابن منظور . لسان العرب . ط3 / 2004 . دار صادر ، بيروت . 5 / 252 .

(4) - ينظر : محمود نحلة . آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر . ص 6 . دار المعارف الجامعية الإسكندرية ، ط1/ 2006 .

(5) - Grand Larousse Universel , Paris Cedex , Tome 12 , p 8412 .

(6) - Petit Larousse en couleur , Librairie Larousse , Paris , 1980. 1496.

أخرى : كالدراستات الفلسفية والأدبية . وقد ترجم هذا المصطلح إلى (التداولية) لأنه يعبر عن تداول الخطاب بين المتكلم والسامع ، وهو علم جديد في التواصل يفسر كثيرا من الظواهر اللغوية.⁽⁶⁾ وينسب أول استعمال لمصطلح التداولية **Pragmatique** للفيلسوف الأمريكي " شارل موريس **Charle Morris** وذلك سنة 1938 * : " إن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات وهذا تعريف واسع يتعدى المجال اللساني إلى السيميائي "⁽¹⁾ وتمثل التداولية -حسب رأيه- فرعا من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات وهي :

1 - علم التراكيب : La Syntaxe ارتباط العلامات فيما بينها .

2 - علم الدلالة : La Semantique ارتباط العلامات في علاقتها بالواقع ، أو دراسة علاقة العلامات بالأشياء والموجودات التي تدل عليها .

3 - التداولية : La Pragmatique ارتباط العلامات بمستعملها ، بظروف استعمالها وبآثار هذا الاستعمال على البنى اللغوية.⁽²⁾

على أن التداولية لم تصبح مجالا يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام بتطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى جامعة أوكسفورد هم : أوستين **J. Austin** ، و سيرل **J.Searl** ، و غرايس **H.Grice** ، وقد كان هؤلاء من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية الذين اهتموا بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها ، وكان هذا من صميم التداولية أيضا . ومن الغريب أن أحدا منهم لم يستعمل مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاث ، ويدل المفهوم العام لـ **Pragmatique** في الدرس اللساني الغربي الحديث على دراسة اللغة حال الاستعمال ؛ أي حينما تكون متداولة بين مستخدميها "وأما كتخصص معرفي لغوي ، فإن التداولية تهدف إلى دراسة الظواهر التابعة للمكون التداولي. من مكونات اللغة التي سبق ذكرها ، أو دراسة الاستعمال اللغوي ، ويأتي هذا التعريف تمييزا لها عن

* - هو سيميائي أمريكي من مؤسسي السيميائية الأمريكية ، إلى جانب بيرس وهو الذي قسم الدراستات اللغوية انطلاقا من ارتباط العلامات فيما بينها.

(1) - حفناوي بعلي . التداولية البراغماتية . مجلة اللغة والأدب ، عدد 17 . جامعة الجزائر

(2) - ينظر : محمد الأخضر الصبيحي . مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه . ط1/2008 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر . ص 48 .

الدراسة البنيوية التي تهتم باللغة كنظام." (3) "والتداولية مدعاة دائما للالتباس ، فهو مستعمل في الوقت نفسه للإحالة على مجال لساني ورؤية خاصة للغة ."(4)

وأول من أطلق مصطلح التداولية مقابلا لـ Pragmatique هو طه عبد الرحمن يقول : " وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي (براغماتيقا) لأنه يوفي المطلوب حقه باعتبار دلالاته على معنيين (الاستعمال) و (التفاعل) معا ، ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم" (1) .

واللسانيات في نظر طه عبد الرحمن ثلاثة مجالات هي : (2)

- **الداليات** : تشمل الدراسات العاكفة على الدال الطبيعي ، وتمثلها العلوم الثلاثة الصوتيات الصرفيات والتركيبيات .

- **الداليات** : تشمل الدراسات الواصفة لعلاقة الدوال بمدلولاتها ، سواء أكانت تصورات ذهنية أم أعيانا في الخارج

- **التداوليات** : تشمل الدراسات الواصفة لعلاقة الدوال الطبيعية ومدلولاتها مع الدالين بها ، وأبواب هذا القسم ثلاثة : أغراض الكلام ، ومقاصد المتكلمين ، و قواعد التخاطب .

ومن أهم العوامل لظهور هذا التوجه في البحث اللغوي المعاصر ، هي ثورة العديد من اللغويين ضد المناهج الشكلية التي هيمنت على الدراسات اللغوية ، وأهم ما أخذ على تلك المناهج مايلي :

1- أنها حصرت الدراسة في اللغة كبنية ، أو كنظام معزول عن سياقه .

2- اختصار الدراسة على البنى والأشكال اللغوية ، وإبعاد دراسة المعنى .

3- عدم تجاوز الجملة كأعلى مستوى للدراسة اللغوية .

4- إهمال الظواهر الكلامية باعتبارها أشياء عارضة وفردية . (3)

2- أهمية التداولية :

التداولية مشروع موسع في اللسانيات النصية : تهتم بالخطاب والمناحي النصية فيه نحو : المحادثة ، المحاجة ، التضمين الخ . ولدراسة التواصل بشكل عام ، بدءا من ظروف إنتاج الملفوظ إلى الحال التي يكون فيها للأحداث الكلامية قصد محدد ، إلى ما يمكن أن تحدثه من تأثيرات في المتلقي . وتظهر أهميتها من حيث إنها تهتم بالأسئلة الهامة والإشكالات الجوهرية في النص . لأنها تحاول الإحاطة

(3) - نفسه . ص 48 .

(4) - دومينيك مانغونو . المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب . ترجمة : محمد يحياتن ، ط 2008/1 ، منشورات الاختلاف . ص 27 .

(1) - طه عبد الرحمن . في أصول الحوار وتجديد علم الكلام . ط 2 / 2000 . المركز الثقافي العربي . ص 27 .

(2) - ينظر : نفسه . ص 28

(3) - ينظر : محمد الأخضر الصبيحي . المرجع السابق . ص 52 .

بالعديد من الأسئلة من قبيل : من يتكلم ؟ وإلى من يتكلم ؟⁽⁴⁾ وتتخلص مهام التداولية في مايلي :

دراسة استعمال اللغة ، فهي لا تدرس البنية اللغوية ذاتها ، ولكن تدرس اللغة حين استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة ، " أي باعتبارها كلاما محددا صادرا من متكلم محدد وموجها إلى مخاطب محدد بلفظ محدد ، في مقام تواصل محدد ، لتحقيق غرض تواصل محدد ."⁽⁵⁾

- 1- شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات .
- 2- بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر .
- 3- شرح أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية الصرفة للملفوظات .
- 4- "لا يمكن أن نفهم طبيعة اللغة نفسها فهما حقيقيا ما لم نفهم التداولية : كيف تستعمل اللغة في الاتصال"⁽¹⁾

3- مميزات التداولية :

تتميز التداولية عن غيرها من اتجاهات البحث اللغوي بما يأتي :

- 1- التداولية تقوم على دراسة الاستعمال ، أوهي : لسانيات الاستعمال اللغوي ، وموضوع البحث فيه هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي .
- 2- ليس للتداولية وحدات تحليل خاصة بها ولا موضوعات مترابطة .
- 3- التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة (معرفية ، اجتماعية ، ثقافية) .
- 4- تعد التداولية نقطة التقاء مجالات العلوم ذات الصلة باللغة ، بوصفها وصلة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية .
- 5- لا تنتمي التداولية إلى أي مستوى من مستويات الدرس اللغوي ، صوتيا كان أم صرفيا أم نحويا أم دلاليا ، لذلك فالأخطاء التداولية لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفنولوجية أو النحوية أو الدلالية ، وهي ليست مستوى يضاف إلى هذه المستويات ؛ لأن كلا منها يختص بجانب محدد ومتماusk من جوانب اللغة ، وله أنماطه التجريدية ووحداته التحليلية.
- 6- لا تقتصر التداولية على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة بل من الممكن أن تستوعبها جميعا وليس لها أنماط تجريدية ولا وحدات تحليل .
- 7- لا تنظوي التداولية تحت علم من العلوم التي لها علاقة باللغة ، بالرغم من أنها تتداخل معها في بعض جوانب الدرس .⁽²⁾

(4) - ينظر عبد السلام عشير . عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج . ص 61 .

(5) - مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 37 .

(1) - عيد بليغ . مرجع سابق . ص 36 .

ومجال التداولية واسع ومتشعب ، إذ يمكن القول بوجود ثلاث تداوليات أساسية متجاورة هي :

- 1- تداولية اللسانيين : التلفظية : أو لسانيات التلفظ .
- 2- تداولية البلاغيين : التخاطبية : أو نظرية أفعال الكلام .
- 3- تداولية الفلاسفة : التحوارية : أو التفاعلات التواصلية (الحوارات).⁽³⁾

المبحث الثاني : الأصول الفلسفية للفكر التداولي :

تنوعت مصادر الدرس التداولي المعاصر ، إذ كان لكل مفهوم من مفاهيمه الكبرى حقل معرفي يستمد منه مادته العلمية وتصوراته عن اللغة والتواصل . فالأفعال الكلامية مثلاً مفهوم تداولي منبثق من مناخ فلسفي هو الفلسفة التحليلية . أما نظرية التخاطب فقد انبثقت من الفلسفة الحديثة ومن فلسفة (بول غرايس) وأما نظرية الملازمة فقد ولدت من رحم (علم النفس المعرفي) ⁽¹⁾ .

وبما أن الفلسفة التحليلية هي ينبوع المعرفي لأول مفهوم تداولي وهو الأفعال الكلامية ، فإنه ينبغي التعريف بهذا التيار الفلسفي لمعرفة كيف انبثقت ظاهرة الأفعال الكلامية من قلب التحليل الفلسفي ، وما تلا ذلك من ظهور الاتجاه التداولي في البحث اللغوي .

لقد عكف الفلاسفة والمناطق منذ عهد اليونان على دراسة القضايا كمقدمة لدراسة المنطق، وتعرضت كتب المنطق الكلاسيكية منذ أرسطو لأقسام الكلام، فميزت الصيغة الخبرية عن صيغ التمني والأمر ثم حصرت بالصيغة الخبرية، وهي التعبير اللفظي عن القضية خاصة قبول الصدق والكذب، جاعلة للخبر ميزة كونه موضوعاً للدراسة المنطقية ، في مقابل الصيغ الأخرى، التي ألحقها أرسطو بعلم البلاغة .

وفي العصر الحديث ، جعل كانط Kant الصيغة الخبرية تحت طائلة نقد مؤداه ان هناك جملاً لها هذه الصيغة لكنها لا تقبل الصدق والكذب ، وأنها بالتالي تخرج عن مجال المنطق والفلسفة . وانطلاقاً من نقد كانط ظهر الاتجاه (المنطقي الوضعي) في القرن العشرين الذي أكد على إخراج جزء كبير من الجمل ذات الصيغ الخبرية من مجموعة الجمل التي تقبل الصدق والكذب .⁽²⁾

مفهوم الفلسفة التحليلية :

(2) - محمود نحلة . مرجع سابق ص 9 .

(3) - ينظر : إدريس مقبول . الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه . ص 236 . ط 1 / 2006 عالم الكتب الحديث الأردن

(1) - مسعود صحراوي : مرجع سابق . ص 26 .

(2) - ينظر : طالب هاشم طبطباتي . نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب . ص 3 .

نشأت الفلسفة التحليلية بمفهومها العلمي في العقد الثاني من القرن العشرين ، في فيينا بالنمسا على يد الفيلسوف الألماني (غوتلوب فريجة 1848-1925 G. Frege) ومن أهم التحليلات التي أجراها على العبارات اللغوية وعلى القضايا ، تمييزه بين مقولتين لغويتين هما : اسم العلم ، والاسم المحمول . وهما عماد القضية الحملية ، وهي التي تتكون من طرفين : اسم العلم ، ومحمول يسند إلى اسم العلم .

والقضية غير الحملية : هي التي تتكون من علاقات أخرى خارجة عن الإطار الحملي . وأن ألفاظ التسوير (كل ، بعض ، واحد ، اثنان ...) ليس لها معنى حقيقي إذا دخلت على علم ، بل قد تفسد معناه ، فلا نقول مثلا : كل محمد ، بعض محمد . وإذا دخلت على محمول أفادت معنى جديدا فنقول مثلا : كل متعلم ، كل موظف ، وتعد هذه المباحث ثمينة ، وتمثل عند الفلاسفة ثورة أو انقلابا فلسفيا جديدا. والجديد الذي جاء به هذا الفيلسوف في مجال اللغة هو تمييزه بين اسم العلم والاسم المحمول ، وبين المعنى والمرجع ، كما ربط بين الإحالة والاقتضاء.⁽¹⁾

التحليل الفلسفي للغة :

لقد أقر الفلاسفة بان القدرة اللغوية هي الصفة الأسمى التي تميز الإنسان ، ومازالت الفلسفة مستمرة في تحديد موقفها إزاء اللغة ، ولعل أول تفكير فلسفي عرض بشكل نسقي حول اللغة بدأ مع محاوره كراتيل مرورا بالفيلسوف ديكارت Descartes (1596-1650) ، الذي عالج اللغة في علاقتها مع الفكر وهيغل Hegel (1770-1831) في اهتمامه بالعلاقة بين اللغة والثقافة ، ومارتن هيدغر Heidegger (1889-1976) الذي قال : " إن جميع وسائل الفكر منحسبة في اللغة ، وإن الذي لم يفكر أبدا في اللغة فإنه لم يفكر أبدا."⁽²⁾

أما في الفلسفة الأنجلوسكسونية ، فقد عمد جورج باركلي G, Berkeley إلى البحث عن المعاني الدقيقة للكلمات ، وفي نظره فإن تحديد المعنى يتم بتحليل واكتشاف جزئياته ، فأهم غاية للغة في نظره هي التواصل عن طريق أفكار ندركها بواسطة الألفاظ ، ولقد تأثرت الفلسفة التحليلية اللغوية باهتمامه بالمعاني ودقة استعمالها ، وكان يود أن يرى الأفراد تفكر قبل أن تتكلم حتى تحدد معاني كلماتها .

(1) - ينظر : مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 28
(2) - بشير خليفي . الفلسفة وقضايا اللغة . ص 66 . منشورات الاختلاف . الجزائر . 2010 .

أما في العصور المتأخرة فقد تشكل الاهتمام المتميز للفلسفة التحليلية بموضوع اللغة كهدف في ذاته لفض المشكلات الفلسفية .⁽³⁾

فتجنشتاين وفلسفة اللغة العادية :

لقد اقتفى الفيلسوف النمساوي فتجنشتاين (1889-1951) أثر فريجة فانتقد مبادئ (الوضعية المنطقية)، وأسس اتجاهها فلسفيا جديدا ، سماه فلسفة اللغة العادية ؛ أي لغة الاستعمال العادي ، وأهم ما يميز فلسفة فتجنشتاين التحليلية قوله : بأن المعنى ليس ثابتا ولا محددا ، فإنه تتعدد معاني اللفظ بتعدد استعمالاته، ودعوته إلى تفادي البحث في المعنى المنطقي الصارم ، وأن الفلسفة التحليلية تلح على أن أولى مهام الفلسفة هي : البحث في اللغة ، وتوضيحها واتخاذها وسيلة لفهم الكون ومشكلاته ، وقد تأثر الفلاسفة باتجاه فريجة نذكر منهم : (هوسيرل ، كارناب ، فتجنشتاين ، أوستين ، وسيرل) وقاموا بدراسة عدة ظواهر لغوية من وجهة نظر تداولية ، ومن أهمها : مفهوم الاحالة ، والاقضاء ، ظاهرة الاستلزام التخاطبي ، الافتراضات المسبقة ، ظاهرة الأفعال الكلامية ، والحجاج ... الخ.⁽¹⁾ وقد انقسمت الفلسفة التحليلية إلى ثلاثة فروع هي :

- الوضعية المنطقية : Positivisme logique بزعامة رودولف كارناب .

- الظاهراتية اللغوية : Phenomenologie du langage بزعامة هوسيرل .

- فلسفة اللغة العادية : Philosophie du langage ordinaire بزعامة فتجنشتاين .⁽²⁾

وهذا الفرع الأخير الذي نشأت بين أحضانه (ظاهرة الأفعال الكلامية) فمادته هي اللغة ، فكان فتجنشتاين يرى أن جميع مشكلات الفلسفة تحل باللغة ، بل كان يعتقد أن الخلافات بين الفلاسفة سببها سوء فهمهم للغة ، وراح يطور فلسفته الجديدة التي توصي بمراعاة الجانب الاستعمالي فهو الذي يكسب تعليم اللغة واستخدامها ، ولكن هذه الأفكار لم تكتسب مكانتها الحقيقية إلا عندما تبناها فلاسفة مدرسة أوكسفورد (أوستين وسيرل)⁽³⁾.

"لقد اتجه هذا التيار نحو توسيع موضوع الدراسة ، فلم يكتف بدراسة الجمل خبرية بل توسع لدراسة سائر أنواع الجمل ."⁽⁴⁾

إن النتائج الأولية التي توصل إليها (أوستين) في الخمسينات خضعت لدراسة نقدية مكثفة ، شارك فيها فلاسفة مثل : ستراوسن P.Streawson (1919-...) ، وكوهن Cohen ، وسيرل ، وفاندرفن .

(3) - المرجع نفسه . ص 67

(1) - ينظر : جمال حمود . فلسفة اللغة عند فتجنشتاين ص 306 .

(2) - ينظر : صلاح إسماعيل عبد الحق . التحليل اللغوي عند مدرسة أوكسفورد . ص 12 . دار التنوير للطباعة والنشر بيروت ط1/1993 .

(3) - ينظر : جمال حمود . فلسفة اللغة عند فتجنشتاين . ص 307 . منشورات الاختلاف . الجزائر

(4) - هاشم طبطباني . نظرية الأفعال الكلامية . مقدمة المؤلف .

مساهمة أوستين :

لقد تأثر أوستين بما نبه إليه فـتـجـنـشـتـاين من أن اللغة قد تستخدم لوصف العالم من حولنا ، بيد أن هناك حشدا من الاستعمالات الأخرى للغة لاتصف وقائع العالم كالأمر ، والاستفهام ، والشكر ، والدعاء ، وقدم ثبنا طويلا بهذه الاستعمالات وأطلق عليها ألعاب اللغة **Langage games** وسمى كل استعمال منها لعبة ؛ لأن له قواعد يتفق عليها مستعملو اللغة ، كما يتفق اللاعبون على قواعد اللعبة ، ورأى أن كل نوع من ألعاب اللغة محكوم بنوع مخصوص من السياق الاجتماعي ، ومحدد بأعراف اجتماعية معينة ، وأرسى مبدأ مثيرا للجدل عند الفلاسفة.(5)

(المعنى هو الاستعمال) . (Meaning is use) ومن ثم تصدى أوستين للرد على فلاسفة الوضعية المنطقية ، الذين يرون أن اللغة لا عمل لها إلا وصف الوقائع الخارجية بعبارات إخبارية ، ثم يكون الحكم عليها بعد ذلك بالصدق أو الكذب إذا طابقت الواقع أو لم تطابقه ، أما العبارات غير الإخبارية فهي عندهم زائفة ولا معنى لها ؛ لأنهم لا يجدون من وقائع العالم ما تطابقه أو يطابقها لقد أنكر أوستين أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارات الإخبارية هي وصف حال الوقائع وصفا يكون إما صادقا أو كاذبا ، وأطلق عليه : (المغالطة الوصفية) .(1)

ثم راح أوستين يميز الجمل الإخبارية مما لا يقبل الصدق والكذب ، ثم وسع المفهوم الذي قدمه ليشمل جميع الجمل حتى تلك التي تقبل الصدق والكذب منها ، فأنتج بذلك فلسفة عامة للغة تجد تطبيقات هامة لها في علم اللسانيات .(2)

ومضى أوستين يثبت أن بجانب هذه الجمل الوصفية ،نوعا آخر من العبارات قد يتشابه في التركيب مع الجمل الوصفية ، لكنه لا يصف شيئا في الواقع الخارجي ، ولا يحتمل الصدق أو الكذب . فإذا بشرت بمولود مثلا : وقيل لك سمه . قلت : أسميه يحيى . وإذا رأيت أن توصي ببعض مالك فقلت : أوصي بنصف مالي للجمعيات الخيرية ، أو إذا قال لك رجل والشهود حضور : زوجتك ابنتي . فقلت : قبلت . فإن هذه العبارات ونحوها لا تصف شيئا من وقائع العالم الخارجي ، ولا تحتمل الصدق والكذب ، وإذا نطقت بواحدة مثلها فإنك لا تلقي قولاً بل تنجز فعلاً .(3)

(5) ينظر : الزواوي بغورة . الفلسفة واللغة . نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة . ص 105 .

(1) - ينظر : جمال حمود . فلسفة اللغة عند فتجنشتاين . ص 307 .

(2) ينظر : طالب هاشم طبطباتي . مرجع سابق . ص 4

(3) ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 62 .

وظاهر أن أوستين ميز - في هذه المرحلة - بين أفعال إخبارية ، وأفعال تتجز بها في ظروف ملائمة أفعالا ، وقد أطلق عليها مصطلح الأفعال الأدائية Performative وجعل ميزة الأفعال الأدائية أنها تستخدم لإنجاز فعل : كالتسمية ، والاعتذار ، والترحيب ، والنصح ... الخ . فهي لا توصف بصدق ولا كذب ، بل تكون موفقة أو سعيدة happy إذا راعى المتكلم شروط أدائها ، وكان أهلا لفعلها ، وتكون غير موفقة أو تعيسة unhappy⁽⁴⁾ إذا لم تستوف جملة من الشروط فمثلا : لا يحق لك أن توصي بمال غيرك ، ولا أن تعد بما لا تقدر عليه ، فإن فعلت لم ينعقد بكلامك فعل ، وصار لغوا ، وقد تعد مثلا وأنت قادر على إنجاز ما تعد ، لكنك تضمر في نفسك أن تخلف وعدك فلا يقع فعل الوعد ؛ لأنك غير مخلص له.⁽⁵⁾

" يرى أوستين أن الأقوال قد تكون أحيانا أفعالا ، أو مؤدية إلى أفعال ، وأهميتها ترجع إلى إثبات أن تلك الأقوال ليست خالية من المعنى ، وإلى تحديد السمات المميزة لها ، وأهم تلك السمات هو ارتباطها بالمتكلم وبالموقف الذي تقال فيه ، ومن ثم نحكم بأنها ملائمة أو غير ملائمة."⁽¹⁾

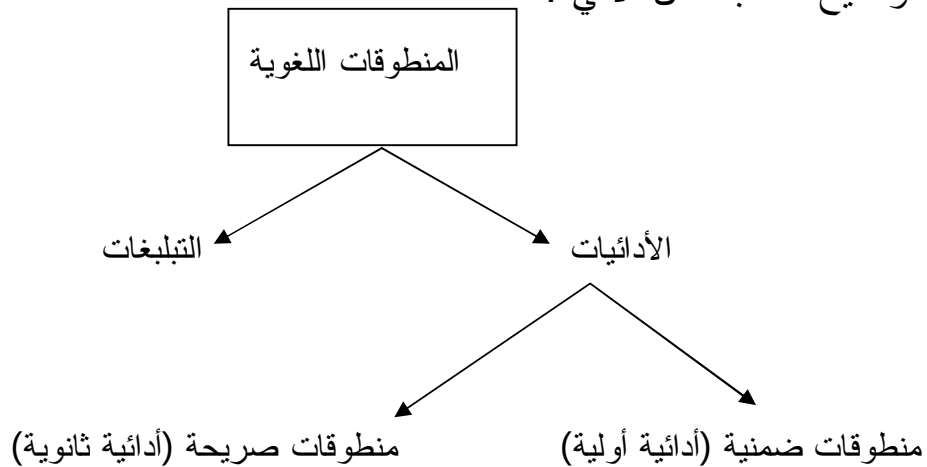
ولقد جعل أوستين المنطوقات اللغوية نوعين :

الأدائيات ، و التبليغيات Statements . et Performatives

فالأدائيات : هي منطوقات تؤدي أفعالا : كالوعد ، والتحذير ، والأمر... الخ ، وتنقسم بدورها إلى نوعين : منطوقات أدائية أولية (ضمنية) مثاله : (أعرض عن الجاهلين) ، ومنطوقات أدائية ثانوية (صريحة) مثاله : (أمرك أن تعرض عن الجاهلين)

أما التبليغيات : فهي تعرض أقوالا : كالإثبات ، والتقرير والإعلان... الخ.⁽²⁾

ويمكن توضيح ذلك بالشكل الآتي :



(4) - يقترح طالب هاشم الطبطبائي مقابلة المصطلحين (سعيدة ، وتعيسة) بـ (صائبة ، وخائبة) . مرجع سابق ص 6 .

(5) - ينظر : محمود نحلة . مرجع نفسه . ص 62 .

(1) - محمد حسين عبد العزيز . علم اللغة الاجتماعي . ص 324 .

(2) - ينظر : محمد العبد . تعديل القوة الإنجازية . مجلة فصول . عدد 65 / خريف 2004 .

- أصول الحوار وشروط الاستعمال :

تعود إلى اجتهادات التداولي الأمريكي بول غرايس الذي عمل على تطوير نظرية مخصصة وجه بها أبحاثه نحو أصول الحوار والبحث عن الشروط المناسبة لاستعمال الألفاظ والعبارات ، أو بلغة كانط " البحث عن الشروط التي تجعل من حصول مقاصد التخاطب ممكنة." (3)

وقد ذكر غرايس آليات التواصل ومبدأ التعاون في دروسه التي تحمل عنوان : محاضرات في التخاطب وفي مقالاته الشهيرة (المنطق والتخاطب) "مستلهما على ما يبدو لوحة الأحكام المنطقية التي اشتهر بها أرسطو وأعاد بناءها وتفعيلها كانط." (4)

أما الصياغة الكلية لمبدأ التعاون فقد حددها على النحو التالي : على أطراف التخاطب أن تتعاون فيما بينها لتحقيق المطلوب ، ثم فرع غرايس عن هذا المبدأ العام قواعد تخاطبية منها :

- كم الخبر - كيف الخبر - علاقة الخبر بمقتضى الحال ؛ بحيث يناسب المقال المقام ، أو مناسبة الكلام للسياق الاستعمالي - جهة الخبر. (1)

ولقد أريد بهذه القواعد أن ترتقي إلى رتبة الضوابط ، التي تضمن لكل مخاطبة إفادة تبلغ منتهى الوضوح وتكون المعاني صريحة وحقيقية ، وترتكز على القواعد التبليغية في الخطاب ، أكثر من إيلائها للقواعد الأخلاقية الخاصة أهمية ، وتداركا لسقوط قواعد التهذيب الأخلاقية من منطق التخاطب الغرايسي جاءت محاولات روبين لاقوف. Robin lacof التي طرحت في مقالاتها الشهيرة (منطق التأدب) صيغا هي بمثابة قواعد للتخاطب تعطي مجالا للبعد الأخلاقي تحت صياغة عامة هي : لتكن مؤدبا . وتتفرع عن هذا المبدأ قواعد هي :

1- قاعدة التعفف أو التأدب بالآداب العامة : وتوجب على المخاطب ألا يستعمل من العبارات

إلابقدر ما يمكنه من حفظ المسافة بينه وبين المخاطب ، وألا يوظف الصيغ التي تحمل دلالة نفسية تحيل إلى أحوال داخلية ، محترزا قدر الإمكان من استعمالات الطلب المباشر والخاص . ومقتضاها هو :

2- لا تفرض نفسك على المخاطب .

3 - قاعدة التشكيك . مقتضاها هو : لتجعل المخاطب يختار بنفسه .

بواسطة هذه القاعدة يتجنب المتكلم أساليب التقرير ، ويأخذ بأساليب الاستفهام ، كما لو أنه متشكك في مقاصده ، ويجعل هامش الحرية ممكنا بالنسبة للمتكلم ، وبدلا من أن يقول المتكلم مثلا :

(3) - عبد الرزاق بلعقروز. تحولات في الفكر الفلسفي المعاصر، المعنى والتواصل. منشورات الاختلاف ، ط1/ 2005 . الجزائر ص 247

(4) - المرجع نفسه . ص 247 .

(1) - Voir : Grice . Logic and conversation , In P ,Cole and J.Morgan , 1975 p. 65

يجب أن تختار شعبة الفلسفة في الجامعة .

يقول : قد يكون من الأفيد لك أن تختار شعبة الفلسفة ، أو ربما تكون الفلسفة أفيد لك .⁽²⁾

قاعدة التودد : تتأسس هذه القاعدة ، على النظر إلى المخاطب من منطلق المعاملة بالمثل ، مستعملا في ذلك الأدوات والأساليب التي تقوي علاقات التضامن والصداقة بينهما ، ليحصل أنس المخاطب به.⁽³⁾
من الكفاية اللغوية إلى الكفاية التواصلية:

يتأسس الدرس التداولي في منظوره العام ، على تعيين مهمته المتمثلة في إدماج السلوك اللغوي داخل

نظرية الفعل ، وتسعى التداولية إلى التوظيف البراغماتي للغة ؛ بمعنى الانتقال من الكفاية اللغوية إلى الكفاية التواصلية . "ويرى أوستين من خلال دراسته للمعنى ، أن الظواهر اللغوية هي أساسا أفعال إنجازية ، وبهذا المعنى فهي دعوة إلى تجاوز اهتمامات علم المنطق التقليدي ، المحدود بالمعنى الإخباري فقط " .⁽¹⁾

المبحث الثالث : أسس التداولية

أسس التداولية : يكاد يجمع الباحثون على أن الدرس التداولي يقوم على دراسة الجوانب التالية :

1 – متضمنات القول : Les implicites

وهو مفهوم تداولي ، يتعلق برصد جملة من الظواهر ، المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب ، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره ، ومن أهمها :

أ – الافتراض المسبق : Pre-supposition

وهو من وضع الفيلسوف الألماني غوتلوب فريجة ، ويرى أن كل تواصل لساني ينطلق من معطيات ، وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم ، تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل ، وهذه الافتراضات المسبقة لا يصرح بها المتكلمون ، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة ، فإذا قال رجل لآخر (أغلق النافذة) . فالمفترض سلفا أن هناك نافذة ، وأن هناك مبرر لإغلاقها ، وأن المخاطب قادر على الحركة ، وأن المتكلم في منزلة الأمر ، وكل ذلك موصول بسياق الحال ، وعلاقة المتكلم بالمخاطب ، وإذا قال شخص لآخر : (كيف حال

(2) - ينظر : عبد الرزاق بلعقروز . مرجع سابق . ص 248

(3) - طه عبد الرحمان . اللسان والميزان أو التكوثر العقلي . ص 238 . المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1 / 1989

(1) - قويدر شنان . التداولية في الفكر الأنجلوسكسوني . مجلة اللغة والأدب ، عدد 17 / 2006 .

زوجتك وأولادك) ؟ فالافتراض المسبق للمفوض هو أن المخاطب متزوج وله أولاد ، وأن الشخصين تربطهما علاقة ما تسمح بطرح هذا السؤال .⁽²⁾

ويستثمر كثير من وكلاء النيابة والمحامين هذه الخاصية في استجواب المتهمين والشهود ، فإذا سأل وكيل النيابة المتهم : (وأين كنت تبيع الكوكايين ؟) فأجاب المتهم بذكر مكان ما ، ثبتت عليه التهمة لأن تحديد مكان لبيعه ، يتضمن افتراضا سابقا بالمتاجرة به .

وقد لاحظ بعض الباحثين أن الافتراض السابق قد يرتبط بألفاظ وتراكيب تدل عليه ، ومما أوردوه من ذلك مما له نظير في العربية المثال الآتي الذي يكون فيه الافتراض المسبق مرتبطا ببعض العناصر اللغوية دون بعض :

أ - زيد اغتيل سنة 1868 ، ب - زيد قتل سنة 1868

فاستخدام الفعل اغتيل في الجملة (أ) يتضمن افتراضا سابقا بأن زيدا كان شخصية سياسية بارزة .

لكن هذا الافتراض غير متحقق في الفعل قتل في الجملة (ب).⁽¹⁾

" ويرى التداوليون أن الافتراضات المسبقة ذات أهمية قصوى في عملية التواصل والإبلاغ ، ففي التعليمية تم الاعتراف بدور الافتراضات المسبقة منذ زمن طويل فلا يمكن تعليم الطفل معلومة جديدة ، إلا بافتراض وجود أساس الافتراضات المسبقة الضروري لنجاح كل تواصل كلامي ."⁽²⁾

ب - الأقوال المضرة : Les Sous entendus

هي النمط الثاني من متضمنات القول ، وترتبط بوضعية الخطاب ومقامه ، على عكس الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية ، إن المحتويات يفسرها سياق الحديث ، ومثال ذلك قول القائل : إن السماء ممطرة . فالسامع قد يعتقد أن القائل أراد أن يدعو إلى المكوث في بيته ، أو الإسراع إلى عمله ، أو الانتظار والتريث ، أو عدم نسيان مظلمته ، وقائمة التأويلات مفتوحة مع تعدد السياقات والطبقات المقامية ، والفرق بينه وبين الافتراض المسبق أن الأول وليد ملابسات الخطاب ، والثاني وليد السياق الكلامي .⁽³⁾

2 - الاستلزام الحواري : L'implication conversationnelle

وقد ترجم أيضا إلى حكم الحديث " وترجع نشأة البحث فيه إلى المحاضرات التي ألقاها غرايس في جامعة هارفرد 1967 فقدم فيها بإيجاز تصوره لهذا الجانب من الدرس وجمعت فيما بعد في كتاب (المنطق والحوار) . لقد كانت نقطة البدء عند غرايس هي أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما

(2) - ينظر : مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 43 .

(1) - ينظر : محمود نحلة : مرجع سابق . ص 30 .

(2) - مسعود صحراوي : مرجع سابق . ص 44 .

(3) - نفسه . ص 44 .

يقصدون وقد يقصدون أكثر مما يقولون ، وقد يقصدون عكس ما يقولون ، فجعل همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال ، وما يقصد ، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمتها اللفظية ، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه إلى السامع على نحو غير مباشر اعتمادا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال فأراد أن يقيم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح ، وما يحمله من معنى متضمن .⁽⁴⁾

ويتضح ذلك أكثر من خلال المثال الآتي بين الأستاذين :

الأستاذ (أ) : هل الطالب (ج) مستعد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة ؟

الأستاذ (ب) : إن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز .

فقد لاحظ غرايس أننا إذا تأملنا الحمولة الدلالية لإجابة الأستاذ (ب) وجدنا أنها تدل على معنيين في نفس الوقت أحدهما حرفي ، والآخر مستلزم .

معناها الحرفي : أن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز ، ومعناها الاستلزامي : أن الطالب المذكور

ليس مستعدا لمتابعة دراسته في قسم الفلسفة ، هذه الظاهرة سماها غرايس بالاستلزام الحواري

ويشترط غرايس لتحقيق الاستلزام الحواري أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار المعطيات الآتية :

- المعنى الحرفي للكلمات المستعملة ، وتعريف العبارات الإحالية .

- مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه .

- السياقان اللغوي وغير اللغوي للخطاب .

- عناصر أخرى تتصل بالخلفية المعرفية .

- يجب على المساهمين في الحوار أن يكونا على علم بالمعطيات الآتية .⁽¹⁾

أقسام المعنى في الجملة :

يقترح غرايس تنميطة للعبارات اللغوية حيث تقسم الحمولة الدلالية للعبارة إلى :

1 - المعاني الصريحة : هي المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها وتشمل ما يلي

أ - المحتوى القضوي : وهو مجموع معاني مفردات الجملة مضموما بعضها إلى بعض في علاقة إسناد .

ب - القوة الإنجازية الحرفية : وهي القوة الدلالية المعبر عنها بأدوات تصبغ الجملة بصيغة

أسلوبية ما : كالاستفهام ، والأمر ، والنهي ، والتوكيد ، والنداء ، والإثبات ، الخ

(4) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق ص 33.

(1) - العياشي أدراوي : الاستلزام الحواري في التداول اللساني . ط 1/ 2011 . منشورات الاختلاف . الجزائر . ص 104

2- المعاني الضمنية : هي المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة ، لكن للسياق دور في التوجيه إليها.

أ- معان عرفية : وهي الدلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطاً أصيلاً ، وتلازمها في مقام معين كمقام الاقتضاء .

ب - معان تخاطبية : وهي التي تتولد طبقاً للمقامات التي تتجز فيها الجملة كالدلالة الاستلزامية .⁽²⁾

وقد نظر غرايس فوجد أن الاستلزام نوعان : عرفي وحواري

- عرفي : فقائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة ، من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تتفك عنها، مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب ومن ذلك مثلاً في الانجليزية (But) ونظيرتها في اللغة العربية (لكن) فهي هنا وهناك تستلزم دائماً أن يكون ما بعدها مخالفاً لما يتوقعه السامع مثل : My freind is poor but honest ، ومثل : زيد غني لكنه بخيل .

- وأما الحواري : فهو متغير دائماً بتغير السياقات التي يرد فيها .⁽¹⁾

مبدأ التعاون : وهو مبدأ حواري يشتمل على أربعة مبادئ فرعية :

- 1- مبدأ الكم : ويخص قدر الإخبار (الكمية) الذي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية ، وتتفرع إلى نوعين - اجعل مشاركتك تفيد القدر المطلوب من الإخبار .
- لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب .

2- مبدأ الكيف : ونصه لا تقل ما تعتقد أنه كاذب ، ولا تقل ما لا تستطيع البرهنة على صدقه .

3- مبدأ الملاءمة : وهي قاعدة واحدة : لتكون مشاركتك ملائمة ، أي اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة للموضوع .

4- مبدأ الطريقة : كن منهجياً في حديثك⁽²⁾، والذي ينص على الوضوح في الكلام ، وتتفرع إلى ثلاث قواعد فرعية هي : ابتعد عن اللبس - تحر الإيجاز - تحر الترتيب .^(*)

⁽²⁾ - ينظر : نعيمة الزهري . الأمر والنهي في اللغة العربية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط 1997 . ص 136 .

⁽¹⁾ - ينظر : محمود نحلة : مرجع سابق ص 33

⁽²⁾ - Voir : Grice, Logique et conversation , p . 60 .

^(*) - هي عند غرايس (قواعد المحادثة) ، وعند سورل (شروط النجاح) ، وعند ديكر (قوانين الخطاب) .

هذه هي المبادئ التي يتحقق بها التعاون بين المتكلم والمخاطب ، وصولاً إلى حوار مثمر .
ومن هنا ينبغي لفت الانتباه إلى أمرين :

- أن مبدأ التعاون لا يمت للواقع بصلة ، فهو يرى الناس جميعاً متعاونين صادقين مخلصين واضحين ، وليس من الممكن أن يتحدث الناس على هذا النحو كل حين ، بل إن أغلب أنواع الحوار الذي يدور بين البشر يخالف هذا المبدأ . إن غرايس لم يقصد بمبدأ التعاون الحوارى ما عجل هؤلاء إلى فهمه بل كان يقصد أن الحوار بين البشر يجري على ضوابط وتحكمه قواعد يدركها كل من المخاطب والمتكلم .

- أن غرايس لم يرغب عنه أن هذه المبادئ التي يجري عليها الحوار كثيراً ما تنتهك ، فانتهاك مبادئ الحوار هو الذي يولد الاستلزام ، لذا لا بد من الإخلاص لمبدأ التعاون بمعنى أن يكون المتكلم حريصاً على إبلاغ المخاطب معنى بعينه .⁽¹⁾
يقول طه عبد الرحمن : "قواعد التعاون كلها مردودة إلى المطالبة بوضوح المضامين المبلغة."⁽²⁾

3- الإشارات : Deiscis

كان (شارل بيرس Charle,Peirs) أول واضع لهذا المفهوم ، ففي كل اللغات كلمات وتعبيرات تعتمد اعتماداً تاماً على السياق الذي تستخدم فيه ، ولا يستطيع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه ، فإذا قرأت جملة مقتطعة من سياقها مثل : سوف يقومون بهذا العمل غدا لأنهم ليسوا هنا الآن . وجدتها شديدة الغموض ؛ لأنها تحتوي على عدد كبير من العناصر الإشارية التي يعتمد تفسيرها على السياق المادي ، والمرجع الذي تحيل إليه ، وهذه العناصر هي :
(واو الجماعة ، هم ، هذا ، غدا ، الآن ، هنا)

ولا يتضح معنى هذه الجملة إلا إذا عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر.⁽³⁾ ويذهب أغلب الباحثين إلى أن الإشارات خمسة أنواع :

⁽¹⁾ - Voir : H.P.Grice – Logique et conversation – in : Linformation grammaticale – traduit par :

Frédéric Berthet et Michel Bozen – paris – n66 -1995 –p51-71 .

⁽²⁾ - طه عبد الرحمن . اللسان والميزان . ص 242 .

⁽³⁾ - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 80-81.

1- الإشارات الشخصية : أوضح العناصر الإشارية الشخصية ، ضمائر المتكلم (أنا) ، أو المتكلم ومعه غيره (نحن) ، والضمائر الدالة على المخاطب . ويدخل في الإشارات أيضا النداء .

2 - الإشارات الزمانية : هي كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان المتكلم، الذي يعد مركز الإشارة الزمانية في الكلام ، فإذا لم يعرف زمان التكلم ، أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر . فإذا قلت مثلا : (بعد أسبوع) يختلف مرجعها إذا قلتها : اليوم ، أو بعد شهر .⁽⁴⁾

ويلاحظ بعض الباحثين ، أن بعض استعمالات اللغة لا يستقل عن الإشارة الزمانية ، كالتحية (صباح الخير) فهي لا تقال إلا في الصباح ، وتقع المفارقة إذا قالها أحد في المساء ، وليس هذا مما تضبطه قواعد اللغة بل أعراف الاستعمال .

3 - الإشارات المكانية : هي عناصر إشارية يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم ووقت التكلم ، ولا يمكن تفسير كلمات (هذا ، ذاك ، هنا ، هناك ...) إلا بالوقوف على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة ، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر ، وسائر ظروف المكان .⁽¹⁾

4 - إشارات الخطاب : هي التي لا تحيل إلى ذات المرجع بل تخلقه ، كما تدل عليه الصيغ التالية (الفصل الماضي ، الرأي السابق ، هذا النص ، تلك قصة أخرى ، مهما يكن من أمر ، لكن ، بل فضلا عن ذلك ، قيل ، من ثم ... الخ) .⁽²⁾

5 - الإشارات الاجتماعية : وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتخاطبين من حيث هي علاقة رسمية ، أو علاقة ألفة ، ففي الرسمية توظف صيغ التبجيل للكبار كاستخدام (Vous) في الفرنسية و(أنتم) في العربية ، تبجيلا له أو مراعاة للمسافة الاجتماعية أو حفظا للحوار ، و(نحن) للمفرد المعظم لنفسه ، وهي تشمل أيضا الألقاب مثل : (فخامة الرئيس ، جلالة الملك ، سمو الأمير ، فضيلة الشيخ ، الخ) أما في الاستعمال غير الرسمي ، فهو منفك من هذه القيود ، وتدل

(4) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 16

(1) - ينظر : يوسف السيساوي . الإشارات . مقاربة تداولية . ضمن التداوليات . ص 454 .

(2) - ينظر : يوسف السيساوي . الإشارات . مقاربة تداولية . ص 443

بعض الإشارات على طبقة اجتماعية مثل : (عقيلته ، حرمه ، زوجته ، وامراته) ، ويظهر من خلال هذا أن الإشارات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي .⁽³⁾

4- الأفعال الكلامية :

هي أغراض بتعبير علمائنا القدامى ، أو وظائف تواصلية إبلاغية بتعبير الوظيفيين المعاصرين ، أو أفعال متضمنة في القول بتعبير التداوليين . وسنتناولها بالتفصيل في الفصل الثاني.

المبحث الرابع : علاقة التداولية بالعلوم الأخرى

1- التداولية الأدبية

في الدراسات الأدبية ركزت الذرائعية على سمة الأدب الاتصالية ، انطلاقاً من أن الاتصال عموماً لا يكتمل دون أخذ الأدب وسياقه في الاعتبار ، كما أن دراسة الأدب لا تكتمل دون الأخذ في الاعتبار توظيف الأدب لمصادر الاتصال المختلفة ، إن أبعاد مثل هذا الطرح لا شك مثرية ، فالأدب لم يعد نصاً مغلقاً ، أو بنية شكلية معزولة عن سياقها ، بل إن هذا الاتجاه أعاد إلى الدرس الأدبي الصلة القديمة بين الخطابة والشعر ، ولهذا فإن الدراسة الذرائعية /التداولية للأدب تسعى إلى اكتشاف التقنيات العملية في النص (الإيحاء ، الافتراض المسبق والافتناع) وربطها بالقوى الخارجية في عالم الكاتب والقارئ .⁽¹⁾

2- التداولية والحجاج : ينتمي النص الحجاجي إلى مجال التداولية ، وإن الخطاب الحجاجي ينطوي على البعد التداولي بمستوياته المختلفة ،

– على مستوى أفعال اللغة المتداولة في الحجاج : هناك الأفعال العرضية ، والتي تستعمل حسب أوستين لعرض مفاهيم وبسط موضوع ، وتوضيح استعمال كلمات ، مثل : أكد ، أنكر ، اعترض ، وهب... الخ .⁽²⁾

- على مستوى السياق: هناك أدوات تضيفي السمة الحجاجية على تخاطب ما مثل: أجب، أستنبط...

- وعلى المستوى الحوارى : فإن أساس الحجاج هو الحوارية ، ولقد ذهب الأستاذ طه عبد الرحمن إلى الاعتقاد بأن الحوارية تنقسم إلى : الحوار والمحاورة والتحاور . وكل منها يخضع لمنهج حجاجي وآلية خطابية.⁽³⁾

(3) – ينظر: محمود نحلة . مرجع سابق . ص 25

(1) – ينظر : حفناوي بعلي . التداولية . البراغمية الجديدة . مرجع سابق ص 63

(2) – ينظر : صابر الحباشة . التداولية والحجاج . مداخل ونصوص . ط1 / 2008 . صفحات للدراسات والنشر . دمشق . ص 16

3- علاقة التداولية باللسانيات :

لقد وصف رادولف كارناب R Carnap التداولية بأنها قاعدة اللسانيات ، أو أساسها المتين الذي تستند إليه ، أي إنها حاضرة في كل تحليل لغوي ، فبمجرد أن ينتهي عمل اللساني في دراسة اللغة (البنية) يظهر الإسهام التداولي في الأبعاد الحقيقية لتلك البنية ، وتنفسح من ثم على الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية للمتكلم والمتلقي والجماعة التي يجري فيها التواصل ، مع مراعاة السنن التي تحكمها ، و التداولية فعلا استطالة للسانيات نحو منحى جديد ألمح إليه بنفست وسماه لسانيات التلفظ ، والذي ينتقل بموجبه الاهتمام من ثنائية :

اللغة / الكلام ، إلى ثنائية : الملفوظ / والتلفظ .⁽⁴⁾

4- علاقة التداولية بالنحو الوظيفي :

يعد النحو الوظيفي أهم رافد للدرس التداولي ، إلى جانب الفلسفة والنظريات اللسانية الحديثة ، بل إن من الدارسين من جعل الوظيفية في معناها تقابل التداولية ، من مبدأ أن خصائص بنيات اللغات الطبيعية تتحدد من ظروف استعمالها ، وإذا عد تداول اللغة مظهرا من مظاهرها ، إلى جانب المعجم والتراكيب فإنه يمكن القول : إن النحو الوظيفي وهو يحدد أهدافه في تحقيق كفاية نفسية ، كفاية تداولية ، وكفاية نمطية ، يقدم دعائم هامة للتفسير التداولي للخطاب .⁽¹⁾

5- علاقة التداولية بعلم الدلالة :

كان منشأ الإشكالية الأولى نابعا من صعوبة التفريق بين التداولية واللسانيات ، وضبط حدود مجال دراسة كل منهما ، فإن تداخل التداولية بعلم الدلالة مرده إلى أن كلا منهما يتناول المعنى الذي هو زبدة التواصل . ومهما حاولنا التمييز بينهما فإن هذا التداخل هو الذي أعاق الألسنيين على ضرورة الفصل ، وبيان حدود كل مجال على خلفية أن علم الدلالة كما التداولية ، وهو يحاول تبين معنى كلمة ، أو عبارة ، أو جملة ، لا يكون ذلك بمعزل عن العلاقة بالمتكلم ومقاصده وعن السامع والموقف الذي يجري فيه الكلام .⁽²⁾

(3) ينظر : طه عبد الرحمن . اللسان والميزان . ص 231 .

(4) - ينظر : نواري السعودي . في تداولية الخطاب الأدبي . ص 21 .

(1) - ينظر : خليفة بوجادي . في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم . بيت الحكمة . ط 1 / 2009 . ص 126 .

(2) - ينظر : نواري سعودي . مرجع سابق ص 22 .

6- بين التداولية والبنوية : يشترك الدارسون في قولهم : إن التداولية تهتم بالكلام ، الذي

هو غير اللسان ، المبعد من مجال علم اللسان في نظر سوسير ، واللسانيات البنوية تهتم أساسا بدراسة نظام اللغة ، دون الاعتداد بنوايا المتكلم وسياق التلفظ . وهذا ما دفع ببعضهم إلى عد التداولية لسانيات الكلام . مع أن الكلام ليس معزولا عن اللغة إلا افتراضا ، فاللغة لا تتحقق إلا في مستوى الكلام ، أما التداولية فعرفت بدراسة استعمال اللغة مقابل دراسة نظام اللغة ، واستعمال اللغة له تأثيراته على التواصل وعلى النظام اللغوي نفسه ، وهذه التأثيرات هي أولى اهتمامات التداولية . فالبعد التداولي في دراسة اللغة يتجاوز منوال (الشكل ، المعنى) إلى مجالات أخرى لا يحكمها هذا المنوال . نحو : الملفوظية ، والحجاج ، ومظاهر الاستدلال في اللغة ، والتضمن والافتضاء ، وغيرها .⁽³⁾

7 - التداولية والأسلوبية :

الأسلوبية تحلل النصوص الأدبية ، تصف أدبيتها وتبين الخواص الفنية الموجودة في الجماليات الكلامية ، فهي تقف عند حدود التشخيص والوصف الفني ، ولا تقف على أغراض القائل المقامية ، ولا تتبنى الاستراتيجيات الخطابية للنص على ما هو قول كما تفعل ذلك التداولية . لقد اقتصر التداوليون على المعنى المقامي ، واعتبروه عمدة التفسير ، وانكب الأسلوبيون على المعنى اللغوي . رغم أن الأسلوبية والتداولية كلاهما منهج من مناهج تحليل الخطاب ، فإذا كانت الأسلوبية تقف عند حدود جمالية القول ، فإن التداولية تنظر في قيمة القول خارج العالم اللساني أي هي تنظر إلى البعد العملي للقول . وإذا نظرنا إلى أدوات التحليل التداولي ألفيناها أقرب إلى المنطق ، والمنطق يتخذ من الأقوال العادية ، والأقوال المصطنعة مدونة له ، أما الأسلوبية فتتناول في الغالب تحليل الخطاب الأدبي ، ومن ثمة فإن التداولية والأسلوبية تتخذان مدونتين متنافرتين عند التطبيق ، وهذه أهم أوجه المماثلة والتشاكل بين هذين المنهجين :
الأسلوبية والتداولية .⁽¹⁾

8 - علاقة التداولية باللسانيات النفسية والاجتماعية :

تتشترك اللسانيات النفسية مع التداولية في الاهتمام بقدرات المشاركين التي لها أثر في آرائهم ، مثل الانتباه ، الذاكرة ، الشخصية . ويتضح ذلك في المثال التالي :

(3) - ينظر : خليفة بوجادي : في اللسانيات التداولية . ص 123 .

(1) - ينظر : صابر الحباشة . الأسلوبية والتداولية . مداخل لتحليل الخطاب . ط1/2011 . عالم الكتب الحديث . إربد . الأردن . ص12 .

- يقول أمين حين دخل الغرفة : الجو ليس ساخنا هنا .

فتقوم فاطمة بإغلاق إحدى النافذتين لأن أمين أصابه تيار هوائي لا يشعر بالحرارة . فإجابة فاطمة تعتمد كثيرا على جانب شخصيتها وتستند إلى سرعة البديهة ، وحدة الانتباه ، وقوة الذاكرة الشخصية، والذكاء، وبعض جوانب الطبع .⁽²⁾

و تشترك اللسانيات الاجتماعية مع التداولية في: " تبين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث والموضوع الذي يدور حوله الكلام ، ومرتبة كل من المتكلم والسامع ، وجنسه وأثر السياق غير اللغوي في اختيار السمات اللغوية وتنوعاتها ."⁽³⁾

(2) - ينظر : خليفة بوجادي . في اللسانيات التداولية ص 132

(3) - محمود نحلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ص 10

الفصل الثاني

نظرية الأفعال الكلامية

المبحث الأول : الأفعال الكلامية في الدراسات الغربية

المبحث الثاني : تصنيف الأفعال الكلامية

المبحث الثالث : كيفية عمل الإنشائيات

المبحث الرابع : الأفعال الكلامية في الدراسات العربية

المبحث الخامس : الدلالة عند الأصوليين

إن نظرية الأفعال الكلامية هي مفهوم أساسي من مفاهيم النظرية التداولية ، إذ لا يمكن تجاهله في تحليل الخطاب ، خاصة وأن بعض التعريفات المعاصرة المقدمة للنص تستند إلى هذا الحقل المعرفي وتعد نظرية الفعل الكلامي (ويطلق عليها أيضا : نظرية الحدث الكلامي، ونظرية الحدث اللغوي ، والنظرية الإنجازية) في رأي الكثير من الباحثين جزءا من اللسانيات التداولية Pragmatique .

إن التخاطب يتأسس على تأدية المتخاطبين لأفعال الكلام ، لذلك أحاط العرب بظاهرة الأغراض أو الأساليب الإنشائية إحاطة شاملة ونظامية ، حيث يرى البلاغيون أن ثنائية الخبر والإنشاء هي الأصل في اللغة ، أما ما يتفرع عنها من أساليب قد تبدو خبرية ، ولكنها إنشائية في المضمون ، فهي فروع مثل : "رحمك الله " . التي تقال لشخص عطس ، والتي تبدو إخبارا ، ولكنها تعني الدعاء ؛ أي أدعوا الله أن يرحمك .

نظرية أفعال الكلام :

ظهر أثر نظرية الاستعمال أو الألعاب أول ما ظهر في مدرسة أوكسفورد ، وخاصة في أعمال أوستين ، ولاحقا في أعمال تلميذه الفيلسوف سيرل صاحب نظرية أفعال الكلام ، ولقد أحدث أوستين بطريقته الخاصة تحولا في المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ، من الفلسفة اللغوية إلى فلسفة اللغة ، كمجال فلسفي يبحث في مشكلات اللغة ، ولا تكمن أهمية اللغة في بنيتها التركيبية ولكن في دورها التوسطي كمجال للاتفاق ، و أوستين بجهود فلاسفة التحليل لأنه اعتبر الفلسفة اللغوية بمثابة الثورة الكبرى في تاريخ الفلسفة . وإن المنطلق في هذا التوجه هو اللغة العادية ، ولكن الحذر مطلوب في اللغة العادية لأنها محملة بالأحكام المسبقة وبالأخطاء ، والأوهام . ولا يقول أوستين بالتقسيم التقليدي للقضايا والجمل إلى خبرية وإنشائية ، وبالتالي الاحتكام إلى معيار الصدق والكذب ، وإنما ينطلق من موقف جديد وهو : أن كل الجمل والعبارات مهما كانت طبيعتها قابلة ومعدة للتواصل ، وبالتالي فإن الوحدة الأساسية للغة هي الأفعال الكلامية ، وإذا اعتبرنا الأقوال أفعالا ، فإنها تسعى إلى أن تحقق شيئا ما ، وبالتالي فإن المسألة لا تتعلق بالصدق أو الكذب فقط وإنما بالسياق والمناسبة التي تم فيها الفعل أيضا (1)

إن هذه الخطوط العامة لنظرية أوستين هي التي ستشكل صلب نظرية أفعال الكلام ، التي أسسها سيرل حيث حاول أن يذهب أبعد مما ذهب إليه أوستين ، وأن يدخل فيها تحليلات فتجنشتاين ، وغرايس ، وستراوس . بحيث يرى أن التكلم باللغة يعني الالتزام بشكل من السلوك المحكوم بقواعد . (2)

(1) - ينظر : الزواوي بغورة . الفلسفة واللغة . ص 104 .

(2) - ينظر : محمد الأخضر الصبيحي . مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه . ص 56 .

وتعتبر نظرية أفعال الكلام من بين أولى النظريات ، التي حاولت بحث العلاقة بين اللغة والاتصال ، إلا أنها واجهت نقداً واسعاً ، وخاصة فيما يتعلق بمعجمها الاصطلاحي ، ولقصرها أفعال التلفظ الثلاثة على الإنتاج اللغوي فحسب ، في حين أن مفهوم السياق المعرفي والاجتماعي والمؤسساتي والتاريخي له أهميته الأساسية . ولقد انتقد بول ريكور P. Ricoeur ، وميشيل فوكو M. Foucault ، وبورديو جوانب من هذه النظرية ، ولكنهم أكدوا جميعاً على طابعها الإيجابي ، الذي يسمح بالخروج من المنعطف اللغوي كما أرسته الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية ، وبينوا جوانب جديدة من مجالاتها التطبيقية ، ويمكن أن نقرر مطمئنين أن نظرية الأفعال الكلامية في الفكر الأنجلوسكسوني المعاصر ليست نظرية كاملة ، وينبغي ألا ننظر إليها على أنها نظرية كاملة ، ولكن هذا النقد لا يمس جوهر مفهوم الأفعال الكلامية ذاته ، وإنما يعدل بعض جوانب ذلك المفهوم قصد إيلائه قدراً أكبر من الكفاية العلمية التفسيرية والإجرائية .⁽¹⁾

مفهوم الفعل الكلامي :

إن أفعال الكلام ترجمة للمقابل الإنجليزي Speech acts هو تعبير على سبيل التجاوز ، وإن كان النسق العربي لا يسمح بإسناد الفعل إلى الكلام ، ولا يمكن فهم معنى **الفعل** كما يقدمه أوستين في نظريته ، إلا إذا ربطناه بالدراسات القانونية ، وخاصة القانون الإداري ، الذي استفاد منه كثيراً ، وأثر عليه في أبحاثه ، وعليه ينبغي استحضار باب **إنجاز الفعل الإداري** المعروف تحت مصطلح **القرار الإداري** ، ومعيار تميزه وكيفية اتخاذه ككيفية اتخاذ قرار الحرب مثلاً . ومعلوم أن الفعل الإداري يندرج تحت نظرية العقد العامة في صورتها الفلسفية ، كما يتعين التنبيه إلى أن **الفعل** في اللغة العربية يدخل ضمن باب **المشترك اللفظي** بحسب بعض كتب فقه اللغة ؛ أي أننا نتحدث عن الفعل ونقصد به **الصيغة** بمعناها الصرفي والنحوي ، كما نقصد به **الحدوث والوقوع** . وفي اللغة الإنجليزية والفرنسية مثلاً : هناك الفعل بوصفه **صيغة Verb** ، وهناك الفعل باعتباره **حدثاً act / action** .⁽²⁾

وقد صنف علماء الأصول الفعل إلى خمسة أقسام وهي : الواجب ، والمحظور ، والمندوب ، والمكروه ، والمباح . وهو تقسيم يوضح بجلاء أنواع الأفعال الإنشائية التي يحصل مدلولها في الخارج بالكلام ، وهذا المعنى للإنشاء هو الذي يقدمه أوستين ، فنحن ننجز الأشياء بالكلام ، أي نخرجها من حيز العدم إلى الوجود ، حسب الأوضاع والمواقف.⁽³⁾

(1) - ينظر : الزواوي بغفورة . مرجع سابق ص 108

(2) - ينظر : العياشي أدراوي . الاستلزام الحوار في التداول اللساني . ص 73 .

(3) - ينظر: نفسه . ص 73

"إن الفعل الكلامي لا يتكون إلا بشروط معينة ، هذه الشروط يجب أن يعرفها المشاركون في الاتصال ويسلموا بها ، وبذلك يوفق الاتصال ، وهكذا يبدوا الاتصال الإنساني لا تحكمه شفرة بنظام العلامات فحسب ، بل بالاستناد إلى سياق التوارد أيضا". (1)

شروط الملاءمة عند أوستين :

لقد أطلق أوستين على الشروط التي تتحقق بها الأفعال الأدائية الصريحة :

شروط الملاءمة Felicity conditions ، وحصرها في ثلاثة أنماط أساسية ، كل نمط منها يحتوي على شرطين فهي إذن ستة شروط وهي :

1 - أ - وجود إجراء عرفي مقبول ، وله أثر عرفي محدد كالزواج مثلا : فهو يتطلب كلمات محددة ينطق بها أشخاص محددون في ظروف محددة ، فإذا اختلف شرط من هذه الشروط أو كان الشخص الذي يتولى الإجراء فاقد الأهلية فإن الفعل لا يؤدي .

ب - ينبغي أن يكون أولئك الأشخاص مناسبين ، وكذلك الظروف تكون مناسبة .

2 - أ - جميع المشاركين يؤدون هذا الإجراء أداء صحيحا (تجنب العبارات الغامضة ...)

ب - ينبغي أن يكون الأداء كاملا ، ففي فعل البيع مثلا يجب أن يتحقق الإيجاب والقبول .

3 - أ - أن يتمتع الأشخاص بالإخلاص وصدق المشاعر ، فإذا قلت لشخص : أهنتك بهذه المناسبة

السعيدة وأنت في قرارت نفسك لا تشعر بذلك ، بل بنقيضه ، أو إذا قلت لشخص : أعذك أن أساعدك وأنت لا تتوي أن تساعد ، أو إذا قلت لرجل أنصحك بكذا وأنت تقصد تضليله فقد أسأت أداء الفعل .

ب - على المشارك في الإجراء أن يتحلّى بالسلوك ويجسده ، فإذا قلت لشخص : أرحب بك ثم سلكت سلوك غير المرحب ، فقد أسأت أداء الفعل .

وقد أطلق أوستين على الأفعال التي خالفت الشروط الأربعة مصطلح الإخفاقات Misfires وعلى ما خالف شرطا من الشرطين الأخيرين مصطلح الإساءات Abuses .

الوسائل اللغوية للتمييز بين الأفعال :

سعى أوستين إلى تمييز الأفعال الأدائية عن الإخبارية ، فحاول أن يلتصق وسائل لغوية للتمييز ،

فلاحظ : أن الجملة الإنجليزية تقسم بحسب الصيغة إلى : جملة خبرية Declarative ، وأمرية

Imperative ، واستفهامية Interrogative. (2)

(1) - كلامير . أساسيات علم لغة النص . ترجمة : سعيد حسن بحيري . ط1/2009 . نشر . مكتبة زهراء الشرق . القاهرة . ص 48.

(2) - . Voir : Austin . . How to do things in words . p 16 .

وقام أوستين بتقسيم الجملة الخبرية نفسها إلى: وصفية Constative ، وإنشائية Performative .
بانيا هذا التقسيم على أساس أن ما وضعه تحت الإنشائيات هو جمل تقال لا لوصف إنما التلفظ بها هو
جزء من القيام بفعل . ولاحظ أوستين أن هذه الأفعال في اللغة الإنجليزية يستخدم معها غالبا ضمير
المتكلم مسندا إليه . والفعل في صيغة المضارع المبني للمعلوم ، ومن ثم فهو يرى أنك إذا قلت :
- أعددك بكذا . كان فعلا أدائيا . لكنك إذا قلت :

- وعدتك بكذا . لم يكن أدائيا . لأنها تدل على الخبرية .⁽¹⁾

فالمثال الأول صريح الدلالة على الوعد وفي المثال الثاني قد يكون وعدا وقد لا يكون ، لأن الوعد يأتي
في سياق يعتقد فيه الواعد أن المخاطب يتطلع إلى هذا الوعد ؛ لأن الإنجازيات الضمنية تعتمد على
المقام بخلاف الإنجازيات الصريحة ، فإن إدراكها أيسر .⁽²⁾

يتميز الفعل الإنجازي عن الفعل الكلامي من ناحية البنية اللغوية ، فالفعل الإنجازي يتحقق بصيغة
المفرد المتكلم ، في زمن الحاضر مثل قولك : **أعدك بالحضور** . أما الفعل الكلامي فبإمكانه أن يتحقق
بكلمة مثلا : **شكرا**.⁽³⁾ ومن ناحية أخرى فإن هناك مشكلات في الجملة الخبرية لم يتمكن الفلاسفة من
حلها بالاستناد إلى معيار الصدق والكذب ، ووجد أوستين أنها تقبل الحل وفق معيار النجاح والفشل .
وبرغم ما بذله أوستين في التمييز بين الأفعال الإنشائية والخبرية ، فقد ظل يرجع النظر في هذا
التقسيم حتى تبين له في النهاية أن الحدود بين هذين النوعين لا تزال غير واضحة . فعاد من حيث بدأ
إلى السؤال : كيف ننجز فعلا حين ننطق قولا ؟ فرأى الفعل الكلامي مركبا من ثلاثة أفعال تؤدي في
وقت التلفظ بالفعل ، فهي ليست أفعالا ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحدا وراء الآخر بل هي جوانب
لفعل واحد .⁽⁴⁾

تقسيم الفعل الكلامي الكامل :

توصل أوستين في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى تقسيم الفعل الكلامي الكامل :
Acte de discours :
integral إلى ثلاثة أفعال فرعية هي :

1 - فعل القول : Acte locutoire

ويراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ، ذات بناء نحوي سليم ، وذات دلالة . ففعل القول يشتمل
على المستوى الصوتي ، وهو التلفظ بسلسلة من الأصوات .
وأما المستوى التركيبي : فيؤلف بين مفردات طبقا لقواعد لغة معينة .

(1) - Voir : Austin . How to do things in words , p 55 .

(2) - Voir : Austin . IBID . P 94 .

(3) - ينظر : عمر بلخير مقالات في التداولية والخطاب . ص 147 .

(4) - Voir : Austin . How to do things in words . p 95 .

أما المستوى الدلالي فهو : توظيف هذه المستويات حسب معان وإحالات محددة .فقولنا مثلا : إنها ستمطر. يمكن أن نفهم معنى الجملة ، ومع ذلك لا ندري أهي : إخبار ، أم تحذير من الخروج في رحلة، أم أمر بحمل مظلة .⁽¹⁾

2- فعل متضمن في القول : Acte illocutoire

وهو الفعل الإنجازي الحقيقي ، إذ أنه عمل ينجز بقول ما ، وهذا القسم هو المقصود من نظرية الأفعال الكلامية برمتها .ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد ، و الوعيد، والنصح والتحذير، والشهادة ،و التأكيد ...الخ.

ويرى أوستين أن المتلفظ بالفعل قد يكون قائما بفعل ثالث هو التأثير في المخاطب وهذا الفعل يسمى:

3- الفعل الناتج عن القول : Acte perlocutoire

ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع ،أو المخاطب ، سواء أكان تأثيرا جسديا ، أم فكريا ،أم شعوريا ،(كالخوف ،أو الهرب ، أو تعديل السلوك ،أو إقناع ، أو تضليل...⁽²⁾).

"وقد أدرك أوستين أن الفعل اللفظي لا ينعقد الكلام إلا به ، وأن الفعل التأثيري لا يلزم الأفعال جميعا ... ومن ثم كان الفعل الإنجازي عنده أهمها جميعا ، فوجه إليه همه حتى أصبح لب هذه النظرية ، ... على أن الفعل الإنجازي عند أوستين يرتبط ارتباطا وثيقا بمقصد المتكلم ...وقد قام أوستين في المحاضرة الأخيرة(الثانية عشرة) بتقديم تصنيف للأفعال الكلامية على أساس ما سماه قوتها الإنجازية فجعلها خمسة أصناف "⁽³⁾.

"ونلاحظ أن القسم (المتضمن في القول) يشتمل على أمر زائد هو (القوة Force) مثل قوة الخبر ، قوة التحذير ، قوة الأمر ."⁽⁴⁾

وظائف الفعل الكلامي :

كان فوندرليش (D. Wunderlich) قد عنى ببيان ما تقدمه النصوص أو مقاطع منها . من مساعدة في تحديد الأفعال الكلامية المقصودة ، بين فوندرليش أن الفعل الكلامي يمكن أن يشغل وظائف عدة في وقت واحد ، يمكن للمنطوق أن يكون إقرارا من الناحية الدلالية ، ولكنه من الناحية التداولية قد يكون استنكارا .⁽⁵⁾ وهناك وظائف أخرى للفعل الكلامي غير المباشر ،"فقد تطرق دوروتي فرانك D.Frank إلى الوظيفة الاجتماعية للأفعال غير المباشرة

(1) Voir : Austin . How to do things in words . p 95.

(2) IBID , p 95 .-

(3) IBID , p 96 .-

(4) - IBID . P 98-100

(5) - ينظر : محمد العبد . تعديل القوة الإنجازية . مجلة فصول . ع/65 . خريف 2004 .

ويرى أن من بين وظائفها ما يلي : تحاشي المحظورات ، التحايل على حواجز غير مرغوب فيها ، تفادي مطلب غير مبرر ، أو خلق إمكانيات واسعة تمكن من الاهتداء إلى مخرج" (1)

الفعل الكلامي من الجملة إلى النص :

في كتابه المعروف (النص والسياق 1980) عنى (فان دايك Van Dijk) بتطوير تداولية أفعال الكلام عن طريق توجيهها من مجال الجملة عند مؤسسها أوستين إلى طريق النص ، وقد قام بتحليل ما سماه **أفعال الكلام الكبرى** ، ويريد به : فعل الكلام الإجمالي الذي يؤديه منطوق الخطاب الكلي ، والذي تتجزه سلسلة من أفعال الكلام المختلفة . انتهى فان دايك هنا إلى أن سلسلة الأفعال الكلامية تفسر بأنها فعل كلامي واحد ، إذا كانت تشير إلى مقصد إجمالي واحد . ويمكن لهذا الفعل الكلامي - على مستوى أعلى - أن يكون بدوره نتيجة لأفعال كلامية أخرى. وأطلق فان دايك على سلسلة أفعال الكلام المفردة اسم **التداولية الصغرى** وأطلق على دراسة التنظيم الكلي لمتواليات الأفعال الكلامية والسياقات وعلاقتها ببنية الخطاب اسم **التداولية الكبرى** . (2) "فالنص إذن هو مجموعة من الأفعال الكلامية ، التي تتكون من مرسل للفعل اللغوي ، ومتلق له ، وقناة اتصال بينهما ، وهدف يتغير بتغير مضمون الرسالة ، وموقف اتصال اجتماعي يتحقق فيه التفاعل" (3). ويبين فان دايك أن هذه المحادثة قد اشتملت على متواليات من أفعال كلامية عدة : كالمدح ، والسؤال ، والتصريح ، والاقتراح ، والتوكيد ، والوعد . والفعل الكلامي الذي تؤديه هذه المتواليات هو إذن فعل كلامي إجمالي : هو فعل الوعد. (4)

"وبهذا تؤكد نظرية أفعال الكلام أن الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط ، بل إنجاز حدث اجتماعي في آن ، فهناك أحداث كثيرة ننجزها من خلال نطق جملة أو نص ما" . (5)

"ويعد كل منطوق لغوي من المنظور البراجماتي ليس منطوقا من مضامين فحسب ، بل هو منطوق من المقاصد أيضا ، المنطوق اللغوي هو إذن فعل داخل مجريات فعلية ، يغير كل فعل العلاقات القائمة بين شركاء التواصل ويوجد الشروط لأفعال تالية ذات الطبيعة اللغوية وغير اللغوية". (6)

تصنيف أوستين للأفعال الكلامية :

اتبع أوستين في تقسيمه المنهج التالي : أخذ ألفاظ الأفعال ذات صيغة المضارع المعلوم للمتكلم المفرد والرجوع إلى القاموس لفهم ما يراد منها بحسب القاعدة : أن يقال كذا يعني أن يفعل كذا .

(1) جيلالي دلاش . مدخل إلى اللسانيات التداولية . ص 31 .

(2) - ينظر: نفسه . ص 135

(3) - سعيد حسن بحيري . علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) . ص 101

(4) - ينظر : محمد العبد . مرجع سابق . ص 136.

(5) - حسام أحمد فرج . نظرية علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري) . ص 48

(6) - زتسيسلاف واورزنيك . ترجمة : سعيد حسن بحيري . ص 87

- وقد توصل أوستين إلى التقسيم المبدئي التالي في خمسة أصناف :

1 - الحكميات (أفعال الأحكام) : Verdictives

2 - الإنفاذيات (أفعال القرارات) : Exercitives

3 - الوعديات (أفعال التعهد) : Commissives

4 - السلوكيات (أفعال السلوك) : Behabitives

5 - التبيينات (أفعال الإيضاح) : Expositives⁽¹⁾

قدم أوستين هذا التقسيم المبدئي لكنه لم يتردد في القول بأنه غير راض عن هذا التصنيف . وبذلك لم يستطع أن يضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية . " فلم يكن ما قدمه من تصور كافيا ، ولا قائما على أسس منهجية واضحة ومحددة ؛ فقد خلط بين مفهوم الفعل ؛ قسما من أقسام الكلام ، والفعل ؛ حدثا اتصاليا ، ولم يتم تحديده للأفعال وتصنيفه لها على أساس راسخ فتداخلت فئاتها ، ودخل في بعض الفئات ما ليس منها ، لكنه برغم ذلك وضع بعض المفاهيم المركزية في النظرية ، ومن أهمها تمييزه بين محاولة أداء الفعل الإنجازي ، والنجاح في أداء هذا الفعل ، وتمييزه بين ما تعنيه الجملة ، وما قد يعنيه المتكلم بنطقها ، وتمييزه بين الصريح من الأفعال الأدائية والأولي منها"⁽²⁾.

ثم عمل الفيلسوف الأمريكي سيرل على تطوير ومتابعة المشروع الفلسفي ، الذي بدأه أستاذه أوستين . " من الواضح أن تقسيم أوستين للأفعال قائم على أساس الوظيفة التي يؤديها المنطوق اللغوي في المواقف الفعلية للكلام ، لا على أساس النواحي الشكلية ، والتي تبين أنها غير كافية في تحديد هذه المنطوقات وقد اعترض كثير من الباحثين على هذا التقسيم وعلى ما بين الأقسام من تداخل ، وقد اعترف أوستين نفسه بهذا ، ومع ذلك فنحن نرى أن نظريته قوية وما تزال تثير الجدل بين اللغويين والفلاسفة ، بل ونقول مطمئنين : إنها جزء هام من التراث الفلسفي واللغوي المعاصر ، ولا يمكن لباحث في وظيفة اللغة ومناهج التحليل اللغوي أن يتجنبها ، أو ألا يستفيد منها ."⁽³⁾

" إن إحدى المشكلات الكبرى التي لم تحل في علم اللغة الحديث حتى الآن ، أن نكتشف العلاقات المطردة بين الخصائص الشكلية للمنطوق ، والموقف الذي يقودنا إلى تفسير مخصوص للحدث باعتباره خبرا ، أو إنشاء ، أو تحذيرا ، أو وعدا ، أو تقريرا... الخ وقد قدم أوستين في هذا الصدد نظرية جديرة بالدراسة وحقيقة بالاستعمال."⁽⁴⁾

⁽¹⁾ p. 152 (how to do things with words) . Austin . j l -

⁽²⁾ - محمود نحلة . مرجع سابق . ص 71 .

⁽³⁾ - محمد حسن عبد العزيز . مرجع سابق . ص 325 .

⁽⁴⁾ - نفسه . ص 326 .

مساهمة جون سيرل Searle وفاندرفكن Vandervekan :

إن دراسة سيرل وتصنيفه للأفعال الكلامية أكثر دقة ، وأعمق تحليلا ، بما ضبطه من مفاهيم ، فقد عد (الغرض المتضمن في القول (But Illocutoire) عنصرا ومكونا أساسيا من مكونات (القوة المتضمنة في القول (Force Illocutoire) كما ساهم في مناقشة مشكلات هامة في فلسفة اللغة . كما استفاد من نتائج المنطق الحديث " ويرى سيرل أن الفعل الإنجازي هو وحدة الاتصال الإنساني باللغة وكذلك الرأي عند فاندرفكن ، فالفعل الإنجازي في رأيه ، هو الوحدة الأولية لمعنى الجملة ، وهو الوحدة الأولية للاتصال.⁽¹⁾ ومن الممكن أن نحدد أهم ما قام به سيرل فيما يأتي :

أولا : قام بتعديل التقسيم الذي قدمه أوستين للأفعال الكلامية ، فجعله أربعة بدلا من ثلاثة أبقى منها على قسمين الإنجازي و التأثيري ، لكنه جعل الفعل اللفظي قسمين :

أحدهما الفعل النطقي : ويشمل الجوانب الصوتية ، والنحوية ، والمعجمية . **والثاني الفعل القضوي :** وهو يشمل المرجع ، والمتحدث به (الخبر) ونص على أن الفعل القضوي لا يقع وحده بل يستخدم دائما مع الفعل الإنجازي ، كما نص على أن الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي.⁽²⁾

ومثال ذلك :

1- يقرأ زيد الكتاب 2- أقرأ زيد الكتاب

3- يا زيد اقرأ الكتاب 4- لو يقرأ زيد الكتاب

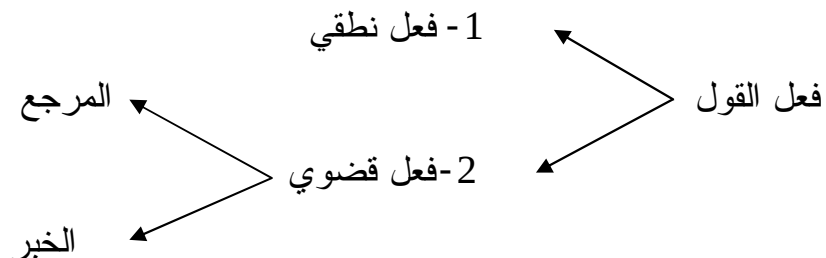
عند النطق بأي من هذه الجمل ينجز المتكلم ثلاثة أنواع من الأفعال في وقت واحد :

1- فعل القول : ويتكون من : فعل نطقي ، وفعل قضوي .

الفعل النطقي : هو النطق الصوتي للألفاظ على نسق نحوي ، ومعجمي صحيح

الفعل القضوي : ويتمثل في مرجع هو : زيد في الجمل الأربعة ، وخبر هو : قراءة الكتاب والمرجع

والخبر يمثلان معا قضية هي : قراءة زيد الكتاب .ويمكن توضيح ذلك في الشكل التالي :



2- فعل متضمن في القول : وهو الفعل الإنجازي يحمل مقصد الناطق به. وهو الإخبار في الأولى ، والاستفهام في الثانية ، والأمر في الثالثة ، والتمني في الرابعة.

(1) - محمد العبد . مرجع سابق ص135

(2) - Voir: Searle .j.R .Speech Acts . an essay in the philosophy of language . p24-25

3- فعل تأثيري : هو الفعل الناتج عن القول .

وينبغي الإشارة إلى أن الفعل التأثيري ليس له أهمية كبيرة عند سيرل . ويدل على القوة الإنجازية دليل يسمى دليل القوة الإنجازية ، وهو في الإنجليزية : (نبر ، أو تنعيم ، أو ترقيم ، أو نظام الجملة ، أو صيغة الفعل ..)⁽¹⁾

2- ثانيا : يرى سيرل أن الفعل الكلامي أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم ، بل هو مرتبط أيضا بالعرف اللغوي والاجتماعي ، فقصد المتكلم وحده لا يكفي ، بل لابد من العرف اللغوي .

3- ثالثا : استطاع سيرل أن يطور تصور أوستين لشروط الملازمة أو الاستخدام التي إذا تحققت في الفعل الكلامي كان موفقا فجعلها أربعة شروط ، وطبقها تطبيقا محكما على أنماط من الأفعال الإنجازية فطبقها على أفعال : الرجاء ، والإخبار ، والاستفهام ، والشكر ، والنصح ، والتحذير ، والتحية ، والتهنئة.⁽²⁾ شروط الملازمة :

1- شرط المحتوى القضوي : فعل في المستقبل مطلوب من المخاطب .

2- الشرط التمهيدي : المخاطب قادر على إنجاز الفعل ، والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز الفعل .

3- شرط الإخلاص : المتكلم يريد حقا من المخاطب أن ينجز هذا الفعل .

4- الشرط الأساسي : محاولة المتكلم التأثير في المخاطب لينجز الفعل.⁽³⁾

ولم يكتف سيرل بذلك بل قال : إن هناك على الأقل اثنا عشر بعدا يختلف بها كل فعل إنجازي عن الآخر نوجزها فيما يلي :

الاختلاف في الغرض الإنجازي للفعل :

فالغرض الإنجازي للأمر مثلا هو محاولة التأثير في السامع ليقوم بفعل ما ، على حين أن الغرض الإنجازي من الوعد هو إلزام المتكلم نفسه بشيء ما على أن الغرض الإنجازي المتضمن في القول يعد عنصرا و مكونا من مكونات القوة المتضمنة في القول⁽⁴⁾.

" فالغرض الإنجازي من الرجاء مثلا هو نفسه الغرض الإنجازي للأمر لكن القوة الإنجازية في كل منهما تختلف ، فالقوة الإنجازية نتاج عناصر عديدة ليس الغرض الإنجازي إلا واحدا منها "⁽⁵⁾.

(1) - ينظر محمود نحلة . مرجع سابق . ص 71 . وينظر أيضا : هاشم طبطباتي . مرجع سابق . ص 13

(2) - ينظر : محمود نحلة . نفسه . ص 74 .

(3) - . Voir: Searle .j.R .Speech Acts . an essay in the philosophy of language p 53

(4) - ينظر : عبد الهادي ابن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 157 .

(5) - هاشم طبطباتي . مرجع سابق . ص 17 .

الاختلاف في الموقف النفسي : الذي يعبر عنه المتكلم ، فالذي يعد أو يتوعد يعبر عن مقصدية الإنجاز، والذي يأمر أو يطلب ، أو يرجو يعبر عن رغبة في أن ينجز السامع الفعل ، والذي يندم يعبر عن الندم على ما فرط منه هذا شرط آخر يجب توفره في الفعل الذي توفرت فيه شروط النجاح ليكون صحيحا ، ويتضح هذا الشرط أن كلما أدى المرء فعلا متضمنا في القول ، مشتملا على محتوى قضوي فإنه يعبر بذلك عن حالة نفسية تجاه ذلك المحتوى القضوي فمثلا من يقرر فهو يعبر عن اعتقاد. ويلفت سيرل و فاندرفيكن نظرنا إلى الإشكالية التي تنشأ عن أداء الفعل ونفي تحقيق شرط الصراحة كأن يقال : أعد بالحضور لكنني غير ناو له . أو : أعتذر لكنني غير آسف . وكذلك يلاحظ أن أنه من الممكن دائما أن يعبر المتكلم عن حالة نفسية لا ينطوي عليها ، وهذا هو سبيل التمييز بين الفعل الكلامي الصريح ، وغير الصريح . فالأول يعبر عن حالة نفسية رغم عدم انطوائه عليها واقعا، فمثلا : الإخبار غير الصريح (الكذب) هو الذي لا يعتقد قائله بمضمونه . والفعل الكلامي غير الصريح فاسد لكنه غير باطل .⁽¹⁾

الاختلاف في القوة أو في الدرجة: التي يعرض بها الغرض الإنجازي بدرجات من الشدة متفاوتة مثلا : أنا أطلب منك أن تعمل ، هو مسعى أقل شدة من : أنا أصر عليك أن تعمل . كل منهما بدرجة مختلفة من القوة فهو في القول الثاني أقوى .⁽²⁾

الاختلاف في منزلة كل من المتكلم والسامع : (نمط الإنجاز) بعض الأفعال المتضمنة في القول تتطلب مجموعة من الظروف بوجودها تتحقق الأغراض مثلا : المتكلم الذي يصدر أمرا إداريا رسميا من موقع السلطة يفعل شيئا أزيد مما يفعله المتكلم ، الذي يصدر طلبا عاديا . ومثال آخر : الشخص الذي يعطي خبرا وهو شاهد في محكمة لا يوصف فعله بأنه مجرد إخبار بل إن ما يفعله هو قيامه بشهادة. " وإذا طلب الضابط من الجندي أن يفعل شيئا كان أمرا ، أما إذا طلب الجندي من الضابط أن يفعل شيئا كان اقتراحا ، أو رجاء . لكنه لا يكون أمرا بحال." ⁽³⁾

الاختلاف في طريقة ارتباط القول باهتمامات المتكلم والسامع : كاختلاف بين المدح والثناء أو التهنية والتعزية . وهو نمط آخر من أنماط الشرط التمهيدي .

الشروط المعدة

وهي الشروط اللازمة لتحقيقها ليكون الفعل صحيحا أي ناجحا ، مثلا : قد يكون الوعد ناجحا فيحقق غرضه المتضمن في القول ، ومع ذلك لا يكون صحيحا بل فاسدا ، من بعض الجهات . مثلا : يكون الوعد فاسدا إذا لم يكن الفعل الموعود بوقوعه أمرا في صالح المخاطب ، وبالمثل يكون الاعتذار فاسدا

(1) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 76

(2) - ينظر : هاشم طبطباني . مرجع سابق . ص 22 .

(3) - محمود نحلة . المرجع نفسه . ص 76 .

إذا لم يكن الأمر المتعذر عنه سيئاً ، إن تحقق هذا القسم من الشروط يسمى مفترضات القوة المتضمنة في القول .⁽¹⁾

ملاحظات حول الشروط المعدة :

1- يلاحظ سيرل وفاندرفن أن إشكالية تنشأ من أداء فعل متضمن في القول مع نفي شيء من

شروطه المعدة ، مثلاً : لا يمكن التوفيق بين أداء الوعد ونفي التمكن من أداء الفعل

الموعد به .⁽²⁾

2- هناك مجموعة من الشروط المعدة تترتب مباشرة على الغرض المتضمن في القول مثال : "يجب على الطالب أن يكون له مطلب، يمكن تحقيقه موضوعياً"⁽³⁾ أي قدرة المخاطب على القيام بذلك. وهناك مجموعة أخرى لا تكون كذلك مما لا يمكن أدائه مثال: أحضر لي القمر. أو من الشروط المعدة للتهديد أن يكون الفعل المهدد بإيقاعه مما يضر المخاطب . وليس هذا شرطاً معداً في الوعد .

درجة الشدة في شرط الصراحة :

إن الحالة النفسية يمكن التعبير عنها بدرجات متفاوتة ، فالمتكلم الذي يقدم على طلب مدعوما بتوسل واستجداء أو تضرع فإنه يعبر عن رغبة أقوى من التي يعبر عنها بالطلب المجرد .⁽⁴⁾

كيفية عمل الإنشائيات :

تقدم سيرل في اتجاه التمييز بين ما سماه الأفعال الإنجازية المباشرة ، وغير المباشرة أو (الحرفية ، وغير الحرفية) ، أو الأولية ، و الثانوية .

الأفعال الإنجازية المباشرة : هي التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم فيكون معنى ما ينطقه مطابقاً حرفياً لما يريد أن يقول ، وهو يتمثل في معاني الكلمات التي تتكون منها الجملة ، وقواعد التأليف فيها ومن خلالها يستطيع السامع أن يدرك مراد المتكلم .

أما الأفعال الإنجازية غير المباشرة : فهي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم . فالفعل الإنجازي يؤدي من خلال فعل إنجازي آخر ، فلو قلت : هل تتاولني الملح ؟ فإن هذا فعل إنجازي غير مباشر لأنك لا تنتظر الجواب ، بل مرادك أن تطلب طلباً مهذباً ، ولأن قوته الإنجازية الحرفية تخالف قوته الإنجازية غير الحرفية التي هي مراد المتكلم مع ملاحظة أن التنعيم يختلف باختلاف القوة الإنجازية .

(1) -- ينظر : طالب هاشم طبطبائي . مرجع سابق . ص 24

(2) - ينظر : نفسه . ص 21 .

(3) - كارل ديتر بونتج . المدخل إلى علم اللغة . ترجمة : سعيد حسن بحيري . ط 2/ 2006 مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . مصر . ص 302 .

(4) - ينظر : طالب هاشم طبطبائي . مرجع نفسه . ص 24 .

لقد ناقش سيرل عددا من الأفعال الإنجازية غير المباشرة ، وبخاصة تلك التي تكون استفهاما مقصودا به الطلب ، ولاحظ أن أهم البواعث على استخدام هذا النوع هو التأدب في الحديث ، ثم اختار التوجيهيات غير المباشرة نموذجا فقسما إلى مجموعات بحسب قدرة السامع على أداء الفعل ، ورغبته فيه والبواعث إليه ، ورغبة المتكلم أن يؤدي السامع فعلا ما ، واستجابة السامع له .

وكان قرر أن المتكلم لا يقصد ما يقول فحسب ، بل يتعدى قصده ما قاله ، إلى ما هو أكثر منه⁽¹⁾ فالأفعال الإنجازية غير المباشرة لا تدل هيئتها التركيبية على زيادة في المعنى الإنجازي الحرفي ، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم ، فكيف يقول شيئا ، ويعني شيئا آخر ؟ وكيف يكون ممكنا أن يسمع المخاطب شيئا له معنى ويفهم منه معنى آخر ؟

ولقد لاحظ بعض الباحثين أننا نتواصل بالأفعال الإنجازية غير المباشرة ، أكثر من تواصلنا بالأفعال الإنجازية المباشرة . فالأفعال الإنجازية التي لا تستخدم إلا مباشرة قليلة جدا ، وهي تقتصر في الغالب على ما يسمى الأفعال المؤسسية أو التشريعية كالتوكيل ، والتفويض ، والوصية ، والتوريث ، والإجارة ونحوها . لأن الأفعال الكلامية إن استخدمت هنا غير مباشرة فسوف تؤدي إلى اللبس وضياح الحقوق.⁽²⁾ على أن من الممكن وضع بعض الضوابط للتمييز بين هذين النوعين من الأفعال المباشرة وغير المباشرة بتحديد ثلاثة فروق جوهرية :

- 1- أن القوة الإنجازية للأفعال المباشرة تظل ملازمة لها في مختلف المقامات .
أما الأفعال الإنجازية غير المباشرة فموكولة إلى المقام لا تظهر قوتها الإنجازية إلا فيه .
 - 2 - أن القوة الإنجازية للأفعال غير المباشرة يجوز أن تلغى ، فإذا قال لك صاحبك : أتذهب معي إلى المكتبة ؟ فقد تلغى القوة الإنجازية غير المباشرة وهي الطلب ليقصر الفعل على قوته الإنجازية المباشرة وهي الاستفهام .
 - 3- أن القوة الإنجازية غير المباشرة لا يتوصل إليها إلا عبر عمليات ذهنية استدلالية متفاوتة البساطة والتعقيد ، أما القوة الإنجازية المباشرة فتؤخذ مباشرة من تركيب العبارة نفسه . من هنا لم تعن النظريات الشكلية إلا بالقوة الإنجازية المباشرة أو الحرفية.⁽³⁾
- وقد لفت سيرل إلى نوع آخر من الأفعال الكلامية غير المباشرة ، يرتبط بما يسمى :

(1) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 81 .

(2) - ينظر : نفسه . ص 83 .

(3) - ينظر : أحمد المتوكل . آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي . كلية الآداب والعلوم الإنسانية . الرباط . ص 22 .

الاستلزام الحواري ويتضح هذا النوع من المحاوراة القصيرة بين طالب وصديقه :

1- ألا تزورني الليلة ؟

2- سأمتحن صباح الغد .

فالفعل الإنجازي **سأمتحن صباح الغد** ليس جوابا مباشرا عن الطلب . لكن فهم منه أمران :

مباشر : وهو الإخبار . وغير مباشر : وهو الاعتذار .

والفعل الإنجازي غير المباشر بنوعيه محول عن الفعل الإنجازي المباشر ، ومن ثم فإن الفعل الإنجازي غير المباشر يتضمن الفعل الإنجازي المباشر ولا ينعكس⁽¹⁾.

ويسعى سيرل إلى حل المشكلات في فلسفة اللغة . وقد اشتمل كتابه الثاني على مقالات ركزت كل واحدة منها على معالجة مشكلة من هذه المشكلات ، وهناك مشكلة عالجه مرات عدة ، وهي تفسير الجمل الإنشائية الصريحة . كالجملتين :

1- أعدك بأنني سأتي .

2- أترك بأن تخرج من الغرفة .

ففي كتابه (Expression and meaning) اعتبر سيرل ألفاظ الأفعال هذه مجرد دوال على القوى المتضمنة في القول لتلك الجمل وعليه تستوي **الجملة 2** مع **الجملة : أخرج من الغرفة** . في أنها لا تقبل الصدق والكذب⁽²⁾. وفي كتابه المشترك مع فاندركن أشار إلى تحليل آخر لهذه الجمل هو أنها كلها أخبار . وعليه فإن تلفظ **الجملة 2** لا يكون أمرا إلا بكونه خبرا صادقا عن قيام المتكلم بالأمر . **فالجملة 2** لا تستوي مع **الجملة : أخرج من الغرفة** . إذ أن الأولى تقبل الصدق والكذب دون الثانية . ويرى المؤلفان أن جميع الجمل الإنشائية ترجع إلى الإيقاعات ، مع خاصية كون المحتويات القضية معبرة عن إنشاء المتكلم للفعل المتضمن في القول : فتكون القوة المتضمنة في القول للجمل الإنشائية الصريحة هي الإيقاع ، ويترتب على هذا أن **الجملة 2** لا تقبل الصدق والكذب تماما كالجملة : **أخرج من الغرفة** . لكنها تختلف عنها في أنها إيقاعية يشتق منها الأمر ، بينما الأخرى أمرية⁽³⁾.

وأخيرا في مقالته : **كيف تعمل الإنشائيات** يبين سيرل موقفه من تلك التحليلات بأكثر دقة للإجابة عن السؤال : **كيف تعمل الإنشائيات ؟ أي كيف يمكن أن يكون التلفظ الحرفي لمجموعة من الجمل العادية ذات الصيغة الخبرية مقوما وليس واصفا فقط للفعل المدلول عليه . والحل الذي يقدمه سيرل يتمثل في**

(1) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 84

(2) - Voir : J, Searle , Expression and meaning : Studies in the theory of speech acts,, Cambridge University Press, 1979 .p30.

(3) - ينظر : طالب هاشم طبطباتي . مرجع سابق . ص 38 .

تقسيم الإيقاعات إلى :

- إيقاعات ينشأ عنها كائن لغوي : كالأمر ، الوعد ، والخبر ... الخ

- إيقاعات ينشأ عنها كائن غير لغوي : كالزواج ، والحرب ... الخ

فالفرق بينهما : أعد بأن أحضر وأراك . و أعلنت الحرب .

يصبح السؤال الأصلي ، كيف تعمل الإنشائيات سؤالين :

س1 - كيف يمكن أن تعمل عموم الإيقاعات ؟

س2 - ماهي الخصوصية التي تعمل وفقها الإيقاعات الإنشائية ؟

والجواب لـ س1- أن تلك الإيقاعات كغيرها من الأفعال الكلامية ، تُكوِّد en code قصد أداء الفعل

المراد من الإيقاع إيجاده ، فالقول أنتِ طالق يكود قصد إنجاز فعل التطليق ومن ثم يكفي في إيجاده.

والجواب لـ س2 عنده أن هذه الجمل تحيل إلى ذاتها . بل إن المشار إليه هو لفظ فعل يشتمل على

قصد أداء الفعل كجزء من معناه ، مثلا : التلطف بهذا القول : أمرك أن تغادر ، هو بمعناه الحرفي :

إظهار لقصد أمرك بالمغادرة ، وعليه فلا يمكن للمتكلم أن يكون كاذبا أو مخطئا ، فإذا قصد من تلفظه

أن تكون له قوة الأمر كان لتلفظه تلك القوة .⁽¹⁾

حجاجة الفعل الكلامي :

يمكن الحديث عن وظيفة الفعل الكلامي الحجاجية ، فالفعل الكلامي له وظائف تداولية مرتبطة بقصد

المخاطب ، من أهمها وظيفته الحجاجية ، التي تزيد من فاعليته الإنجازية التي أرادها له أوستين

وسيرل وبخاصة تلك المرتبطة بوظيفتي الإقناع والتأثير في بعض مقامات التخاطب ، كما أن الحجاج

متصل بقيمتي النجاح والفشل على الأخص ، واللتين قيد أوستين بـروزهما بالفعل التأثيري .⁽²⁾

" أما أفعال الكلام داخل الخطاب ، فقد يكون لها دور حجاجي ، وقد لا يكون لها ذلك الدور ، وذلك

متوقف على غرض الخطاب ، والإستراتيجية التخاطبية التي يتوخاها المرسل في خطابه ، ويبدو أن

الإيقاعات الابتدائية (أو جل ألفاظ العقود) ليس لها ذلك الدور في كثير من مقامات الإيقاع الابتدائي

بخلاف التقريريات ، ولكن بعض الإيقاعات مثل : فعل الشهادة لها وظيفة حجاجية ظاهرة إذا توفرت

لها الشروط التحضيرية ... والأمر في الأخير محكوم بالأغراض التخاطبية .⁽³⁾

(1) - ينظر : هاشم سيد طبطباني . المرجع السابق . ص 40 - 41 .

(2) - ينظر : مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 65 .

(3) - المرجع نفسه . ص 68 .

الأفعال الكلامية في الدراسات العربية :

التمييزات العربية بين الخبر والإنشاء :

لقد وافق المنطقة العرب من سبقهم على استبعاد المركبات التامة غير الخبرية عن دائرة تحليلهم، الذي قصروه على التركيب الخبري ؛ لأنه وحده النافع في العلوم . وإن الاهتمام تركّز حول علاقة هذه التركيبات اللغوية بالمستعمل والعالم ، وإن الكلام عن الخبر والإنشاء هو نوع من المقابلة بين المنطوق التقريري والمنطوق الإنجازي . ولقد تعددت تقسيمات العلماء للكلام وتضاربت ، دون أن يذكر كثير منهم المعايير التي قسم الكلام على أساسها ، وسوف نتجنب الخلافات في التقسيم والتفريع ، بل نقصر على المشهور ، فقد أوجز القزويني قائلا : " ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء ؛ لأنه إما أن يكون له خارج يطابقه أو لا يطابقه ، أو لا يكون له خارج ، الأول : الخبر ، والثاني : الإنشاء ."⁽¹⁾ " فقولنا : السماء ممطرة ، جملة خبرية يصح أن يقال لناطقها إنه صادق إن كان المطر واقعا بالفعل ، أو أنه كاذب إن لم يكن واقعا بالفعل ، أما قولنا : قل الحق ، فلا يصح أن يقال لقائلها إنه صادق أو كاذب ، لأن قول الحق لم يقع قبل النطق بالجملة ."⁽²⁾

" فإذا قلت زيد قائم ، فثبوت القيام لزيد يقال له نسبة كلامية باعتبار فهمه من الكلام ، وذهنية باعتبار ارتسامه في الذهن وحضوره فيه ، وخارجية باعتبار حصوله في نفس الأمر ."⁽³⁾ ولم يقف علماء النحو والبلاغة في بيان المقابلة بين الخبر والإنشاء عن الرجوع إلى الواقع أو الخارج والاحتكام إليه ، بل تنبهوا إلى قصد المتكلم أو نيته أيضا .

ولعلنا نلاحظ أن ما ذكره من تحديد للخبر ملتبس وغير دقيق ، فتحديده بالصدق والكذب غير مستقيم ؛ فالأخبار المستقبلية ليس لها واقع تطابقه أو لا تطابقه ، سواء كانت مصدرة بالسين وسوف ولن ، أو غير مصدرة . كالأخبار التي تحمل حكما شرعيا مثل : يعيد صلاته . في جواب من سأل عن صلي بغير وضوء . ومثل : يصوم شهرين متتابعين ، في جواب من أفطر عمدا . فالأخبار التي تحمل معنى الطلب مثل : أمرك بكذا ، أو أنهاك عن كذا ، أو أرجوك أن تفعل . أو يجب أن تفعل . فهي عندهم من الخبر ، وليس لها واقع تطابقه أو لا تطابقه ."⁽⁴⁾

(1) - الخطيب القزويني . الإيضاح في علوم البلاغة . مؤسسة الكتب الثقافية . ط 3 . ص 15 .

(2) - عبد السلام هارون . الأساليب الإنشائية في النحو العربي . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 5 / 2001 . ص 13 .

(3) - بهاء الدين السبكي . عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . تحقيق : خليل إبراهيم خليل . ط 1 / 2001 دار الكتب العلمية . بيروت .

لبنان . 163/1

(4) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 95

وأما تحديدهم للإنشاء فهو أحسن حالا ، فهم يقولون إن الطلب هو إيقاع فعل بلفظ يقارنه في الوجود ، فطلب الضرب مقترن بلفظه في الوجود ، وهذا مثل قولك يضرب زيد عمرا . لن الإخبار بالضرب مقرون بلفظه في الوجود ، وعندئذ تسقط الحدود بين الخبر والإنشاء .

عدم كفاية الخصائص الشكلية في التمييز بين الخبر والإنشاء : توجهت عناية النحاة وكذلك البلاغيون إلى التفريق بين الجملة الخبرية والإنشائية ، إلى الطريقة التي تبين بها الجملة . أو إلى ما تتضمنه من عناصر كلامية خاصة ، أو إلى الصيغة . فتبين أن الخصائص الشكلية وحدها غير كافية . وتبين للنحاة أن الأصل في الجملة أن يتفق لفظها مع معناها ، فتكون خبرية لفظا ومعنى ، أو إنشائية لفظا ومعنى . بيد أن هذا الأصل خولف في الاستعمال ومن ثم قالوا بوجود جملة إنشائية لفظا خبرية معنى . ووجود جملة خبرية لفظا وإنشائية معنى .

فقولنا : - أنت المنصور . إنشاء إذا أردت به الدعاء

- أنا جائع . إنشاء إذا أردت به طلب الطعام .

- الثور في الحديقة : إنشاء إذا أردت به التحذير .⁽¹⁾

ومن هنا اتضحت علاقة الخروج عن الأصل بمفهوم المقام . يقول السكاكي : "ومتى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام ، كأن تقول لمن همك هم : ليتك تحدثني . امتنع إجراء التمني ، وولد بمعونة قرينة الحال معنى السؤال ، أو كما إذا قلت : هل من شفيح؟ في مقام لا يسع التصديق بوجود الشفيح . امتنع إجراء الاستفهام على أصله ، وولد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني ."⁽²⁾

الأفعال الكلامية عند الأصوليين :

في هذا البحث نتناول المسائل التطبيقية لنظرية الأفعال الكلامية في علم أصول الفقه وكيفية دراستهم لنظرية الخبر والإنشاء ، وما نتج عنها من أفعال كلامية جديدة منبثقة عن الأفعال الأصلية ، وتعتبر عنها منظومة مصطلحية خاصة ، تعكس درجة العناية بالابتكار والإبداع . ولقد تقرر أن الكلام لا ينعقد إلا بإسناد صحيح . "وأن ما يقصده علمائنا بالكلام الذي يقوم على نسبة المسند إلى المسند إليه هو عين ما يقصده أوستين : **بالفعل اللفظي** ، ويقصده سيرل : **بالفعل القضوي** ، أما ما يقصده كل منهما بالفعل الإنجازي وهو الذي يحمل قصد المتكلم ، فيكاد علم أصول الفقه كله يكون قائما على هذا النوع من الأفعال."⁽³⁾

ينبغي التركيز على الاعتبارات اللغوية التداولية ، التي اتخذها الأصوليون أداة لتوجيه دلالة من دلالات النصوص القرآنية والحديثية لاستنباط حكم من الأحكام .

(1) - ينظر : محمد حسن عبد العزيز . علم اللغة الاجتماعي . ص 332 .

(2) - السكاكي . مفتاح العلوم . ص 304 .

(3) - محمود نحلة . مرجع سابق . ص 107

المجالات اللغوية في البحث الأصولي :

1- القضايا الدلالية التي تعبر عنها مصطلحات : الإيماء ، الإشارة ، تنبيه ، فحوى ، مفهوم .
ويضاف إليه الظواهر والعلاقات الدلالية في إطار التقابل الثنائي : العام /الخاص ، المطلق/المقيد،
المحكم /المتشابه ، المجمل/ المفصل .

2- القضايا النحوية : كما تصورهما الأصوليون وخالفوا بها آراء النحاة ، أو وافقوها وقد اعتبر بعضهم نحو الأصوليين هذا نحو دلالة .

3- المنحى التداولي عند الأصوليين : وكيفية استثمارهم للمفاهيم والمقولات التداولية كنظرية الأفعال الكلامية ، وطريقة التعبير لإيقاع أحكام ، أو إنجاز أفعال دينية ومعاملاتية بالكلمات ، وكيفية تعاطيهم للأساليب اللغوية والأغراض الإبلاغية المنبثقة عنها والإجراءات التأويلية في فهم المقاصد والنيات ومراعاة السياق والمقام وتحكيمهما في الدلالات ، بل إن البحث الأصولي قد يفضل في بعض جوانبه ما قدمه علم المعاني .⁽¹⁾

الدلالة عند الأصوليين :

الدلالة عند أكثر الأصوليين تصورية ، فالذي يدل عليه لفظ القيام هو : الصورة الذهنية المنطبقة بأذهاننا لهذا الحدث ، والذي تدل عليه الجملة زيد قائم ، وهو : الصورة الحاصلة بأذهاننا للنسبة بين زيد والقيام ، وهو أمر قابل للتصور والإدراك والتصديق ؛ أي قصد الإخبار والحكاية عنه، ولكن هذه الدلالة التصديقية لا تفهم من لفظ الجملة ، باعتبارها هيئة موضوعة لمعنى قابل للتصور ، بل تفهم من قرائن حالية ، ودلائل سياقية .⁽²⁾

صيغة الأمر :

صيغة الأمر عند الأصوليين كما عند النحاة والبلاغيين ، بيد أنهم توسعوا فيما يفهم منه الأمر أو يجري مجراه . من مثل :

1- الجمل الخبرية المستعملة في الإنشاء كقوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [البقرة 233] التعبير بمادة الفعل الجذر كمادة الأمر في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ [البقرة 67] أو مادة الفرض في ﴿فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ تَحَلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحریم 2] ومادة الكتاب في قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة 216] ، وحمل الفعل المطلوب على المطلوب منه مثل قوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة 228]

2- الإخبار بأنه عليه مثل قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران 97]

(1) - ينظر : مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 167 .

(2) - ينظر : محمد حسن عبد العزيز . علم اللغة الاجتماعي . ص 335

3- جعله جزاء لشرط في قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة 196] وصفه

بأنه خير أو بر في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة 220]

4- قرنه بوعد ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة 245]

الأفعال الكلامية المنبثقة عن الخبر :

إن تطبيق نظرية الخبر والإنشاء ،نتجت عنه فروع من الأفعال الكلامية منبثقة عن الأسلوب الخبري مثل : الشهادة ، الرواية ، الدعوى ، الإقرار ، الوعد ، الوعيد ... وهي الظواهر التي لخصها شهاب الدين القرافي في قوله : " الشهادة خبر ، والرواية خبر ، والدعوى خبر ، والإقرار خبر ، والمقدمة خبر والنتيجة خبر..."⁽¹⁾ ثم طبقوا عليها قوانين الخبر وسياقاته وأغراضه المختلفة ، فهذه أصناف كلامية مشابهة أسلوبيا للخبر ولكنها مختلفة عنه في الغرض والمقصد . وتندرج بمعايير سيرل ضمن التقريريات الذي أوضح مفهومه بأنه : "إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به"⁽²⁾ .

1- الشهادة والرواية : اعتبر القرافي كلا من الشهادة والرواية خبرا.

الصيغة اللغوية لفعل الشهادة : قد يتحول الفعل الشهادي إلى إنشاء صريح فيصبح مقابلا لظواهر كلامية ثلاث هي (الخبر ، والرواية ، والإخبار ، والإنشاء) فيكتسب صفة الإنشائية ، ويعامل معاملة الإنشاء . وقال القرافي : " فإذا قال الشاهد : أشهد عندك أيها القاضي بكذا ... كان إنشاء ، ولو قال : شهدت . لم يكن إنشاء."⁽³⁾

إن صيغة الفعل الكلامي الشهادي هي : **أشهد** بصيغة المضارع ولا تصح بالماضي ولو نطق بها لكانت خبرا ، ولم يتكلم القرافي عن الشهادة بصيغة **فاعل** ، أو **فعل** . **شاهد** ، **شهود** وهذا المسكوت عنه جدير بالبحث . وبمصطلحات سيرل يصنف الفعل الشهادي ضمن **الإيقاعات**.

2 - الدعوى والإقرار : " الدعوى خبر عن حق يتعلق بالمخبر على غيره ، أما الإقرار فهو خبر

يتعلق بالمخبر ويضر به وحده وبمعايير سيرل تعود التفرقة إلى مبدأ : نمط الإنجاز كما هو ظاهر .

ويلاحظ شدة الشبه بين الإقرار والشهادة إذ الإقرار أيضا شهادة والفرق بينهما هو :

الإقرار: شهادة على النفس . **والشهادة :** شهادة على الغير"⁽⁴⁾

(1) - علي حسب الله . أصول التشريع الإسلامي القاهرة 1959 . ص 252

(2) - مسعود صحراوي . التداولية عند العلماء العرب . مرجع سابق . ص 175 .

(3) - القرافي . الفروق . 4/ 190.

(4) - نفسه . 4/ 189.

3- **الوعد والوعيد** : اعتبر السيوطي أن الوعد والوعيد كليهما من الأخبار ، والوعد عنده هو : " كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير ، أو دفع ضرر عنه في المستقبل. وأما الوعيد فهو : كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير ، أو تقويت نفع عنه في المستقبل ."(1) ويفرق القرافي بين الوعد والشهادة قائلًا : " لو قال الشاهد للقاضي أنا أخبرك أيها القاضي : بأن لزيد عند عمرو ديناراً عن يقين مني وعلم في ذلك ، لم تكن هذه شهادة بل هذا وعد من الشاهد للقاضي أنه سيخبره بذلك عن يقين، فلا يجوز اعتماد القاضي على هذا الوعد ."(2)

والفرق بينهما بمعايير سيرل هو درجة الشدة للغرض المتضمن في القول .

الأفعال الكلامية المنبثقة عن الإنشاء :

استنبط الأصوليون أفعالا كلامية جديدة بانتهاج النهج التداولي ؛أي بالبحث في المقاصد والأغراض التي يؤول إليها كل من الأمر والنهي وغيرهما ، وقاموا بتعديل بعض التحديدات التي وضعها علماء المعاني، فجعلوا حقيقة الأمر الدعاء إلى الفعل ، وحقيقة النهي الدعاء إلى الكف. و الأمر هو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه وعلى أن النهي هو استدعاء الترك بالقول ممن هو دونه. وعبرة : استدعاء القول بالفعل – استدعاء الترك بالقول . مشابهة لتعبير أوستين : الفعل بالقول .(3)

ومن الأفعال الكلامية الفرعية المنبثقة عن الإنشاء : الوجوب، والإباحة، والحرمة، والكراهة ، والتنزيه، الخ . يجمعهما صنفان : الإذن ، والمنع .

الإباحة : وقد تأتي صيغة الأمر للإباحة ومثلوا لها بالقول : جالس الحسن أو ابن سيرين .

وهي تعد من الأغراض التي تستعمل فيها بعض صيغ الطلب ، مثل : الأمر .

إن الأمر بالقيام : إذن بالقيام ، وإباحة القيام : إذن بالقيام ، والفرق بينهما أن الأمر إذن ومعه طلب .

والإباحة إذن لا طلب معه . ومبدأ التفاوت بين الأوامر والنواهي الشرعية حسب الأهمية ، نجدتها عند الأصوليين (4) . وصرح الشاطبي : " أن أوامر الشريعة تجري في التأكيد مجرى واحد ، فإن الأوامر

المتعلقة بالأمور الضرورية ليست كالأوامر المتعلقة بالأمور الحاجية ، ولا التحسينية ."(5)

وعليه فهو يرفض إطلاق القول بأن الأمر : للوجوب أو للندب ، أو للإباحة دون قرينة، كما هو رأي الكثيرين (كالرازي ، والمعتزلة ، وجل الظاهرية) أي يرفض القول بأن الأمر للوجوب مطلقا كما تدعيه المدارس المتشددة ، كالظاهرية التي ترى أن الأوامر تؤخذ على ظاهرها بطلب الفعل في المأمورات وبالكف عن الفعل في المنهيات مالم يصرفه نص .

(1) - السيوطي . الإتقان في علوم القرآن . عالم الكتب . بيروت . 77/2 .

(2) - القرافي . الفروق . 189 /4 .

(3) - ينظر : مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 185 .

(4) - ينظر : هاشم طبطباني . مرجع سابق . ص 80 .

(5) - الشاطبي . الموافقات . 187 / 2 .

كما صرح به ابن حزم (ت456هـ) غير أن الشاطبي وآخرين كالأشعري ، والباقلاني ذهبوا إلى اعتبار القرينة في صرفه إلى الوجوب أو النذب .⁽¹⁾

ألفاظ الصيغ أو البيع :

ناقش الفقهاء والأصوليون الصيغ التي تتم بها عقود البيع ، إذ الفعل البيعي لا يصح إلا بألفاظ خاصة ، تواضع عليها أهل اللسان العربي ، لتؤدي هذا الفعل الكلامي ، وهي الألفاظ التي وصفها ابن رشد بأن صيغتها ماضية مثل أن يقول البائع قد بعثك هذا الشيء .⁽²⁾ والتعبير الذي يستعملونه عندما يقولون إن صيغتها ماضية لا يفيد أنها وقعت في الماضي ، بل العكس هو المقصود ؛ أي يشترط أن تقع في الحال مع استعمال صيغة الماضي الذي يفيد الحال ، وإن صيغة ألفاظ العقود كبعثت ، واشتريت ، وزوجت ، وطلقت . إنشائية ، إذا لم يتم وقوع فعلها في الماضي ، فإن العلم بعدم وقوع فعلها في الماضي دلالة على كونها للإنشاء ، ولا تتم عملية البيع حتى يقول المشتري : قد اشتريت منك . وإن الخطأ في الصيغة إذا لم يخل بالمعنى والغرض ، ينزل منزلة الخطأ في الإعراب بالتذكير والتأنيث ، والشاهد في ذلك أنه يعتد بالقصد على حساب الصيغة ، إذا طرأ عليها ما يخل بأدائها الإنجازي ، فالعبرة عند الأصوليين بالمقاصد والمعاني ، لا بالألفاظ والمباني .⁽³⁾

المنع : انبثقت من تطبيقات الأصوليين للنهي أصناف كلامية فرعية ، يمكن إدراجها ضمن أفعال الكلام ، واختلفوا في دلالة صيغته هل تقتضي التحريم أم الكراهة والحرام والمكروه يمكن إدراجهما ضمن المنع الذي هو أشمل من النهي . ويقع المنهي عنه الذي يحتويه مصطلح الممنوع في علاقة تضاد مع المأمور به ، وفي علاقة تنافر مع المباح ، وأضاف الشاطبي درجة أخرى من درجات الشدة في المنع سماها التنزيه وهو متفرع من الكراهة . وهي نوعان : (كراهة تنزيه ، وكراهة تحريم) .⁽⁴⁾

والفرق بين المكروه والمحرم هو في درجة الشدة للغرض حسب معايير سيرل ، فالغرض من الكراهة أقل شدة من غرض التحريم ، وكذلك الغرض المتضمن في فعل الكراهة التنزيهية أقل شدة من كراهة التحريم ، ونجد في كل منهما أيضا فعلا كلاميا شاملا هو: المنع والمأذون فيه إذنا غير جازم أي المباح ، ليس مندرجا في المنع وإنما ضده ، وأدرج هنا

(1) ينظر : مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 190 .

(2) - ابن رشد القرطبي . بداية المجتهد ونهاية المقتصد دار القلم ، بيروت . ط1 / 1988 . 170 / 2 .

(3) - ينظر : صحراوي . نفسه . ص 211 .

(4) - الشاطبي . الموافقات . 2 / 291 .

لإمكانية وروده في تطبيقات الأمر أو النهي ،فهو يقع في درجة بين الأمر والنهي ، أو بين الإذن والمنع . فالمباح نوع من الأفعال الكلامية المسكوت عنها ، فهي مباح .⁽¹⁾

إنجازية فعل التعجب عند الأصوليين : التعجب هو انفعال يحدث في النفس عما خفي سببه ، واهتم الأصوليون والمفسرون بمسألة التعجب من أفعال الله ، وقد ناقش الزركشي أصل هذه المسألة ، وهو كيف ينسب إلى الله خفاء السبب أو جهل الحقيقة ، فخرجوا من نسبة ذلك إليه ، فاستحسنوا صنع الزمخشري إذ عبر عنه بالتعجب بمعنى أن التعجب مصروف إلى المخاطب .⁽²⁾

واستحسنوا رأي سيبويه إذ اعتبر مجيء التعجب من الله كمجيء الدعاء والترجي منه .⁽³⁾ وقد أخذ المفسرون والأصوليون بمصطلح التعجب ، إذا كانت ألفاظ التعجب صادرة من الله ، وقد فسر الطاهر بن عاشور قوله تعالى : (فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) [البقرة 75] بقوله : " تعجب من شدة صبرهم على عذاب النار . " ⁽⁴⁾

الاستفهام : الاستفهام عند علماء المعاني : "استعلام عن نسبة هي في أصلها خبر"⁽⁵⁾ . وجعل الأصوليون بحث الاستفهام متفلا بين الخبر والإنشاء بحسب السياق ، وقصد المتكلم وغرضه من المخاطب " فالاستفهام الخبري نفي وإثبات ، والوارد للنفي يسمى : استفهام إنكار ، والوارد للإثبات يسمى : استفهام تقرير لأنه يطلب بالأول إنكار على المخاطب وبالتالي إقراره"⁽⁶⁾ . ثم راحوا يقسمون الاستفهام الخبري إلى أقسام كثيرة تنتهي عند ضربين هما : استفهام الإنكار : ومعناه حسب الزركشي "أن ما بعد الأداة منفي ويجيء لأغراض كتعريف المخاطب أن ذلك ممتنع عليه ."⁽⁷⁾

استفهام التقرير : ومضمونه " حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عندك"⁽⁸⁾

ومثاله قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَفْعَلْ هَذَا بِالْهَيْمَةِ يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء 62]

وقوله تعالى : ﴿أَكْذَبْتُمْ بآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ [النمل 37] ، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى 7] . أما الضرب الاستفهامي الثاني : والذي سموه الاستفهام الإنشائي فقد قسموه إلى أصناف كثيرة حسب مقاصد المتكلمين ومرادهم من المخاطبين من أهمها : العرض والتحضيض وهما من أنواع الطلب .

(1) - ينظر : صحراوي . نفسه . ص 197 .

(2) - ينظر : الزركشي . البرهان في علوم القرآن . 2 / 318 .

(3) - ينظر : سيبويه . الكتاب . تحقيق : عبد السلام هارون . دار الجبل بيروت . ط 1 . 1 / 319 .

(4) - الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . الدار التونسية للنشر والتوزيع . 16 / 227 .

(5) - مهدي المخزومي . في النحو العربي . نقد وتوجيه . ص 264 .

(6) - الزركشي . نفسه . 2 / 328 .

(7) - نفسه . 2 / 328 .

(8) - نفسه . 2 / 331 .

ومثاله في قوله تعالى : ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء 80] . والاستفهام مستعمل في استبطاء الشكر ،
ومكنى به عن الأمر بالشكر . ومنها التحذير مثاله : ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْوَالَيْنَ﴾ [المرسلات 17] . ومنها التنبيه ،
والترغيب ، والتمني ، والدعاء .

ألفاظ العقود والمعاهدات : ألفاظ أو صيغ الطلاق من بين الصيغ التي بحثت باستفاضة في كتب الفقهاء
والأصوليين الألفاظ التي تنشئ الطلاق أو توقعه أي التي يتم بها إنشاء الفعل الكلامي الذي ينجر عنه
فعل الطلاق ، وقال ابن رشد (تـ595هـ) أن " الطلاق يقع إذا كان بنية ولفظ صريح"⁽¹⁾
إن الاعتبار التداولية تتجلى هنا في مبدئين : القصد (النية) ، ومبدأ الصراحة و الكناية .

1 - القصد والنية في فعل الطلاق : اشتراط النية والقصد في إيقاع هذا الفعل ، فمن قال لزوجته : أنت
طالق وادعى أنه أراد شيئا آخر . فقد قالوا هو مانوى ، ولا يلزمه الطلاق . لأن نيته غير ذلك ، إلا أن
تكون هناك قرينة مانعة من ذلك ، وعند الشافعي أن الطلاق الصريح لا يحتاج إلى نية ، وأما
باصطلاحات أوستين فقد اعتبر مقولة القصدية مبدأ هاما من مبادئ الأفعال الكلامية ، إذ تتوقف عليه
الهوية الإنجازية ، لأي فعل كلامي ، وأما باعتبارات سيرل فذلك مرتبط بمعياريين هما الغرض
المتضمن في القول ، ودرجة الشدة .⁽²⁾

2 - الصراحة والكناية في لفظ الطلاق : نريد من خلال هذا المبحث أن نتعرف على الألفاظ التي تعد
بمنظور تداولي أفعالا كلامية ، بوصفها ترمي إلى إنشاء أفعال ومواقف وسلوكات اجتماعية
بالكلمات ، كما عبر أوستين ، أو الألفاظ التي تعد أفعالا كلامية غير مباشرة كما عبر جون سيرل .
ومن هذه الألفاظ الصريحة : أنت طالق ، طلقتك ، سرحتك ...
وأما الكنائية فقسموها إلى كنايات ظاهرة ، وكنايات محتملة . فالظاهرة كقوله : حبلك على غاربك ،
والمحتملة كقوله : اعتدي ، أو استبرئي ، الحقي بأهلك ، كل ذلك يعد أفعالا كلامية ، وتصنف ضمن
الإيقاعات ، باعتبار أن المتكلم يريد إيقاع فعل ، أو سلوك اجتماعي معين بالكلام .⁽³⁾

القوة الإنجازية عند الأصوليين :

" إن قصد المتكلم الذي تعبر عنه هذه الأفعال ، هو الذي يحدد الطريقة التي يتحدث بها ، ويتغير
تعبيره عنه قوة وضعفا بتغير الموقف الكلامي ، فالطلب مثلا يتفاوت شدة ولينا فقد يكون أمرا ، وقد
يكون التماسا ، وقد يكون دعاء . أما من حيث نوعه فقد يكون طلبا برفق فيكون عرضا وقد يكون بحث
وإزعاج فيكون تحضيضا ."⁽⁴⁾

(1) - ابن رشد . بداية المجتهد . 74 / 2 .

(2) - ينظر : صحراوي . مرجع سابق . ص 207 . وينظر أيضا هاشم طبطباني . مرجع سابق . ص 105 .

(3) - ينظر : نفسه . ص 209 . وينظر أيضا : الطبطباني . نفسه . ص 103 .

(4) - محمود نحلة . آفاق جديدة . ص 109 .

وقد تتمثل درجة القوة في الفعل الإنجازي في اختيار المادة اللغوية التي تعبر عن هذه القوة ، " فالثناء مثلا أقوى من المدح ؛ لأن الثناء مدح مكرر ، والسب أقوى من الشتم ؛ لأن السب هو الإطئاب في الشتم والإطالة فيه." (1) ، و"اللمز أجهر من الهمز." (2) و" الجور أقوى من الظلم لأن الظلم نقصان الحق ، والجور العدول عن الحق" (3).

تعديل القوة الإنجازية :

القوة الإنجازية : إن الفعل الكلامي يمتلك أغراضا إنجازية متباينة بتباين ملابسات استعماله " وإن القوة الإنجازية خصيصة المنطوقات للجمل ، فالمنطوق الواحد يمكن أن يمتلك قوى إنجازية مختلفة في ملابسات استعمال مختلفة . فالقوة الإنجازية إذن هي الشدة أو الضعف اللذان يمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد." (4) إن قوة المنطوق الإنجازية جزء مكمل لمعناه ، وهذا يعني أن المعنى أوسع من القوة لأنه يضم القوة والمحتوى القضوي في آن معا ، وإن القوة والغرض جزءان مكملان للمعنى ، والقوة درجة ، والغرض وظيفة .

علامات القوة : جعل أوستين للقوة علامات ست هي :

- 1- الصيغة : أغلق الباب . تضاهي أمرك . وأغلق الباب إذا أردت . تضاهي : آذن لك .
- 2- نغمة الصوت : تختلف نغمة التحذير عن السؤال ، أو الاعتراض ... الخ
- 3- أشباه الجمل : التي يقصد بها تكييف قوة المنطوق مثل : سوف أفعل بإضافة من المحتمل ، أو تكييف قوة النهي بالظرف مثل : لاتنسى أبدا .
- 4- أدوات الربط مثل : من أجل ذلك ، وعلى رغم ذلك .
- 5- مصاحبات المنطوق : مثل حركة الجسم ، أو إشارة الإصبع ، أو غمز العين ... الخ
- 6- ملابسات المنطوق : فالأمر يمكن أن يكون : إذنا ، أو عرضا ، أو التماسا ، أو توسلا أو توصية ، أو تحذيرا ... الخ . (5)

نسبية القوة : ومعناه أن يكون أمر أقوى من أمر ، باعتبار سلطة المتكلم وبيان ذلك، إذا قارنا مثلا الأمر بالصيغة ذات الفعل المساعد **يجب** أو **ينبغي** ، سيبدو الأمر أقوى كثيرا عندما يكون المتكلم في كامل سلطته كالقائد في الجيش . ومن ناحية أخرى سيبدو الأمر أضعف كثيرا عندما يستعمل في مثل : أدخل

(1) - أبو هلال العسكري . الفروق اللغوية . حققه : حسام الدين القدسي . دار الكتب العلمية . ط1/1981 . ص 43.

(2) - المرجع نفسه . ص 44 .

(3) - نفسه . ص 226 .

(4) - محمد العبد . تعديل القوة الإنجازية . مجلة فصول . عدد 2004/65 . ص 138

(5) - ينظر : نفسه . ص 139 .

في إجابة عن طرق الباب . إنه يعطي إذنا .

تعديل القوة : يعدل المتكلم منطوقه أو يكيّفه لمقصده ، ويعد مبحث التعديل أو التكييف من أثرى حقول البحث وأكثرها فائدة في تداولية أفعال الكلام ، وتنصرف الغاية هنا إلى بحث تأثيرات الاستراتيجيات التي توظف في تعديل القوة وبيان الدوافع والأسباب وراء استخدامها، ووصف الوسائل اللغوية المختلفة التي يكيّف بها المتكلمون قوة المنطوق.

استراتيجيات التعديل : إن غرض المتكلم هو الذي يحدد الطريقة التي يتكلم بها ، فالشخص الهجومي يستطيع كما يقول سالزمان Salzman أن يتكلم في نعومة واحترام عندما يوقفه شرطي عن عجلته ، وإن من الحقائق الجوهرية في الاستعمال اللغوي ارتباط الصيغة بالمقصد ، وأن الكيفية التي يقال بها الشيء تعد جزءا مما يقال ، فحينما يعدل المتكلم قوة منطوقه فإنه يدلّل بذلك على وعيه بالمقصد وتقديره مقتضيات السياق ، فهما مرتبطان بالكفاءة والأداء. في السبعينيات كان الباحثون مهتمين بالبحث في ثقافات التأدب في الاستعمال اللغوي ، وفي عام 1980 أصدر فريزر freizer ورفاقه بحثا عن اكتساب (الكفاءة التداولية) في اللغة الثانية ، وقد عرض هؤلاء للاستراتيجيات والقوالب الدلالية التي تتخذها اللغة لأداء فعل كلامي بعينه مثل: الالتماس ، أو التعبير عن رغبة... الخ . وفي السياق ذاته عرض فريزر في بحث له منفرد أطلق عليه : **تلطيف الخطاب** بين فيه أن: التلطيف استراتيجية يعتمد عليها المتكلم لتخفيف قوة الفعل الكلامي ، أو إضعافها وفي عام 1984 قدمت **جانيت هولمز J.Holmes** دراسة : تعديل القوة بزيادة قوة المنطوق أو تعزيزها ، ويمكن للغرض الإنجازي الواحد أن يقدم في درجات مختلفة ، لنقارن بين المنطوقات التالية : (أنت جريء ، أنت هكذا جريء ، ولديك شيء من الجرأة) قدم غرض المدح في درجات هكذا للتقوية ، وشيء للتخفيف . ومن الاستراتيجيات كذلك إضافة عنصر معجمي إلى المنطوق مثل : (نوعا ما ، حقا ، أو إضافة الإشارة الصريحة ، أظن ، أنا متأكد ...) أسباب تعديل القوة الإنجازية : ترى جانيت هولمز سببين رئيسيين يدفعان المتكلم إلى تعديل القوة الإنجازية هما : 1- التعديل من أجل نقل المعنى المرتبط بسلوك المتكلم تجاه القضية .

2- التعديل من أجل التعبير عن معنى تأثيري .

3- إضعاف الفعل الكلامي سلبي التأثير : تلطيف هو استراتيجية مهمة في تطور العلاقة بين المتكلم والمخاطب ، وذلك بإضعاف قوة منطوق غير مرحب به .

4- تقوية الفعل الكلامي إيجابي التأثير ، هو تعبير عن الصداقة بين المتكلم والمخاطب ⁽¹⁾.

(1) -- ينظر : محمد العبد . تعديل القوة الإنجازية . ص 142 . وينظر أيضا : Holdcroft David . Problems in the theory of speech acts . p 155.

5- إضعاف الفعل الكلامي إيجابي التأثير : استراتيجية لزيادة التباين الاجتماعي بين المتخاطبين .

6- تقوية الفعل الكلامي سلبي التأثير : استراتيجية لإضعاف المودة .⁽¹⁾

وسائل تعديل القوة : هناك نوعان من الوسائل :

وسائل خارجة عن نطاق اللغة : مثل حركات الجسم وتعابير الوجه والعينين ، وكان أوستين

يسميهـا : مصاحبات المنطوق . يقول : قد تصحب المنطوق بحركات جسمية : غمزات العين وإشارات

الأصابع ، هزات الأكتاف ، وتقطيب الوجه ... الخ

الوسائل اللغوية : تركيبية ، وغير تركيبية .⁽²⁾

وسائل التقوية : وهي أربعة : صوتية ، وتركيبية ، ومعجمية ، وخطابية .

وقد ذكر ابن جني بعض هذه الوسائل التي تقوي الفعل أو تضعفه كالنبر ، والتنغيم ، وحركات الجسم

وتعبير الوجه ، ونظرة العين .⁽³⁾

1- وسائل التشكيل الصوتي : ويقصد بها نوع النغمة ، والنبر وجهارة الصوت ، والنغمات التقابلية

وجهارة الصوت التقابلية ، والمعول عليه هو السياق الموقف الذي يعين كنه المعنى الإنجازي

2- الوسائل المعجمية : ويقصد بها ما قد يستخدمه المتكلم من عناصر معجمية تضيف قوة إلى قوة

المنطوق الإنجازية ، وتتنوع صور التقوية وفقا لمن توجه إليه :

0 المقويات الخاصة بالمتكلم مثل : إني متأكد ، أو إني واثق ، أو بصدق ، أو بصراحة .

0 المقويات الموجهة إلى المتلقي : العناصر التي تشير إلى معرفة المتلقي ، وكل ما يضع

خلفية مشتركة بينه وبين المتكلم .

0 المقويات الموجهة إلى المحتوى : العناصر التي تثبت صحة القضية ، أو تأكيد

صلاحيتها نحو : الواقع ، من المؤكد ، لاريب ، لانزاع ، لاجرم ، حقا . فهذه تعزز قوة

المنطوق .⁽⁴⁾

3- الوسائل التركيبية : ويمكن أن نختار على سبيل المثال الأبنية الاستفهامية

مثل : أليس الأمر كذلك ، ألا ينفرد بميزات خاصة ، ألم تكن حفلة الأمس رائعة .

إن المحتويات الإنجازية معلومة عند المتكلم والمتلقي من قبل .

(1) - ينظر : محمد العبد مرجع سابق . ص 144 .

(2) - ينظر : علي الصراف . الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة . مكتبة الآداب . القاهرة . ط 1 / 2009 . ص 273

(3) - ينظر : ابن جني . الخصائص . تحقيق : عبد الحكيم بن محمد . المكتبة التوفيقية . 370/2

(4) - ينظر : علي الصراف . المرجع السابق . ص 274

4- **الوسائل الخطابية** : يقصد بها الوسائل الخارجة عن النص ، أو ما وراء العملية التداولية وما يتفرع عن ذلك من وسائل لغوية فرعية ، ومن أهم الوسائل الخطابية التي تتضافر في النص والخطاب تحقيقا لوظيفة التقوية هي : تعيين الفعل الإنجازي ، والتكرار ، والعلامات أو الأدوات الرابطة ، ووسائل ما وراء الخطاب .

- **تعيين الفعل الإنجازي** : نحو : أحذرك ، وأسألك . دون استخدام بعض الأساليب غير المباشرة كالقول : زواجا موفقا ؛ أي أرجو ، حيث يساهم تعيين الفعل في تقوية المنطوق لوضوح الفعل وسرعة استيعابه.(1)

- **التكرار** : وهو وسيلة بلاغية لتقوية المنطوق.

- **العلامات الرابطة** : نحو : إلى جانب ذلك ، فضلا عن ذلك ، علاوة على ذلك ، أكثر من ذلك ، مع هذا ، مع أن ، على رغم كذا . والروابط السببية مثل : إذن ، هكذا...

- **وسائل ما وراء الخطاب** : هي مفردات وعبارات ، تبرز وعي المتكلم الذاتي بمجرى الخطاب وحالته وإن لم تكن من بنية النص مثل : أشدد ، وأكرر ، وأعود ، وأفكر ، وقلت أكثر من مرة... الخ وهناك وسائل أخرى تتجه إلى تقوية إسهام المشارك في التفاعل نحو : كما تقول ، و كما قال فلان لتوه ، وكما ذكرت ، وكما ذكر فلان . وهي من قبيل المصادقة وهي نوع لتقوية المنطوق.

- **وسائل الإضعاف** : من سياقات التواصل ما يحتاج إلى إضعاف المتكلم لقوة المنطوق الإنجازية ، وتعرف استراتيجية الإضعاف من الوسائل ، ما عرفته استراتيجية التقوية مع اختلاف في الكيفية وهي :
- **وسائل التشكيل الصوتي** : منها منسوب التنغيم والنبر الضعيف وجهارة الصوت المنخفضة ، والنغمة العالية في سياق مناسب ، وإن نبر المقطع الأول من الفعل **أكتب** نبرا ضعيفا يجعل الأمر **إذنا** بالكتابة فحسب في سياق مناسب ، أما النغمة العالية فتستخدم في سياقات خاصة ، علامة على مجرد المتكلم أو تنصله من مسؤولية التصديق بصحة منطوقه.

- **الوسائل المعجمية** :

• **المضعفات الخاصة بالمتكلم** : وهي مخففات معجمية يدل بها على تحفظه إزاء منطوق

بعينه ، ويغلب أن تعبر هذه العناصر عن الحالة السلوكية المعرفية عند المتكلم نحو :

أظن ، وأفترض ، وأحسب ، وأقدر ، ويخيل لي ، ويبدو لي... الخ وهناك قوالب تعبيرية

نحو : إن لم أكن مخطئا ، وإن لم أكن أسأت فهمك ... الخ . فهي تدل على تحفظ المتكلم

عند تبريره فعلا كلاميا على نحو خاص.(2)

(1) ينظر : علي محمود الصراف . مرجع سابق . ص 267 .

(2) - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 267 .

- المضعفات الموجهة للمستمع : يمكنك كذا ، تستطيع كذا ، إذا لم أسبب لك إزعاجا، إذا لم تكن مشغولا ، أدعوك إلى الغداء غدا إذا أحببت ، إذا لم تكن مشغولا فسوف أزورك . ويتميز الخطاب العربي بتلطيف قوة الأمر عن طريق الدعاء للمستمع الذي يأتي نحو : اربط (عافاك الله) ، رد (عافاك الله).

المضعفات الموجهة للمحتوى : في العربية بعض العناصر اللغوية تستخدم لإضعاف المحتوى أو التعبير عن عدم التأكد من صحته ، فهي إذن احتراسات تلطيفية يمكن أن نذكر منها : فقط ، قليلا ، نوعا ما ، إلى حد ما ، شيئا ما .

وهناك عناصر أخرى تظهر بونا دلاليا بين الحقيقة وما ظهر منها مثل : في الظاهر ، إسميا ، شكليا نظريا . وتستخدم وسائل أخرى للنصل من صحة الإخبار مثل : افتراضا ، تخمينا ، إدعاء ، زعما ، وفقا ... الخ وهناك عناصر معجمية تدل على التوقع : يمكن ، يحتمل ، يتوقع ، يجوز ، من الممكن ، من المحتمل ، من المتوقع .. الخ (1)

3- الوسائل التركيبية : تعرف العربية وسائل يضعف بها المتكلم قوة المنطوق الإنجازية ، نقف عند أربعة وسائل منها : الأسئلة التذييلية ، التلطف بأنماط خاصة من الاستفهام ، نفي الصفة ، والعدول .
الأسئلة التذييلية : هي الأكثر استعمالا لهذا الغرض في تداولية أفعال الكلام ، من حيث هي مضعفات لأفعال الكلام غير المرحب بها ، من ذلك قولك : أنت كنت معه ، ألم تكن معه ؟ أو أنا كنت على حق ، ألم أكن هكذا ؟ فالتكلم يبدي توقفه عن الجزم بصحة القضية وهذا نوع إضعاف لقوته الإنجازية .
 وإذا كان للتقوية درجاتها ، فإن للاستضعاف درجاته مثال : اجلس ، ألا تريد ؟ تم إنزال الأمر إلى العرض ، إن التعبير بالأسلوب الاستفهامي المتضمن للعرض أو الاقتراح ، يعني ان المتكلم لا يحاول أن يفرض رغبته على المستمع . إنما هو توجيه إلى أمر مستحسن ، وهذا نوع تلطيف للقوة الإنجازية مثل : لماذا لا تتصل به ؟ إنه يستطيع مساعدتك ، اقتراح . وأما نفي الصفة لإثبات ضدها فهو وسيلة أخرى لتلطيف منطوقات سلبية التأثير مثل : ليس أمرا حسنا . بدلا من اللفظ الدال على القبح . أما العدول فهو يساهم في تلطيف قوة المنطوق كالعدول عن حال التكلم إلى حال الغيبة ليدرا عن نفسه مسؤولية الحكم بصدق القضية مثاله : (يميل المرء إلى القول بأن ...) بدلا من : (أميل) وكذلك العدول عن بناء الفعل للمعلوم إلى بنائه على مالم يسمى فاعله . مثاله : (عن سيدة على الهاتف تسأل عنك ، ويظن (ومن المظنون به) بأنها السيدة...) بدلا من (وأظن) (2).

(1) ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . مرجع سابق . ص 284 .
 (2) - ينظر : محمد العبد . تعديل القوة الإنجازية . مرجع سابق . ص 142

الفصل الثالث

الإخباريات (التقاريريات)

المبحث الأول : وصف القرآن والإنسان

المبحث الثاني : الإخبار عن التوراة وبني إسرائيل

المبحث الثالث : إقرار عقائد التوحيد

المبحث الرابع : إبراهيم والبيت الحرام

المبحث الخامس : أفعال الكلام في القصص القرآني

وصف المدونة : (سورة البقرة)

سورة البقرة سورة مدنية ، عدد آياتها 286 آية ، وهي السورة الثانية بحسب الرسم القرآني ، والسورة الأولى من قسم الطوال ، تتألف من مقدمة ، وثلاثة أقسام ، وخاتمة .

تتناول السورة قضايا كثيرة ، فبدأت بذكر صفات المتقين ، المؤمنين بالغيب ، ثم انتقلت إلى الحديث عن الجاحدين المعاندين ، فرسمت لهم هرما ، وضعت على قمته الذين لا يؤمنون ، سواء أُنذرتهم أم لم تنذرهم ، ثم وضعت في وسطه المنافقين الذين يخادعون الله ورسوله ، فهم كالصم البكم العمي ، ثم وضعت في قاعدته أهل الكتاب وخاصة بني إسرائيل ، وقد توسعت الآيات في ذكر مواقف جحودهم⁽¹⁾.

ثم انتقلت الآيات إلى ذكر مواقف المسلمين ، في مقدمتهم إبراهيم عليه السلام الذي أسلم لرب العالمين ، ثم ذكرت الآيات وصية يعقوب عليه السلام لأولاده ، وهو يقول لهم ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، ثم انتقلت الآيات إلى عرض الأحكام الشرعية العملية التكليفية ، فاستوفت كل الجوانب ، مثل : استقبال القبلة ، والحج والعمرة ، والقصاص والحياة ، وتشريع الصيام ، والجهاد ، وبيان أحكام الخمر والميسر ، والبيع والربا ، وتشريع الطلاق ، وأحكام الأسرة ، وحذرت من اتباع الشيطان ، ثم أجاب عن أسئلة الصحابة حول القتال في الأشهر الحرم ، والإنفاق ، والأهله ، والمحيض . ثم انتقل لإبراز مبادئ الاقتصاد الإسلامي ، وأحكام المعاملات الإسلامية ، ثم تطرق السياق إلى ذكر قصص من أخبار الأمم السابقة ، مثل ذبح البقرة ، ومناظرة إبراهيم للمطاغوت ، وقصة طالوت وجالوت ، وقصة نبي الله عزير⁽²⁾.

وختام السورة ينعطف على افتتاحها ، فيبين طبيعة التصور الإيماني ، الذي يقوده الرسول (ص) وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . وتختتم بالدعاء بالمغفرة والعفو والرحمة ، والنصرة على الكافرين⁽³⁾. ويمكن القول أنه بالإمكان اعتبار السورة بأكملها فعلا إنجازيا كبيرا شاملا هو : **الدعوة إلى الإسلام لله تعالى (التداولية الكبرى)** وتتدرج تحته مجموعة من الأفعال الكلامية الصغرى والفرعية نتناولها في الفصول القادمة .

(1) - ينظر : عبد الحميد محمود طهماز . الإسلام لله تعالى في سورة البقرة . دار القلم . دمشق . ط1 / 1993 . ص 21 .

(2) - ينظر : سيد قطب . في ظلال القرآن . دار الشروق . ط11 / 1985 . 33 / 1 - 34 .

(3) - ينظر : سيد قطب . المرجع نفسه . . 35 / 1 .

الإخباريات (التقريريات) les ASSERTIVES

نتناول في هذا الفصل القسم الأول من الأفعال الكلامية ، وهو الإخباريات ونتعرف من خلال ذلك على الوظائف التداولية للفعل الكلامي التقريري ، الذي يخبر عن مواقف وأحداث تاريخية ، ويروي أخبار الأمم السابقة ، ويقص علينا قصص الأولين ، ومن أخبار الأنبياء والمرسلين. واتخذ الخطاب القرآني من الخبر وسيلة لنقل الأخبار، وصف الحوادث، تقرير الحقائق، وتبليغ الدعوة. وغرض هذا الصنف هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية ، واتجاه المطابقة فيه من الكلمات إلى العالم ، ويتضمن معظم أفعال الإيضاح عند أوستين⁽¹⁾. والحالة النفسية التي تعبر عنها هي: الاعتقاد⁽²⁾. "أي تمثيل الحالة كما يعتقدها المتكلم"⁽³⁾.

الأفعال الكلامية الإخباريات هي استراتيجية توضيحية ، تتحدد في نوع من الأفعال الإنجازية هي : التقريريات Les Assertives فقد جاء استعمالها بكثرة في القسم الأول من سورة البقرة. "والتقرير في اللغة العربية يمكن أن يؤدي في أسلوب خبري بسيط ، كما قد يؤدي في أسلوب إنشائي، واستعمال التقريريات في صيغ التوكيد تفرضه سياقات تواصلية معينة ."⁽⁴⁾ إن الوظيفة الأساسية للخبر هي الحكاية ؛ فالكلام الذي يمكن الحكم عليه بموافقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية وهو كلام محكي ، وقد تحمل هذه البنية وظائف بلاغية أخرى تبرز قيمتها الجمالية في النصوص ، أما البنية الإنشائية فهي الوجه المقابل للخبر، تعتمد على إيجاد الكلام وإنشائه ، والنصوص العالية الجودة توظف كلا العنصرين في التعبير ، بل إن كلا منهما قد يتبادل موقعه مع الآخر. فتحل البنية الإنشائية محل الخبرية وتحل الخبرية محل الإنشائية . وفي ذلك دلالات مختلفة يكشف عنها السياق .⁽⁵⁾ والقوة الإنجازية المباشرة للإخباريات هي : الوصف ، والإخبار ، والتقرير. أما القوة الإنجازية غير المباشرة المستلزمة مقاميا فهي : والمدح ، والذم ، والتعظيم ، والثناء ، والتفريع والتعريض ، والوعد ، والوعيد ، والدعاء ، والتمني ، والإباحة ، والأمر ، والنهي ، والتحليل ، والتحرير ، والحث ، والترغيب ، والترهيب ، والتكذيب ، والتسلي ، والتبكي . الخ . وتسعى الدراسة إلى الكشف عن قوانين الخطاب من إخبارية ، وشمول ، وصدق ، وإفادة.

(1) - Voir : Austin . How to do Things With Words . p 154

(2) - ينظر : محمود نحلة . آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر . ص 78 . وينظر أيضا : هاشم طبطباتي . نظرية الأفعال الكلامية . ص 30

(3) - جورج يول . التداولية . ترجمة قصي العتابي . ص 89

(4) - محمود طلحة . تداولية الخطاب السردى . ص 144

(5) - ينظر : سعيد جبار . الخبر في السرد العربي . ص 17 .

فقانون الإخبارية هو شرط يخضع له كل تلفظ ، يكون الهدف منه إخبار المخاطب بأن يقول المتكلم ما لا يعرفه المخاطب . وأما الشمول فهو أن يعطي المتكلم المعلومات الأكثر إفادة في الموضوع ، مع عدم السكوت أو إخفاء نصيب من المعلومات . أما الصدق فهو يتمثل في قول المتكلم للحقيقة ، وأما الإفادة فإن المتكلم يجعل كلامه موصوفاً بالإفادة ، أي الكلام فيما يفيد المخاطب أو يهيمه الكلام فيه .

وقام الفيلسوف أوستين بتمييز صنف من الجمل ذات الصيغة الخبرية ، مما لا يقبل الصدق والكذب ، فقسم الجملة الخبرية نفسها إلى وصفية وإنشائية (تقريرية - إيقاعية) حيث وجد أن التلفظ بهذه الجمل هو جزء من القيام بفعل ، وأن هناك جملاً ذات صيغة خبرية ومعناها إنشائي ، وبقية الجمل كلها إنشائيات ، سواء كانت ذات صيغة خبرية أو كانت ذات صيغة أخرى ، فالجملة في موضع ما يكون لها قوة الخبر ، وفي موضع آخر يكون لها قوة التحذير ، وفي غيره تكون لها قوة الأمر. الخ. (1)

واللغة الإبداعية قد تخرج عن الأصل فتتزل الخالي الذهن منزلة المنكر ، وتنزل المنكر منزلة المتحير ، والعكس ، وتنزل الخالي منزلة المتحير والعكس وهذا العدول يكون نابعا من سياق الجملة حاملا دلالات إدراكية . وإذا كانت الأفعال في هذا المجال متعلقة بالخبر من الله فإنها صادقة مطلقا ، قال الشاطبي : "قد تبين في أصول الدين إمتناع التخلف في خبر الله تعالى ، وخبر رسوله (ص)". (2)

والإخباريات تساق عادة لإفادة السامع أمرا يجهله ، وهو ما يسميه البلاغيين **فائدة الخبر** . أو تثبيت ما لا يعرفه السامع وتذكيره به ، وهو ما يسمى : **لازم الفائدة** . وقد يرد الخبر ويقصد به الأمر مجازا كقوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ فلقد أولى علماء الأصول أهمية كبرى لقصد المتكلم ، فالصيغة وحدها لا تكفي لتحديد نوع الفعل الكلامي ، ولا تكون وحدها معيارا للتمييز بين الخبر والإنشاء ، فقد جعل أوستين الأفعال التقريرية الخبرية هي ما لا يقصد من النطق بها أداء فعل ، وإنما يقصد بها الوصف أو التقرير ، وأهم ما يميز **المنطوقات التقريرية** أنها تقال لوصف شيء ، أو تصويره ، أو سرد معلومات . وأما القسم الآخر فسماه أوستين **المنطوقات الأدائية** : وهي ما يقصد من النطق بها أداء فعل . وسماه فعلا إنجازيا أوليا . (3) وتختلف شدة القوة الإنجازية لفعل الإخبار بحسب توفر عناصر لغوية وتداولية تسهم في تعديل القوة الإنجازية ، منها : أدوات التوكيد ، ومراعاة حال المخاطب وغيرها . وقد يخرج الخبر عن معناه الأصلي ، ليفيد معان مجازية تفهم من السياق ، وقد نقل الإمام الزركشي عن أبي عبيدة قوله : "إن القصص ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين ، وباطنها عظة للآخرين". (4)

(1) - ينظر : هاشم الطبطبائي . نظرية الأفعال الكلامية . ص 8

(2) - الشاطبي . الموافقات . 163/1 .

(3) - ينظر : علي محمود الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 32

(4) - الزركشي . البرهان في علوم القرآن . 2 / 169 .

البسمة : ههه

الافتتاح بالتسمية في الأمور المهمة ذوات البال وارد في الإسلام ، وقد روي فيه حديث الرسول (ص) "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتـر".⁽¹⁾ وقد افتتح الله تعالى بالبسمة جميع سور القرآن الكريم عدا سورة التوبة ، والبسمة صيغة دبجتها الأسماء الحسنی (الله والرحمن والرحيم) وقد تكرر اللفظان (الرحمن والرحيم) دون فصل بينهما ، وذلك لأجل التأكيد. وقد جعل الألوسي البسمة عنوان القرآن فقال : "وهي عنوان كلام الله تعالى المجيد وخَالُ وَجْنة القرآن الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه".⁽²⁾ قال الراغب الأصفهاني : "لا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث أن معناه لا يصح إلا له ، والرحيم يستعمل في غيره ، وهو الذي كثرت رحمته".⁽³⁾ "فالرحمن هو المتصف برحمة الهيمنة... أما الرحيم فرحمته تقترن بالتوبة والرأفة ، والمغفرة، والود، والبر".⁽⁴⁾ والرحمن الرحيم اسمان من أسمائه الحسنی يدلان على كثرة إحسانه ، وسعة فضله "وأن اسم الرحمن لم يأت في القرآن متبوعاً بوصف آخر سوى وصف الرحيم".⁽⁵⁾ وتتحدد بنية الفعل الكلامي في البسمة باعتبار مقاصد المتكلم المستخدم لهذه الصيغة فمقاصدها كثيرة منها: التسمية، والتأكيد، والتعظيم، والاستعانة، والتنبية، والتمين (التبرك)، والتعليم، والتأدب، والحث. والمعنى: باسم الله أقرأ أو أتلو، وقدر المحذوف (أقرأ) متأخراً تعظيماً لاسمه تعالى فإذا قلت: باسم الله فكأنك قلت: أبداً باسم الله ، والمقصود منه التنبية على أن العبد من أول ما شرع في العمل كان مدار أمره على التسهيل والتخفيف والمسامحة".⁽⁶⁾ وفي الأمر غير المباشر حث على التسمية أي : سموا باسم الله عند الابتداء. لأن البسمة سنت عند ابتداء الأعمال الصالحة ، ومقصود المبتدئ بالبسمة أن يكون جميع عمله ذلك مقارناً لبركة اسم الله تعالى ، وهو أنسب للتمين، فمعنى البسمة : أن أقرأ قراءة ملايسة لبركة هذا الاسم المبارك ، وجمع السياق بين اسم العلم (الله) وبين صفتي الرحمن الرحيم؛ لأن المسمى إذا قصد الاستعانة بالله المعبود الحق يذكر علم الذات ، إشارة إلى استحقاقه أن يستعان به بالذات.⁽⁷⁾ والمقصود تعليم وجه التمين بأسمائه الحسنی وتقديمها عند كل ملِّم. فالغرض الإنجازي هنا هو : التعليم أي: "تعليم العباد إذا بدأوا بأمر كيف يبدأون به... وفي هذا غاية الإظهار لعظمة الله تعالى ، وحث على التبري من الحول والقوة إلا بالله ، وإشارة إلى أن قدر العباد غير مستقلة في الأفعال".⁽⁸⁾ أما التأدب "فهو أن البدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه(ص) في أول ما نزل... فباسمه إذن يكون كل ابتداء"⁽⁹⁾ والأسماء الحسنی في البسمة ذات بعد حاجي، فقد جاءت بهذه الصيغة لإبطال تسمية المشركين بقولهم: (باسم اللات، باسم العزى) ، وكذلك لإبطال تسمية النصارى بقولهم: (باسم الأب والإبن والروح القدس).⁽¹⁰⁾ ومن ثم فإن الله

(1) - أخرجه ابن ماجه في سننه (610/1) حديث رقم (1894) . والبيهقي في سننه (208/3) . حديث رقم (5559) .

(2) - الألوسي . روح المعاني . 1 / 107.

(3) - الراغب الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن . ص 347 .

(4) - تمام حسان . البيان في روائع القرآن .. 1 / 296 .

(5) - أحمد مختار عمر . أسماء الله الحسنی . دراسة في البنية والدلالة . ص 140 .

(6) - الرازي . التفسير الكبير . 1 / 174

(7) - ينظر : ابن عاشور . التحرير والتنوير . 1 / 151 .

(8) - الألوسي . مرجع سابق . 1 / 108 .

(9) - سيد قطب . في ظلال القرآن . 1 / 21 .

(10) - ينظر : عبد الله صولة . الحجاج في القرآن . ص 222-223

تعالى قد أنجز بصيغة البسملة أفعالا كلامية أسهمت في تغيير الواقع ، وذلك بوضع اللغة موضع العمل.

المبحث الأول : الإخبار عن القرآن والإنسان

وصف القرآن الكريم :

لقد ابتدأت سورة البقرة بسلسلة من الأفعال الكلامية الإخبارية الوصفية ، التي تصف الأحداث التاريخية ، والقضايا الدينية . فبدأت بداية لغوية صوتية ، ووصفت القرآن الكريم ، وأخبرت عن حقيقته ، ثم انتقل السياق القرآني إلى وصف المؤمنين المتقين ، ثم وصف الكافرين والمنافقين ، وانتقل إلى ذكر أخبار بني إسرائيل ، وقصة آدم مع الملائكة ، وهكذا تتابع عرض الوقائع ، والأخبار ، والقصص ، إلى أن ينتقل إلى الأفعال التوجيهية . ونورد فيما يلي عرضا عن طريقة ورود الأفعال الكلامية في هذه الآيات ونبين أغراضها الإنجازية ، انطلاقا من السياق الذي وردت فيه .

قال تعالى : ﴿الْم ﴿ ذَلِكَ أَلَكْتُبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿

وردت هذه الآيات في سياق مخاطبة المولى عز وجل للعرب ، الذين تحداهم بالقرآن وهم يقولون : لاتسمعوا لهذا القرآن ، إذ لا عذر لهم في إنكارهم ، أنه من عند الله ، فقد دعاهم إلى معارضة القرآن فعجزوا ، ولقد آزرهم أهل الكتاب ، وشجعوهم على التكذيب ، ولو أنهم تدبروا القرآن لآمنوا به ، فهم لا يجدون فيه ما يثير الارتياب ، وذلك ما يزعزع ثقة أهل الكتاب بكتبهم المحرفة . والمقام الذي جاء فيه الخطاب ، مقام التحدي والتعظيم ، ولذلك وظف السياق القرآني الوسائل اللغوية والحجاجية المناسبة ، والأفعال الكلامية الملائمة لذلك المقام ، ففي هذه الآيات أخبر الله عز وجل عن القرآن الكريم ، ووصفه بالعلو ، والعظمة والهداية ، ونزّهه عن النقائص والشكوك لا ريب فيه ، فالآيات تشير إلى دلالة بعد المرتبة ، وعلو منزلة القرآن فوق كل منزلة سواه ، "فذلك الكتاب الكامل الجامع لصفات الكمال".⁽¹⁾

بنية الفعل الكلامي في الآية :

جاءت هذه الآيات بصيغة خبرية ، دالة على أفعال كلامية مباشرة ، تتضمن قوى إنجازية مستلزمة مقاميا ، مكونة من أربع جمل . "﴿الْم ﴿ جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، ﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية ، ﴿لا ريب فيه﴾ ثالثة ، ﴿و﴿ هدى للمتقين﴾

(1) - الألوسي . روح المعاني . 162 / 1 .

(2) - الزمخشري . الكشاف . 36/1 .

رابعة ،وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ،حيث جيء بها متناسقة ،
هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متأخية آخذا بعضها بعنق بعض" (2)*

قال تعالى : ﴿الْم﴾ *وهي حروف مقطعة تأتي في أوائل بعض السور ، وهي هنا

تتضمن فعلا كلاميا غير مباشر ، هو التنبيه على أن القرآن هو الكلام المعجز المتحدى به،
ففي هذا المنطوق : "حذف ، ورمز إلى الغرض بالطف وجه" (1)، وهذا القول أيضا هو وسيلة
معجمية ، لتعزيز القوة الموجهة إلى المحتوى ، كما يدل أيضا على قوة متضمنة في القول ،
هي التأكيد على أن الكتاب المعجز مؤلف من نفس الحروف التي يعرفها المخاطبون .ويؤدي
هذا المنطوق الرمزي ،وظيفة حاجية لإبطال دعاوى المشركين ، وإثبات صدق الرسالة ،
والتنبيه على أن القرآن كتاب معجز ، وقد أورد الرازي في تفسيره قول المبرد : "إن الله
تعالى إنما ذكرها احتجاجا على الكفار ؛ وذلك أن الرسول (ص) لما تحداهم أن يأتوا بمثل
القرآن فعجزوا عنه ، أنزلت هذه الحروف ، تنبيهها على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف،
وأنتم قادرين عليها ، فلما عجزتم دل ذلك على أنه من عند الله لا من البشر" (2). وهو القول
الذي ذهب إليه الشيخ الطاهر ابن عاشور في : "إن هذا الكتاب المتلو عليهم ،وقد تحدوا
بالإتيان بسورة مثله ، هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم ، كأنه يغريهم بمحاولة
المعارضة" (3).

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ هذه جملة دلت صيغتها الخبرية على فعل كلامي مباشر ، هو
التقرير ، وتحتوي أيضا على فعل كلامي متضمن في القول هو التعظيم ، (4) ويؤدي
العنصر الإشاري (ذلك) دورا في تحديد الفعل الكلامي ، فإن كان المشار إليه (الم) أفادت
الجملة فعلا كلاميا متضمنا في القول هو التعريض بالمتحدين . وإن كان المشار إليه هو

(*) - يلاحظ هنا تأثر الزمخشري بنظرية النظم للجرجاني ، وهذه إحدى تطبيقاتها على النظم القرآني .
* - وقد حاول المفسرون إعطاء دلالات مختلفة لهذا المنطوق (الم) لكن المنطوق في حال الحروف المقطعة غير دال ؛ أي ليس
له مفهوم مباشر أو غير مباشر .ونجد الاتجاه اللغوي يتعامل مع هذه الحروف على أنها حروف غير دالة في ذاتها ، بل هي جزء
من النظام اللغوي الذي يعتمد عليه النص ، ووجودها في النص هكذا مفرقة له دلالة عامة هي التأكيد بأن هذا النص المعجز في
نظمه مؤلف من نفس الحروف التي يؤلفون منها نصوصهم . ينظر : نصر حامد أبو زيد . مفهوم النص . دراسة في علوم
القرآن . ص 191.

(1) - فخر الدين الرازي . التفسير الكبير . 25 / 2 .

(2) - المرجع نفسه . 7 / 2 .

(3) - الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . 1 / 212 .

(4) - ينظر : الألوسي . روح المعاني . 162 / 1 .

(الكتاب) أفادت فعلا كلاميا متضمنا في القول هو **التعظيم** ، وتدعمت القوة الإنجازية باستخدام العنصر الإشاري (ذلك) ، إشارة إلى محسوس مشاهد حاضر حضورا تقديريا (5).

ومن منظور حاجي ، فإن المدلول الصريح (ذلك الكتاب) ، إشارة إلى كتاب بعيد . والدلالة الضمنية للتلفظ ، جعل البعد ذريعة إلى التعظيم ، ففي هذه الجملة نلاحظ استغلال (موضع-Topos) يتمثل في كون ما هو بعيد هو عظيم ، نحو: الأفلاك، والقمر، والشمس ... الخ (1) فالموضع يؤدي وظيفة حاجية "ذلك لأن الموضع في العادة محل إجماع ؛ فهو فكرة عامة ، يؤدي استخدامها في الخطاب إلى اقتناع المخاطبين، بما يعرض عليهم بوساطتها." (2) وما زاد التعظيم قوة تعريف لفظ (الكتاب)، دلالة على الفخامة والرفعة ، وكذلك مجيء الخبر عن الكتاب مؤكدا بقوله : (لا ريب فيه) . ففيه بيان وتوكيد وتحقيق .

قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ﴾ في هذه الجملة الثالثة تدل صيغتها الخبرية على فعل كلامي

مباشر هو **النفي** ، "المراد منه نفي كونه مظنة للريب ، بوجه من الوجوه ، والمقصود أنه لا شبهة في صحته ، وأنه بلغ من الوضوح ، إلى حيث لا ينبغي لمرتأب أن يرتأب فيه." (3) وتتضمن الجملة قوة إنجازية غير مباشرة ، هي : **الإثبات والتبيين** ، فالإثبات أنه حق وصدق ، والتبيين أنه يبين وضوح حقيقة القرآن ، وتدعمت القوة الإنجازية للفعل الكلامي بتقديم (الريب) وذلك لنفي الريب بالكلية عن الكتاب العزيز .

ويؤدي **الوقف** هنا دورا هاما في تحديد الفعل الكلامي ، وغرضه الإنجازي ، يقول الطاهر ابن عاشور : " إذا كان الوقف على قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ﴾ فهو **تعريض** بكل المرتابين فيه من المشركين وأهل الكتاب ؛ أي أن الارتياح في هذا الكتاب نشأ عن المكابرة ، وأن لا ريب فإنه الكتاب الكامل ، وإن كان الوقف على قوله تعالى : ﴿فيه﴾ كان **تعريضا** بأهل الكتاب في تعلقهم بمحرف كتابيهم ، مع ما فيها من مثار للريب والشك." (4)

وهكذا يتبين أثر الوقف في شكل الجملة، ونوعها ، "وهو يفضي إلى اختلافات في شكل الجملة من حيث بدايتها أو نهايتها ، بل من حيث نوعها ؛ فقد تكون خبرية بوقف ، وتكون إنشائية بوقف آخر . وفي نهاية المطاف يؤدي إلى تنوع في المعنى ، مما قد يتضمنه من

(5) - ينظر : ابن عاشور . المرجع نفسه 1/ 219 .

(1) - ينظر : صابر الحباشة . مغامرة المعنى . ص 75 .

(2) - عبد الله صولة . الحجاج في القرآن . ص 604 .

(3) - فخر الدين الرازي . التفسير الكبير . 2/ 21 .

(4) - الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . 1/ 227 .

تتوَّع في الأحكام .⁽⁵⁾ وقد يكون الوقف راجعا إلى كراهية توالي الأمثال يقول تمام حسان : " ولعل ظاهرة الوقف باعتبارها موقعية من موقعيات السياق العربي ، ترجع إلى كراهية الأضداد ، أو كراهية التنافر ."⁽¹⁾ ففي هذه الجملة تعانق وقفى مؤثر في توزيع بناء الجملة ، ويترتب عن هذا التعانق * اختلافات إعرابية كثيرة ، مما ينشأ عنه اختلاف في المعنى .

قوله تعالى : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهي الجملة الرابعة فقد دلت صيغتها الخبرية على فعل

كلامي مباشر هو الإخبار ، فهو يخبر عن الكتاب بأنه الهدى ، وتتضمن الجملة فعلا كلاميا غير مباشر مستلزم مقاميا وهو إرشاد المؤمنين ، كما تتضمن فعلين آخرين هما التثبيت والحث ؛ أي تثبيت المؤمنين على ما هم عليه ، وحثهم على الزيادة فيه ، وساهم تكرير كلمة (هُدًى) في تعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي ، أي فيه شيء من الهدى ، وأكد إنجازية الفعل الكلامي حين أخبر بالمصدر بأنه (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) ، "إشارة إلى بلوغ الغاية في إرشاد الناس حتى كان هو عين الهدى ، وفيه من المبالغة في حصول الهداية به ما لا يوجد في الإخبار بغير المصدر."⁽²⁾

الفعل التأثيري : نتج عن القول فعل متضمن لأن الهدى ظهر أثره في المؤمنين الصادقين ، فاتقوا ربهم ، وعليه يكون في السياق مدح مضمّر للكتاب ، بمشاهدة هديه ، وثناء متضمن على المؤمنين الذين اهتدوا به .

الفعل الكلامي الكلي :

يظهر الفعل الكلامي الكبير بتعبير فان دايك ممثلا في التعظيم ، أي تعظيم القرآن الكريم ، وحث المؤمنين بطريق غير مباشر على تعظيمه ، والاهتداء بهديه ، ويندرج تحت هذا الفعل الكلي أفعال كلامية جزئية ، تحقق الغرض الكلي ، وهي : الإثبات ، التعظيم ، النفي ، الإرشاد ، التقرير ، الحث ، وغيرها ، ومن ذلك المتكلم قد أنجز أفعالا صريحة وضمنية ، واصفة ومقررة وموجهة ، وبذلك فإن المتكلم قد وصف ، ونبه ، وشهد ، وعرض ، ونفى ، وأثبت ، وأخبر ، وأنتى ، وأرشد ، وأكد .

(5) - محمد رزق شعير . الفنونولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم . ط1/2008 . مكتبة الآداب . القاهرة . ص 177 .

(1) - تمام حسان . اللغة العربية معناها ومبناها . ص 270 .

*- التعانق هو أن يجتمع في آية كلمتان يصح الوقف على كليهما ، لكن إذا وقف على إحداهما إمتنع الوقف على الأخرى . والقارئ مخبر بين الوقف على إحداهما ، ولا يصح الوقف عليهما معا ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ والتعانق يرمز له ب (□ - □) . ينظر : محمد رزق شعير . مرجع سابق . ص 189 .

(2) - الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . 1/ 225 .

وصف المتقين :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ﴿٢٢٨﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٢٢٩﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٣٠﴾

السياق : جاءت هذه الآيات في سياق تصنيف الناس ، بحسب تلقيهم القرآن ، إلى أربعة أصناف ،
بعد أن كانوا قبل الهجرة صنفين ، هما : المؤمنون ، والكافرون ، فزاد بعد الهجرة صنفان هما :
المنافقون وأهل الكتاب ، وتأزر المنافقون مع المشركين ، والتف أهل الكتاب مع المنافقين ، الذين كانوا
حلقة وصل بين الأصناف الأخرى ، لأنهم مؤمنون في الظاهر ، وكفار في الباطن ، وأما المؤمنون
فهم صنفان : متقون وهم الذين كانوا مشركين ، ثم أسلموا بصدق ، وهم الذين أتى عليهم السياق
القرآني وصنف غير متقين لأنهم آمنوا طمعا في الدنيا .⁽¹⁾

المقام : جاءت هذه الآيات في مقام مدح وثناء ، على المؤمنين من جهة ، في مقابل الذم والتعريض
بالكافرين ، وبالمؤمنين غير المتقين .

بنية الفعل الكلامي: نوضح فيما يلي ،بنية الفعل الكلامي الوارد في الآيات الثلاث من هذا الوصف
الإخباري.

القوة الإنجازية الصريحة : الإخبار عن صفات المتقين .

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا ،ممثلة في الثناء على المؤمنين المتقين.
وفي التعريض ذم للمشركين ، وللمنافقين بعدم الاهتداء بالكتاب ، فقد أخبر المتكلم ،بأن الإيمان بالغيب
صفة المتقين ، ولهذا ذكره في أول صفات المتقين ، إذ هو أساس التقوى ومصدرها ، والتمثلي عليهم
هنا هم الذين كانوا مشركين ، فسمعوا الدعوة فأمنوا عن صدق ، مثل : وائل بن حجر ، وغيره.
أما الذين آمنوا طمعا في الدنيا ،فليسوا من المتقين ، مثل : مسيلمة الكذاب ، وغيره .⁽²⁾

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 228 .

(2) - ينظر : المرجع نفسه 1 / 228 .

وتدعمت القوة الإنجازية للفعل الكلامي ،بتقديم الأهم فالأهم : الإيمان ، والصلاة ، والزكاة. كما قوى السياق إنجازية الفعل الكلامي ،بصيغة المضارع (يُؤْمِنُونَ) ، لإفادة أن إيمانهم مستمر ومتجدد ، فلا يطرأ عليه شك ،ولا ريبه . كما تدعمت القوة الإنجازية بقوله : (يُوقِنُونَ) ،لأن اليقين هو العلم المسبوق بالشك ، ولذلك لا يوصف الله تعالى به.

القوة الإنجازية الصريحة هي الوصف ، وصف المؤمنين.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾

القوة الإنجازية المستلزمة هي : "المدح للمؤمنين على إيمانهم

وتيقنهم من الآخرة"⁽¹⁾ والتعريض ،والذم للمشركين والمنافقين.

وكان لإعادة الموصول مزية تقوية إنجازية الفعل الكلامي ليبين أن هؤلاء فريق آخر غير الفريق الذي اتصف بالصفات الثلاث ، فهم الذين آمنوا بعد شرك ،وهذا تخصيص لهم ونذكر منهم: عبد الله بن سلام، ودحية الكلبي، وغيرهم.

معنى صريح دلت عليه بنية الجملة هو التقرير،والإخبار عن المؤمنين.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى

مِنْ رَبِّهِمْ...﴾

معنى ضماني مستلزم هو الثناء على المؤمنين ،وحثهم على الثبات،

ومدحهم بالإقامة على ذلك الإيمان ، والتعريض بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوّة محمد (ص).⁽²⁾

فهذه الجملة لا تخلوا من إفادة الحصر ، ودعوة المؤمنين إلى الثبات على الفلاح ، تعريضا بأهل

الكتاب .⁽³⁾ أما المتبعون للحنيفية مثل : أمية بن أبي الصلت ،وزيد بن عمرو ،وغيرهم . فلم يلتفت

إليهم لقلنتهم ، أو لأنهم ملحقون بأهل الكتاب.⁽⁴⁾ فيكون ملخص هذا المضمون الإنجازي، أن البنية لم

تكتف بمجرد الإخبار ، بل سعت إلى تحقيق أشياء في الواقع ، فبالإضافة إلى القوة الإنجازية الحرفية،

الواصفة ،والمقررة ، أنجزت الآيات أفعالا كلامية متضمنة في القول ، هي : الثناء والمدح للمؤمنين ،

والذم والتعريض بالكافرين . داعيا المؤمنين إلى الثبات على الإيمان ، فالمؤمنون هم المفلحون .

ومن ثم فإن المتكلم قد وصف ، وأخبر ، وقرر ، وأثنى ، ومدح ، وحث ، وذم ، وعرض ، ولا يخفى

ما يتضمنه العنصر الإشاري (أولئك) ، والضمير (هم) من زيادة القوة الدلالية ،على المقصود من

(1) -الرازي . التفسير الكبير . 2/37.

(2) -ينظر : الرازي . مرجع سابق . 37/2 .

(3) - ينظر : الألوسي . روح المعاني . 182/1 .

(4) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 241/1 .

اختصاص المذكورين ، باستحقاق الهدى والفلاح.(5) " فما يتلفظ به المتكلم من كلام ، يتحول إلى أفعال ذات امتداد اجتماعي ، وتعتبر في الوقت نفسه حملا للمخاطب ، على القيام بفعل معين."(6)

وصف الكافرين :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

المتكلم في هذه الآيات هو : الله عز وجل ، والخطاب موجه إلى الرسول (ص) ، وقد جاءت هذه الآيات في سياق توضيح ، فرق المكلفين ، فقد قسمهم القرآن إلى ثلاثة فرق : مؤمنون ، وكفار ، ومنافقون فهذه الآيات تعرض أخبار الذين كفروا ، ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي ، في الآيتين كما يلي :

الإخبار : قوة إنجازية صريحة ، هي الإخبار عن تكبر وإعراض الكافرين ، عن الهدى وهو قول تقرير ينفى الإيمان عن تلك الفئة .

القوى الإنجازية المستلزمة مقاميا ، فقد أنجزت الآيات خمسة أفعال متضمنة في القول هي : التأكيد ، والذم ، والتشنيع ، والتسليية ، والوعد .

فقد أكد إصرار الكافرين على الكفر بقوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ... ﴾ فقلوبهم قاسية ، مغلقة ، محكمة السد ، لا يدخلها الإيمان ، وجملة (سواء عليهم) ، ذم لأصحابها ، وتشنيعا عليهم ، وفيه تسليية للرسول (ص) ، بأنه بلغ الرسالة ، وإنما لم يؤمن الكفرة لسبق الشقاء.(1) والهمزة (أَنْذَرْتَهُمْ) للتسوية المصرح بها"(2)

أما فعل الوعيد فهو فعل كلامي متضمن في القول : "ودليل ذلك عدم العفو وهو شرط ضمني ، قال الألوسي : " إنا ندعي أن أخبار الوعيد في الكفار مشروطة بعدم العفو ، وإن لم يكن هذا الشرط صريحا ... على أنه يحتمل أن تكون تلك الجمل دعائية ، أو إخبارية ، لكن الإخبار ، عن استحقاق الوقوع ، لا عن الوقوع نفسه."(3)

(5) - ينظر : القزويني . الإيضاح . ص 32 .

(6) - عمر بلخير . مقالات في التداولية والخطاب . ص 189 .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 195 / 1 .

(2) - السبكي . عروس الأفراح . 2 / 547 .

(3) - الألوسي . المرجع نفسه . 1 / 206 .

وقد استخدم السياق عناصر لغوية أسهمت في تعديل القوة الإنجازية ، وتأکید الأفعال فقد جاءت الجملة مصدرة بـ(إن) للتوكيد . واستعمل لفظ(خَتَمَ) فهو أكثر قوة من لا يؤمنون ، كما ناسب تقديم (قُلُوبِهِمْ) لأنها محل الإيمان ، والسمع والإبصار طرق وآلات له. (4)

وصف المنافقين : سلسلة الآيات تحكي قصة الذين كفروا ، والتي تتضمن فعلا كلاميا كلياً هو النعي على أهل الضلال والمنافقين ، ويندرج تحت الفعل الكلامي الكلي ، مجموعة أفعال كلامية صغرى هي عنوان كل مقطع في القصة ، مثل : التكذيب ، والذم ، والتهكم ، والوعيد ، والإنكار ، والاستهزاء ، والتجهيل والتحقير ، والاستبعاد . كل هذه أفعال كلامية غير مباشرة ، دلت عليها الصيغ الخبرية والتقريرية الواصفة .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا لَيْتُمْ أَآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

هذه الآية تتضمن فعلا كلاميا غير مباشر ، هو النعي ، على أهل الضلال والمنافقين ، وهم أعظم جرماً من الكفار ، كما تتضمن الآية معنى التّكذيب ؛ فقد كذب الله المنافقين لعدم مطابقة التصديق القلبي للتصديق اللساني . (1)

قال تعالى : ﴿ تَخَذِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا تَخْذِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢)

الآية تتضمن فعلا كلاميا غير مباشر ، والآية تحتل نفي الشعور بمعنى العلم ؛ أي لا يعلمون ، فمتعلق الفعل كالمحسوس ، الذي لا يخفى إلا على فاقد الحواس ، ونفي ذلك نهاية الذم ، لأنه من لا يشعر بالبدهي المحسوس ، مرتبته أدنى من مرتبة البهائم ، فالكافرون كالأنعام ، بل هم أضل . ولعل هذا أولى لما فيه من التهكم بهم. (2) وعلى هذا فالفعل الكلامي ، يتضمن المعان التالية: النفي والتهكم .

قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٣)

مرض القلب يحمل على المعنى المجازي ، ذلك المرض يمنعهم من الإيمان ، فالفعل المتضمن في القول هو : الوعيد ، بسبب النفاق والخداع ، والكذب بقولهم : (آمَنَّا) ، كما يتضمن معنى الذم ، بالكذب والتكذيب ، وبمصطلحات (جون سيرل) يكون الفعل الكلامي غير المباشر ، هو تحريض المؤمنين على ما هم عليه ، من الإيمان والتصديق .

(4) - ينظر : نفسه . 1/ 195 .

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 1/ 216

(2) - ينظر : المرجع نفسه . 1/ 219

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١)

هذا سياق تقريرى ، يتضمن فعلا كلاميا ، هو بيان حال المنافقين ، في انهماكهم في باطلهم ، ورؤيتهم القبيح حسنا ، والفساد صلاحا ، كما أنه يتضمن النهي ، ومعناه : "لا تصدوا عن دين الله". (3)

قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢)

هذه الآية تتضمن فعلا إنجازيا ، هو الذم للمفسدين عن علم ، وهناك فعل آخر متضمن في القول بطريق غير مباشر ، هو التسلية للرسول (ص) ؛ "إذ من كان من أهل الجهل ، لا ينبغي للعالم أن يكثرث بمخالفته". (1) و ذلك من وظائف القصة القرآنية ، وما فيها من قصد تثبيت قلب النبي (ص) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣)

إن الفعل الكلامي المتضمن في القول ، يتجلى في ثلاثة معان : الأول هو الإنكار بحيث أراد الكافرون أن ذلك لا يكون أصلا ، ولتعديل القوة الإنجازية ، المتضمنة استخدام السياق الهمزة (أنؤمن) ، أما الثاني فهو: استهزاء الكفار بمخاطبيهم الناصحين لهم ، والثالث هو: التجهيل برد الله عليهم ، ذلك الرد الشنيع ، وشناعته في قوته الإنجازية ، التي عبر عنها بالأدوات (ألا + إن + هم + هم + ال) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١٤)

إن الفعل المتضمن في القول في هذه الآية هو : الإدعاء وإظهار الاستهزاء بالمؤمنين ، وهذا من سلوك المنافقين ، يتفوهون بالإيمان عند لقاء المؤمنين ، وهناك معنى آخر، هو الاستخفاف وقصدهم الثبات على اليهودية ، وتعظيم الكفر ؛ "لأن من حقر الإسلام ، فقد عظم الكفر" (2) ، فالغرض إظهار المساواة مع اليهود.

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١٥)

(3) - الزجاج . معاني القرآن وإعرابه . 84/1

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 228/1

(2) - الزمخشري . مرجع سابق . 66/1

الفعل الكلامي المتضمن في القول ، هو التحقير ، وقد حمل أهل الحديث وطائفة من أهل التأويل الاستهزاء منه تعالى على حقيقته ، وقالوا : إنه التحقير ، والصيغة الداعمة للقوة الإنجازية هي : (مُسْتَهْزِئٌ ، يَسْتَهْزِئُ) ، لإفادة التجدد الاستمراري ، وهو أبلغ من الاستمرار الثبوتي ، الذي تفيدته الإسمية ، في قوله تعالى (مُسْتَهْزِئٌ): (3)

قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١١) الفعل الكلامي الذي تعبر عنه الآية ، هو الاستبعاد والنفي في مقام الذم ، بنفي الربح وعُدلت القوة الإنجازية ، لتدل على المقصد بوضوح ، في استخدام الإشارة ، (أُولَئِكَ) إلى المنافقين ، إشارة إلى البعيد . وكذلك العطف على الصلة ، (فَمَا) الدالة على المبالغة ، في تخسيرهم ، وكنى (مَا رَبَحَتِ) في مقام الذم ، بنفي الربح عن الخسران .

قال تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فُهُمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨)

في هذه الآية عبر عن الفعل الكلامي ، بوساطة التشبيه التمثيلي⁽¹⁾ . فقد شبه حال المنافقين ، بحال الذي استوقد نارا ، وعقد المشابهة بالكاف ، ووجه الشبه هو : تشبيه "حالهم العجيبة الشأن كحال من استوقد النار." (2) استخدم الله سبحانه وتعالى ، الأمثال ليقرب من أذهاننا معنى الغيبيات ، التي لا نعرفها ولا نشاهدها . فهو يحدثنا عن قضايا غيبية ، بمحسوسات دنيوية . ويبين في هذه الآية حيرة المنافقين ، وسبب حيرتهم "أنهم كانوا قد سمعوا من اليهود ، أن زمن نبي جديد قد أتى ، فقرروا أن يؤمنوا به ولكن إيمانهم ، لم يكن عن رغبة في الإيمان ، ولكنه كان محاولة للحصول على أمان دنيوي ؛ لأن اليهود كانوا يتوعدونهم ، ويقولون : أتى زمن نبي سنؤمن به ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فأراد هؤلاء المنافقون أن يتقوا هذا القتل ، الذي يتوعدهم به اليهود فآمنوا نفاقا." (3) فاستحقوا الذم لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة.

ويمكن توضيح الأفعال الكلامية في هذه الآية كما يلي :

خبر . معنى صريح . (الأصل) حالة المنافقين

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 133/1.

(1) - ينظر : السكاكي . المفتاح . ص 347 .

(2) - الألوسي . روح المعاني . 1 / 239 .

(3) - محمد حسني . الموسوعة الكبرى للإعجاز العلمي في القرآن . ط 1 / 2006 . دار التقوى . القاهرة . مصر . . ص 70 .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴿١﴾

معنى ضمني . (الكناية) فعل كلامي غير مباشر، تبكيت

الخصم + فعل التقرير . (الفرع) حالة المستوقد

التبكيت : في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ استخدم التشبيه لأداء فعل

إنجازي غير مباشر هو: "تبكيت الخصم الأول ، وقمع لصولة الجامح الأبوي" ⁽¹⁾ . والغرض من التشبيه هو: تبيان حال المنافقين . وقد عبرت عن ذلك الصيغة الخبرية للآية المذكورة . والفعل الكلامي يدل على وصف حال المنافقين ، من خلال تشبيههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ، فبينما هو كذلك إذ أطفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع هذا أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر . فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك ، فكذا هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى ، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا " ⁽²⁾ . فقد استخدم المتكلم التشبيه لإنجاز فعل كلامي غير مباشر، وذلك أن علاقة المشابهة والمماثلة تفترض أن يكون هناك شيان : أصل وفرع . ولضبط العلاقة بينهما يحل الأصل إلى مكوناته ، أو مقوماته ، أو صفاته . فيختار المتكلم بعضا منها لإسقاطها على الفرع ، على أن ما يسقط يجب أن يكون جامعا ، متفقا عليه بأنه وصف منضبط . ⁽³⁾ فسمات المشبه (المنافقون) كثيرة ، لكن التي تنطبق على الفرع ، وهو حال من استضاء بالنار ، ثم صار بعد البصيرة إلى العمى صفات كثيرة أيضا ، فاختار السياق أكثر الأحوال تميزا بتلك الصفات ، حيث تبين أن الذين أطفئت نارهم ، وهم صم بكم هم الأكثر تميزا بتلك الصفات ، فأسقطت جميع السمات الأخرى حتى لا يختلط الأمر على المتلقي عند التشبيه ، لإبراز الحقيقة في صورة مشاهد تتميما للبيان . فهي تصور المنافقين بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة إيمان ، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم . ولتقوية هذا الفعل الكلامي عبر بقوله تعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ ؛ أي ذهب عنهم لما ينفعهم وهو (النور) وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان .

(1) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 72 .

(2) - محمد حسني . مرجع سابق . ص 70 .

(3) - ينظر : علي الصراف . مرجع سابق . ص 149 .

التقرير : فعل كلامي آخر في قوله تعالى : ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنتفاء النور بالكلية ، فقد أذهب الله عنهم الأنوار ، وأبقاهم في ظلمات الدعوى لا يبصرون طريق الخروج منها . (4)

قال تعالى : ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَّجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

المتكلم هو الله عز وجل ، والمخاطبون هم المنافقون . وبنفس الشروط السابقة في الآيتين 17 و 18 يثني السياق القرآني في شأن المنافقين بتمثيل آخر لتأدية فعل كلامي هو الإيضاح والكشف . وقد شبه في هذا التمثيل دين الإسلام بالصيب ؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر . وشبه الكفار بالظلمات ، وشبه الوعد والوعيد بالرعد والبرق . وشبه ما يصيب الكفرة من فزع بالصواعق . (1) فقد شبّهت حيرة المنافقين وشدة الأمر عليهم ، بمن أخذته السماء في الليلة المظلمة ، وسط خوف من الصواعق . ويمكن توضيح الأفعال الكلامية في هذه الآية كما يلي :

معنى صريح . خبر . الأصل . المشبه : (الحال) + (المنافقون)

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ...﴾

معنى ضمني : إيضاح ، تهويل ، تقرير ، توبيخ .

الفرع . المشبه به : الحال الثانية . من أخذتهم السماء في الليلة الظلماء .

في الآيات المذكورة ينتقل السياق من المعاني الصريحة إلى المعاني الضمنية . "لقد اهتدى سيرل إلى أنواع أخرى من الأفعال الكلامية ، ميزتها أن دلالتها الفعلية لا تظهر صريحة في عبارة المتكلم ، إنما تأويل هذه الدلالة وفهمها يحتاج إلى العودة إلى عوامل السياق المحيطة بالمخاطبين." (2) وقد دلت الآية على أفعال غير مباشرة هي : التهويل ، والإيضاح ، والتقرير ، والتوبيخ .

الإيضاح : فعل كلامي غير مباشر ، دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والفعل الكلامي يدل على وصف حال المنافقين ، ذلك أن علاقة "المشابهة تقتضي شيئان أصل

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 244/1 .

(1) - ينظر : الزمخشري . الكشاف . 79 / 1 .

(2) - عمر بلخير . مقالات في التداولية والخطاب . ص 130 . دار الأمل . تيزي وزو . الجزائر .

وفرع⁽³⁾ فالأصل هو المشبه ، وهو حال المنافقين وما هم عليه من حيرة وفظاعة ، وهم يخطبون خطب عشواء . والفرع هو المشبه به ، وهو الصيب من السماء ، وما فيه من رعد وبرق وسائر الأهوال . قال الزجاج (تـ 311هـ) : " وهذا أيضا مثل يضربه الله عز وجل للمنافقين ، كأن المعنى أو كأصحاب صيب فجعل دين الإسلام لهم مثلا فيما ينالهم من الشدائد والخوف ، ويجعل ما يستضيئون به من البرق مثلا لما يستضيئون به من الإسلام ، وما ينالهم من الخوف في البرق بمنزلة ما يخافونه من القتل ."⁽¹⁾ وذلك لإيضاح حال المنافقين ، وكشف أمرهم بتمثيل قائم على تشبيههم بمن يتخبط في الليلة المظلمة . فقد استخدم السياق التشبيه لأداء فعل إنجازي غير مباشر . والغرض من التشبيه هو : التبيين والمبالغة في وصف حيرة المنافقين ودهشتهم ، وهناك تطابق بين سمات المنافقين والحال المشبه بها . وهي أوصاف من أخذته السماء في ليلة مظلمة ممطرة ، فيها صواعق ورعد وبرق يخطف الأبصار ، فاحتار المنافقون واشتد عليهم الأمر . وطريقة التعبير عن الفعل الكلامي باستخدام التشبيه ، هي نفسها التي مر ذكرها في التشبيه السابق ، وبنفس الشروط التأسيسية السابقة ، ويؤكد ذلك استخدام المتكلم الأداة (أو) التي "يسمى الحذاق باللغة (واو الإباحة) فالمعنى أن التمثيل مباح لكم في المنافقين إن مثلتموهم بالذي استوقد نارا فذاك مثلهم وإن مثلتموهم بأصحاب الصيب فهذا مثلهم ، أو مثلتموهم بهما جميعا فهما مثلاهم."⁽²⁾

التهويل : وهو فعل كلامي غير مباشر ، وارد في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ... ﴾ وهو يدل على الحير وشدة الأمر وفظاعته . ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي ، استعمل السياق التكرير لألفاظ (صَيْبٌ) ، و (ظُلُمَاتٌ) ، و (رَعْدٌ) و (بَرْقٌ) وذلك لزيادة شدة الغرض الإنجازي ، وإحداث المزيد من التهويل ، فنكر كلمة (صَيْبٌ) . " لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل ، ونكر (ظُلُمَاتٌ) و (رَعْدٌ) و (بَرْقٌ) لأن المراد أنواع منها كأنه قيل : ظلمات داجية ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف ."⁽³⁾ وفي قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ ... ﴾ مبالغة من فرط دهشتهم ، وكمال حيرتهم ، " فكأنهم من دهشتهم يدخلون أي إصبع في آذانهم"⁽⁴⁾ . واستخدام (يَكَاذُ) التي يدل خبرها (يَخْطِفُ) على الحال المناسب للقرب ، حتى كأنه لشدة قرب وقع ، وأن خطف الأبصار مستمر ، متجدد فهم حريصون على المشي كلما أضاء لهم اغتمموه ، وإذا أظلم عليهم توقفوا . ولهذا كان لاستخدام الأداة (كُلَّمَا) مع الإضاءة كناية عن الحرص ، و استخدمت (إِذَا) مع الإظلام لإفادة التكرار.⁽⁵⁾

(3) - الصراف . الأفعال الإنجازية . مرجع سابق . ص 149 .

(1) - الزجاج . معاني القرآن وإعرابه . 1 / 90 .

(2) - الزجاج . نفسه . 1 / 92 .

(3) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 82 و 83 .

(4) - الألوسي . روح المعاني . 1 / 256 .

(5) - ينظر : المرجع نفسه . 1 / 255 .

التوبيخ : فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ وهي جملة اعتراضية أو حالية ، أو معطوفة أتى بها لتوبيخ المنافقين ، حيث لم ينتهوا عن ضلالتهم لأن من قدر على إيجاد قصيف الرعد ، ووميضه وإعدامهما قادر على إذهاب سمعهم وأبصارهم أفلا يرجعون عن ضلالهم . فذلك محل التوبيخ ؟ (1)

التقرير : وهو فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو تقرير لمضمون الآية السابقة . من الحث على الانتهاء وتوبيخ المنافقين على إصرارهم على الضلال مبرزاً أن الله قادر على إذهاب سمعهم وأبصارهم لأن القادر على الكل قادر على البعض . (2)

الاعتراض : في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وفيه تعبير مجازي يبرز القدرة الإلهية الكاملة أما المخاطبون فهم المنافقون ، وهم في الأصل مكلفون باتباع الوحي وطاعة النبي (ص) .

قال تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

الفعل الكلامي يفيد معنى الامتنان لأنه تعالى ذكر بدائع صنعه ، وأوجد مصادر الرزق ، وهو خالق الثمرات ، ما دل أنه منفرد بالإيجاد ، مستحق أن يعبد دون غيره من الأنداد . ثم نهى عن جعل الند للمولى عز وجل (3) .

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

في هذه الآية فعل متضمن في القول هو التوبيخ والذم لأولئك الفاسقين . والأداة المدعمة للقوة الإنجازية هي اسم الإشارة أولئك ، وفيه إشارة ورمز إلى أنهم في المرتبة البعيدة من الذم .

قال تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

الفعل الكلامي في هذه الآية يشمل معنيين هما : التوبيخ والتعجب جميعاً " أما التوبيخ فإن الكفر ينبئ عن الانهماك في الغفلة أو الجهل ، وأما التعجب فإن هذه الحال تأبى أن يكون للعاقل علم بالصانع وعلمه به يأبى أن يكفر ، وصدور الفعل مع الصارف القوي مظنة تعجب. " (4) وفيه استخبار مع إنكار

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 1 / 256 .

(2) - ينظر : المرجع نفسه . 1 / 256 .

(3) - الألوسي . مرجع سابق . 276/1 .

(4) - الفرويني . الإيضاح . ص 87

وهو دليل على أن كفرهم عن عناد ، وهو أبلغ في الذم . والقوة الإنجازية للفعل مدعمة بجملة من المؤشرات اللغوية منها : أن صيغة الاستفهام (كَيْفَ) فيها من المبالغة ما ليس في (أَتَكْفُرُونَ) لأن الإنكار الذي هو نفي قد توجه للحال التي لا تنفك . كما استعمل صيغة المضارع تكفرون لئلا يكون في الكلام توبيخ لمن وقع منه الكفر ممن آمن كأكثر الصحابة ، واستقبح صدور الكفر من المشركين مع تلك النعم توبيخا للكافرين ، وتقريراً للمؤمنين.⁽¹⁾ وهذا المعنى من قبيل الاستلزام الحواري.

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾

في الآية فعل كلامي كلي هو التعظيم ، ويندرج تحته مجموعة من الأفعال الإنجازية الجزئية (التداولية الصغرى) وهي أغراض الكلام ، التي يقصد إليها المتكلم ممثلة في معاني : الامتنان ، والتشويق ، والتفخيم والتقرير ، والمبالغة. أما الامتنان فهو على نعمة الخلق المرتبة على النعم السابقة ، ولذلك قدم ما هو نعمة ؛ لأنه في مقام الامتنان نظرا إلى المخاطبين ، أما التفخيم فهو في الاستواء والتسوية ، وفي قوله تعالى : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) تذييل يؤدي وظيفة التقرير لما قبله من خلق السماء والأرض ، أما المبالغة فهي في التعبير بصيغة (عَلِيمٌ)، وفيها من تقوية فاعلية الفعل الكلامي ما ليس في غيرها.⁽²⁾

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

جاءت الآية في سياق الإخبار والفعل الكلي في الآيات يدور حول معنى التعجب والتعجيز . فالملائكة تتعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها "ويستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية"⁽³⁾ ويتضمن الفعل الكلي مجموعة أفعال كلامية صغرى هي : الإخبار ، والتقرير ، والتأكيد ، والتوبيخ ، والتعجيز ، والاعتراف . "والعطف (وإذ) من عطف القصة على القصة ، وفي كل تعداد النعمة ، مع أن الأول تحقيق للفضل وهذا اعتراف به."⁽⁴⁾ وفي السياق عدة مؤشرات لتقوية إنجازية فعل التعجب متعلقة بالمتكلم منها تكرير الظرف فيها للدلالة على الإفراط في الفساد . واستعمل لفظ السفك وهو الإراقة واستعمل العطف (و) للإشارة إلى عظم المعصية ، إذ هو عطف الخاص على العام ، وكذلك استعمل صيغة المضارع نسبح ، نقس للدلالة على الاستمرار ، وختم هذا الحوار بتقرير يؤكد فيه التفرد بالعلم .

(1) - ينظر: الألوسي . مرجع سابق . 1 / 305

(2) - ينظر : الألوسي . المرجع نفسه . 1 / 307

(3) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 125

(4) - الألوسي . روح المعاني . 1 / 325 .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿ ٣١ ﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ ٣٢ ﴾

تتضمن الآيات متواليّة من الأفعال الكلاميّة ، ففي سياق الإخبار الذي يراد به التعجيز جاءت الآيات لتحقيق أغراض مختلفة كالتنويه والتعجيز (أنبؤني) لإظهار عجز الملائكة وقصورهم عن رتبة الخلافة ، أما التوكيد فهو الغرض من إن الشرطيّة توكيدا لما نبهه عليهم من القصور والعجز ، وأما الاعتراف فهو في جواب الملائكة ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا... ﴾ اعترافهم بالعجز عن أمر الخلافة والقصور عن فهم الأسماء . وكذلك

جاء فعل التوكيد في قولهم ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ . وهو تذييل يؤكد مضمون الجملة السابقة ، ولما نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل وجه ، والضمير أنت عنصر مدعم للقوة الإنجازيّة تفيد تأكيد الحكم. "وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت." (1)

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْبِيَائُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ

الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

ابتدأت الآية بالنداء الذي يسبق الأمر ، فقد نادى سبحانه وتعالى آدم باسمه كما هو عادته مع أنبيائه ماعدا نبينا محمد (ص) ثم جاء الأمر الصريح (أنبئهم) وتصدير الكلام بالنداء لتنبيه المأمور لما يلقي إليه من الأمر ، فقد اجتمع في الآية نداء ، وتنبيه ، وأمر .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

والطلب في الآية أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وحكمة الأمر بالسجود إظهار الاعتراف بفضله عليه السلام ، والاعتذار عما قالوا فيه ، ولتنقية إنجازية الفعل الكلامي استعمل السياق الفاء (فسجدوا) لإفادة مسارعتهم في الامتثال ، "ولا يخفى ما في الأمر من الدلالة على عظمة الشأن ." (2)

(1) - الألوسي مرجع سابق . 126/1

(2) - الألوسي . مرجع نفسه . 325/1 .

التذييل : مصطلح بلاغي " وهو أن يحقق المتكلم كلامه المتقدم التام بجملة زائدة عن أصل كلامه ، وتلك الجملة يؤتى بها للتأكيد والتحقيق " إنعام فوال عكاوي . المعجم المفصل في علوم البلاغة . ص 300 . "وهو تأكيد للمعنى إذا تم ولحاق به بعد كماله " . الزمخشري . أساس البلاغة مادة (ذول)

قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَتَّعَادُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

في هذه الآيات متوالية من الأفعال الكلامية هي : النداء ، الأمر ، النهي ، التقرير ، التفخيم ، والتأكيد . فقد صدر الكلام بالنداء لتنبيه المأمور لما يلقي إليه من الأمر ، ثم نهاه عن الأكل من الشجرة ، ثم جاء الأمر الآخر (وَقُلْنَا اهْبِطُوا) ، ثم كرر الأمر (قُلْنَا اهْبِطُوا) تنبيها على أن الله تعالى هو الذي أراد الإهباط ، وأسند الإهباط إلى نفسه ، بينما أسند إخراجهما إلى الشيطان ، وكرر الأمر للتأكيد.(1) ولتدعيم القوة الإنجازية لهذه الأفعال استخدم مؤشرات لغوية مختلفة ، منها أن المنهي عنه الأكل من الشجرة إلا أنه نهى سبحانه عن قربانها مبالغة ومنها كذلك العدول عن فتائهما إلى التعبير بالظلم (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) لأن الظلم يطلق على الكبائر وهي كذلك أبلغ من (ظالمين) ، ولفظ (تَكُونَا) أبلغ لأنها دالة على الدوام . وكذلك استعمال (اهْبِطُوا) ففي جمع الضمير تنزيل آدم وحواء منزلة البشر كلهم و(اللام) في قوله بعضكم لبعض للتقوية . (2)

وفي الجملة الإسمية (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) ما يقوي رجاء المذنبين ، وعبر بصيغة المبالغة (تَوَّابٌ) وقدمها إشارة إلى قبول التوبة ، ثم ختم هذه السلسلة بالأمر باتباع هدى الله، ثم توعّد الكافرين بالنار .

(1) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 129/1
(2) - ينظر : أبو حيان الأندلسي . البحر المحيط . 91 / 1 .

المبحث الثاني : الإخبار عن التوراة وبني إسرائيل

قال تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۝﴾

في هذه الآيات جاء السياق بمعنى التذكير، والامتحان، والتعظيم، والتفخيم، والترغيب، والترهيب، والتقرير. وجمع هذه المعاني فعل كلامي كلي هو التذكير والامتحان، فقد انتقل السياق إلى تفصيل ما ذكر مجملًا بذكر ما أنعم الله من نعم على بني إسرائيل ليكون أبلغ في التذكير وأوضح في الامتحان حين نجاهم من فرعون، أما فعلي التعظيم والتفخيم فقد وردا في ذكر البلاء (الامتحان) ووصفه بالعظيم؛ وهو عظيم بالنسبة للمخاطب لا بالنسبة إليه تعالى لأنه العظيم الذي لا يستعظم شيئًا. أما التقرير فهو تقرير النعمة عليهم وتتميمها، فإن هلاك العدو نعمة، ومشاهدته أثناء ذلك نعمة أخرى ولتعديل القوة الإنجازية لهذه الأفعال الكلامية نكر لفظة (بلاء) والصفة (عظيم) للتفخيم والتعظيم. كما تعدلت القوة الإنجازية بتمكين اليهود من المشاهدة (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) وهي جملة حالية وفيها تجوز؛ أي وآباؤكم ينظرون، والنظر هنا بمعنى العلم، وإن نفس الأفعال من الغرق والإنجاء فهي بمعنى المشاهدة، والغرض إحضار النعمة، ليتعجبوا من عظم شأنها، ويتعرفوا إعجازها. (1) ومن ثم يتحقق الترغيب والترهيب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۝ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٢﴾

عبر القرآن عن المعدود بالليالي لا الأيام، وإنما ذكرت الليالي دون الأيام؛ لأن عادة العرب التأريخ بالليالي؛ لأن أول الشهر ليله، واعتماد العرب على الأهلة فصارت الأيام تبعا لليالي. (2)

في هذه الآيات مجموعة أفعال كلامية هي: الإخبار، والتذكير، والامتحان، والذم، والتقري، والترجي.

(1) - ينظر: الألوسي. مرجع سابق. 361/1.

(2) - ينظر: عبد الرحيم خير الله عمر الشريف. أصل الاستدلال بعادة العرب لمعرفة القرآن الكريم. مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية.

عدد 94 / سبتمبر 2013. ص 42.

ويمكن اعتبار الفعل الكلامي الجامع هو الذم ، ففي هذه الأخبار التي يراد بها التذكير ، واذم بني إسرائيل لأنهم عبدوا العجل واتخذوه إله ، ويتضمن الفعل معنى الترجي (لَعَلَّكُمْ) . "ومعناه لتكونوا على رجاء الشكر لله عز وجل ونعمه فينصرف الرجاء إليهم" (1) ولتدعيم القوة الإنجازية لهذه الأفعال استعمل الظرف (من بعده) . فذكر الظرف للإيدان بمزيد شناعة فعلهم ، واستخدم كذلك الأداة (ذلك) للإشارة إلى الإتيان بصيغة البعيد مع قربته لتعظيمه ، وبطريق غير مباشر إظهار جلالة قدر العفو .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَقَوْمِ إِنَّا ظَلَمْنَا أَنْفُسَكُمْ بِآخِذِكُمْ الْعَجَل فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤﴾
 الفعل الكلامي في هذه الآيات الإخبارية هو الحث والتحريض على التوبة ، وتتراوح الأفعال الكلامية الصغرى بين النداء ، التحنن ، التقريع ، الأخبار ، التحريض ، التأكيد ، والتنبيه . فقد استهل الخطاب بنداء موسى لقومه وغرضه التحنن عليهم ، وأنه منهم وهم منه ليقبلوا على التوبة بعد تقيعهم بأنهم ظلموا أنفسهم . ثم جاء الأمر الذي فيه تقريع (فتوبوا) عن اتخاذ العجل ثم أضاف أمرا آخر بقتل أنفسهم (فاقتلوا أنفسكم) أمر بمعنى الحث على الاستسلام للقتل (2) . ثم أخبر محرضا على التوبة حاثا على التسليم للباري ، وختم الآيات بالتنزيل المؤكد اعتناؤه بمضمون الجملة (إنه هو التواب الرحيم) . والقوة الإنجازية المؤكدة لهذه المعاني تمثلت في مؤشرات لغوية منها : استعمال لفظ (الباري) لأنها أخص من (الخالق) .*(3) وفي تكرار لفظ (الباري) اعتناء بالحث على التسليم له في كل حال ، وكذلك استعمال ظاهرة الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله (فتاب) وكذلك في استخدام الجملة الاعتراضية (ذلكم خير لكم...) للتحريض على التوبة ، وفي استخدام اللام في (لقومه) للتبليغ وفائدة ذكره التنبيه على أن خطاب موسى لقومه كان مشافهة ، ونداؤه لهم بـ (ياقوم) فيه تقوية الفعل بالحث على التوبة .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾

(1) - ابن المنير . الانتصاف . على هامش الكشف . 139/1

(2) - ينظر : الألوسي . 366/1 .

(3) - ينظر : أحمد مختار عمر . أسماء الله الحسنى . دراسة في البنية والدلالة . ص 44 .

*- الخالق : من الخلق بمعنى التقدير وهو تكوين شيء على مقدار معين أي المقدر . والباري : المنشئ أو المهيء والمسوي للشيء .

قيل : القائل هم السبعون الذين اختارهم موسى للميقات . وتتضمن الآيات فعلا كلاميا مباشرا هو الإخبار عن الإنعام السادس كأنه تعالى قال اذكروا نعمتي حين قلت ذلك لموسى فأخذتكم الصاعقة ثم أحبيتكم لتتوبوا . ووراء الإخبار والأمر أفعال كلامية غير مباشرة منها : (التحذير ، والتسليية ، والتذكير والامتنان ، والتهكم ، والتحقير) لمن كان في زمان نبينا محمد (ص) عن فعل مثل ذلك ، وفيه تسليية قلب رسول الله (ص) فيما كان يلاقيه من اليهود ⁽¹⁾ . ومنها التذكير والامتنان بما أنعم الله عليهم ، ثم انتقل إلى النفي (وَمَا ظَلَمُونَا) نفي فيه ضرب تهكم لأن ظلمهم لا يصل إلى الله منه شيء . وفي ذكر (أَنْفُسَهُمْ) بجمع القلة تحقير لهم وتقليل ، وهذا يدعم القوة الإنجازية للفعل .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ⁽²⁾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ⁽³⁾

الأمر في الآية بالدخول بعد التيه هو أمر إباحة على وجه الإقامة والسكنى ، والأمر في قوله : (فَكُلُوا) يراد به حل جميع مواضعها أو الإذن بنقل حاصلها إلى أي موضع شاءوا ، وتدل لفظة (رَغَدًا) على أنهم مرخصون بالأكل منها ، و يحتمل أن يكون وعدا لهم بكثرة المحصولات ⁽²⁾ . والأمر في (وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ) يتضمن فعلا كلاميا غير مباشر هو: وعد بالغفران ، والإخبار في قوله تعالى : (وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) يتضمن فعلا كلاميا غير مباشر هو وعد بالزيادة . والإخبار في (فَبَدَّلَ) يتضمن معنى الذم . بسبب التبديل و إنما فعلوا ذلك استهزاء بما قيل لهم.

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ⁽⁴⁾

الإخبار هنا غرضه التذكير بنعمة عظيمة كفروا بها ، وكان ذلك في التيه لما عطشوا ، وفي السياق أمر غرضه الامتنان ، أمر إباحة لا إيجاب في قوله : (كلوا واشربوا) أمر على وجه الشكر و التذكير بقدرة الله ، و لتقوية الفعل الكلامي ذكر الرزق مضافا (رزق الله) تعظيما

(1) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 88/2

(2) - ينظر : الألوسي مرجع سابق . 144/1

للمنة و إشارة إلى حصول ذلك لهم من غير تعب ، ثم انتقل إلى النهي عن التماذي في الفساد (وَلَا تَعْتُوا) فنهى عن العثي وهو أشد الفساد تأكيدا للنهي⁽¹⁾ .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۖ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٦﴾

الظاهر أنه داخل في تعداد النعم وتفصيلها ، وقد سألوا من موسى أن يدعو لهم وغرضه الرجاء ، وتدعم الفعل الكلامي بالتعرض لعنوان الربوبية (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ) لتمهيد مباديء الإجابة. وقوله : (أَتَسْتَبْدِلُونَ) استئناف وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قيل لهم ؟ والاستفهام غرضه الإنكار وجاء الأمر (اهْبِطُوا مَصْرًا) ثم جواب الأمر (فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ)⁽²⁾ ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي استعمل الأداة (مَا) التي تدل على الاستهجان ، ثم انتقل السياق إلى الإخبار والتقرير لأوصاف اليهود : (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ...) وهذا الضرب مجازاة لهم على كفران النعم ، ووراء الإخبار فعل كلامي غير مباشر هو (الوعيد) بالذلة والمسكنة والغضب من الله ، وفي وصف الغضب بكونه من الله تقوية للفعل الكلامي الوعيد لأنه يفيد تعظيم شأنه وتفخيمه .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّبِيَّاتِ مِّنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾﴾
بعدما ذكر الوعيد انتقل إلى ذكر ما يتضمن الوعد جريا على عادته سبحانه من ذكر الترغيب والترهيب
فقد ذكر هؤلاء لمزيد من الترغيب للباقيين في الإيمان ووعد بالثواب على الإيمان والعمل الصالح .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِّنَ

(1) ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 144/1 .

(2) ينظر : أبو حيان الأندلسي . البحر المحيط . 99/1 .

الْحَسِرِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ عَامَتْهُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٥﴾
فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ ﴿١٦﴾

في هذه الآيات سلسلة من الأفعال الكلامية هي : الإخبار بغرض : (التذكير ، والرجاء ، والذم ، والتسخير ، والامتنان ، والأمر ، والتحقير ، والتعظيم) ففي قوله : (وَإِذْ أَخَذْنَا) الأمر الذي يراد به الرجاء . رجاء المخاطب في قوله : (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ) أي خذوا واذكروا راجين أن تكونوا متقين ، والإخبار الذي يراد به الذم في قوله : (ثم توليتهم) لأنهم امتثلوا الأمر ثم تركوه ، والإخبار الذي يراد به الامتنان في قوله : (فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) أي لولا حكمة الله وإمهاله لعاجلتكم العقوبة .
والأمر الذي هو بمعنى التسخير (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) "والتسخير في اللغة : التذليل والإهانة" (1)
والمراد وصفهم بالصغار . (2)

قال تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ تُحَرَّفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامِنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

الخطاب موجه إلى اليهود، واصفا قساوة قلوبهم ،ومخبرا عن قبائحهم ،ومستبعدا الطمع في إيمانهم .
والأفعال الكلامية المستعملة لتبليغ هذه الفكرة هي : الإخبار للتعبير عن المبالغة في قسوة قلوبهم ،مستعملا صيغة (أشدُّ) قسوة . ويعلل الزمخشري استخدام هذه الصيغة بقوله : " فإن قلت لم ؟ قيل : اشتدت قسوة وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل ،وأفعل التعجب . قلت لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ... كأنه قيل : اشتدت قسوة الحجارة ،وقلوبهم أشد قسوة " (3). وفي التشبيه والمقارنة بين قلوب اليهود والحجارة دل التوكيد على المعنى ،وهو أن الحجارة تتأثر وتتفعل ،وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تتفعل . وهذا يشير إلى فعل إنجازي غير مباشر هو الذم ،في مقام تبين قبائح اليهود ، ولاستكمال

(1) - السبكي . مرجع سابق . 553 / 2 .

(2) - ينظر : القزويني . الإيضاح . ص 88 .

(3) - الزمخشري . مرجع سابق . 155 / 1 .

المشهد جاء فعل الوعيد (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) الذي جاء في صيغة النفي للدلالة على أن الله لبلمرصاد لهؤلاء القساة . ولا تخفى القوة الحجاجية للفعل الكلامي المتعلق بمعاني الذم والوعيد، حين استعمل حجة التمثيل (فَهِيَ كَالْحَجَارَةِ) وفي زيادة التوضيح اختار السياق الإستراتيجية التوضيحية . التي تستند إلى نمط الإخبار، الذي يمثل إحدى غايات التوضيح، فقد توجه بالخطاب إلى المؤمنين بقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ والمطموع في إيمانهم هم اليهود ، والفعل الكلامي المستخدم هو الاستفهام ، الذي يراد به الاستبعاد أو الإنكار التوبيخي . ثم يخص فئة منهم وهم الأخبار ، في سياق التقرير الذي يراد به الذم ، لأنهم يسمعون الكلام ثم يحرفونه* (1) .

ثم يستمر السياق القرآني في كشف قبائح اليهود ، وتوضيح نفاقهم مستخدما أنواعا من الأفعال اللغوية الضمنية : كالعتاب والتوبيخ ، الذي دل عليه الإخبار في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...﴾ ، وقوله تعالى: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ متعلق بالحديث والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ عليهم وجملة (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) مؤكدة لإنكار التحديث . ويستمر الإخبار عن اليهود ، بما يحقق الأفعال بشكل ضمني . ففي قوله تعالى : ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيه تجهيل لهم ، من الله فيما حكى عنهم والاستفهام فيه يراد به الإنكار مع التقرير ، ومقصوده بيان شناعة فعلهم ، بأنهم يفعلون ذلك مع علمهم . وقد يكون التوضيح أيضا لغرض الإقناع(2) . ومن متطلبات التوضيح استخدام الاستفهام نظرا للحاجة إلى الشرح والتوسيع . ففي الآيات السابقة اقتضى المقام تفصيل أخبار اليهود ، مع مزيد إطناب وإسهاب مقصود، يراد به زيادة التقرير . "ولأن السياق في هذه الأقسام قصد بها الإسهاب ، لزيادة تقرير ، حتى جعلت القصة الواحدة قصتين . ولا شك أن قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أدخل في الإسهاب من قول القائل أقسى"(3) . ومن الشواهد على الإسهاب توظيف مؤشرات لغوية ، مثل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحَجَارَةِ﴾ ، و﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ ، و﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ وكذلك تكرار صيغة الاستفهام ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ ، و﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ و﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ ومن بين متطلبات التوضيح رغبة المتكلم أن يكون كلامه محيطا وشاملا ، ولعل ذلك ما جعله يكرر الويل ثلاث مرات في الآيات التالية .

(1) - السيوطي . لباب النقول في أسباب النزول . ص 15 .

*- كان تحريفهم بتبديل كلام الله قال ابن عباس : "نزلت في أخبار اليهود وجدوا صفة النبي (ص) مكتوبة في التوراة أكحل ، أعين ، ربعة ، جعد الشعر وحسن الوجه ، فمحوه حسدا وبغيا وقالوا : نجده طويلا أزرق سبط الشعر" .

(2) - ينظر : محمود طلحة . تداولية الخطاب السردى . ص 141

(3) - ابن المنير . الانتصاف على هامش الكشف . 155/1

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتُخَذَتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدُهُ ۚ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ، ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَوَيْلٌ...﴾ مبالغة في الوعيد والزجر والتهويل . ومما يدخل ضمن التوضيح تبين أصناف اليهود في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ...﴾ ثم توسع السياق إلى ذكر أمنياتهم ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا...﴾ ولعلها أيام عبادتهم العجل ، ويأتي الجواب من الله بقصد التوبيخ والتبكيث ﴿قُلْ أَتُخَذَتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ لأنهم لم يقدموا أعمالاً توجب ما يدعون . كما جسدت الأفعال الكلامية التحوارات الشخصية ، التي كانت وسيلة لتقديم الصورة التفصيلية عن اليهود ، وتمثلت التحوارات بالقول : ﴿قُلْ أَتُخَذَتُمْ ؟﴾ ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ ووراء هذا الاستفهام أفعال إنجازية غير مباشرة هي التوبيخ على القول والمبالغة فيه ، وكذلك فعل التهمك حين أبطل قولهم وعلق الكسب بالسيئة ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ (١) وتبعاً لتحقيق الإستراتيجية المذكورة فقد جرت عادته جل شأنه أن يشفع وعده بوعيده ، مراعاة لما تقتضيه الحكمة ، في إرشاد العباد من الترغيب والترهيب ، فقد مرت أفعال الوعيد وهو الآن ينهي بالوعد والترغيب وذلك في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ...﴾ * .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا مِّنْكُمْ قَلِيلًا وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾

(١) - ينظر : الألويسي مرجع سابق . 426/1

* - "ويرد التخويف ويتسع مجاله لكنه لا يخلو من الترجية" الشاطبي . الموافقات . 212/3.

ولمزيد من التفصيل والتوسع في ذكر أخبار اليهود ،عاد السياق مرة أخرى ليشرع في تعداد بعض قبائح أسلافهم ، مما يدل على استبعاد إيمانهم بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ والفعل الكلامي هنا هو الإخبار في معنى النهي ، وإلى ذلك ذهب الفراء ويرجح أنه أبلغ من صريح النهي .⁽¹⁾ * ومن جملة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل : الأمر بالإحسان إلى الوالدين والذي عبر عنه بصيغة المصدر النائب عن الفعل ، ثم ذوي القربى واليتامى والمساكين ، والذي جاء على هذا الترتيب إعتناء بالأوكد فالأوكد . ثم الأمر بالقول الحسن ، وإيقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وبعد سلسلة الأوامر والنواهي الصريحة منها والضمنية ، هاهو السياق ينتقل إلى التوبيخ على الارتداد بعد الانقياد ، وتمثل قوته الإنجازية في أنه أشنع من العصيان ، من الأول بعد توليهم وإعراضهم عن الميثاق ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ ويكون تشديد التوبيخ أنه وجه الخطاب لليهود المعاصرين ، بحيث يعم الخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف .⁽²⁾ ثم عطف الميثاق على الميثاق ، في هذه المرة ميثاق الدماء ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ والفعل الكلامي هنا هو الإخبار ، في معنى النهي . والمراد : أن لا يتعرض بعضكم بعضا بالقتل والإجلاء . ثم انتقل إلى الإخبار عن إقرارهم واعترافهم بلزوم الميثاق ودعم القوة الإنجازية بالتأكيد الذي دلت عليه الجملة الحالية ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ

بِالْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ

الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا مُحَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابِ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 428/1 .

* - وهذه طريقة بديعة من طرق إيراد الفعل الكلامي .

(2) - ينظر : نفسه . 431 / 1 .

﴿ تُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِّنْ دِيَارِهِمْ ﴾ ويستمر تسلسل ويتوسع السياق في تفصيل الأحداث ، وما ترتب عن تلك المواقف من خيانة ونكوص ، فقد عيّرهم المولى عز وجل بذلك الإقتتال المشهور في التاريخ بين بني قريظة والأوس ، وبين بني النضير والخزرج . ويلتف السياق مرة أخرى عائداً إلى توبيخ اليهود ودمهم على جنائياتهم ، وتتاقض أفعالهم . فالأفعال الكلامية التي تصف سلوك اليهود منتقلا إلى الاستفهام الذي يراد به التهديد والتوبيخ على التفريق بين أحكام الله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ إذ العهد كان بثلاثة أشياء : ترك القتل ، وترك الإخراج ، ومفاداة الأسارى ، ولكنهم قتلوا ، وأخرجوا ، وفدوا . ثم انتقل إلى الوعيد بالخزي ، تتكيرا على شناعة أفعالهم ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِثْلَكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ووعيد آخر يوم القيامة هو الخلود في النار ، ولتدعيم القوة الإنجازية لفعل الوعيد قدم لفظ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) على ما يقع فيه لتهويل الخطب ، وكذلك تأكيد الوعيد ، بالاعتراض والتذليل ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ واستمر الإخبار الدال على فعل كلامي غير مباشر هو : **الذم** في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ كما استعمل النفي الدال على فعل كلامي غير مباشر هو : **الوعيد** في قوله تعالى : ﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ . والفعل الكلامي الكبير في مجموعة الآيات هو : **التوبيخ** . وسلوك اليهود يقتضي هذا الفعل الكلامي القائم على الارتداد ب عد الانقياد . ثم تفرعت عن هذا الفعل الكلامي مجموعة أفعال كلامية جزئية هي : (الذم ، والزجر ، والتفريع ، و التهويل ، والتوبيخ ، والتبكيك ، والتهكم ، والوعيد ، والترغيب ، والأمر ، والنهي) . وقوى إنجازية هذه الأفعال بالمبالغة ، والتأكيد ، والاعتراض ، والتذليل ، والتقديم ، والتأخير .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ أَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

تسرد الآية جانبا من أخبار بني اسرائيل وتبين كيف تعامل اليهود مع أنبياء الله منذ عهد موسى والرسول من بعده كعيسى ، ويوشع ، وإلياس ، وأرمياء ، وداوود .

الخطاب موجه إلى النبي (ص) واليهود المعاصرين له ويظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ وتتضمن الآيات تصوير جانب الصراع في فترة نزول الوحي ، واقتضى المقام التعبير بفعل كلامي كلي هو توبيخ اليهود على تكذيبهم بالدعوة المحمدية وينحي عليهم سوء

معاملتهم للأنبياء وتكذيبهم للرسل وإعراضهم عن الحق واتباع لهوى نفوسهم الذي أصبح مذموماً بإضافته إلى النفوس .

ويندرج تحت الفعل الكلامي الكامل جملة من الأفعال الكلامية المفردة ، أو كما يسميها فان **دايك : التداولية الصغرى** منها : التوبيخ ، التكثير ، الاستفهام ، التعجيب ، الإنكار والاستعظام . فهذه الأفعال المتضمنة في القول تقدم وصفا لليهود ، ومخالفتهم للحق وتجريئهم على الله . وقد استعان السياق باستراتيجية التوضيح ومن ثم فقد جاءت الأفعال الكلامية معبرة بشكل صريح **Explicitement** عن طبيعة اليهود مع موافقتها لشروط الملاءمة وقوانين الخطاب من إخبارية ، وشمول ، وصدق ، وإفادة. فقد جاء الاستفهام بهمزة الإنكار ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ ﴾ فعلا متضمنا في القول هو التعجيب من طغيانهم. وهو استفهام غير حقيقي . كما يتضمن أيضا فعلا متضمنا في القول هو الإنكار والتوبيخ . "ومحل العجب هو استمرار ذلك منهم على أنه سجية لهم." (1) فقد قدم الظرف للاهتمام وهذا بعد تداولي.

كما وضح السياق صفة أخرى من صفات اليهود وعبر عنها بفعل كلامي غير مباشر هو الإعجاب الذي يتصف به هؤلاء المستكبرين بقوله (إِسْتَكْبَرْتُمْ...) أي ترفعتم عن اتباع الرسل واعتقدتم أنكم أعلى من غيركم واستعمل السين والتاء لتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي ليفيد معنى المبالغة. أما الإخبار فقد استعمل لغرض التمهيد ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ فعبر عن الكثرة بلفظ الجمع (الرسل) والغرض إفادة معنى متضمن في القول هو التكثير بسبب تقتيلهم الأنبياء ، وأخبر أيضا عن إرسال عيسى مدعما بالمعجزات ومؤيدا بروح القدس ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ... ﴾ فقد أفرد عيسى بالذكر لتمييزه عن سائر الرسل وأضافه إلى أمه لتحقيق غرض إنجازي هو التأكيد ، والرد على اليهود الذين زعموا أن له أبا . أما فعل الاستعظام فقد عبر عنه في قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فقد عبر بصيغة المضارع ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ لاستحضار حالهم الفظيعة وهي قتلهم الرسل ، ونسب القتل إليهم ؛ أي إلى اليهود المعاصرين لزمن الوحي مع أن القاتل هم آبائهم لرضاهم به ، أو للدلالة على أنهم الآن فيه ويودون قتل محمد (ص) بالسحر والسم ، واستعان السياق بظاهرة التقديم كبعد تداولي لإبراز الاهتمام بالمقدم ، وتشويق السامع إلى ما فعلوا بالرسل وذلك بتقديم جملة : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ على ﴿ وَقَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلون من الشر ولأنه المشترك بين المكذب والمقتول. (2) وللتقديم والتأخير مزية بلاغية "فإن مثل تلك التراكيب

(1) الطاهر بن عاشور . التحرير والتنوير . 597/1 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 442/1 .

تقوية الحكم وتوكيده ليست راجعة إلى أن بهما تقديمًا بل إلى طبيعة الإسناد فيها ، حيث تبدأ بالإسم ثم يخبر عنه بالفعل كما في قوله تعالى : ﴿وَقَرِيبًا يَقُولُونَ﴾ وبناء الفعل على المبتدأ أقوى للحكم .⁽¹⁾

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

يخبر المولى عز وجل عن اليهود المعاصرين للنبي محمد (ص) الذين قالوا : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ وأرادوا أن قلوبهم مغلفة بأغشية مانعة عن نفوذ دعوة محمد (ص) ، وقولهم معطوف على ﴿اسْتَغْبِرُكُمْ﴾ فتكون تفسيرًا للاستكبار . فاستخدم السياق الفعل الكلامي المباشر هو الإخبار الذي يراد به تحقيق فعل إنجازي متضمن في القول هو الإقنات أي إقنات النبي (ص) عن الإجابة . أو يراد به معنى الاستغناء بأنهم ليسوا بحاجة إلى أن يعلمهم أمي فقلوبهم مملوءة علما . وهذه القوة الإنجازية غير المباشرة يتوصل إليها عبر عمليات ذهنية استدلالية ينتج عنها استلزام حوارى الذي يكشف عن مقاصد المتكلم "فالأفعال الإنجازية المباشرة تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم أما الأفعال غير المباشرة فهي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم".⁽²⁾ ومن ثم فإن الفعل غير المباشر (الإقنات - الاستغناء) يتضمن الفعل المباشر (الإخبار) وليس العكس . وهذا كلام كانوا يقولونه للنبي (ص) حين يدعوه للإسلام ، مما ينتج عنه فعل كلامي أو أكثر ، وفي هذا الموضع نجد فعلا كلاميا آخر متضمنا في القول هو : التهكم ، وذلك لقطع طمعه في إسلامهم . وفي جملة ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، وإبعاد لهم عن مقام الحضور ، فتحققت في السياق وظيفتان للإلتفات هما : الإبعاد ، والإعراض . ويتبجح اليهود في هذه المحاورة بحجج كاذبة ؛ بأن قلوبهم لاتعي ما يقول النبي (ص) ولو كان حقا لوعته ، فهي محفوظة عن فهم الضلالات ، وهذا الموقف يقتضي مجيء فعل كلامي متضمن في القول وهو : التكذيب الوارد في قوله تعالى : ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ وهذا الفعل (التكذيب) يؤدي وظيفة توضيحية تبين أن عدم إيمانهم كان بسبب كفرهم لا بسبب آخر ، فهو بالتالي يفضحهم ويكذب مزاعمهم .⁽³⁾ وفي قولهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه لا يؤمنون قليلا فضلا عن الكثير ، ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل المباشر استعمل الأداة (ما) المزيدة لتأكيد معنى القلة .

(1) - حسن طبل . المعنى في البلاغة العربية . دار الفكر العربي . القاهرة . ط 1 / 1998 . ص 179 .

(2) - محمود نحلة . آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر . ص 81 .

(3) - ينظر : الطاهر بن عاشور . مرجع سابق . 600/1 .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٨٢﴾﴾

في الآيتين كلام معطوف على ما قبله في سياق الإخبار عن مواقف بني إسرائيل وفي مقام الذم والتوبيخ ، فقد عبر المولى عز وجل عن هذه المواقف في سلسلة من الأفعال الكلامية الإخبارية المتتابعة فقد أخبر عن إعراضهم وكفرهم بالكتاب وبالرسول حسدا من عند أنفسهم ، ثم عبر بالخبر عن استحضر حالتهم العجيبة وهي تكذيبهم بالكتاب وبالرسول (ص) في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ﴾ ثم أخبر أنهم باعوا أنفسهم الخبيثة ، ووراء الإخبار ذم لجعلهم الكفر بمنزلة الثمن ، وإن كفرهم كان لمجرد العناد الذي هو نتيجة الحسد لا الجهل ، وهو أبلغ في الذم لأن الجاهل قد يعذر ، فإنهم حسدوه لما لم يكن منهم . وفي ترادف لفظة الغضب إيدان بتشديد الحال عليهم . أما وصف العذاب بالمهين فهو للتقيد والاختصاص الذي يفيد تقدم الخبر (للكافرين) فيفيد أن غير الكافر إذا عذب إنما يعذب للتطهير لا للإهانة والإذلال ، ولذا لم يوصف عذاب غيرهم به في القرآن .^(١)

ومن وراء هذه الأفعال الكلامية الإخبارية أفعال متضمنة في القول : كالذم، والتوبيخ ، والتعظيم، والتشريف والدعاء ، والإهانة ، والتحقير ، والتعبير عن الخيبة والخسران. ولتعديل القوة الإنجازية لهذه الأفعال الكلامية كان للمؤشرات اللغوية الأثر البارز في ذلك حيث نجد معنى التعظيم الذي يفيد تكرر لفظ (كِتَابٌ) أما إضافة العباد إلى ضميره تعالى فقد أفاد معنى التشريف والمضارع في قوله (يَكْفُرُوا) يدل على الاستمرار .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَقُولُوا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۚ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا ۚ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

(١) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 448/1.

وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾
 قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلَدَارُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةٌ مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾

في هذه الآية يورد المولى عز وجل كلاما معطوفا على قوله السابق ، مخبرا عن استمرار اليهود في إعراضهم عن الدعوة الإسلامية ، مع بيان أن عدم إيمانهم بالقرآن كان حسدا على نزوله على من ليس منهم ، وذبوا على هذه المقالة لما فيها من تعريض بشأن القرآن، وتتضمن الآية مجموعة من الأفعال الكلامية التي يغلب عليها الإخبار ، وسرد الحقائق التاريخية من أخبار بني إسرائيل في زمن الرسول (ص)، مع استحضار زمن أنبيائهم ، وزيادة على الإخبار فإن هناك: ذم، واعتذار، وتوبيخ ، وتجهيل، وتعريض، وتبكييت، وأمر، وتأكيد، وتقرير. وهذه الأفعال الكلامية تقدم صورة عن طبيعة بني إسرائيل ، التي تأبى التغيير والتبديل. أما الذم فكان على مقالاتهم : ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ ، وأما التوبيخ والتجهيل فبقوله لهم : ﴿يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ ، وأما التبكييت ففي قوله : ﴿قُلْ فَلِمَا تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ .

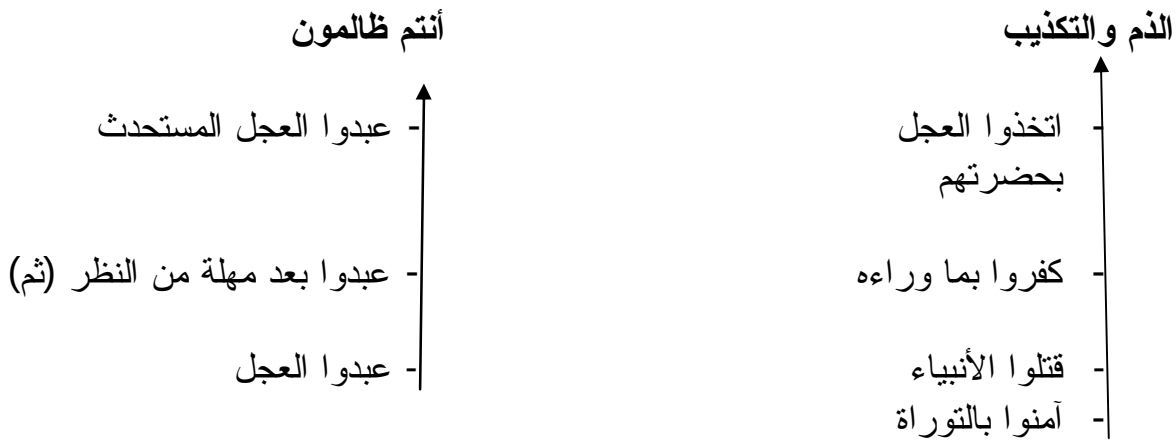
ولتعديل القوة الإنجازية لتلك الأفعال الكلامية استعان ببعض المؤشرات اللغوية ففي تعريف (الحق) لزيادة التوبيخ والتجهيل . وفي قولهم : ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ (*) اعتذار واكتفاء بالإيمان بما أنزل على موسى ، ففي زعمهم أنهم بذلك نالوا فضيلة الانتساب للإيمان والدوام عليه، وفي قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ تصريح ورد عليهم ، على أن المضارع (يَكْفُرُونَ) تأثير في معنى التعجب والغرابة . وفي تأكيد الحال بالحال ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ زيادة في استحضار شؤونهم وإلزام الحاضرين ما فعله أسلافهم لأنهم يرونهم على حق فيما فعلوا من قتل الأنبياء . (1) إن من أوكد خصائص الحجاج أنه حوار يحكمه الاختلاف والتباين . والإقناع بالقضية المطروحة ﴿أَمُّوْا بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ ولهذا فقد تباينت الآراء بين طرفي الحوار وهما : الرسول (ص) (الباث) ، واليهود (المتلقين) ، ويدور الحوار مستحضرا حجة اليهود بقولهم : ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ ثم يقارع هذه الحجة لدحضها ﴿قُلْ فَلِمَا تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ فالحوار هو الأرضية التي عليها يتأسس الحجاج .

(*) – والعبارة خبر يعبر عن فعل متضمن في القول هو الاعتذار . وهو من التعبيرات .

(1) – ينظر : الطاهر بن عاشور . التحرير والتنوير . 608/1 .

إن البنية الحوارية تتطلب أفعالا كلامية معينة ،قصدها الإقناع، أو الدحض والإبطال ، وأفعال الكلام هي الوحدة الأساسية للخطاب كما يقول أوستين .⁽¹⁾

"وأسلوب القرآن ذو بعد حجاجي ، وإن الحجاج فيه ناشيء عن طريقة له في القول مخصوصه."⁽²⁾ والأفعال الكلامية كما يرى فان إيمرن (Van Imren) أنها تضطلع بدور في الحجاج فالمرسل هنا يستعمل الإخبار والتقرير للتعبير عن القضية المطروحة وهي: دعوة بني إسرائيل إلى الإيمان بالقرآن وبالرسول(ص) . كما يستعمل الأفعال الكلامية لمواصلة الحجاج من خلال الأمر والتأكيد ،ولتدعيم القضية وإن الهدف من الخطاب الحجاجي هو إقناع المخاطبين ، وإزالة شكوكهم حول القضية المطروحة ، وإذا تتبعنا دور كل صنف من الأفعال اللغوية التي صنفها سيرل نجد أن بعضها ذا دور حجاجي ، فالأفعال الالتزامية تستعمل للتعبير عن قبول وجهة النظر. أما الأفعال التوجيهية فيقتصر على استعمال البعض مثل : التحدي للدفاع عن القضية المطروحة ، ويستعمل المرسل النفي ،أو الاستفهام ، أو الإثبات في الحجاج على أنها الحجج بعينها .⁽³⁾ ويقسم باتريك شارودو (P . charodeaux) مراحل الحجاج إلى ثلاثة مراحل هي : بداية ، وتمفصل ، ونهاية .⁽⁴⁾ وهذا ما مر به المسار الحجاجي في هذه المحاور . والشكل التالي يوضح البنية الحوارية الحجاجية في هذه الآيات :



لقد اختار السياق القرآني مجموعة من الأفعال الكلامية، التي تشكل البنية الحوارية الحجاجية في هذه الآيات ، " إن الوظيفة الإقناعية من وظائف البلاغة ؛ لأن تأثيرها التداولي أقوى ، ونتائجها أثب أما الحجاج فهو الأداة العامة للإقناع إذ يستعمل كثيرا في منهج الدعوة "⁽⁵⁾ .

(1) - Voir : AUSTIN , How to do things with words . p 14 .

(2) - عبد الله صولة . الحجاج في القرآن . ص 52 .

(3) - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 485.

(4) - ينظر : باتريك شارودو . الحجاج بين النظرية والتطبيق . ترجمة . أحمد الوردني . ص 104.

(5) - عبد الهادي بن ظافر الشهري . مرجع نفسه . ص 445 .

ففي هذا الموقف الحوارى استعمل الخطاب القرآنى معانى هي : التعريض ، والتهكم ، والذم ، والقبح ، والإبطال ، والتكذيب ، والإخبار ، والتحدى ، والتعجيز ، والتبكيث ، والتهديد ، والتنبيه . وجعل لكل فعل إنجازى موقفا ملائما يقتضيه السياق . أما التعريض فبصرفهم العبادة عن موضعها الأصلي بقوله : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ولإثبات كذبهم وإدعاء بني إسرائيل الإيمان ، أدخل السياق تحت الأمر

السابق خبرا مؤكدا هو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ليؤدى فعلا متضمنا في القول

هو : **التبكيث والتوبيخ** ، وفي ذلك تقوية للفعل الإنجازى المذكور . ولتأكيد بعدهم عن الإيمان الذى زعموه ، ذكر خبرا آخر يراد به أداء فعل متضمن في القول ، هو : **المبالغة** في قوله : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي

قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ أي حب العجل ، ثم انتقل السياق إلى تذكيرهم ببعض سلوك أسلافهم ، مستعملا

الإخبار للتذكير ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ... ﴾ والأمر في قوله : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ

بِقُوَّةٍ ... ﴾ والأمر بقوله : ﴿ وَأَسْمِعُوا ﴾ وذلك لتحقيق غرض إنجازى هو : التأكيد ، ثم انتقل إلى التقرير ﴿

قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . ولما جاءت أقوالهم وأفعالهم غير مطابقة لما ادعوا من إيمان ، اقتضى الموقف

فعلا تهكميا معبرا عن التناقض ، في قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

﴿ والمخصوص بالذم محذوف أي قتل الأنبياء .⁽¹⁾ ويعود السياق مرة أخرى إلى محاجة بني إسرائيل لإبطال دعوهم مستخدما سلسلة من الأفعال الكلامية الملائمة للوظيفة الحجاجية : كالقبح ، والإبطال ، والتكذيب ، والاهتمام بالشئ ، والأمر بالتمني ، والإخبار ، والتحدى ، والتعجيز ، والتنبيه ، والتهديد .

فقد ذم إيمانهم الذى يأمرهم بقتل الأنبياء ، وقدح في دعوهم الإيمان بالتوراة وإبطال لها ﴿ إِنْ كُنْتُمْ

﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ فقد أمركم إيمانكم بالباطل فإذن لستم بمؤمنين وهو بهذه الحجة يبطل دعوهم . ثم انتقل إلى

حجة أخرى ومراده تحقيق فعل متضمن في القول هو التكذيب ،

(1) - ينظر : الألوسى . مرجع سابق . 1 / 453.

وإبطال الدعوة بدخولهم الجنة من دون الناس ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً...﴾ وقدم خبر كان لغرض تداولي هو الاهتمام بأمر المتقدم أو إفادة الحصر لتقوية التأكيد. ثم انتقل إلى الأمر بالتمني حجة قاطعة ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . ثم يختم هذه المحاجة بالجواب الحاسم ، مستعملا الإخبار في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ . وغرضه تأدية فعل إنجازي متضمن في القول ، هو **التحدي والتعجيز** . وهي جملة إعتراضية غير داخلية تحت الأمر السابق ، سيقى من أجل البيان الدال على كذبهم ، لأنهم امتنعوا عن التمني ، وقد ساهمت الجملة الاعتراضية بتقوية كذبهم ، وإظهاره ، ثم ذيل هذه المحاورة بفعل كلامي متضمن في القول في جملة تذييلية ، غرضها **التهديد والتنبية** ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو ينبههم على أنهم ظالمون .⁽¹⁾ ولما تمسك بنو إسرائيل بدعواهم بالإيمان بالتوراة ، قامت الحجة القرآنية بإبطال هذه الدعوى ، ونفي التمني عنهم موجه إلى الرسول (ص) والمؤمنين ، إعلاما لهم ليزدادوا يقينا وليحصل منه تحد لليهود ، إذ يسمعونهم ويودون أن يخالفوه لئلا تقوم الحجة عليهم ، ومن ثم يترتب عليه أن الجنة ليست لهم .⁽²⁾ وبذلك تحقق الحجة القرآنية غرضها ، وبالتالي فإن الحجاج يدعم القوة الإنجازية للفعل المتضمن في **التعجيز** ، وما يحمله من معنى **الذم والتحدي** ، ومن ثم إسقاط ودحض كل مزاعم اليهود ، وذلك من أعظم الدلائل على صدق الرسول (ص) ، وهذا من قبيل الإعجاز النفسي في القرآن الكريم . فالجملة الخبرية في الآية المذكورة استخدمت (لن) للنفي ، منحت هذا الخبر من القوة الإنجازية ما تبطل به إنكار المنكرين ، قال الزمخشري (تـ 528هـ): " وقوله : ﴿لَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا﴾ من المعجزات لأنه إخبار بالغيب ، وكان كما أخبر به كقوله (ولن تفعلوا) فإن قلت ما أدراك أنهم لم يتمنوا قلت لأنهم لو تمنوا لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث فطلب التمني للموت لأن من أيقن من أهل الجنة اشتاق إليها . فإن قلت التمني من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه أحد فمن أين علمت أنهم لم يتمنوا ؟ قلت : ليس التمني من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه . ولو كان التمني بالقلوب وتمنوا لقالوا قد تمنينا الموت في قلوبنا ، ولم ينقل أنهم قالوا ذلك ، بينما نقل عن الصحابة قول ذلك كقول عمار بن ياسر في صفين " الآن ألقى الأحبة محمدا وحزبه " أخرجه الطبراني⁽³⁾

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 457/1 ، وينظر أيضا : الزمخشري . مرجع سابق . 167/1

(2) - الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . . 615/1 .

(3) - الزمخشري . مرجع سابق . 167/1 .

الإطناب: يظهر الإطناب في أشكال تركيبية كالاعتراض والتذييل، قال الجاحظ معلقا على مخاطبة القرآن للعرب وبنو إسرائيل: "ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا، وزاد في الكلام." (1) وقد جاء الاعتراض في قوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ "ويحد الاعتراض بأنه اللفظ الداخل بين جملتين لتكميل الفائدة في معنييهما" (2).

"ويعتبر الأسلوبيون أنه كلما تصرف مستعمل اللغة في هياكل دلالاتها أو أشكال تراكيبيها بما يخرج عن المؤلف انتقل كلامه من السمة الإخبارية إلى السمة الإنشائية" (3). وقد يبدو هذا الإنشاء فعلا في طلب الدعاء أو الأمر بشيء أو النهي عنه؛ وذلك الذي تحمله جملة الاعتراض (4). أما التذييل فهو من مباحث الإطناب فهو العبارة عن المعنى بألفاظ تزيد عليه، وهو ضرب من التأكيد يؤدي وظائف تداولية مختلفة، ومن هذه الوظائف ما ذكره الزركشي في قوله: "ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه." (5) ومن وظائفه أيضا ما ذكره العلوي: الإتيان بجملة مستقلة بعد إتمام الكلام لإفادة التوكيد وتقرير حقيقة الكلام. (6) وقد جاء التذييل في آخر هذه الآيات في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وغرضه التهديد والتنبية على أنهم ظالمون في دعاء ما ليس لهم، ولتحقيق هذه الوظائف التداولية كثر التذييل في سورة البقرة فقد اشتملت على (103) تذييلا. (7)

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

(1) - الجاحظ . الحيوان . دار الكتب العلمية . بيروت . ط 1 / 1998 . 64/1
(2) مختار عطية . الإطناب في القرآن الكريم . ص 288 .
(3) - عبد السلام المسدي . الأسلوب والأسلوبية . الدار العربية للكتاب . ليبيا . ط 2 / 1982 . ص 163.
(4) - ينظر : مختار عطية . مرجع سابق . ص 289 .
(5) - الزركشي . البرهان في علوم القرآن . 68/3 .
(6) - العلوي . الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق التذييل . ط 1 / 2002 المكتبة العصرية . صيدا . 111/3 .
(7) - ينظر : مختار عطية . مرجع سابق . ص 342.

الخطاب موجه إلى الرسول (ص) وهذه الجملة كالجمل السابقة للرد على اليهود ، الذين اعتذروا عن الإيمان ، وقالوا نؤمن بما أنزل علينا ، فقد أمر الله نبيه بصيغة (قُلْ) بأن يخاطبهم في شأن عداوتهم لجبريل ، لأنه يجري مجرى المحاجة.⁽¹⁾ فإن اليهود اتخذوا جبريل عدوا بزعمهم أنه يخبر محمدا(ص) بأسرارهم ، ويأمره بقتالهم ، ووراء ذلك الأمر فعل كلامي غير مباشر ، هو التهديد والوعيد فإن الله عز وجل يبلغ هذا المعنى لبني إسرائيل لأنهم اتخذوا جبريل عدوا فالتقدير : " من كان عدوا لجبريل فلا يعاده وليعاده الله تعالى"⁽²⁾ . فكأنه قال : من عاداه فأنا عدوه . وقد دلت الآية على تعظيم جبريل ، والتتويه بقدره ، حيث جعله الوساطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه ، ودلت كذلك على ذم اليهود ، حيث أبغضوا من كان بهذه المنزلة الرفيعة عند الله⁽³⁾ . والفعل الكلامي يحمل دلالة غير مباشرة ، هي ذلك الوعيد لأولئك اليهود ، كما يحمل قوة إنجازية مستلزمة ، هي التهديد والذم على ذلك الموقف الشنيع من عداوتهم لجبريل . وهذه القوة المنجزة مدركة مقاميا ، والتي تستلزمها الجملة (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) ولا قرائن بنبوية تدل عليها في صورة الجملة . ويندرج فعل التهديد ضمن صنف الوعديات Commissives بتعبير سيرل . وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل ، وشرط الإخلاص فيه هو القصد Intention⁽⁴⁾ . (الغرض الوعدي) ويطلق عليها الملزمات ، وهي تعبر عما ينويه المتكلم .⁽⁵⁾ بحيث يأخذ المتكلم على عاتقه جعل العالم ملائما للكلمات ، فقد توعدهم الله بفعل حاصل في المستقبل ، هو العداوة والسخط ، وأن سبب عداوته تعالى لهم وسخطه هو كفرهم ، "وخص جبريل بالذكر لزيادة الاهتمام بعقاب معاديه في قوله تعالى : (فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) جواب شرط ، والعدو هنا مستعمل في معناه المجازي ، وهو ما يستلزمه من الانتقام والهلاك."⁽⁶⁾ إن المحتوى القضوي هو : استحقاق بني إسرائيل للعقاب . والشرط المعد هو : قدرة المتكلم على أداء ما يلزم نفسه به .⁽⁷⁾ وأما ما يتعلق بمفترضات القوة المتضمنة في القول ، فإن الفعل الموعود بوقوعه هو في غير صالح المخاطبين .^(*) ولتعديل القوة الإنجازية لهذا الفعل الوعدي ، استعان السياق بجملة من المقويات ممثلة في المؤشرات اللغوية منها : تأكيد الكلام باعتبار حال المخاطبين ، لأنهم منكرون في قوله : (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ) والضمير الله " إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه ، حيث يجعل

(1) - ينظر : فخر الدين الرازي . التفسير الكبير . 210 / 2 .

(2) - ابن عاشور . مرجع سابق . 621 / 1 .

* - من عجائب تهافت اعتقادهم أنهم يشبثون أن جبريل ملك مرسل من الله ويبغضونه .

(3) - الألوسي . مرجع سابق . 461 / 1 .

(4) - Voir : John Searle . Speech Acts , An essay in the philosophy of language , p 56 .

(5) - جورج يول . التداولية . ترجمة : قصي العتايي . ص 90 .

(6) - ابن عاشور . مرجع سابق . 625 / 1 .

(7) - ينظر : طالب هاشم طييطبائي . نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب . ص 31 .

(*) - لأن من مفترضات القوة المتضمنة أن يكون الفعل المهتد بإيقاعه مما يضر بالمخاطب .

لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ، ويكتفي عن اسمه الصريح بذكر شيء من صفاته ⁽¹⁾ ومنها إدخال (لام) التقوية على مفعول (مُصَدِّقًا لِمَا) للدلالة على تقوية ذلك التصديق ، ومنها أنه قدم جبريل لأفضليته ، ومنها أنه أتى باسم الله ظاهر (فَإِنَّ اللَّهَ) للتعظيم والتفخيم ، والعرب إذا فحمت شيئاً كررته بالإسم ، ومنها إيثار الجمل الإسمية للدلالة على التحقق والثبات ، ووضع المظهر موضع المضمَر (لِلْكَافِرِينَ) ، تفيد أن عداوة المذكورين كفر، وأن سبب عداوته تعالى لهم وسخطه هو كفرهم ⁽²⁾ . كما جاء الحجاج في السياق ، وسيلة لدعم القوة الإنجازية المتعلقة بتهديد بني إسرائيل . " فقد صارت عداوتهم جبريل كالحاد الوسط في القياس ، وكانت عداوتهم الله بمنزلة المقدمة الكبرى ، وداوتهم الرسول (ص) بمنزلة المقدمة الصغرى ، وأن عداوة الملائكة والرسول عداوة الله ، وقد أثبت لهم عداوة الملائكة والرسول ، مع أنهم عادوا جبريل ومحمداً ، لأنهم لما عادوهما عادوا الله ⁽³⁾ . هذا الفعل الكلامي غير ظاهر في البنية اللغوية ، وذلك ما دلت عليه قرائن ظاهرية ، وأخرى ضمنية استدلالية .

قال تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

في هذه الآية يبين الله عز وجل حسد اليهود وغيرهم للمسلمين "ويكشف لهم عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء . ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر ، وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة ، وكلاهما يضمّر للمؤمنين الحقد والضغن ، ولا يود لهم الخير" ⁽⁴⁾ . والخطاب موجه للمؤمنين ليكشف عن جانب من طبيعة اليهود ، مما ذكره عنهم سابقاً "إذ إن الصارف لليهود عن الإيمان ليس قولهم (نؤمن بما أنزل علينا) بل هو الحسد على ما أنزل على النبي والمسلمين من خير" ⁽⁵⁾ . ومن هنا جاءت هذه الآية تخبر عن حسد أهل الكتاب وخاصة اليهود.

بنية الفعل الكلامي : ينتمي الفعل الكلامي الوارد في هذا السياق ، إلى صنف الإخباريات بتصنيف سيرل ، ويتضمن الإخبار عن حسد أهل الكتاب ، وتقدير ما سبق من نزول الخير والامتتان ، على المؤمنين بهذا الخير . "ويتمثل الغرض الإنجازي لهذه الأفعال، في نقلها وتصويرها للأحداث المادية في الواقع" ⁽⁶⁾ .

(1) - الرازي . التفسير مرجع سابق . 212/2 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 462 / 1 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 623/ 1 .

(4) - ينظر : سيد قطب . في ظلال القرآن . 101/1 .

(5) - ابن عاشور . التحرير والتنوير . 652/1 .

(6) - نعمان بوقرة . محاضرات في المدارس اللسانية . ص 204 .

البنية الشكلية للفعل الكلامي المباشر تتمثل في عنصر الإخبار، فهو يخبر " مكذبا الجمع من اليهود الذين يكرهون أن ينزل خير من الله - وهو الوحي - عداوة وحسدا. "(1) أما الأفعال الكلامية غير المباشرة المستلزمة من الخطاب فيمكن تصنيفها إلى قسمين : قسم موجه لليهود وقسم موجه للمسلمين. فالأفعال المتضمنة في القول الموجهة إلى اليهود والمشركون تتمثل في التقرير. " وسيقت الآية ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ لتقرير ما سبق من تنزيل الخير ، وإرغام الكارهين له . وعبر عن الخير بالرحمة اعتناء به وتعظيما لشأنه . "(2) ويتضمن السياق فعلا كلاميا آخر ، هو التذكير للكارهين الحاسدين بأن الله هو المتفضل على عباده ، فلا ينبغي لحاسد أن يحسد أحدا . " وفيه كذلك فعل التنبيه ، فجملة التذليل (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) تنبيه لفضل الله تعالى "(3) . أما الأفعال المتضمنة في القول الموجهة للمسلمين ، فهي الامتتان عليهم ، بأن ما نزل عليهم هو الرحمة ، وقد خصهم الله بهذه الرحمة التي عبر عنها بلفظ الخير . ولتقوية إنجازية هذه الأفعال استعمل السياق لفظة (خير) . " ودخول (من) ههنا على جهة التوكيد والزيادة . "(4) وكذلك التعبير عن اليهود بقوله : (الَّذِينَ كَفَرُوا) على أنهم لم يتبعوا كتابهم (التوراة) ، لأن كتابهم يبشرهم ببعثة النبي (ص) ، ويأمرهم باتباعه . والغرض الإنجازي للأفعال المتضمنة في القول المتحولة عن الأنماط الخبرية في هذه الآية، هو : الامتتان ، ودلالة التذكير، والتنبيه، والتحذير. (5) ، فقد حذر المؤمنين من أولئك الأعداء ، الذين نفى عن قلوبهم الود والمحبة لكل خير يصيب المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١٦٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٦٧﴾

هذا طعن آخر لليهود في الإسلام ، "فقالوا ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ، ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ، وغدا يرجع عنه فنزلت هذه الآية . "(6) والخطاب موجه إلى المؤمنين ، وأراد الله نقض شبهة اليهود بمنع النسخ ، والمقصد الأصلي في هذا هو تعليم المسلمين أصلا من أصول الشرائع وهو: النسخ ، واليهود يدعون أن

(1) - الألوسي . روح المعاني . 485/1 .

(2) - المرجع نفسه . 485 / 1 .

(3) - ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 654 .

(4) - الزجاج . معالي القرآن . 1 / 167 .

(5) - ينظر : الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 156 .

(6) - تفسير الرازي . 2 / 244 .

شريعتهم لا تنسخ ، وأن محمدا وصف التوراة بأنها حق ، فكيف يكون شرعه مبطلا لها ، ومن ثم زعموا أن دوام التوراة مانع من الإيمان بالإسلام⁽¹⁾ ومن هنا فإن الآية تتضمن الرد على المشركين واليهود .

بنية الفعل الكلامي: في آية النسخ فعل كلامي هو الخبر ، الذي يتضمن الرد على اليهود "والغرض إثبات القدرة التامة لله تعالى على النسخ والإنساء ، وشمول قدرته جميع الأشياء"⁽²⁾ أما الاستفهام الأول (أَلَمْ تَعْلَمْ) ففيل للتقرير ، وقيل للإنكار ، وقد جعله الزجاج تقريراً⁽³⁾ . وأما الاستفهام الثاني (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...) فهو يتضمن فعلا كلاميا هو التقرير ، والاستفهامين ليسا على حقيقتهما ، فهما في معنى الخبر لأنهما للتقرير .

"والاستفهام تقريرى على الوجهين وهو شأن الاستفهام الداخلى على النفي (أَلَمْ) ؛ أي أنكم تعلمون أن الله قدير ، وتعلمون أنه مالك السموات والأرض... ولم يسمع في كلام العرب استفهام دخل على نفي ، إلا وهو مراد به التقرير"⁽⁴⁾ وقد يتضمن الاستفهام الأول فعلا كلاميا غير مباشر هو التعريض باليهود وذلك في قوله تعالى : (أَلَمْ تَعْلَمْ...) " فيكون المخاطب هو الرسول (ص) ، لكن المقصود منه المسلمون فينتقل خطاب النبي (ص) إلى مخاطبة أمته انتقالا كنائيا... وههنا لا يصلح توجه المضمون للرسول (ص) ، لأنه لا يقرر على الاعتراف بأن الله على كل شيء قدير فضلا عن أن ينكر عنه . وإنما التقرير للأمة ، والمقصد من تلك الكناية التعريض باليهود . وإنما سلك هذا الطريق دون أن يؤتى بضمير الجماعة المخاطبين لما في سلوك طريق الكناية من البلاغة والمبالغة مع الإيجاز في لفظ الضمير"⁽⁵⁾ والذي حصل في هذا السياق أن ظاهر الخطاب (أَلَمْ تَر) يراد به الرسول (ص) لكن المقصود هم المسلمون وذلك أن التعبير وقع في صورة الاستفهام ، "والاستفهام أكثر أساليب الطلب انتقالا إلى دلالات تحويلية مغايرة لدلالته التي وضع لها . وهذه الدلالات تتداخل في أحيان كثيرة على نحو يجعله أكثر أبواب الطلب تفلتا واستعصاء على محاولات التقعيد لكيفية تولد دلالاته الاستعمالية"⁽⁶⁾ ويتحول الاستفهام إلى أنماط أخرى كدلالات الاستئذان ، والاستبعاد ، والأمر ، والاستغراب ، والاعتذار والتحسر وغيرها ، وهذا ما يعرف بخروج الاستفهام عن معناه الأصلي.

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 654 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 1 / 490 .

(3) - ينظر : الزجاج . مرجع سابق . 1 / 168 .

(4) - ابن عاشور . مرجع نفسه . 1 / 665 .

(5) - المرجع نفسه . 1 / 664 .

(6) - حسام أحمد قاسم . تحويلات الطلب . ص 111 .

وقد اعتبر أوستين و سيرل الاستفهام من صور الأفعال الإنجازية ، وقد صنف سيرل الاستفهام في خانة التوجيهيات ، إن كان في صورته المباشرة ، وأما إن كان غير مباشر فيصنف بحسب دلالاته الجديدة .⁽¹⁾ فبحسب هذا التصنيف فجملة (أَلَمْ تَعْلَمْ) استفهام يعبر به عن فعل كلامي مباشر ، فهو يصنف ضمن التوجيهيات. أما بحسب دلالاته الجديدة التي هي التقرير ، فتصنف ضمن التقريريات (الإخباريات) عند سيرل ، وقد أورد السبكي قول الزمخشري : إن الهمزة في قوله (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) للتقرير وعلق عليه : "وما قاله متعين إن كان الخطاب للنبي (ص) أو لأحد من المسلمين ، وإن كان الخطاب لجنس الكافر الجاحد لقدرة الله سبحانه وتعالى ، فيحتمل أن يقال : الاستفهام للتوبيخ ؛ بمعنى أنهم وبخوا على عدم العلم ، وإن كان مع الكافر المعاند بلسانه فقط ، فيصح أن يكون استفهام إنكار وتكذيب لهم ، والظاهر أن الخطاب في (أَلَمْ تَعْلَمْ) للواحد من صاحب ذلك الضمير"⁽²⁾ .

إن الفعل التأثري يتحدد باعتبار مقاصد السياق القرآني نظرا لخروج الاستفهام عند دلالاته الأصلية إلى غيرها ، وقد يكون الاستفهام من أكثر الأساليب المستخدمة في إنجاز الأفعال بطريقة غير مباشرة . لأن ذلك التقرير مراد منه التحذير من الغلط ، وأن يكون كمن لا يعلم ، والمحذر منه في الجميع مشترك في كونه من أحوال اليهود المذمومة ."⁽³⁾ فالفعل التأثري على الرغم من نص سيرل عليه إلا أنه ليس له أهمية كبيرة عنده ، لأنه ليس من الضروري عنده أن يكون لكل فعل تأثير في السامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما .

قال تعالى : ﴿ وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ

أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾

في هذه الآية جانب من كيد اليهود وحسدهم للمسلمين ، فإنهم يودون عدم مجيء هذا الدين ، أو بقاء الناس على كفرهم ، وإغرائهم بالخروج من الدين . "وذلك أنه روي أن (فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس) ونفرا من اليهود قالوا : (لحذيفة وعمار) بعد وقعة أحد : ألم تروا ما أصابكم ؟ ولو كنتم على

(1) - ينظر : الصراف . مرجع سابق . ص . 180 .

(2) - السبكي . عروس الأفراح . 542 / 2 .

(3) - ابن عاشور . مرجع سابق . 665 / 1 .

الحق ما هزمتهم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل .⁽¹⁾ فنزلت الآية . وفي ذلك إظهار للشماتة والتشفي بالمسلمين ، ولكن أحبار اليهود خابوا وعلموا أن ما صار إليه المسلمون خير مما كانوا عليه من الشرك ، فتمنى عامة اليهود وجهلتهم لو يرجع المسلمون إلى الشرك حسدا من عند أنفسهم ، وتضمنت الآيتان مجموعة من الأفعال الكلامية هي :

الإخبار : وجاء الفعل الكلامي المباشر في صورة الخبر الصادق ، الذي يخبر حكاية عن حال اليهود وما يودون ، ويخبر عن تمنيتهم وحبهم أن يرتد المسلمون عن دينهم حسدا لهم وإظهارا للشماتة والتشفي بعد هزيمة أحد ، ومن ثم فهم يودون ارتداد المسلمين ، وأن يتبع المشركون دين اليهود .

التثبيت : ووراء هذا الخبر فعل كلامي متضمن في القول يفيد معنى التثبيت للمؤمنين ، وأنهم على دين الحق حتى حسدهم اليهود ، وهذا المعنى الضمني ناتج عن خروج الأمر عن مقتضى الظاهر . ولتقوية الفعل الإنجازي جاء بلفظة (حَسَدًا) منونة لتفيد التكثير أو التعظيم ؛ أي حسدوكم حسدا . وعبر بلفظ (مَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ) أي حسدا نابعا من أصل نفوسهم ، وفيه إشارة إلى أنه بلغ مبلغا متناهيا . وجيء فيه (بمن) الابتدائية للإشارة إلى تأصل هذا الحسد فيهم ، وأكد ذلك بكلمة (عند) الدالة على الاستقرار ليزداد بيان تمكنه .⁽²⁾

الأمر : وبناء على هذا الخبر المثير للغضب لأنه كشف عن نواياهم ، اقتضى المقام استعمال فعل كلامي توجيهي أمري ، يوجه المسلمين إلى كيفية التعامل مع اليهود في هذا الموقف من تلك المرحلة ، واقتضى الأمر عطف الإنشاء على الإخبار ، فأمر المسلمون بالعفو والصفح ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا...﴾ . وهو أمر صريح مرتب على خبر سابق ، " وإنما أمر المسلمون بالعفو والصفح في هذا الموضع خاصة لأن ما حكى عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر ، فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم . فلما كان هذا الخبر مثيرا للغضب خيف أن يفتكوا باليهود ، وذلك ما لا يريده الله منهم ."⁽³⁾ وإن هذا العفو والصفح هو أمر مؤقت " ولم يأمر بذلك على الدوام ، بل علقه بغاية فقال : ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ " .⁽⁴⁾ وما يعبر عن قوة الغرض الإنجازي استعمال السياق القرآني لفظتي : (العفو - الصفح) " فإن العفو ترك عقوبة المذنب ، والصفح الإعراض وترك التثريب وهو أبلغ من العفو ."⁽⁵⁾ وقد فرق أبو هلال العسكري بينهما فقال : " العفو يقتضي إسقاط اللوم والذم ، ولا يقتضي إيجاب الثواب . ولهذا يستعمل في العبد . أما الصفح فهو التجاوز عن الذنب وهو ترك

(1) - الرازي . التفسير الكبير . 256 / 2 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 494/1 .

(3) - ابن عاشور . مرجع سابق . 670/1 .

(4) - الرازي . مرجع نفسه . 264 / 2 .

(5) - الراغب الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن . دار القلم . دمشق . ط 3 / 2002 . ص 486 .

مؤاخذة المذنب بالذنب ، وأن تبدي له صفحة جميلة ، ولهذا يستعمل في الله تعالى .⁽¹⁾ ففي هذا التفريق تتجلى درجة الشدة في الغرض الإنجازي قوة وضعفا . كما استعمل (العفو) وليس الصبر على أذاهم إيدانا بتمكين المؤمنين حتى يأتي الله بأمره . "والظاهر أنه غاية مبهمة للعفو والصفح تطيبا لخاطر المأمورين ، وهذا أسلوب مسلوب في حمل الشخص على شيء لا يلائمه ."⁽²⁾ فكلام الله المعجز يفرض على الباحث باستمرار أن يتساءل عن الحكمة من وراء تفضيل دال على آخر . "فالتراصف يقبل على المستوى المعجمي فقط ، فكل دال يملك مقومات وجوده النصي التي لا يؤديها غيره ، وهذا ما امتاز به النص المعجز ، وعليه فكل ما ظننت ترادفه في القرآن الكريم هو غير ذلك ."⁽³⁾ فقد أثر السياق التعبير بالعفو والصفح عن غيره لوظائف بلاغية وتداولية .

التأكيد : واقتضى السياق بعد ذلك تعليل الموقف وتأكيده ، فجاء بجملة التذييل ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لتأكيد ما سبق ، وفيه من المعاني الضمنية الداعمة للقوة الإنجازية للأمر السابق الشيء الكثير . ففيه إشعار بالانتقام من الكفار .⁽⁴⁾ وفي التأكيد بجملة التذييل فعل كلامي متضمن في القول هو : الوعد للمؤمنين بالنصرة والتمكين ، و تتضمن جملة التأكيد أيضا فعلا كلاميا آخر متضمن في القول هو : الوعيد للكفار ، وإشعار بالانتقام ترهيبا لهم " ولعل في الجملة التذييلية تعليما للمسلمين فضيلة العفو ، وقد قيل إن الحكمة كلها هي التشبه بالخالق قدر الطاقة البشرية ."⁽⁵⁾ إن الأمر بالعفو والصفح فعل كلامي استوفى شروط الملاءمة ، وهي شروط التحقيق الناجح للفعل . فشرط المحتوى القضوي هو الأمر بالعفو والصفح عن الكفار ، وهو فعل في المستقبل مطلوب من المخاطبين وهم المؤمنون ، أما الشرط التمهيدي فإن المخاطبين قادرين على إنجاز الفعل ، وهو نوع من ضبط النفس وترك عقوبة المذنب ، والصفح بالإعراض وترك التثريب واللوم ، وإبداء الصفحة الجميلة ، لا سيما الصصح وهو خاصية بشرية لا يستعمل في الله تعالى . والمتكلم وهو الله عز وجل على يقين من قدرة المخاطبين على إنجاز الفعل المأمور به . ويتأكد ذلك بشرط الإخلاص ، فالمتكلم يريد حقا من المخاطب أن ينجز هذا الفعل ، مع الشرط الأساسي ممثلا في محاولة المتكلم التأثير في المخاطب لينجز الفعل ، والمسؤول عن تحقيق معيار المطابقة هو المخاطب وهم المؤمنون ، ويستمد هذا الأمر قوته من سلطة الأمر وهو الله عز وجل وصاحب الأمر والنهي ، وأمره لا

(1) - أبو هلال العسكري . الفروق . ص . 195 .

(2) - ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 671 .

(3) - محمد عبد الباسط عيد . النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ط 1 / 2009 . مكتبة الآداب . القاهرة . ص 145 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 1 / 494 .

(5) - ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 671 .

يتخلف، ويدل على ذلك جملة من الدوال الإشارية ممثلة في: اسم الله ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ و ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مع أن الفعل الموعود بوقوعه أمر في صالح مخاطبين ، وذلك من مفترضات القوة المتضمنة في القول ، وهو من مقتضيات تلك المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية . ثم اقتضى المقام وبنفس الشروط التأسيسية السابقة ، إيراد فعل كلامي متضمن في القول ممثلاً في قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾ فجاء الفعل الكلامي وهو الأمر في معناه الحرفي الذي يعبر عن محتوى قضوي هو الأمر للمؤمنين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . لكن المؤمنين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، فاستلزم ذلك أن الأمر خرج عن مقتضى الظاهر إلى معنى مستلزم مقامياً ، فالأمر هنا أريد به الثبات والمداومة على ما هم عليه من إسلام وطاعة وصلاة وغيره . وكان هذا الانتقال بسبب تخلف عنصر الزمان، والمراد بعنصر الزمان هو: أن يكون المطلوب بالأمر، هو القيام بالفعل في المستقبل ؛ أي بعد وقت التكلم ، ومن ثم فالفعل المأمور به وهو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ينبغي ألا يكون حاصلًا وقت الطلب.⁽¹⁾ فلو استعمل صيغة الطلب لمطلوب حاصل امتنع إجراء الطلب (الأمر) على الحقيقة ، ويتولد منها ما يناسب المقام ، كما في قوله تعالى : ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب الآية 1] حمل على معنى : دُم على التقوى . قال السكاكي : " لا ارتياب في أن الطلب من غير تصور إجمالاً أو تفصيلاً لا يصح ، وأنه يستدعي مطلوباً لا محالة ، ويستدعي فيما هو مطلوبه أن لا يكون حاصلًا وقت الطلب."⁽²⁾

الترغيب : وفي الأمر السابق ترغيب وتوكيد للأمر بالعبادة ، وكذلك الأمر بالصلاة والزكاة ، أوترغيب فيه بقوله تعالى : ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

التعريض : وفي الآية السابقة: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ...﴾ فعل كلامي متضمن في القول هو: (التعريض) باليهود ؛ لأنهم لا يقدرّون قدر عفو المسلمين وصفحهم ولكن ما يقدم لا يضيع عند الله ؛ أي في علم الله . فقد أظهر المولى تعالى مبالغة في كمال علمه ، ولتأكيد هذه المبالغة ذيل بجملة : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهي كناية عن عدم إضاعة جزاء المحسن والمسيء .

الوعد والوعيد : وفي هذا فعل كلامي متضمن في القول هو (الوعد) للمؤمنين ، وهذا الوعد يتضمن فعلاً كلامياً آخر هو (الوعيد) لغير المؤمنين ؛ لأنه إذا كان بصيراً بما يعمل المؤمنون ، كان بصيراً بما يعمل غيرهم .⁽³⁾

(1) - حسام أحمد قاسم . مرجع سابق . ص 53 .

(2) - السكاكي . المفتاح . ص 302 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 672 .

ولدعم القوة الإنجازية لهذه الأفعال أكد ذلك "حيث جعل جميع ما يعملون مبصرا له تعالى، فعبّر عن علمه تعالى بالبصر، مع أن قليلا مما يعملون من المبصرات، وكأنه لهذا فسر الزمخشري البصير بالعالم."⁽¹⁾

الفعل الكلامي الكلي : (أو هو الفعل الكبير كما يسميه فان دايك Van Djik) تحتوي هذه الآيات على سلسلة من الأفعال الكلامية تتدرج تحت فعل كلامي كلي ويجمع بينها شروط تأسيسية واحدة مشتركة . ولعل الفعل الكلامي الإجمالي هو الأمر لانبناء النص على استراتيجية توجيهية ، فالسياق القرآني جمع أفعالا كثيرة تحت غرض واحد. فهو قد أخبر، وأمر، ووعد، وتوعد، ورغب، ورهب، وعرض، وأكد. وللمتكلم -وهو الشارع الحكيم- إرادة التأثير في المتلقين (المكلفين) ، وحثهم على المسارعة لتنفيذ الأوامر ، وعدم الالتفات إلى ما يوده اليهود من ترك الدين ، وتمنيهم أن يتبع المشركون دين اليهود ، فقد بلغ بهم الحسد والغیظ إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٧١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴿١٧٣﴾

الكلام معطوف على ما قبله والضمير في ﴿قَالُوا﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. فاليهود قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، و النصارى قالت : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى . فجمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز بجمع ما اشتركا فيه ، وهو نفي دخول الجنة عن المستثنى منه المحذوف . " فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله. " ⁽²⁾ وفي هذا يتجلى البعد التداولي في السياق القرآني ، والذي يبرز في الثقة بكفاءة السامع التداولية، وبقدرته على إرجاع كل قول إلى قائله في باب من أبواب البديع هو: اللف والنشر . قال القزويني: " والمعنى ؛قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى. فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد كل فريق إلى قوله ، وأما من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منها لصاحبه. " ⁽³⁾

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 1 / 495 .

(2) - الزمخشري . الكشف . 1 / 177 .

(3) - القزويني . الإيضاح . ص 201 .

بنية الفعل الكلامي : تتركب هاتين الآيتين من أكثر من فعل كلامي تأتي متتابعة حسب تنوع المقامات وكان "الإخبار في هذا عن أهل الكتاب" ⁽¹⁾ . فمقام الإخبار في البداية مقتضيا لإيراد الخبر لنقل معلومة ، وإنجاز فعل كلامي مباشر هو الإخبار عن جانب من أحوال اليهود والنصارى ن وحكاية شيء من مزاعمهم ، وإدعاءاتهم ، وأمنياتهم . ويتضمن الخبر فعلا كلاميا متضمنا في القول هو الإدعاء . هذا الفعل هو من مزاعم الطرفين من اليهود والنصارى ، فكلاهما يدعي أنه يدخل الجنة دون الآخر ، وهذا الإدعاء لا يقوم على بينة ويفتقر إلى دليل . واقتضى الإدعاء اعتراضا للإعراب عن كون ذلك الإدعاء مردود ، إنما هو مجرد أمنية فجاء الاعتراض على قول اليهود والنصارى بجملة اعتراضية في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ . والجملة الاعتراضية " لا تكون إلا بين كلامين لقائل واحد" ⁽²⁾ والجملة الاعتراضية ذات وظيفة تداولية وذات مقاصد " تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام" ⁽³⁾ . والقصد هو إبطال دعوى اليهود والنصارى السابقة ، ذلك أن الجملة الاعتراضية " ليست حشوا من الكلام في شيء إذ الاعتراض يخدم المعنى ويفيد زيادة في غرض الناثر والناظم" ⁽⁴⁾ وأشار (بتلك) إلى القولة الصادرة منهم . " ولعل دلالة الاستبعاد في هذه الجملة واضحة ؛ إذ لا برهان لهم سوى الأمانى ، ولا تغني الأمانى عن الحق شيئا" ⁽⁵⁾ واقتضى كل من الإدعاء والاعتراض فعلا كلاميا آخر هو: التكذيب . ولإبطال دعوى اليهود والنصارى جاء الأمر في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذا أمر صريح في طلب البرهان على صحة الدعوى ، فقد نفى أن يكون لهم برهان عليه ، والغرض هو إبطال الدعوى وأمر بأن يجابوا بهذا ، ولذلك فصله لأنه في سياق المحاوراة والمحااجة ، " ولذلك أتى بالأداة (إِنَّ) المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق ، لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان ؛ لأن كل اعتقاد لا يقيم معتقده دليل اعتقاده فهو اعتقاد كاذب" ⁽⁶⁾ ويتضمن الأمر فعلا كلاميا غير مباشر وهو التعجيز ، وهو فعل مستلزم مقاميا وذلك بخروج الأمر عن مقتضى الظاهر ، وذلك لتخلف عنصر الإرادة لتخلف الإمكان . ففي دلالة التعجيز يتخلف الإمكان في نفس الأمر ، ومن ثم يكون القيام بالفعل غير ممكن عند الأمر والمأمور... أما في دلالة التحدي فيكون تخلف الإمكان من وجهة نظر الأمر فحسب ، بينما يزعم المأمور وهم اليهود والنصارى يزعمون أن لهم قدرة عليه قولاً أو فعلاً بأن يسلك سلوك من يعتقد ذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾

(1) - الزجاج .معاني القرآن . 1 / 171 .

(2) - أبو حيان . البحر المحيط 1 / 247 .

(3) - ابن القيم . التبيين في أقسام القرآن . ص 222 .

(4) - طلال يحيى الطوبخى . الجمل التي لا محل لها في القرآن . ص 111 .

(5) - المرجع نفسه . ص 121 .

(6) - ابن عاشور . مرجع سابق . 674/1 .

وهكذا يراد بالأمر التعجيز والتحدي لإبطال دعوى اليهود والنصارى باستحقاق أحدهما الجنة دون الآخر.⁽¹⁾ ويقتضي التعجيز فعلا كلاميا غير مباشر هو التكذيب ، وهذا الفعل الكلامي مترتب على الذي قبله ، ويراد بالتكذيب معنى الاستبعاد لدعوى اليهود والنصارى ، وزعم كل منهما دخول الجنة دون الآخر . فجاء التكذيب بإثبات الجنة لغيرهم بقوله تعالى: ﴿بَلَى﴾ "ردا عليهم وتكذيبا لهم أي ليس كما تقولون."⁽²⁾ فقد نفى أن يكون لهم رهان عليه . وفي قوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ﴾ فبلى كلمة يجاب بها المنفي لإثبات نقيض النفي، وهو الإثبات. و﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ جملة "أريد بها بيان أن الجنة ليست حكرًا لأحد، وإنما يستحقها من أسلم وبعد أن اعترض السياق على أهل الكتاب ، وأبطل دعواهم ، وتحداهم ، وكذب مزاعمهم اقتضى المقام تقديم البديل والحل ، وهو ممثل في فعل كلامي غير مباشر هو: فعل الوعد وفي ذلك تبيان لمن يستحق الجنة ، هل هم اليهود ، أم هل هم النصارى ، أم هم طائفة أخرى . فقد وعد الله بالجنة من تتوفر فيه الشروط وجمعها في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فهي جملة مستأنفة وقعت جوابا وفيه رد لقولهم الذي زعموه ، وإثبات لما تضمنه من نفي دخول غيرهم الجنة ، ونفي أن يكون لهم برهان عليه ؛ أي إنما يدخل الجنة مؤمن محسن. ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الوعدي فقد عبر عما وعد من استحقاق الجنة بكلمة الأجر في ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ . "والمراد بالوعد الإخبار عن وقوع الفعل مستقبلا مع العزم على إيقاع الفعل."⁽³⁾ ولم يقل فله الجنة ليفيد قوة ارتباطه بالعمل ، وكذلك عبر بلفظ ﴿عِنْدَ﴾ أي الأجر عند الله لا يضيع ولا ينقص .⁽⁴⁾ هؤلاء هم أصحاب الجنة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فقد حقق الفعل وظيفته التداولية ، واستوفى شروط الملاءمة كما اقترحها سيرل . فللوعد شرط أساسي هو محاولة المتكلم التأثير في المخاطبين لإنجاز الفعل ، والغرض الإنجازي لفعل الوعد هو إلزام المتكلم التأثير في المخاطبين لإنجاز الفعل . والغرض الإنجازي لفعل الوعد هو إلزام المتكلم نفسه بأن يجزي المؤمنين العاملين الجنة . ونمط الإنجاز منزلة المتكلم متعلق بسلطة الله وهو صاحب الوعد ، والله لا يخلف وعده . والفعل الموعود بوقوعه أمر في صالح المخاطب، وذلك من مفترضات القوة المتضمنة في القول ، ولقد اختلف العلماء في اعتبار الوعد من الأنماط الخبرية أو الإنشائية إلا أن أكثر من عالم جعله من الأنماط الإنشائية كالسبكي (ت773هـ)⁽⁵⁾

الفعل الكلامي الكامل : الفعل الكلامي الكامل أو الكلي كما سماه (فان دايك) هو الفعل الذي يهيمن على النص وإن تعددت الأفعال الكلامية فيه ، فلعل الفعل الكلي في هذا المقام هو التكذيب ، والاستبعاد.

(1) - ينظر : حسام أحمد قاسم . مرجع سابق . ص 77 .

(2) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 52 / 2 .

(3) - هاشم طيطبائي . نظرية الأفعال الكلامية . ص 72 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 497/1 .

(5) - ينظر : السبكي . عروس الأفراح . 306/2 .

فالنص يدور حول هذا المعنى الذي تشترك أفعاله كلها في الشروط التأسيسية نفسها ، مستعينا باستراتيجيات مختلفة لأداء الغرض . فأما الاستراتيجية الحجاجية فقد تحققت بالأفعال الكلامية واستخدام الأدوات (لن، إلا، إن، بلى) وباستخدام الحجاج بالبديع ممثلا في اللف والنشر والتفريع وغيرها من وسائل الإقناع . هذا إلى جانب إيراد الأفعال بطريقة ضمنية توجيهية ، في ذلك أن الله تعالى: أخبر، فاعترض ، وأمر ، فتحدى، وكذب، واستبعد، ووعد.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

هذه الآية معطوفة على الآية التي قبلها لزيادة بيان أحوال أهل الكتاب ، وروي في سبب نزولها : أن يهود المدينة وأحبارهم اجتمعوا بنصارى نجران* عند رسول الله (ص) فتناظروا ، واتهمت كل فرقة الفرقة الأخرى ، فقالت اليهود ليست النصارى على شيء من الدين الحق ، ورد عليهم النصارى بمثل ذلك ، وأنكر كل منهما نبوة الآخر.⁽¹⁾

تصنف هذه الآية إلى قسم الإخباريات بتعبير سيرل، وأفعال هذا المجال الإنجازي هي الأفعال التي تقوم بنقل أو وصف الواقع وصفا أو نقلا أميناً ، "فإذا تحققت الأمانة في النقل أو الوصف فقد أنجزت الأفعال إنجازاً تاماً أو ناجحاً".⁽²⁾ ولا داعي للخوض في مسألة الصدق والكذب ، لأن صدق الخبر القرآني من المسلمات ، وإن المخبر هو الله عز وجل ، وهذا يضمن للفعل الكلامي أمانة الوصف والنقل . ويتضمن هذا الصنف معظم أفعال الإيضاح عند أوستين ، واتجاه المطابقة في مجال الإخباريات يكون من القول إلى العالم ، وفي هذه الآية إخبار عن جانب من أحوال الأمم السالفة ، بحيث تضمن الخبر مجموعة من الأفعال الكلامية غير المباشرة ، تقتضيها الطبقات المقامية فمنها : الإخبار ، والتفريع ، والتسلية ، والتوبيخ ، والتعجيب ، والإنحاء على المشركين (الذم) . وذلك لخروج الخبر عن مقتضى الظاهر . "ليؤدي قيما بلاغية تلك القيم تستمد عناصرها دائماً من مطابقة الكلام لحال المخاطبين".⁽³⁾ وعلى أساس ذلك يمكن أن ترد بنية الفعل الكلامي كما يلي :

* - نجران : قبيلة عربية كانوا ينزلون قرية كبيرة تسمى نجران بين اليمن واليمامة وهم على دين النصرانية ولهم الكعبة اليمانية المشهورة وهي كنيستهم . وقد وفد منهم وفد على الرسول (ص) في السنة الثانية من الهجرة . ينظر : ابن كثير . البداية والنهاية . 42 / 5 .

(1) - ينظر : السيوطي . لباب النقول في أسباب النزول . ص 21 .

(2) - محمود نحلة . مرجع سابق . ص 103 .

(3) - عبد العزيز عتيق . علم المعاني . ص 52 .

خبر : فعل كلامي صريح مباشر يدل على قوة إنجازية حرفية يستدل عليها بقرائن بنبوية (قالتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ...﴿ وهو يخبر عن أحوال الأمم السالفة والمراد بالقول الصريح بالكلام الدال، فاليهود والنصارى قالوا هذا بالصراحة حين التقى الوفدان عند الرسول (ص) .⁽¹⁾ فأنكر كل منهما نبوة الآخر .

الآية

الأفعال الكلامية المتضمنة في القول : جاءت في صورة معان مجازية وهي معان تابعة

للدلالة الأصلية للعبارة ، بحيث تقدم تفسيراً لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول .

وفي السياق القرآني تصل هذه المعاني إلى حد الإعجاز . ومن هذه الأفعال المتضمنة نذكر ما يلي :

التقريع : وهو فعل كلامي غير مباشر ، مستلزم حوارياً فغن الإخبار عن الطائفتين اليهود والنصارى "إخبار عام فيه تقريع لمن بحضرته (ص) من هاتين الطائفتين حين تسابا ، فأنكر كل منهما نبوة الآخر ."⁽²⁾

التسليّة : وهذا فعل كلامي آخر متضمن في القول ، وهو من المعاني الثانية ، لأن حادثة اجتماع وفدي اليهود والنصارى وادعى كل منهما أن خصمه ليس بشيء فيه إلى جانب التقريع بهم تسليّة للرسول (ص) إذ كذبوا بالرسول والكتب قبله .⁽³⁾

التوبيخ : وهو فعل كلامي غير مباشر ، يتمثل في قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي قالت كل طائفة منهما إن غيرها ليس على شيء فقالوا ذلك وهم عالمون أن قولهم يخالف ما في كتبهم ، وفي ذلك توبيخ لهم . على رمي المخالفين بالضلال ، وكان من حقهم الإنصاف مع مخالفهم . "وفي التوبيخ لا بد أن يكون المتلقي قد قام بفعل ما قبل زمان تكلم المتكلم ."⁽⁴⁾ والجملة ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ جملة حالية ؛ "أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلوم والتلاوة للكتب ، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرها من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي ، لأن كل واحد من الكتّابين مصدق للثاني ."⁽⁵⁾ ولإظهار شدة التوبيخ استعمل السياق النفي المطلق المكرر ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ وهو عند البعض من باب حذف الصفة أي ؛ يعتد به ، وفي ذلك مبالغة عظيمة ، وذلك لتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي (التوبيخ) أو (التقريع) "لأن (الشيء) ما يصح أن يعلم ويخبر عنه فإذا نفي مطلقاً ، كان ذلك مبالغة في

(1) - ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 675 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 1 / 498 .

(3) - ينظر : المرجع نفسه . 1 / 498 .

(4) - علي محمود الصراف . مرجع سابق . ص 164 .

(5) - الرازي . مرجع سابق . 2 / 8 .

عدم الاعتداء بما هم عليه وصار كقولهم: أقل من لا شيء.⁽¹⁾ وهو قول صادر عن مجرد الهوى .
التعجب : إن المتكلم يقصد بهذا الفعل الكلامي المتضمن في القول لفت الانتباه وإثارة العجب من هؤلاء الأقوام ؛ " ووجه التعجب أن التوراة هي أصل للنصرانية ، والانجيل ناطق بحقيتها فكيف يسوغ للنصارى إدعاء أنها ليست بشيء كما فعلت نصارى نجران. وأن التوراة ناطقة بمجيء رسل بعد موسى ، فكيف ساغ لليهود تكذيب رسول النصارى.⁽²⁾

الإرشاد : وهو فعل كلامي متضمن في القول وهو من المعاني التي يرمي إليها المتكلم بشكل غير مباشر وهو موجه للمؤمنين أن يتعظوا من مواقف الأقوام السابقين، وأن من كان عالما بالقرآن لا يقول ما يخالفه.

الإنحاء (الذم) : وهو فعل كلامي متضمن في القول ، ولكنه موجه إلى فئة أخرى كانت معاصرة للفئتين المتخاصمتين وهم مشركوا العرب وغيرهم ، وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي مثل قول اليهود والنصارى . ووصف المشركين بقوله ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنهم يكذبون بالأديان كلها . فقولهم يشبه قول اليهود والنصارى.⁽³⁾ ولعل الفعل الكلامي الكلي لهذه الآية هو فعل التوبيخ والتفريع فهو المحور الذي تدور حوله مجموعة الأفعال الكلامية الأخرى .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٠ ﴾
 أَلْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمُهُ ١١١ ﴾

وقيل في سبب نزولها ، أن مشركي العرب منعوا الرسول (ص) من الدعاء إلى الله بمكة ، ودفعوا به إلى الهجرة ، ومنعوه هو وأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام ، وآذوه بسبب ذلك ، وقيل أن اليهود كانوا يمنعون الناس من التوجه إلى الكعبة بعد تحويل القبلة ، ولعلهم سعوا إلى تخريب الكعبة والمسجد الحرام.⁽⁴⁾ وقد يكون المعنى كل مسجد لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع .

والأفعال الكلامية الواردة في الآية :

الاستفهام : في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي كما يلي :

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 1 / 498

(2) - ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 677 .

(3) - نفسه . 1 / 677 .

(4) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 2 / 10 .

- الاستفهام والأداة (من) والمستفهم عنه : وجود من هو أظلم من هؤلاء ،

ولا يراد بالاستفهام حقيقته وإنما هو بمعنى النفي .

- النفي : فهو ينفي أن يكون هناك من هو أظلم من هؤلاء، ويؤول النفي

إلى الخبر؛ أي لا أحد أظلم من ذلك .

- الإنكار : أي إنكار أن يكون أحد أظلم منه ، وإن كان الكلام مخرجا

مخرج المبالغة في التهديد والزجر .⁽¹⁾

وأسلوب الاستفهام أسلوب ثري له دلالات كثيرة متداخلة يتأبى في أحيان كثيرة أن ينحصر معناه في دلالة واحدة ، فالاستفهام في هذه الآية اجتمع فيه النفي والإنكار والخبر والتهديد والزجر . فما الأسباب التي تجعل الاستفهام يتحول إلى دلالات متعددة ؟ ويرى السكاكي أن أهم شرط تخرقه جملة الاستفهام ليمتنع إجراؤها على أصل استعمالها لتتجز فعلا آخر بطريقة غير مباشرة ، هو شرط جهل المتكلم بالمستفهم عنه ، مما يستلزم وجود دلالة أخرى غير مباشرة تحولت عن صيغة الاستفهام ، وهذه الدلالة تستفاد من عناصر السياق ومعونة القرائن.⁽²⁾ المحيطة بالمنطوق الإنجازي . فالمتكلم في هذه الآية خرق شرط العلم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ...﴾ فهو لا يستفهم عن وجود من هو أظلم ممن منع مساجد الله بل ينفيه وينكر أن يكون أحد أظلم منه ، هذا النفي هو الفعل الكلامي غير المباشر المتحول عن الاستفهام ، وإذا خرقت شروط الإجراء على الأصل فيكون الاستفهام مجازيا أو بلاغيا "ذلك أن الاستفهام الذي لا يراد به إجابة ما ، وإنما يراد به التعبير عن نفس القائل تعبيراً مؤثرا فصيحاً عن أغراض معينة كالنفي ، أو التقرير ، أو التعظيم".⁽³⁾ فالاستفهام في الآية لا يراد به الجواب وإنما لإثبات أنه لا أحد أظلم من ذلك . ويقترح الدكتور حسام قاسم تصنيف المعاني التحويلية للاستفهام بين نوعين من الدلالات :

1- الدلالات الأولية : التي تكون في غالب الأحيان هامشية ، وهو المعنى المسيطر أو الأصل . ففي

هذه الآية نجد الدلالة الأولية في النفي، والإنكار في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي فلا أحد أظلم منه

، في معنى الخبر المنفي ، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى حقيقة المعنى في الإنكار "أنه ينتبه

السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع"⁽⁴⁾ .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 501/2 .

(2) - ينظر : السكاكي . مرجع سابق . ص 304 .

(3) - أحمد ماهر البكري . أساليب النفي في القرآن . دار المعرفة . الاسكندرية . ط 2 / 1984 . ص 295 .

(4) - الجرجاني : دلائل الإعجاز . ص 116 .

2- الدلالات النهائية: وهي الدلالة المتصلة بغرض المتكلم ،وقد يتوصل إليها عن طريق استلزام إحدى الدلالات الأولية لها ،وهي المعاني المتواردة . ففي هذه الآية تكون دلالات التهديد والزجر.(1) أي تهديد الظالمين المانعين مساجد الله وزجرهم عن ذلك .وقد يكون الاستفهام إفصاحيا إذا كان الفعل قد وقع وانتهى كما في هذه الآية "ولم يكن المتكلم نافيًا له فإن الاستفهام التوبيخي يخلص حينئذ للذم والتقريع".(2) وكان الله يذم أولئك القوم عن منع المساجد أن يذكر فيها اسم الله ، أو يوبخهم ويذجرهم وهذه الدلالات كلها متحولة ومتقاربة . وإذا تخلف عنصر الإرادة فلا يكون السائل منتظرا الإجابة عن سؤاله . فالله عز وجل لا ينتظر الإجابة من المسؤول؛ إذ أنه لا يريد السؤال أصلا ،لأنه لا يراد بالسؤال حقيقته ،ولعل ذلك ينتج عنه دلالة إفصاحية ، ولذلك قال السكاكي : "ومتى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام".(3)

الوظيفة الحجاجية للفعل الكلامي :

للفعل الكلامي وظائف تداولية مرتبطة بقصد المخاطب ، من أهمها وظيفته الحجاجية "التي تزيد من قوته الإنجازية التي أرادها له أوستين وسيرل ولا سيما تلك المرتبطة بوظيفتي التأثير والإقناع".(4) يستعمل المتكلم الاستفهام في الحجاج على أنه الحجة بعينها، فالسياق القرآني في هذه الآية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ جعل الاستفهام حجة ؛لأن الاستفهام من أنجع أنواع الأفعال حجاجا . إذ أن طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف ، أو يلطف ما بين الطرفين من خلاف ، فهو يؤدي وظيفته بطريقة تلميحية ؛ أي أن الاستفهام فعل حجاجي بالقصد المضمّر فيه وفق ما يقتضيه السياق.(5) فالآية تجمع صنوف المكذبين ،وتصفهم بالظلم الذي عبر عنه بصيغة التفضيل (أظلم) ،فالمنكر هو الذي يلي الاستفهام ، والمراد إنكار أن يكون أحد أظلم منه ، وإيثار الاستفهام المتضمن معنى النفي للإشعار ، بأن هذا الظلم قد وضح أمره ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكيره عن الأسئلة بالنفي ،كان في توجيه السؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النفي .(6) وإن جاء الاستفهام بمعنى التقرير باعتبار أن: "الآية عطف

(1) - ينظر : حسام قاسم . تحويلات الطلب . ص121 .

(2) - المرجع نفسه . ص 124 .

(3) - السكاكي . مرجع سابق . ص 307 .

(4) - مسعود صحراوي . التداولية عند العلماء العرب . ص 65 .

(5) - ينظر : ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 482

(6) - ينظر : أحمد علي عبد العزيز . من بلاغة القرآن . ط 1 / 2011 . دار اليقين للنشر والتوزيع . مصر . ص 72- 77 .

لقصة على قصة تقريراً لقبائح اليهود".⁽¹⁾ ومن ثم تكون غاية الاحتجاج بالاستفهام "حمل المخاطب على أمر قد استقر عنده ليعترف به".⁽²⁾

الإخبار / وعد : وهو فعل كلامي مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿أَوَلَيْكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ وهو إخبار نفسي بمعنى (النهي) أي النهي عن التمكين من دخولهم المساجد فلا يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين . ويتضمن الخبر فعلاً كلامياً غير مباشر هو (الوعد) في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ فيه وعد المؤمنين بالنصرة وتخليص المساجد الكفار يعني إذا استولى عليها المسلمون فلا يتمكن الكفار حينئذ من دخولها يعني إن دخلوها فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم منها.⁽³⁾

وعيد : وهو فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقد توعد الله الظالمين المانعين مساجد الله بعقوبتين : خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة.

الكناية : في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ : الكناية هي أن تتكلم بشيء وتريد غيره وقد عرفها السكاكي بقوله : "ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينقل من المذكور إلى المتروك كقولك : فلان طويل النجاد ، لينقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة . وسمي هذا النوع كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح".⁽⁴⁾ فالكناية بهذا المفهوم تعبر عن معنى معين بصورة غير مباشرة هو فعل الإثبات أن الأرض لله تعالى ، مما رشحها لتكون إحدى الوسائل الفعالة لإنجاز الفعل الكلامي غير المباشر ، ففي قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ "كناية عن مالكية كل الأرض".⁽⁵⁾ فالعبارة لاتقصد المعنى الحرفي المباشر ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ إنما تقصد المعنى غير المباشر : أن الأرض كلها ملك لله . ويتضح ذلك من خلال الشكل التالي :

- معنى صريح مباشر : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ معنى متحقق

غير مقصود .

العبارة الكنائية

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

معنى كنائي غير مباشر : غير مصرح به هو المعنى المقصود .

كنى بمالكيتهما عن مالكية كل الأرض .

فالمجال غير المباشر سمة مشتركة بين الكناية والأفعال الكلامية غير المباشرة . أن المتكلم يصرح

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 501 / 2 .

(2) - أحمد علي عبد العزيز . مرجع سابق . ص 72 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 502 / 2 .

(4) - السكاكي . مرجع سابق . ص 402 .

(5) - الألوسي . مرجع نفسه . 503 / 2 .

بالقول الكنائي ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يريد إثبات أن الأرض كلها ملك له . فقول السكاكي : (ذكر ما يلزمه) أن مالكية كل الأرض يلزم مالكية المشرق والمغرب . وهذا لا يستوجب إحداث تغيير في البنى الداخلية للكلمات.⁽¹⁾ وعند حصر معنى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ في مالكية كل الأرض لا يكون المتكلم قد أنجز فقط الفعل الإنجازي بطريق غير مباشر بل يكون المتلقي قد فهم هذا المعنى واقتنع تبعا لذلك بالفعل الإنجازي غير المباشر . أما المتلقي فيستدل على قصد المتكلم بما يلي : أن المتكلم قد أنجز فعلا كلاميا من خلال قوله : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وأن المتكلم يراعي الشروط الإنجازية . ومنها ما يتعلق بالمباديء الحوارية ، ومنها أن المتكلم بقوله : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ قد خرق القواعد المتفرعة عن الشروط الإنجازية خاصة مبدأ التعاون الحوارية الذي أكد عليه غرايس ، والذي يقتضي اجتناب المتكلم إخفاء العبارة ؛ إذ أن قوله : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ إخفاء لوجه التصريح ، وهذا ممكن لأنه يقصد معنى آخر لم يصرح به حرفيا ، وإذا أمكن الاستدلال عليه فلا يكون المتكلم قد خرق تلك الشروط الإنجازية ، بحيث يرشده استدلاله إلى المعاني الممكنة غير المصرح بها للعبارة فيحصرها في : معنى الأرض كلها لله . فيقتنع المتلقي بقصد المتكلم ويقبله. العبارة الكنائية تقدم فعلا كلاميا غير مباشر تستخدم الكناية للتعبير عن أغراضها المختلفة ، فالكناية في الآية تدعوا إلى الإيمان بأن الله مالك لكل الأرض ﴿فَأَيُّمَّا تُولُوا فَنَّمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ . فالصور البيانية هي أبلغ من الحقيقة حاجيا "والنوع المقصود هو تلك الاستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي."⁽²⁾

الكناية في قوله تعالى : ﴿فَأَيُّمَّا تُولُوا فَنَّمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ : كناية عن سعة علمه واطلاعه ، ويؤول إلى الجلالة والعظمة .⁽³⁾ وقيل معناها أينما كنتم وحيثما كنتم من مشرق ومغرب فلکم قبلة واحدة .⁽⁴⁾ فعلى القول الأول تكون الكناية بأن قال المتكلم شيئا وأراد غيره قال تعالى : ﴿فَأَيُّمَّا تُولُوا فَنَّمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وأراد وصف سعة علمه واطلاعه وجلاله وعظمته . واتجه القائلون بهذا الرأي نفيا للجهة . فالمعنى الحرفي الصريح هو ما دلت عليه الصيغة المباشرة ﴿فَأَيُّمَّا تُولُوا فَنَّمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ . والمعنى الكنائي : كنى بالعبارة عن سعة علمه تعالى فهو ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ، وكنى عن اطلاعه على عبادته أينما كانوا واتجهوا في مشرق أو مغرب فلهم قبلة واحدة . والأرض كلها لهم مسجدا وطهورا . فلا يمكن للظالمين أن يمنعوهم من الصلاة

(1) - محمود الصراف . مرجع سابق . ص 152 .

(2) - عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 495 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 503 .

(4) - أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . 1987 . دار المعرفة . بيروت . 1 / 34 .

وإن منعوهم من المساجد . ويؤول المكنى عنه إلى التعبير عن عظمة الله جل جلاله . فالعبارة الكنائية تقدم فعلا كلاميا غير مباشر هو المعنى الكنائي ، والكنائية هي أبلغ من الحقيقة حجاجيا وهي من قبيل الاحتجاج بالخطاب التلمحي . يقول سيرل : "إن المشكلة التي تعترضنا في الأفعال اللغوية غير المباشرة هي: كيف يمكن للمرسل أن يقول شيئا ، وهو يعني به شيئا آخر ؟" (1) وقد ناقش الرازي هذا المعنى في قوله تعالى : " فما معنى ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ مع أنه لا يجوز عليه المكان فلا بد من تأويله بأن المراد فتم قبلته التي يعبد بها ، أو ثم رحمته ونعمته وطريق ثوابه والتماس مرضاته " (2) .

الاعتراض : وهو فعل كلامي مباشر دلت عليه الجملة في قوله تعالى : ﴿أَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وهذه الجملة الاعتراضية تتضمن فعلا كلاميا غير مباشر هو التسلية أي تسلية قلوب المؤمنين بحل الصلاة والذكر في جميع الأرض لا في المساجد خاصة . (3) والمعنى " لا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله عن ذكره حيث كنتم من أرضه فله المشرق والمغرب والجهات كلها " . (4) وقد يكون هذا مناسبا للمؤمنين حين منع من دخول المسجد الحرام في صلح الحديبية .

التهديد : وهو فعل كلامي مباشر دلت عليه جملة التذييل وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فالعبارة تتضمن تهديدا لمن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ، فالله سبحانه محيط بالأشياء ملكا ورحمة ، فلهذا وسع القبلة فلم يضيق عليكم ، أما الظالمون المانعون فلا مهرب لهم من الله ولا مفر لأن سلطان علمه أحاط بالجهات والأفلاك . (5)

قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَنكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

في هذه الآيات يخاطب الله تعالى الرسول (ص) وأصحابه في شأن تحويل القبلة التي جعل منها الطاعنون فرصة للفتنة ومثارا للتشكيك ، كما في الآيات السابقة حين شككوا في قضايا الأصول . وانتقل

السياق هنا إلى ذكر تشكيكهم في إحدى قضايا الفروع ،وهي القبلة ،وقد فصل بترك العطف تنبيهها على استقلال الجزء عن الآيات السابقة مبينا موقف اليهود والمنافقين ومشركي العرب وقالت اليهود :
الانتقال عن قبلتنا باطل وسفه فنزلت : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾⁽¹⁾.

والأفعال الكلامية الواردة في هذه الآية نذكرها فيما يلي :

الإخبار: في قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ ففيه إخبار من الله لنبيه أنه يصدر منهم هذا القول في المستقبل وذلك قبل أن يؤمر باستقبال الكعبة ، " فتكون من باب الإخبار بالشيء قبل وقوعه ليكون ذلك معجزا ، إذ هو إخبار بالغيب لتتوطن النفس على ما يرد من الأعداء، وتستعد له فيكون أقل تأثيرا منه ،إذا فالتكلم يهدف من وراء الخبر إلى إعلام المخاطبين شيئا لا يعرفونه وهو مضمون الخبر".⁽²⁾ وفي قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ " وهم اليهود والمنافقون وكفار مكة "⁽³⁾ والسفهاء جمع سفيه وهو خفيف العقل " واليهود خفاف الأحلام لكرهتهم التوجه إلى الكعبة ".⁽⁴⁾ والمراد من ذكر (السفهاء) للتنبيه على كمال سفاهتهم .ثم خرج بالخبر إلى غرض بلاغي يفهم من سياق الكلام وهو : التنبيه لإعداد الجواب لأنه قدم الإخبار بالقول. وفيه جواب معد قبل الحاجة إليه . والجواب المعد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم ويكون الوقوع بعد الإخبار معجزة له (ص).⁽⁵⁾ "وقيل إن الوجه في التقديم هو التعليم والتنبيه على أن هذا القول أثر السفاهة فلا يبالى به ولا يتألم منه ".⁽⁶⁾
ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي فيما يلي :

- المعنى الصريح (إخبار) فعل كلامي مباشر، قوة إنجازية حرفية
ويستدل عليه بقرائن بنوية (السين + الفعل + الفاعل) "ودخول السين
على الخبر تؤكد وقوعه".⁽⁷⁾

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾

- المعنى الضمني (تنبيه) فعل كلامي غير مباشر ، قوة إنجازية
مستلزمة لا تدل عليها القرائن البنيوية .وهذه الأفعال اقتضتها طبيعة
المرحلة التاريخية التي تكشف جانبا من الصراع في فترة نزول الوحي
، فانعكس ذلك في الخطاب القرآني ، فهو يوجه المؤمنين ويعلمهم
وينبهم إلى طريقة التعامل مع العدو.

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 554 / 2 .

(2) - عبد العزيز عتيق . علم المعاني . ص . 50 .

(3) - الزجاج . معاني القرآن وإعرابه . 191 / 1 .

(4) - الزمخشري . الكشاف . 198 / 1 .

(5) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 554 / 2 .

(6) - الألوسي . مرجع سابق . 554/2 .

(7) - محمود نحلة . علم المعاني . ص 46

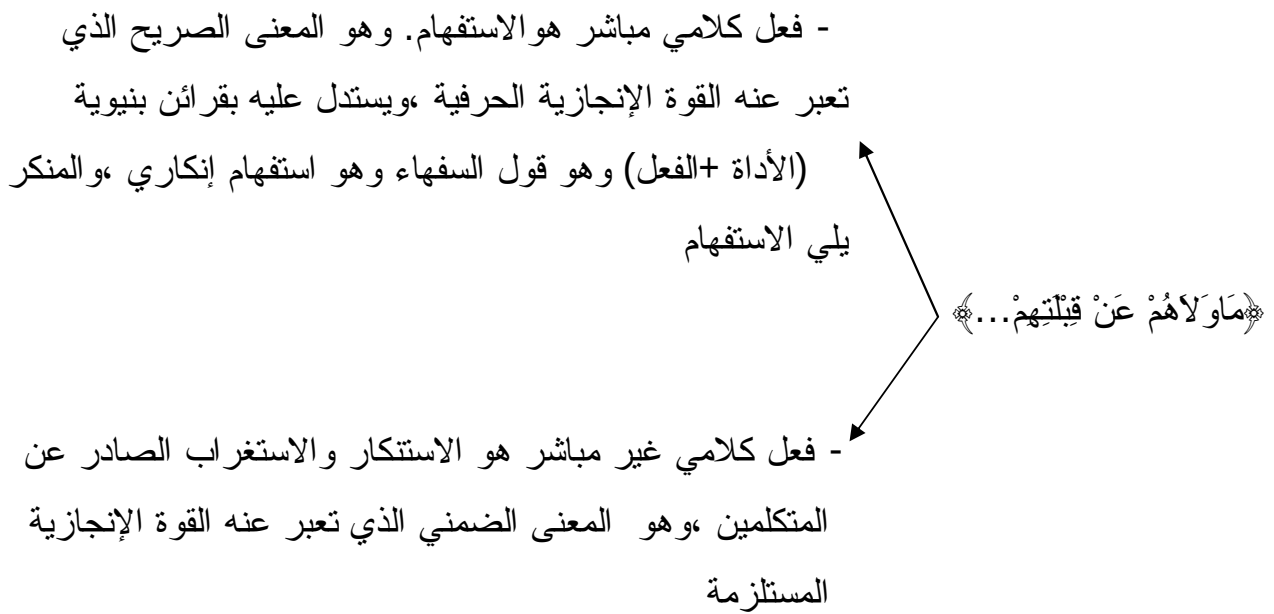
- ولتعديل القوة الإنجازية عمد السياق القرآني إلى تلطيف الخطاب المتوقع للتخفيف من تأثيره بقوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ فليعلم المؤمنون أن الخطاب صادر من سفهاء فلا يعتد به ، وهذا من قبيل تهيئة النفوس لما يتوقع من السوء . وفي ذلك استيفاء لقواني الخطاب التي اقترحها غرايس وهي :
- 1- قانون الإخبارية : وهو شرط يخضع له كل تلفظ يكون الهدف منه إخبار المخاطبين أن يقول المتكلم ما لا يعرفه المخاطب ، فالله عز وجل أخبر بما لا يعرفه المخاطبون ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾
 - 2- قانون الشمول : وهي أن يعطي المتكلم المعلومات الأكثر إفادة في الموضوع مع عدم السكوت أو إخفاء نصيب من المعلومات . والسياق في هذه الآية أفاد في الموضوع مع مزيد من الإعلام بل قدم ما يقع قبل وقوعه معبرا بصيغة (سيقول).
 - 3- قانون الصدق : ويتمثل في قول المتكلم للحقيقة فالسياق أخبر عن وقائع حقيقية ، أو متحققة الوقوع والخبر القرآني لا يتخلف ، ولأنه لم يخبر بالمستحيل .
 - 4- قانون الإفادة : فالمتكلم تكلم فيما يفيد المخاطبين أو يهتمهم الكلام فيه لأن في الأمر صلاح دينهم ودنياهم⁽¹⁾
- ويضيف ديكرز قوانين أخرى مثل قانون الاقتصاد وقانون التلطيف وقانون التسلسل . فقانون الاقتصاد تحقق في هذه الآية بشكل واضح حين أنجز بالصيغة الحرفية أكثر مما يقوله .
- أما قانون التلطيف فقد عبر عنه بوصف القائلين بالسفهاء (سيقول السفهاء) وهم خفاف العقول تهوينا لشأنهم ، وتهيئة للنفوس حتى لا تتأثر بالصدمة .
- وأما قانون التسلسل ، فهو التسلسل الاستدلالي ، فكون الخطاب المتوقع صادرا عن قوم سفهاء يقتضي عدم الخوف ، فالمطلوب هو استقبال القبلية الجديدة دون اعتبار لأقوال الناس .
- ويضيف مانغينو قانون الملازمة وهو القانون الذي عمل الباحثان ولسن وسبربر على تطويره وجعله في ثلاثة قواعد معدلة عن قوانين غرايس وهي :
- 1- قاعدة الإخبارية : وهي تنص على أن المفترض في كل نشاط كلامي أن يكون هادفا وحاملا لفائدة إلى المخاطب ، وألا يكون هذا المخاطب على علم بمحتوى الخبر المنقول إلا عندما يكون للمتكلم قصد حجاجي خاص . وهذا الوصف مجرد صيغة معدلة لمبدأ التعاون .⁽²⁾ وهو الذي تحقق في السياق القرآني ، فهو هادف وحامل لفائدة وذلك لتحقيق مصلحة المخاطبين بأن يجعل الله لهم قبلية خاصة وهؤلاء المخاطبين لم يكونوا على علم بمحتوى الخبر المنقول .

(1) - ينظر : محمود طلحة . تداولية الخطاب السردية
(2) - ينظر : طه عبد الرحمن . اللسان والميزان 238.

2- قاعدة الفائدة القصوى : فهي تلزم المتكلم بان يقدم للمخاطبين جميع المعلومات المتصلة بالموضوع وهذا صيغة معدلة لمبدأ (الكم)⁽¹⁾. فالسياق القرآني قدم جميع المعلومات. وزاد عليها ما سيقع لاحقاً كل ذلك بصيغة وجيزة ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ .

3- قاعدة الجدية : وهي قاعدة حوارية تلزم المتكلم بالتزام الجدية والصراحة فيما يقوله.⁽²⁾ وهذه صيغة معدلة لمبدأ (الكيف)⁽³⁾.

الاستفهام / الاستنكار : وهذا الفعل وارد في قوله تعالى : فقد ذكر قوله بصيغة الاستفهام ، وهم مستغربون كيف يتوجه الرسول(ص) إلى غير الجهتين المعروفتين ويتخلى عن القبلة التي كان عليها . ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي فيما يلي:



فقد عاب اليهود وأعاونهم على المسلمين استقبال الكعبة ، وقالوا: ﴿مَآوِلَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ...﴾ قالوا ذلك استهزاء وتعجبا، ثم قالوا : "اشتاق محمد إلى مولده. وعن قريب يرجع إلى دينكم."⁽⁴⁾ "وأسلوب الاستفهام في القرآن لا يستعمل في معناه الحقيقي ، إلا إذا كان حكاية لأقوال الآخرين ، مثل قوله تعالى على لسان عيسى: ﴿مَنْ أَضَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف14] ويستعمل في غير ذلك في معان مجازية، تصور المشاعر وتثير الانفعالات النفسية."⁽⁵⁾ وعن كيفية انتقال العبارة من القوة الإنجازية الحرفية إلى القوة الإنجازية المستلزمة ، يقول أحمد المتوكل : "إن القوة الانجازية التي يمكن أن تواكب العبارات اللغوية قوتان : الأولى قوة

(1) - بنعيسى ازايبط . نظرية الكم الخطابي (ضمن التداوليات) . ص . 192 .

(2) - ينظر : العياشي ادراوي . الاستلزام الحوارية في التداول اللساني . ص . 114 .

(3) - ينظر : عبد السلام عشير . حينما نتواصل نغير . ص 165 .

(4) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 100/2 .

(5) - أحمد علي عبد العزيز . من بلاغة القرآن . ص 67 .

إنجازية حرفية ، والثانية قوة إنجازية مستلزمة ، وتظل القوة الإنجازية الحرفية ملازمة للعبارة ، أما القوة الإنجازية المستلزمة فهي مربوطة مقاميا ، بحيث لا يتم تولدها إلا في طبقات مقامية معينة ، والقوة المستلزمة يتوصل إليها عبر عمليات ذهنية استدلالية. (1)

وانطلاقا من هذا ، فإن العبارة الاستفهامية قد انتقلت من القوة الإنجازية الحرفية ، بخرق المتكلم لشروط التعاون الحوارى ، فالاستفهام في هذه الآية تخلف فيه عنصر الإرادة ، فالسائل لا يقصد السؤال إنما يقصد التعبير عن مشاعر الاستغراب، والاستتكار من تحول المسلمين عن قبلتهم الأولى في بيت المقدس وتظل القوة الإنجازية الحرفية ملازمة للعبارة ، فاستفهام اليهود عن تولي القبلة يبقى ملازما للعبارة مهما تحولت دلالاتها . ولتعديل القوة الإنجازية للاستفهام الإنكاري أضاف السياق القبلة إلى المسلمين (قبلتهم) تقوية لداعي الإنكار، كما يتأكد المنطوق الإنجازي بوصف القبلة بالاسم الموصول (التي كانوا عليها) ، ومدار هذا الإنكار بالنسبة إلى اليهود ، زعمهم استحالة النسخ وكرهتهم مخالفته (ص) لهم في القبلة حتى إنهم قالوا: "ارجع إلى قبلتنا ننبعك ونؤمن بك" (2). "وإن منطوقات الأفعال الإنجازية تعبر عن أغراض متعددة ويمكن للغرض الإنجازي أن يقدم في درجات مختلفة ، ثم تحديد استراتيجيتين تتحكمان في قوة الإنجاز هما : التقوية والإضعاف . فالتقوية تهدف عن طريق استخدام بعض الوسائل إلى زيادة قوة المنطوق أو تعزيزها ، أما الإضعاف فيهدف إلى تخفيف قوة المنطوق أو إضعافها. (3) أما التقوية فتكون بالوسائل المذكورة ، أما الإضعاف فقد ذكرناه في قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ إن هذه القوة تساهم في "جعل المنطوقات مناسبة وناجحة إنجازيا. (4)

الأمر : ورد الفعل الكلامي الأمري في قوله تعالى : ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ . فالخطاب للرسول (ص) قال الزجاج : "ومعناه حيث أمر الله أن يصلي ويتعبد فهو له وعالم به وهو فيه ". (5) وقد تقدم الكلام في مثله . والآية تتضمن الجواب عن سؤال السفهاء قال الرازي : "هذا هو الجواب الأول عن تلك الشبهة وتقديره أن الجهات كلها لله ملكا له ، فلا يستحق شيء منها أن يكون قبلة بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة ... فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى جهة أخرى ". (6)

(1) - أحمد المتوكل . أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي . ص 21 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 554 / 2 .

(3) - الصراف . مرجع سابق . ص 273 .

(4) - محمد العبد . تعديل القوة الإنجازية (ضمن التداوليات) . ص 307 .

(5) - الزجاج . معاني القرآن . 191/1 .

(6) - الرازي . مرجع سابق . 102 / 2 .

ومن المعاني الضمنية التي اشتملت عليها الآية ما يلي :

1- التخصيص : أي أن الله عز وجل خص المسلمين بتلك القبلة الجديدة وعبر عن ذلك في قوله

تعالى : ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾⁽¹⁾.

2- التعليل : "أي علل جواز النسخ بكونه تعالى مالكا للشرق والمغرب "⁽²⁾ . والمراد به نسخ القبلة .

3- التعليم : الأمر موجه للرسول (ص) "وفيه تعليم له (ص) كيف يبطل مقالتهم ،ويرد عليهم إنكارهم"⁽³⁾

- **الخبر :** فعل كلامي مباشر وارد في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ وتشمل الجملة الخبرية على معنى الاعتراض ،والخطاب موجه إلى الصحابة ويحمل مزايا كثيرة يعبر عنها المعنى الضمني وهي مجموعة أفعال كلامية متضمنة في القول .⁽⁴⁾

1- المدح : فالجملة : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ استطراد لمدح المؤمنين .

2- التأكيد : الجملة السابقة تعبر عن فعل التأكيد لرد الإنكار السابق .

3- الاختصاص : أي اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم في قوله ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

4- الإثبات : أي إثبات شهادتهم على الأمم ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

ويلاحظ أنه ورد في الجواب مزايا كثيرة للصحابة مما أنعم الله به عليهم من نعمه الكثيرة فاقترضى هذا المقام إيراد مجموعة من الأفعال الكلامية المعبرة عن هذه المنزلة وما خصهم الله به من قرب فكانت الأفعال الكلامية الضمنية منها والصريحة .

الاختبار : فعل كلامي مباشر دلت عليه الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ فالغرض من تحويل القبلة هو الامتحان والابتلاء لتمييز المؤمنين من المرتدين . وقد صرح السياق بهذا الغرض بقوله ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾.

الجواب : الفعل الكلامي الذي دلت عليه العبارة الخبرية هو الجواب عن سؤال السفهاء بقولهم : ﴿مَا وَلَاَهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ﴾ فجاء الجواب الأول ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وهنا الجواب الثاني وهو :

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ...﴾ "ففي الجواب بيان لحكمة التحويل"⁽⁵⁾ وجعل القبلة . والمعنى وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء .

التوكيد : وجاء فعل التوكيد في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الدِّينِ هَدَى اللَّهُ﴾ قال الزجاج :

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 555 .

(2) - الرازي . المرجع السابق . 2 / 103 .

(3) - أبو حيان الأندلسي . البحر المحيط . 2 / 10 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 557 .

(5) - الألوسي . مرجع سابق 2 / 559 .

" إذا جاءت (إن) و(اللام) فمعناه التوكيد للقصة." (1) ومعنى كبيرة أي " شاقة صعبة ووجه صعوبتها أن ذلك مخالف للعادة . لأن من ألف شيئاً ثم انتقل عنه صعب عليه الانتقال." (2)

المدح / التخصيص : الفعل الكلامي غير المباشر هو المدح للمؤمنين ، وتخصيصهم بالهداية ، ودلت عليه الآية ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ "فإنه تعالى ذكرهم على طريق المدح فخصهم بذلك". (3) وفيه تركية من الله سبحانه للصحابه بالهداية .

الاستمالة : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه العبارة في قوله تعالى : ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ أي ليعلم رسولنا و المؤمنون ، و أسند علمه إلى ذاته لأنهم خواصه و أهل الزلفى لديه ؛ أي لنميز التابع من الناكص و ليس المعنى لنحدث العلم و إنما المعنى لنعلم ذلك موجودا إذ الله قد علم في القديم من يتبع الرسول (ص) (4) فالأشكال إذن واقع في لفظ (لنعلم) و لكن الله يعلم من يتبع و من يرتد و قد أرجع الإمام الرازي ذلك إلى التأدب في التعبير الذي اختاره المولى عز و جل لتخفيف درجة الشدة للغرض الإنجازي للفعل الكلامي، فقال : أي ﴿إِلَّا لَتَعْلَمُوا﴾ والغرض من هذا الجنس من الكلام: الاستمالة و ترفق في الخطاب وهو مثل قوله ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ [سبأ34] فأضاف الكلام الموهوم لشك إلى نفسه ترفيقاً للخطاب ، ورفقا بالمخاطب . (5)

قواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التخاطب:

التأدب مبدأ تداولي ينبني عليه التخاطب ، بحيث ينبغي أن يلتزم المتخاطبان بضوابط التهذيب لتحقيق التواصل . ولقد فرعت (روبين لآكون) على مبدأ التأدب القواعد التهذيبية الثلاثة وهي (6) :

1- قاعدة التعفف ومقتضاها : لا تفرض نفسك على المخاطب .

2- قاعدة التشكيك ومقتضاها : لتجعل المخاطب يختار لنفسه .

3- قاعدة التودد ومقتضاها : لتظهر الود للمخاطب .

إن المبدأ التأدبي يهدف إلى تحقيق التهذيب في التخاطب .

فالخطاب القرآني في الآية السابقة يهدف إلى استمالة قلوب المسلمين وإظهار الرفق بهم باستخدام المبدأ التداولي (التأدب) لتحقيق التواصل . ولا يخفى ما في ترفيق الخطاب من تخفيف درجة الشدة للغرض الإنجازي ، فبهذا يكون التهذيب مرادفا للترفق .

(1) - الزجاج . مرجع سابق . 1 / 193 .

(2) - أبو حيان . البحر المحيط مرجع سابق . 2 م 18 .

(3) - الرازي . التفسير مرجع سابق . 2 / 117 .

(4) - ينظر : أبو حيان . المرجع نفسه . 15/1

(5) - ينظر : الرازي . المرجع نفسه . 115/2

(6) - طه عبد الرحمن - اللسان والميزان ص240

التلطف و التأدب عند الماوردي :

من أعلام التراث العربي الرواد في هذا الحقل أشار أبو الحسن الماوردي (ت450هـ) إلى مبادئ التخاطب المذكورة خاصة التأدب والتهذيب وحسن اختيار اللفظ وآداب الكلام وكف اللسان عن الأعراض واللين واللفظ بحسب المقاصد ،ومراعاة حال المخاطب وقد جاء في بعض أقواله : "ومن آدابه أن يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه . فان كان ترغيباً قرنه باللين واللفظ وإن كان ترهيباً خلطه بالخشونة والعنف." (1) ويقول كذلك : "تتكب اللفظ المبتذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصي . ولا ينبو عن فهمه عامي." (2) فالوعي بهذه الأساليب يحقق التواصل والإقناع والتودد ومن ثم يتحقق التعاون الحواري .

الذم (بالاستعارة) : في قوله تعالى : ﴿يَقْلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ أي العودة إلى الكفر ، وفيه بيان للحكمة من تحويل القبلية وذلك إمتحان للناس وابتلاء للنظر من يتبع الرسول، ومن لا يتبعه. وذهب السكاكي إلى أن "الاستعارة تعني نقل معنى معين إلى معنى ثاني لعلاقة مشابهة بين معنيين نقلاً قائماً على الدعوى ببيئة" (3) . ولتوضيح العلاقة بين الاستعارة والفعل الكلامي نلاحظ تعريفه للاستعارة : "هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به" (4) ففي قوله تعالى : ﴿يَقْلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ "كناية عن الرجوع عما كان في من إيمان ، والرجوع على العقب أسوء أحوال الراجع ، ولذلك شبه المرتد في الدين به" (5)

المعنى الصريح : هو الرجوع الى المكان الذي خرج منه وهذا (إنقلاب حقيقي) هو المشبه به (وهو معنى غير مقصود) .

﴿يَقْلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾

المعنى الضمني : هو العودة إلى الكفر (الردة) إنقلاب معنوي (مشبه) وهو المعنى المقصود على سبيل "الاستعارة التمثيلية بجامع أن المتقلب يترك ما في يديه من الدلائل" (6)

(1) - أبو الحسن الماوردي . أدب الدنيا والدين . ص . 210 . ص . 243 . طبعة جديدة . 2012 . دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت لبنان .

(2) - المرجع نفسه . ص . 208 .

(3) - السكاكي . المفتاح . ص . 374 .

(4) - السكاكي . نفسه . ص . 369 .

(5) - أبو حيان . مرجع سابق . 17 / 2 .

(6) - الألويسي . مرجع سابق . 2 / 558 .

وتجسد الاستعارة مثالا جوهريا لاستعمال اللغة ،"إذ يدرك بها عادة معنى مقصودا يقع وراء البنية المنجزة الحرفية للملفوظ ، وهو المعنى الأساسي غير المباشر الذي سعى المتكلم لإيصاله ،ومن ثم تكون الاستعارة وسيلة رئيسية ، ومهمة من الوسائل المستخدمة في إنجاز الأفعال غير المباشرة."⁽¹⁾ ففي العبارة الاستعارية (ينقلب على عقبيه) نجد الانقلاب على العقب لا يدل على الانقلاب على العقاب المعروف بمعنى الرجوع ، إلى الوراء بل على الرجوع إلى الكفر (فالأول إنقلاب حقيقي ، والثاني إنقلاب معنوي). وهو ما تدل عليه السمات الدلالية للوحدتين المعجميتين (انقلاب / عقبيه) فالتكلم عندما يتلفظ بالمنطوق الاستعاري (ينقلب على عقبيه) يريد تمييز التابع من الناكص.⁽²⁾ وذن المرتدين والعائدين إلى الكفر بسبب تحويل القبلية . وهنا لا يتم التعامل مع المعنى الحرفي للوحدات المعجمية ، بل مع عناصر من الدلالية لهذه الوحدات ليسم بها من يرتد على عقبيه مفترضا أن المتلقي يعتقد أن سمات المنقلب : (نكوص ، رجوع ، كفر ، ردة ... الخ) وهي السمات السلبية والتي تقابل سمات وحدات العبارة الجميلة (من يتبع الرسول) ومن ثم يتم إنجاز فعل الذم أو التمييز (العلم) بصورة غير مباشرة حيث يُعلم : ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ وبذلك تكون مراحل الإنجاز كالتالي :⁽³⁾

- 1- أن المتكلم يحترم ويراعي الشروط الإنجازية ، ومنها ما يتعلق بالمبادئ الحوارية التي تقتضي وصول المعنى بالصورة الصحيحة والمنطقية .
- 2- أن المتكلم بإنجازه لهذا الفعل خرق ظاهريا بعض المبادئ الحوارية ، ولا سيما الجانب المتعلق بالصدق حيث لابد أن تكون العبارات صادقة (قاصدا المعنى المجازي) فبذلك يكون محترما للشروط الإنجازية غير خارق لها .
- 3- باحترام المتكلم للشروط يستنتج المتلقي أن المتكلم يقصد معنى آخر غير المعنى الحرفي .
- 4- يبحث المتلقي استنادا إلى القرائن السياقية وقدرته الاستدلالية عن المعاني الممكنة للوحدات (ينقلب / عقبيه) التي تشير إلى الذم باعتبارها سمات ذميمة .
- 5- يفهم المتلقي الفعل الإنجازي بالانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى غير المباشر .

(1) - علي محمود الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 150 .

(2) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 13 - 17 .

(3) - ينظر : الصراف . المرجع نفسه . ص 151 .

النفي : في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ "يريد من كان صلى إلى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة إلى بيت الله الحرام بمكة فصلاته غير ضائعة وثوابه قائم." (1) فنفي ضياع ثواب من صلى إلى القبلة المنسوخة "والنفي مع لام الجحود أبلغ" (2)

- وهناك فعل كلامي متضمن في القول عبرت عنه الصيغة الكنائية (ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم وقال الرازي : أنها استعارة "استعارة في إطلاق اسم الإيمان على الصلاة." (3)

ويمكن توضيحه فيما يلي:

العبارة الكنائية

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾
- الصلاة : معنى كنائي، كنى عن الصلاة بالإيمان ، معنى غير مباشر هو المقصود.

التأكيد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه جملة التذييل ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لِرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وهو تذييل لجميع ما تقدم في الآية ، والجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها؛ أي للطف رأفته وسعة رحمته نقلكم من شرع إلى شرع ، وقد بولغ في إثبات الجملة الخاتمة (بأن) و(باللام) وبالوزن على (فعل وفعل) كل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وكثرة الرأفة وتأخر الوصف بالرحمة لكونه فاصلة (4) وبهذه الجملة حقق المتكلم كلامه المتقدم المتقدم التام "بجملة زائدة عن أصل كلامه وتلك الجملة يؤتى بها للتأكيد والتحقيق." (5) ولتقوية إنجازية هذا الفعل الكلامي اعتنى السياق باستخدام لفظتي (الرأفة والرحمة) فإن "الرأفة مبالغة في رحمة خاصة ؛ وهي دفع المكروه وإزالة الضرر ، وأما الرحمة فهو اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ، ويدخل فيه الإفضال والإنعام." (6) فذكر الرأفة أولاً ثم الرحمة . وقال القرطبي : "الرأفة أشد من الرحمة." (7) ، وقال الألويسي : "اتصافه تعالى بهذين الوصفين (رؤوف - رحيم) يقتضي لا محالة أن الله لا يضيع أجورهم ، ولا يدع ما فيه صلاحهم." (8)

(1) - الزجاج . معاني القرآن . ص . 193 .

(2) - أبو حيان . مرجع سابق . 20 / 2 .

(3) - الرازي . مرجع سابق . 119 / 2 .

(4) - أبو حيان . مرجع نفسه . 21 / 2 .

(5) - إنعام عكاوي . المعجم المفصل في علوم البلاغة . ص 300 .

(6) - الرازي . مرجع نفسه . 119 / 2 .

(7) - القرطبي . الجامع لحكام القرآن . 107 / 2 .

(8) - الألويسي . مرجع سابق . 560 / 2 .

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ^(١) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهاً
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٨﴾

الخطاب مختص بعلماء أهل الكتاب، والضمير في (يعرفونه) عائد إلى الرسول (ص) فإنه تعالى وصفهم بأنهم يعرفون أبناءهم ، والجمع العظيم الذين علموا شيئاً استحال عليهم الاتفاق على كتمانهم في العادة. فعند عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله فقال: أنا أعلم به مني بإبني^(١). وقد عرضت هذه الآيات في ترتيب كترتيب الخطب ، بذكر مقدمة ومقصد وبيان له وتعليل وتذييل ومن ثم فقد جاءت الأفعال الكلامية مسابرة لهذا الترتيب وجاءت موزعة بحسب ما يقتضيه المقام . فمعظم الأفعال الكلامية غير مباشرة وهي تنطلق من بنية خبرية ذات قوة إنجازية حرفية ملازمة لتحولات الطلب . أما الأفعال المتضمنة في القول فهي في صورة معان مجازية ضمنية متداخلة تنشع من بنية الجملة وسياقاتها المختلفة ، ومقاصد المتكلم.^(٢) فنجد منها : النهي والتحذير والأمر والتنبيه والذم والتفخيم والوعد والوعيد والترغيب والترهيب والتأكيد والاعتراض .

ومراد المتكلم حمل المخاطبين على القيام بالفعل أو الإقرار به، أو تنبيههم أو تحذيرهم من عواقب الفعل وقدم المتكلم وهو الله عز وجل جملة من التوجيهات لإحداث التغيير عند المكلفين مؤكداً على الأقوال ، ومدعماً لإنجازية الأفعال ، وملتزمًا بشروط الملاءمة لتحقيق نجاح الأفعال من شرط المحتوى القضوي وهو فعل في المستقبل.^(٣) مطلوب من المخاطبين بالتزام القبلة المعينة وعدم الشك في الحق وكذلك الأمر باستباق الخيرات . والشرط التمهيدي يبين أن المخاطب قادر على إنجاز تلك التوجيهات مع إرادة المتكلم التأثير في المخاطب لينجز الفعل.^(٤) ومن مفترضات القوة المتضمنة في القول أن الأفعال الموعود بوقوعها هي أمور في صالح المخاطبين . فالتوجه إلى القبلة ، والمسارة إلى الخيرات يحققان للمكلفين الثواب في الآخرة ، ومن ثم يتحقق إنجاز الأفعال بالأقوال .

التفخيم / الإفحام : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الجملة اعتراضية وهي

اعتراض استطراد بمناسبة ذكر مطاعن أهل الكتاب في القبلة . فإن طعنهم كان عن مكابرة مع علمهم بأن القبلة الإسلامية حق . فاستطرد بأن طعنهم في القبلة ما هو إلا من مجموع طعنهم في الإسلام وفي

(١) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 2 / 142 .

(٢) -

(٣)

(٤) - ينظر : جورج يول . ترجمة . قصي العتاي . مرجع سابق . ص 88 .

Voir : Austin , How to do things the words . p 16 .

- Voir : John Searle , Speech acts . p 58 .

النبي (ص).⁽¹⁾ وفي وصف الرسول (ص) استعمل دلالة التفخيم إشعاراً بأنه لشهرته معلوم بغير إعلام ، وجاز الإضمار للرسول (ص) وإن لم يسبق له ذكر ، لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السمع.⁽²⁾ فقال (يعرفونه) فقد أخبر المؤمنين بحاله عليه الصلاة والسلام بأن علماء أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم "كما هو مسطور عندهم بالنعوت التي تستلزم إفخامهم ومن جملتها أنه يصلي إلى القبلتين فلا اشتباه فيه"⁽³⁾. ودعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي بالتشبيه فقد شبه معرفتهم به ، بمعرفتهم بأبنائهم (كما يعرفون أبناءهم) كما دعم القوة الإنجازية بالعدول . فقد عدل عن أن يقال يعلمونه إلى (يعرفونه) "لأن المعرفة تتعلق غالباً بالذوات ، والأمور المحسوسة ولهذا يوصف الله تعالى بصفة المعرفة والمعنى : يعرفون صفات الرسول (ص) وعلاماته المذكورة في كتبهم ويعرفون الحق كالشيء المشاهد"⁽⁴⁾.

الذم : فعل كلامي غير مباشر هو الذم . وقد دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : (وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) فالقوة الإنجازية الحرفية هي الإخبار عن هذا الفريق من أهل الكتاب "أنهم يكتمون الحق وهم عالمون به".⁽⁵⁾ أما القوة الإنجازية المستلزمة فهي الذم وهو الفعل الكلامي الذي تضمنته الجملة . ودل عليه قوله تعالى : (وهم يعلمون) أي يكتمون الحق الذي يعرفونه مع علمهم به فافتضى المقام فعل الذم .

النهي / التحذير / الأمر :

هذه مجموعة من الأفعال الكلامية غير المباشرة تضمنتها الآية في قوله تعالى : (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) . "الخطاب للرسول (ص) والمراد أمته"⁽⁶⁾ والمقصود من خطاب النبي (فلاتكونن) تحذير الأمة . وهذه عادة القرآن في كل تحذير مهم . وتتضمن العبارة النهي عن الامتراء . فقد نهى أن يكون منهم ، والنهي عن كونه منهم أبلغ فهذا من الإنشاءات الأولية فهو أبلغ من النهي عن نفس الفعل وهو من الإنشاءات الصريحة ؛ " فقولك لا تكن ظالماً أبلغ من قولك لا تظلم ؛ لأن لا تظلم نهى عن الالتباس بالظلم . وقولك لا تكن ظالماً نهى عن الكون بهذه الصفة ... ولذلك كثر النهي عن الكون."⁽⁷⁾ في كثير من الآيات . فالإنشاءات الأولية ليست في نفس القوة الإنجازية للإنشاءات الصريحة ، ولتعديل القوة الإنجازية لفعل النهي أكدته بنون التوكيد

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . 40 / 2 .

(2) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 142 / 2 .

(3) - الألوسي . مرجع سابق . 566 / 2 .

(4) - الطاهر ابن عاشور . مرجع نفسه . 40 / 2 .

(5) - أبو حيان . البحر المحيط . 34 / 2 .

(6) - القرطبي . الجامع . 110 / 2 .

(7) - أبو حيان الأندلسي . مرجع نفسه . 35 / 2 .

مبالغة في النهي بقوله : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ والمعنى فلا تكونن من الذين يشكون في الحق ؛ لأن ما جاء من الله تعالى لا يمكن أن يقع فيه شك .⁽¹⁾ وأظهر الحق ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ تقريراً لحقيقته ، ولما تقرر الحق وأنه من ربك اقتضى المقام حضور الفعل الكلامي النهي والتحذير والأمر بالاتباع . ولكن " ليس المراد نهى الرسول (ص) ؛ لأن النهي يقتضي وقوع الشيء أو ترقبه ، بل المراد : إما تحقيق الأمر ، أو الأمر للأمة بإزالة ما نهى عنه ، فيجعل النهي مجازاً عن ذلك الأمر ."⁽²⁾

الأمر / التنبيه : ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبَيُّوا الْخَيْرَاتِ﴾ الخطاب للمؤمنين يأمرهم الله بالتسابق أي ؛ فالزموا معاشر المسلمين قبلتكم واستبقوا الخيرات بالانقياد لأمر الله ، ولا تلتفتوا إلى مطاعن هؤلاء الذين يقولون (مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ) وظاهر الأمر للوجوب فإذا لم يتحقق فلا أقل من الندب .⁽³⁾ والأمر وارد في قوله : ﴿فَاسْتَبَيُّوا﴾ فهو أمر بالبدار إلى فعل الخير والعمل الصالح "أي بادروا إلى ما أمركم الله به من استقبال البيت الحرام ، وإن كان يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم ."⁽⁴⁾ وفيها تفریع للأمر على ما تقدم أي لما تعددت المقاصد فالمنافسة تكون في مصادفة الحق . "فقد يكون ترهيباً أي في أي جهة يأت الله بكم فيثيب ويعاقب ، أو هو تحريض على المبادرة بالعمل ."⁽⁵⁾ وفي قوله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ معناه : لكل صاحب ملة قبله الله مولياً إياه وهذا الكلام موجه إلى المسلمين . والجملة تذييل جامع لمعان سامية طيا لبساط المجادلة مع اليهود كما يقال في المخاطبات "دع هذا" أي ؛ اتركوا مجادلة أهل الكتاب في أمر القبلة ، وفيه صرف للمسلمين بأن يهتموا بالمقاصد ويعتدوا بإصلاح مجتمعهم .⁽⁶⁾ كما تتضمن الآية فعلاً كلامياً غير مباشر التنبيه اقتضاه المقام ، بعد إقرار الحق وتعيين القبلة جاء فعل **التنبيه** على شكر الله إذ وفق المسلمين إلى اتباع القبلة التي اختارها الله لهم .⁽⁷⁾

الوعد / الوعيد : تتضمن هذه الجملة مجموعة من الأفعال الكلامية غير المباشرة . ﴿أَيُّمًا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ هذه الجملة تتضمن فعلاً كلامياً غير مباشر هو : "الوعظ والتحذير وإظهار لقدرته تعالى ."⁽⁸⁾ كما تتضمن الترغيب والترهيب ، والحث على الاستباق إلى الخيرات ، وبيان حكم الأمر السابق ، وهذه الأفعال الكلامية اقتضاها المقام لتعليل ما قبلها .

(1) - ينظر : أبو حيان الأندلسي . مرجع سابق . 35 / 2 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 568 / 2 .

(3) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 146 / 2 .

(4) - القرطبي . مرجع سابق . 111 / 2 .

(5) - الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 44 / 2 .

(6) - ينظر : نفسه . 42 / 2 .

(7) - ينظر : أبو حيان . مرجع نفسه . 35 / 2 .

(8) - نفسه . 38 / 2 .

ولذلك قال الرازي : " هو وعد لأهل الطاعة ، ووعد لأهل المعصية." (1)

التأكيد : وهو الفعل الكلامي الذي دلت عليه جملة التذييل في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد وصف نفسه بالقدرة على كل شيء ، لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإعادة بعد الموت والبلى (2). والتذييل يؤدي وظيفة التأكيد للمعاني السابقة ، كما يناسب جميع المعاني المذكورة ، وهذا الفعل الكلامي اقتضاه مقام الختام ، وبه انتهت سلسلة الأفعال الكلامية في هذه الآيات.

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْهُ بَعْدَ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٣٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قيل في سبب نزولها : " أن جماعة من الأنصار سألوا نفرا اليهود عما في التوراة من صفات النبي (ص) ومن الأحكام فكتموا" (3). وأبوا أن يخبروهم . فنزلت ، والحكم عام. لأن كتمان الدين يناسبه استحقاق اللعن من الله تعالى ، والكاظمون هم أئمة اليهود : كعب بن الأشرف ، وكعب بن أسد ، وغيرهم. **الإخبار / الزجر :** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا...﴾ "إخبار عن علماء اليهود الذين كتموا ما علموه من صحة أمر النبي (ص)" (4).

إخبار . فعل مباشر . قوة إنجازية حرفية . معنى صريح

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا...﴾

زجر + تنبيه + إثبات . فعل غير مباشر قوة إنجازية مستلزمة .
معنى ضمني .

تدل هذه الآية على أن ما يتصل بالدين ويحتاج إليه المكلف لا يجوز أن يكتم ، ومن كتمه فقد عظمت خطيئته ، والآية موجبة لإظهار علوم الدين تنبيهها للناس ، وزاجرة عن كتمانها . (5) وظاهر الآية استحقاق اللعنة على من كتم ما أنزل الله ، وإن لم يسأل عنه بل يجب التعليم والتنبيه والتوكيد — (إن) لمجرد الاهتمام بهذا الخبر .

(1) - الرازي . مرجع سابق . 2 / 150 .

(2) - ينظر : القرطبي . مرجع نفسه . 2 / 113 .

(3) - الرازي . مرجع سابق . 2 / 179 .

(4) - الزجاج . معاني القرآن وإعرابه . 1 / 204 .

(5) - ينظر : الرازي . مرجع نفسه . 2 / 180 .

ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي (الزجر) استعمل السياق القرآني الظرف (من بعد) الذي يفيد الكتمان إشارة إلى شناعة حالهم بأنهم يكتمون ما وضح للناس ، وإلى عظم الإثم بأنهم يكتمون ما فيه النفع العام . كما أن الآية مسوقة لإثبات نبوة الرسول (ص).⁽¹⁾ واستعمل صيغة المضارع في قوله تعالى: (يكتمون) "للدلالة على أنهم في الحال كاتمون للبينات والهدى ولو وقع بلفظ الماضي لتوهم السامع أن المعني به قوم مضوا ، مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين"⁽²⁾.

الوعيد : ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ...﴾ فيها ذكر الوعيد لكاتم العلم . الواضح البين والله تعالى توعّد على كتمان الدلائل السمعية والعقلية وجمع بين الأمرين في الوعيد . فهذه الآية تبين أن من أمكنه بيان أصول الدين بالدلائل العقلية لمن كان محتاجا إليها ثم تركها أو كتم شيئا من أحكام الشرع مع شدة الحاجة إليه فقد لحقه الوعيد العظيم .⁽³⁾ "واللعنة في اللغة الإبعاد ، وفي عرف الشرع الإبعاد من الثواب."⁽⁴⁾ وجاء بـ(أولئك) اسم الإشارة البعيد تنبيها على ذلك الوصف القديم ، وأبرز الخبر في صورة جملتين توكيدا وتعريفا وتعظيما ، وأتى بالفعل المضارع المقتضي التجدد لتجدد مقتضيه . وأسند الفعل إلى الله لأنه هو المجازي على ما اجترحوه من الذنب ، وأبرز إسم الجلالة (الله) على سبيل الالتفات ولم يقل (يلعنهم) لأنه في إظهار هذا الإسم من الفخامة ما لا يكون في الضمير .⁽⁵⁾ وأعاد الفعل (يلعنهم) ؛ لأنه لعنة اللاعنين بمعنى الدعاء عليهم بالإبعاد عن رحمة الله ، واللاعنون هم كل شيء في الأرض إلا الثقلين الجن والإنس ؛ أي تلعنهم الملائكة والجمادات ، وقيل يلعنهم المؤمنون .
"والتعريف في (اللاعنون) للإستغراق . وهو إستغراق عرفي؛ أي يلعنهم كل لاعن"⁽⁶⁾ . وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يبينوا التوراة ولا يخفوها كما دل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ { وعن ابن عباس : " أن كل ما ذم الله أهل الكتاب عليه ، فالمسلمون محذرون من مثله."⁽⁷⁾

الترغيب / التحفيز : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا...التواب الرحيم﴾ رغيب وتحفيز على التوبة.⁽⁸⁾ التوبة وإشعارا بأن هاتين الصفتين هما له فمن رجع إليه عطف عليه ورحمه.⁽⁹⁾ ومعنى تابوا عن

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 585 .

(2) - الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . 2 / 66 .

(3) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 2 / 181 .

(4) - نفسه . 2 / 182 .

(5) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 2 / 70 .

(6) - الزجاج . مرجع سابق . 1 / 205 .

(7) - ابن عاشور . مرجع نفسه . 2 / 68 .

(8) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 2 / 587 .

(9) - ينظر : أبو حيان . البحر المحيط . 2 / 71 .

الكتمان أي أظهروا وما كتموه ، وبيّنوا الحق من صفة محمد (ص) في التوراة والإنجيل أو اعترفوا بتلبيسهم وزورهم ليمحوا سيئة الكفر عنهم ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون .⁽¹⁾

وعيد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ... ﴾ ويراد به الذين كتموا وعبر عن الكتمان بالكفر نعيًا عليهم به ، ولم تعطف الجملة على ما قبلها إشارة إلى كمال التباين بين الكاتمين والتائبين . والآية مشتملة على الجمع والتفريق ، جمع الكاتمين في حكم واحد هو (ملعونون) ثم فرق فقال تعالى : إلا الذين تابوا وأما الذين ماتوا على الكتمان فقد استقرت عليهم اللعنة ، وهذه الجملة سبقت لبيان أن اللعن باق على غير التائبين . ويدعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي الوعيد بتقييده بعدم التخفيف ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴾ . وعدم الإنظار ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ والإنظار هو التأجيل والتأخير ، وحيء بالجملة الإسمية هنا ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ لدالتها على الثبات والاستقرار .⁽²⁾

قال تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

نزلت هذه الآية لما قالت قريش للنبي (ص) صف لنا ربك ، فنزلت لإثبات دلائل وجود الله تعالى ووحدانيته ، والرد على المشركين ، وتبين أن قوما من الذين يعقلون استدلوا بخلق السموات والأرض على قدرة الله ووحدانيته ، فجاءت الأفعال الكلامية معبرة عن هذه المعاني . فهي تثبت دلائل وجود الله . وتقررها بوضوح وتذكر بآيات العظمة ، وتبين امتنان الله على عباده بما سخر لهم من بدائع خلقه ، ثم هو سبحانه يعرض بالمشركين الذين لا يعقلون ، ويتعجب من القوم الذين لا يهتدون بعد مشاهدة تلك الدلائل . ونوضح هذه الأفعال الكلامية فيما يلي :

الإثبات : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ... ﴾ فالقوة الإنجازية الحرفية للصيغة الخبرية ذات دلالة لغوية مباشرة هي : الإخبار بتبين أن إله الناس إله واحد هو الله الرحمن الرحيم ، وإذا روعي ارتباط هذه الجملة بمقامات إنجازها فإن معناها لا ينحصر

(1) - ينظر : نفسه . 70 / 2 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 587 / 2 .

في ما تدل عليه الصيغة الصورية . إنما تتضمن معان يرمي إليها المتكلم بشكل غير مباشر ومن بينها "إثبات دلائل وجود الله تعالى ووحدانيته، والرد على المشركين." (1) ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي أضاف لفظة (إله) إلى ضمير مخاطبين (إلهكم) باعتبار الاستحقاق لا باعتبار الوقوع ، "و إعادة لفظ (إله) وتوصيفه بالوحدة لإفادة أن المعتبر الوحدة في الألوهية." (2) فقوله تعالى : ﴿وَالْهُكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (إله) خبر المبتدأ . و(واحد) صفة له والغرض هنا هو الصفة إذ لو قال : "والهكم واحد لكان هو المقصود إلا أن في ذكره زيادة تأكيد." (3)

الامتنان: وهو فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ فالصيغة الخبرية تدل على أن ما خلقه الله هو آيات للذين يعقلون . أما المعاني الضمنية التي يعبر عنها المتكلم فهي: الامتنان والتذكير . فهو يذكر عباده ويمتن عليهم بما خلق ، وسخر لهم من خلق السموات والأرض، ومن اختلاف الليل والنهار، وجريان الفلك وإنزال المطر، وإحياء الأرض، وتصريف الرياح، وتحريك السحب . فقد قرر الله في هذه الآية دلائل كلها واضحة تبين تفضل الله على عباده وتذكرهم بنعمه عليهم . "وروي أنه لما نزلت ﴿وَالْهُكْمُ...﴾ قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ؟ فنزل : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾." (4) ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي (الامتنان) استخدم السياق القرآني التعبير عن حركة الليل والنهار ، وما بينهما من ضياء وظلمة بلفظة (اختلاف) وفي هذا الاختيار سر بديع يدركه العقلاء ، وفي قوله تعالى : وما أنزل الله معطوف على الأسماء قبله جيء به إسم موصول ليأتي عطف صلة على صلة فتبقى الجملة بمقصد العبرة والنعمة ؛ لأن في الصلة من استحضار الحالة ما ليس في نحو كلمة المطر والغيث ، وكذلك في إسناد الإنزال إلى الله ؛ لأنه الذي أوجد أسباب نزول الماء ، وأما كلمة (كل) فقد دلت على أن المراد جميع أنواع الدواب ، فانتهى أن يراد من الدابة خصوص ذوات الأربع ، وقد أختير لفظ (تصريف) الرياح دون لفظ التبديل أو الاختلاف مثلا لأنه اللفظ الذي يصلح معناه لوصف حال الرياح لأن (التصريف) تفعيل من الصرف للمبالغة. (5) وفي كل هذه المؤشرات تقوية لإنجازية الفعل الكلامي ، وتبليغ هذه المضامين وما فيها من عبرة ومنة .

حجاجة الفعل الكلامي : إن الترتيب الذي عرضت به دلائل الألوهية تثير الفكر، والتنبيه على مافيه

النفع ، فالبدء بالعالم العلوي ، ثم الانتقال إلى العالم السفلي ، ثم ذكر ما بينهما وما ينتج عنهما ، وهذه

الدلائل لا تتفع إلا في من يتفكر فيها ، قال أبو حيان : "فانظر إلى هذا الترتيب الغريب في الذكر حيث

(1) - ابن عاشور . التحرير والتنوير . 2 / 77 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 589 .

(3) - العكبري . التبيان في إعراب القرآن . 1 / 116 .

(4) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 77 .

(5) - ينظر : ابن عاشور . مرجع نفسه . 2 / 82 .

بدأ أولاً باختراع السماوات والأرض ، ثم تلى بذكر ما نشأ عن العالم العلوي ، ثم أتى ثالثاً بذكر عن العالم السفلي ، ثم أتى بالمشترك ، ثم أتى بما لا تتم النعمة للإنسان إلا به وهو التصريف وهذه الآيات ذكرها على قسمين : قسم مدرك بالبصائر ، وقسم مدرك بالأبصار⁽¹⁾ وكل ذلك يستدل عليه بالعقول.

التعريض : وهو فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ "قالمعنى أن في ذلك آيات للذين سجيتهم العقل ، وهو: تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بالآيات ليست عقولهم براسخة ولا هي ملكات لهم."⁽²⁾ وقال الألوسي : "إن الرسول (ص) لما قرأ هذه الآية قال : ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها ، وفيها تعريض بجعل المشركين الذين سألوا النبي آية تصدقه ، وتسجيل عليهم بسخافة العقول ، وإلا فالمتأمل يدرك وجوده ووحدانيته تعالى."⁽³⁾ فقد قرر الله في هذه الآيات دلائل الوجدانية وبدائع خلق الله من أصناف المخلوقات وهى مع وضوحها تشتمل على أسرار يتفاوت الناس في دركها حتى يتناول كل صنف من العقلاء مقدار الأدلة منها على قدر قرائحهم وعلومهم... وإن من كان أكثر توغلا في بحار المخلوقات كان أكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته."⁽⁴⁾

قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي أَنَّ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٧﴾﴾

التعجيب : فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ فالقوة الإنجازية الحرفية للصيغة الخبرية تبين أن قوما لم يهتدوا مع قيام الدلائل الواضحة ، واتخذوا لأنفسهم شركاء . ووراء القوة الإنجازية الحرفية قوة إنجازية مستلزمة مدركة مقاميا هي التعجيب من هؤلاء الذين يتخذون من دون الله أندادا . مع قيام تلك الدلائل الواضحة . "وعطفه على ذكر دلائل الوجدانية وتقديم الخبر ، وكون الخبر من الناس مؤذن بأنه تعجب من شأنهم ، فكيف يسوون بين الله والأنداد في محبتهم ، ومن ثم فهو ينكر محبتهم الأنداد من

(1) - أبو حيان . مرجع سابق . 84 / 2 .

(2) - المرجع نفسه . 82 / 2 .

(3) - الألوسي . مرجع سابق . 590 / 2 .

(4) - ابن عاشور . مرجع سابق . 77 / 2 .

أصلها " (1) وجملة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ معترضة والغرض منها : التتويه بشأن الذين آمنوا بأن حبهم لله صار أشد من حبهم الأنداد التي كانوا يعبدونها . (2)

التهويل / الوعيد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ...﴾ والخطاب للرسول (ص) يخبره المولى عز وجل عن قدر ما يشاهده الكفار ويعانون من العذاب يوم القيامة . (3) ووراء هذا الخبر قوة إنجازية ضمنية هي ما تدل عليه الآية من وعيد وتهويل الخطب ، وتفضيع الأمر فالآية بمعنى أن الذين ظلموا عاينوا العذاب المعد لهم وأبصروه يوم القيامة ، وقد بالغ في ذلك التهويل بذكر الجملة الثانية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ .

تعديل القوة الإنجازية : لتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي (التهويل) استعمل السياق الحذف في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ فحذف جواب لو . وهذا كثير في القرآن والتقدير : (ولو يرى الذين ظلموا شدة عذاب الله وقوته لما اتخذوا من دونه أندادا). وهذا الحذف أفخم وأعظم لأن على هذا التقدير يذهب خاطر المخاطب إلى كل ضرب من الوعيد ، ومنها أيضا أنه أورد صيغة المستقبل بعد لو (ولو يرى) والأداة إذ (إذ يرى) المختصين بالماضي لتحقيق مدلوله ، فيكون ماضيا تأويلا مستقبلا تحقيقا . (4)

الإخبار/الزجر : فعل كلامي وارد في قوله تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا...﴾ أي تبرأ الأتباع وانفصلوا عن متبوعيهم وندموا على عبادتهم ، وأنهم حين صاروا أحوج إليهم تبرأوا منهم ؛ لأنهم تبرأوا في حال رؤية العذاب ، ودلت على ذلك (واو الحال) في قوله تعالى : ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ . وفي الجملة الثانية ﴿وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ إفادة تكثير أسباب التهويل . (5) وفيها "كناية عن أن لا منجى لهم من العذاب ، ولا مخلص ولا تعلق بشيء يخلص من عذاب الله" . (6) وهو فعل كلامي غير مباشر دلت عليه صيغة الإخبار . إذ هو يعبر عن اليأس الذي حصل للظالمين ، ومن ثم فهو يزجر كل ظالم عن ظلمه . (7) حين يتبرأ المتبوعون من الأتباع وعبر السياق عن المتبوعين بالبناء للمجهول ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وهم الذين ظللوا المشركين ونصبوا لهم الأنصاب ، ومعنى براءتهم منهم تتصلهم من مواعيد نفعهم في الآخرة الذي وعدوهم في الدنيا . (8)

(1) - الطاهر ابن عاشور مرجع سابق . 2 / 78 .

(2) - ينظر : الكشف . مرجع سابق . 1 / 212 .

(3) - ينظر : الألوسي . المرجع نفسه . 2 / 596 .

(4) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 2 / 230 .

(5) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 2 / 597 .

(6) - أبو حيان . البحر المحيط . 2 / 91 .

(7) - ينظر : الرازي . مرجع نفسه . 2 / 233 .

(8) - ينظر : ابن عاشور . مرجع نفسه . 2 / 98 .

التمني: فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمُ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ فقد تمنوا الرجوع إلى الدنيا حتى يطيعوا الله ، ويتبرأوا منهم خصومهم ومتبوعيههم ، و(لو) هنا للتمني ، وجاء جوابها بالفاء (فنتبرأ) ، وقد تمنوا ما لا يمكن بحال ، ويتبرأوا منهم تبرؤا يغيظهم . "ولذا لم يتبرؤا منهم قبل تمني الرجوع لأنه لا يغيظ المتبوعين ، فقد وقع التمني بعد رؤيتهم العذاب وتيقنهم وقوعه . وهذا مما يزيد شعورهم باليأس واستحالة رجوعهم إلى الدنيا" (1) .

و(الكرَّة) بمعنى العودة إلى الدنيا أي : "لو وقع لنا كروا تبرأنا منهم كما تبرؤا منا." (2)

الوعيد : ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ ...﴾ فعل كلامي غير مباشر دلت عليه هذه الجملة التذييلية التي تؤكد فعل الوعيد . فالآية تبين حال المشركين في الآخرة وأنهم خالدون في العذاب . وأنهم يرون أعمالهم السيئة حسرات " أي ندامات ومعناه ؛ أن أعمالهم تتقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم." (3) ويدل على خلودهم في النار قوله تعالى : ﴿مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فلا يقال ذلك إلا بعد الدخول ، وجاء الخبر مصحوبا بالباء الدالة على التوكيد ، فقد ذكر تعالى أنهم بعد رؤيتهم العذاب وتقطع الأسباب ، أراهم أعمالهم ندامات حيث لا ينفع الندم ، ليتضاعف بذلك الألم . (4)

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤)

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ

اللَّهُ تَزَلَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

نزلت في رؤساء اليهود كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحي بن أخطب وغيرهم كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، وكانوا يرجون أن يكون النبي منهم فلما بعث محمد كتموا وغيروا صفته وخافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد وأمر شرائعه حتى لا يتبع . (5)

الخبر / التحذير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ . فعل كلامي غير مباشر ، يحذر المسلمين مما أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم ، وتحليل بعض ما حرم الله عليهم ، وكتمان بعض الأحكام ، كما فعلوا في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة ، حين دعا النبي (ص) أحد اليهود ليقرا

(1) - بسيوني عبد الفتاح . علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني . ط2/2004 . مؤسسة المختار القاهرة . ص . 340 .

(2) - الزجاج . مرجع سابق . 1 / 208 .

(3) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 212 .

(4) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 94 .

(5) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 28 .

ذلك الحكم من التوراة ، فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك كما أخرجه البخاري في صحيحه.(1) و لجريانه على مناسبة إباحة ما أبيح من المأكولات جاء قوله هنا ﴿ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ لقصد المشاكلة .(2)

الوعيد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية ﴿ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ ويقوي إنجازية الفعل الكلامي تقييد الأكل بالبطون ، لإفادة الملء لا للتأكيد ، ففي ذلك تعظيم وعيد الكاتمين .(3) وفي ذكر البطون دلالة وتأكيد على حقيقة الأكل ، إذ قد يستعمل مجازا . وفي ذكر البطون أيضا تنبيه على جشعهم وأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم ومعنى (إلا النار) أي إنه حرام . يعذبهم الله عليه بالنار .(4) وكل ذلك يدعم القوة الإنجازية لفعل الوعيد .

الايخبار : نفي ﴿ لَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ كناية عن الغضب . فالمراد نفي كلام التكريم .
الذم / التوبيخ : ﴿ وَلَا يُرْكِبُهُمْ ﴾ أي لا يثني عليهم في ذلك المجمع . وذلك إشعار لهم بأنهم صائرون إلى العذاب "لأنه إذا نفيت التركية أعقبها الذم والتوبيخ ، فهو كناية عن ذمهم في ذلك الجمع ، إذ ليس يومئذ سكوت".(5)

التعجب : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أي ما أشد صبرهم . "أي هؤلاء يجب أن يتعجب منهم ، لإرتكابهم ما يوجب النار من غير مبالاة ، وإنما لا يوصف الله تعالى بالتعجب لأن التعجب استعظام يصحبه الجهل ، وهو سبحانه منزّه عن ذلك".(6)

التأكيد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه جملة التذييل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ وهي تذييل لما تقدم معطوف بالواو(7) ؛ أي أن الذين اختلفوا فيما أنزل الله هم في معاداة لا تنقطع.(8)

الذم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَعْفُورَةِ ... ﴾ وقد بالغ الله في ذمهم ؛ لأنهم آثروا الضلال على الهدى ، والعذاب على النعيم .

(1) - البخاري . صحيح البخاري . كتاب الحدود .

(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 122 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 606 .

(4) - ينظر : القرطبي . مرجع سابق . 2 / 158 .

(5) - ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 124 .

(6) - هادي نهر . علم الدلالة التطبيقي . ص 335 .

(7) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 607 .

(8) - ينظر : أبو حيان . البحر المحيط . 2 / 128 .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ



قبل في سبب نزولها أن اليهود والنصارى تكلموا في تحويل القبلة وفضلت كل فرقة توليتها قليل لهم
ليس البر ما أنتم فيه ولكن البر من آمن بالله .⁽¹⁾ فرد عليهم جميعا بنفي البر عن قبلتهم . ولما لم يبقى
للطائفتين إلا صلاتهم وزعمهم أن ذلك البر رد الله عليهم بهذه الآية.⁽²⁾

الإخبار : يتضمن الخبر المنفي لأنه نفى أن يكون التوجه إلى القبلة برا ، مضمون الآية أن البر لا
يحصل باستقبال المشرق والمغرب بل بالأعمال المذكورة في الآية . "والمراد هنا تلقين المسلمين الحجة
على أهل الكتاب في تهويلهم على المسلمين إبطال القبلة التي كانوا عليها. ويكون النفي على معنى نفي
الكمال."⁽³⁾

النهى : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ ... ﴾
والنهى موجه إلى المؤمنين بأن لا يتعلقوا من شريعتهم بأيسر شيء كما تعلق أهل الكتابين (اليهود
والنصارى) ولكن عليهم العمل بجميع ما في طاقتهم من تكاليف الشريعة.⁽⁴⁾

التعريض : تعريض بأهل الكتاب في تهويلهم على المسلمين إبطال القبلة، التي كانوا يصلون إليها
وحصرهم الدين كله في أمر القبلة ، فرد عليهم الله أن البر في سائر الأعمال ، والعبادات المذكورة في
هذه الآية . وأنه لا ينبغي الاشتغال بأمر القبلة ، وهي الشعيرة التي أسقطها الله على الناس في حال
العجز والنسيان ، وصلوات النوافل على الدابة في السفر.⁽⁵⁾

الاعتراض : هذه الآية متصلة بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ وأنه ختام للمحاجة في شأن
تحويل القبلة وأن ما بين هذا وذلك كله اعتراض أطنب فيه وأطيل.⁽⁶⁾ ويتناول الاعتراض عدم تهويل
أمر القبلة ، وإنما ينبغي النظر إلى الأعمال التي لها أثر في تركية النفوس . ولذلك نفى البر عن تولية
المشرق والمغرب.

(1) - ينظر : القرطبي . مرجع سابق . 160 / 2 .

(2) - ينظر : أبو حيان . . مرجع سابق . 130 / 2 .

(3) - ابن عاشور . مرجع سابق . 128 / 2 .

(4) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 130 / 2 .

(5) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 128 / 2 .

(6) - ينظر : نفسه . 128 / 2 .

الفعل التأثيري : في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أتى بخبر (أولئك) موصولا بفعل ماض (صدقوا) إيذانا بتحقيق اتصافهم بها .⁽¹⁾

قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا تُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۖ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٦﴾

لما بين الله أن الذين يشهدون مشاعر الحج فريقان: كافر يطلب دنيا ،ومسلم يطلب الدارين معا . بقي المنافق فذكره في هذه الآية وشرح صفاته وأفعاله ، وقيل إن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي أقبل إلى النبي (ص) وأظهر الإسلام ،وزعم أنه يحبه ويحلف بالله على ذلك ،غير أنه كان منافقا ثم خرج من عند النبي ،فمر بزرع لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحمر ،وهو المراد بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ وأكثر المحققين يرون أن هذه الآية عامة في كل من كان موصوفا بهذه الصفات المذكورة .⁽²⁾

وفي الآيات الموالية تم الكلام السابق ببيان قسمين آخرين : المنافق والمخلص فجاءت الأفعال الكلامية معبرة عن أوصاف الفريقين وأخبارهم .

الإخبار : فعل كلامي مباشر في قوله تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾بخبر عن أولئك المفسدين فالآية تصف القسم الأول وهم المنافقون وعبر عنهم بقوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إشارة إلى بعضهم وفيه ما يدل على العموم . لأن الحمل على العموم أكثر فائدة . وذلك لأنه يكون زجرا لكل المكلفين عن تلك الطريقة المذمومة.وقد وصف الله هذا المذكور بصفات خمسة الأول قوله تعالى:﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ، والثانية قوله تعالى : ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ، والثالثة قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ ، والرابعة قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ ، والخامسة قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ .⁽³⁾ وإن حمل على الخصوص . بحيث يراد به الأخنس بن شريق فتكون بمعنى تقيعه لأنه غدر وأفسد .

التحذير: " ويجوز أن الخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب تحذيرا للمسلمين من أن تروج عليهم

تنبيه: حيل المنافقين، وتنبيه لهم على استطلاع أحوال الناس ".⁽⁴⁾

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 612 .

(2) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 213 .

(3) - ينظر : نفسه . 3 / 214 .

(4) - ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 266 .

الوعيد : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أي لا يرضى به . فاحذروا غضبه . والجملة الإعتراضية لأداء فعل الوعيد فهو يتوعد المفسدين . وهذا المنافق المغرور المتولي المفسد في الأرض فهذا يؤول حاله إلى جهنم . والآية تتضمن التحذير والتوبيخ وقال صاحب التحرير والتنوير : "وعندي أن إهلاك الحرث والنسل كناية عن اختلال ما به قوام أحوال الناس . وكانوا أهل حرث وما شية فليس المراد خصوص هذين بل المراد ضياع ما به قوام الناس وهذا جار مجرى المثل . فالآية دالة على أن من يتسبب في مثل ذلك ... مستحق للعقاب في الآخرة ولذلك عقب بجملة التذليل وهي ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ تحذيرا وتوبيخا." (1)

الذم : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ .. لَبِئْسَ الْمَهَادُ﴾ في الآية ذم لمن يغضب إذا قيل له اتق الله . وقد ذم الله هذا المغتر ما مهد لنفسه من جهنم وبئس الغاية الذم . والمراد بالعزة أي العزة المعروفة في الجاهلية التي تمنع صاحبها من قبول اللوم أو التغيير عليه لأن العزة تقتضي معنى المنعة ، فأخذ العزة له كناية عن عدم إصغائه لنصح الناصحين . وقوله تعالى : ﴿بِالإِثْمِ﴾ الباء للمصاحبة أي أخذته العزة الملابس للإثم و الظلم . وقوله تعالى : ﴿وَلَبِئْسَ الْمَهَادُ﴾ أي جهنم . والمهاد أي ما يمهد أي يهيأ لمن ينام . وإنما سمي جهنم (مهادا) تهكما . (2)

المدح : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ...﴾ ثم ذكر الله تعالى الفئة المقابلة لهذا الصنف وهو من باع نفسه في طلب رضى الله تعالى واكتفى بهذا الوصف الشريف ، إذ دل على انطوائه على جميع الطاعات والانقيادات ثم ذكر تعالى أن من كان بهذه المشابهة رآف الله به ورحمه وهي أرق من الرحمة ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. (3) والجملة تذييل أي رؤوف بالعباد الصالحين . ومناسبة هذا التذييل للآية أن المخبر عنهم قد بذلوا أنفسهم لله فالله رؤوف بهم . فعدل عن الإضمار إلى الإظهار (العباد) ليكون هذا التذييل بمنزلة المثل مستقلا بنفسه وهو من لوازم التذييل . وليدل على أن سبب

الرافة بهم أنهم جعلوا أنفسهم عبادا له . (4) ونزلت هذه الآية في صهيب بن سنان أرادته المشركون على ترك الإسلام ، وقتلوا نفرا كانوا معه ، فقال لهم أنا شيخ كبير إن كنت معكم لم أنفكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم فخلوني وما أنا عليه ، وخذوا مالي فقبلوا منه ماله ، وأتى المدينة . (5)

(1) - ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 270 .

(2) - ينظر : المرجع نفسه . 2 / 269 - 272 .

(3) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 359 .

(4) - ينظر : ابن عاشور . المرجع نفسه . 2 / 274 .

(5) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 251 .

قال تعالى : ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢)

تعد هذه الآية بمنزلة البرهان على معنى الجملة السابقة . فإن قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ سواء أكان خبراً أو وعيداً أو وعداً أو تهكماً فقد دل بكل احتمال على تعريض بفرق الغرور المتמادية في الكفر .

التقريع/التوبيخ : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه صيغة الأمر في قوله تعالى : ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ... ﴾ وهو أمر للرسول (ص) كما هو الأصل في الخطاب ، والمراد بهذا السؤال تقريعهم وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم الحق بعد وضوح الآيات الدالة على صدق رسول الله (ص) والاستفهام للتقرير بمعنى حمل المخاطب على الإقرار .^(١) والمراد بالتقرير إظهار إقرارهم لمخالفتهم لمقتضى الآيات فيجيء من هذا التقرير التقريع ، والمراد (بني إسرائيل) الحاضرون في الزمن النبي (ص) و(كم) هنا استفهامية ، والمسؤول عنه هو : عدد الآيات وسلمهم عن حالهم في شكر نعمة الله ، فبذلك حصل التقريع .^(٢)

التعريض : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ... ﴾ وفيه تعريض بأنهم بدلوها بعدما عقلوها ، وفيها تقبيح عظيم لهم . والمراد بتبديل النعمة أي الآيات ، وفيه وضع المظهر وضع المضمّر (نعمة الله) بغير لفظه السابق لتعظيم الآيات ، وتبديلها أي تحريفها وتأويلها الزائغ ، وإن الله أعد للمبدلين عقاباً ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وإظهار لإسم الجليل (الله) لتربية المهابة ، وإدخال الروعة .^(٣) وفي السياق فعل كلامي هو : " **الوعيد** والمقصود به هم بنو إسرائيل الذين استحقوا العقاب لتبديلهم نعمة الله بعد ظهورها".^(٤)

الإخبار : فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فالآية تخبر عن الكفار الذين يستهزئون بفقراء المسلمين ، وذكروا في سبب نزولها وجوها ، فقيل نزلت في أبي جهل ورؤساء قريش ، كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كابن مسعود وعمار وخباب ... وقيل نزلت في اليهود والمنافقين الذين يسخرون من ضعفاء المسلمين ، على رفضهم الدنيا وإقبالهم على

(١) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 1 / 254 .

(٢) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 288 . 289 .

(٣) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 681 .

(٤) - ابن عاشور . المرجع نفسه . 2 / 291 .

الآخرة . ويقول الكفار لو كان محمد نبيا لتبعه أشرافنا ، وأخبر عنهم بصيغة المضارع (ويسخرون) وهو فعل يديمونه.(1) وهو متكرر ومتجدد منهم.

الذم / التحذير : ووراء الإخبار فعل كلامي متضمن في القول هو الذم والتحذير "فالمراد من قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ذمهم والتحذير من خلقهم ، ولهذا لزم حمل التزيين على تزيين يعد ذما فلزم منه التزيين المشوب بما يجعل تلك الزينة مذمة كتزيين الخمر أو الزنا أو نجدة الظالم".(2)

الاحتقار : ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عطف على جملة زين للذين كفروا، وفيها التناهي في الغرور حتى سخروا من المؤمنين الذين تركوا الكثير من متع الدنيا . ووجه السخرية بالمؤمنين أنهم احتقروا رأيهم في إعراضهم عن اللذات لإمتثال أمر الرسول (ص) فالسخرية ناشئة عن تزيين الحياة عندهم.(3)

الإعلاء / المدح : " أعلم الله تعالى بأن الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة لأن المسلمين في عليين والفجار في الجحيم".(4) فقد مدحهم بالتقوى والعمل الصالح ، وإيثار إسمية الجملة للدلالة على الاستمرارية ودوام مضمونها . وتتضمن الجملة فعلا كلاميا متضمنا في القول هو التسلية للمؤمنين تأنيسا لهم من سخرية الكفار والمنافقين كما تتضمن التنبيه على وجوب التقوى الذي هو سبب تفوقهم .

التأكيد : هو فعل كلامي غير مباشر تعبر عنه جملة التذييل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وفيه إظهار محبته لهم وأنه يرزقهم بغير حساب إشارة إلى سعة رزقه واختصاصهم به.(5)

وفيها وعد للمؤمنين بالرزق ، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ تعريض بتهديد المشركين بقطع الرزق عنهم وزوال حظوتهم . والقصد من جملة التذييل تعظيم تشريف المؤمنين يوم القيامة لأن التذييل لا بد أن يكون مرتبطا بما قبله فالسامع يعلم من هذا التذييل معنى محذوفا تقديره والذين اتقوا فوقهم فوقية عظيمة لا يحيط بها الوصف لأنها فوقية منحوها من فضل الله لا نهاية له وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالحساب هنا حصر المقدار، فنفي الحساب نفى لعلم مقدار الرزق ، وقد شاعت هذه الكناية في كلام العرب ومنه قولهم : شيء لا يحصى ، ولذلك صح أن ينفي الحساب هنا عن أمر لا يعقل حسابه ، وهو الفوقية.(6)

(1) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 5 / 3 .

(2) - ابن عاشور . مرجع سابق . 295 / 2 .

(3) - ينظر : المرجع نفسه . 297 / 2 .

(4) - الزجاج . مرجع سابق . 242 / 1 .

(5) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 360 / 2 .

(6) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 298 / 2 .

قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

تتضمن هذه الآية مجموعة أفعال كلامية كثيرة هي : الإخبار والذم والامتنان والتقدير .

الإخبار : فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ... ﴾ أي كان الناس متفقين على دين الإسلام ، فاختلّفوا فبعث الله إليهم النبيين ، وأنزل مع كل واحد منهم كتابه ليحكم فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلا الذين أوتوا الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف أي ازدادوا في الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب .⁽¹⁾

الذم : فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ بين السياق حقيقة أخرى من أحوال اختلاف الأمم ، وهو الاختلاف بين أهل الكتاب بعضهم مع بعض وبين أهل الكتاب الواحد مع تلقّيه ديناً واحداً . فقد ذم القرآن أولئك الذين اختلفوا بعد نزول الكتب ، حيث عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل ليزيح الاختلاف سبباً لاستحكام الخلاف ، وهم أرباب العلم وخصمهم بالذكر ﴿ الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ تنبيهاً منه على شناعة فعلهم ، ولأن غيرهم تبع لهم في الاختلاف . فهم أصل الشر وأن الحامل على الاختلاف هو البغي ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾.⁽²⁾

التحذير : والمقصود بيان عجب لحال البشر في تسرعهم إلى الضلال ، وهي حقيقة تاريخية من تاريخ الشرائع وتحذير المسلمين من الوقوع في مثل ذلك.⁽³⁾ من الاختلاف في الدين أي في أصول الإسلام .
التعريض : "وفي الآيات تعريض بأهل الكتاب ، وهم أشهر أهل الشرائع يومئذ ، فيما صنعوا بكتبهم من الاختلاف فيها ، وهذا من بديع القرآن في توبيخ أهل الكتاب ، وخاصة اليهود ، وهي طريقة عربية بليغة."⁽⁴⁾

الامتنان : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ فهدى الله الذين آمنوا بتوفيقه . فإنه تعالى لما وصف حال أهل الكتاب وأنهم بعد كمال البيّنات أصروا على الكفر والجهل بسبب البغي والحسد ، بين أن حال هذه الأمة بخلاف حال أولئك فإن الله عصمهم عن الزلل وهداهم إلى الحق في الأشياء التي اختلف فيها أهل الكتاب . فامتن الله على عباده

(1) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 1 / 256 .

(2) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 366 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 308 - 311 .

(4) - نفسه . 2 / 309 .

المؤمنين بهدايتهم إلى الحق في مسائل : الجمعة ، القبلة ، الصلاة ، الصيام ، إبراهيم ، عيسى فهدى الله أمة محمد إلى الحق من ذلك.(1)

التقرير : فعل كلامي غير مباشر وارد في جملة التذييل في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو طريق الحق والجملة مقررة لمضمون ما قبلها. تبين أن فضل الله يعطيه من يشاء

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ

وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ﴿٢٤﴾
نزلت الآية لما دخل الرسول (ص) المدينة اشتد الضرر عليهم لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم في أيدي المشركين ، وقيل نزلت الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والحزن كما قال تعالى : ﴿وَبَلَّغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب 10] .(2) ودلالة الآية أن المؤمنين لا يستحقون الفضيلة في الدين إلا بتحمل هذه المحن .

التطمين / التشجيع : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ... ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده ذكر الله تعالى ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعا لرسول الله (ص) والمؤمنين على الثبات والصبر . وقال لهم على طريقة الإلتفات التي هي أبلغ (كان الناس - أم حسبتم) .(3) ذكر تعالى مخاطبا المؤمنين إذ كان قد أخبر ببعثة الرسل بالتكاليف الشرعية أنه لا يحسب أن تتال الرتب العالية من الفوز بدخول الجنة ولما يقع إبتلاء لكم كما ابتلى من كان قبلكم ثم ذكر مثل الماضين بأنهم مستهم البأساء والضراء حتى سألوا ربهم عن وقت مجيء النصر فأجيبوا بأن نصر الله قريب فسكنت نفوسهم .(4) ولم يغيرهم طول البلاء عن دينهم ، وأنتم يا معشر المسلمين كونوا على ذلك وتحملوا الأذى والمشقة في طلب الحق؛ فإن نصر الله قريب . وكان الصحابة لما أذن لهم في القتال نالهم من الجراح وذهاب الأموال والنفوس ما لا يخفى ، فعزاهم الله في ذلك ، وبين أن حال من قبلهم كان كذلك ، والمصيبة إذا عمت طابت.(5)

إن القصد من ذكر الأمم السالفة حيثما وقع في القرآن هو : العبرة والموعظة والتحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه بسوء عملهم ، والافتداء في المحامد فكان في قوله تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية إجمال لذلك وقد ختم بقوله تعالى : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ ولما كان هذا الختام منقبة للمسلمين ، وأوقظوا أن لايزهوا بهذا الثناء فيحسبوا أنهم قضوا حق شكر النعمة . فعقب

(1) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 17 .

(2) - ينظر : نفسه . 3 / 20 .

(3) - ينظر : الزمخشري . الكشف . 1 / 256 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 688 .

(5) - ينظر : الرازي . المرجع نفسه . 3 / 21 .

أن عليهم أن يصبروا ، لما عسى أن يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء اقتداء بصالحي الأمم السالفة ، فكما حذرهم الله من الوقوع فيما وقع فيه الضالون ، حرضهم هنا على الاقتداء بهدي المهتدين . فيكون قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ .

الإستبطاء : ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ لما اشتد عليهم البلاء وستطالة ، اضطروا إلى طلب نصر الله وتمنيه .
الوعد / التقرير : ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وهو استئناف نحوي على تقدير القول أي فقل لهم حينئذ ذلك تطيبا لأنفسهم ، وإيثار الجملة الإسمية وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد للدلالة على تحقق مضمونها وتقريرها واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنهم في حكم إنشاء الوعد للرسول (ص) .⁽¹⁾

قال تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

لما ذكر أهوال يوم القيامة وذكر حال الكافرين . استأنف بذكر تمجيد الله تعالى ، وذكر صفاته إبطالا لكفر الكافرين ، ف وقعت هذه الآية كالبرزخ بين الأغراض السابقة واللاحقة .

الإخبار : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ والمقصود من هذه الجملة هو إثبات الوجدانية والحياة والقيام بالتدبر وإبطال إلهية أصنام المشركين .

الإثبات : أخبر سبحانه وتعالى أنه هو المستحق للعبودية لا غير . وجيء باسم الذات هنا لأنه أظهر طريق في الدلالة على المسمى المنفرد بهذا الاسم . فإن العلم أعرف المعارف لعدم احتياجه إلى قرينة أو معونة .⁽²⁾

التقرير : في جملة ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فهي مقررة لمضمون الجملة السابقة . كما تقوم الجملة بوظيفة البيان لمعنى الحي القيوم ولذلك فصلت عن التي قبلها ، وتتضمن الجملة فعلا كلاميا مباشرا هو : نفي استيلاء السنة والنوم على الله تعالى ، وفي ذلك إثبات لكمال العلم ودوام الحياة .

التقرير : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج على تفرد في الألوهية⁽³⁾

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق 2 / 688 . وينظر أيضا : الكشف . 1 / 256 .

(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق 3 / 18 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 2 / 17 .

وفيه إثبات ملكه لعموم الأمكنة والموجودات ، بحيث لا يشذ عن ملكه موجود فحصل معنى الحصر ، ولكنه زاده تأكيداً بتقديم المسند بمعنى (له) لا لغيره لإفادة الرد على أصناف المشركين من الصائبة عبدة الكواكب كالسريان واليونان ، ومن مشركي العرب وإبطال عقائدهم الضالة .⁽¹⁾

استفهام إنكاري : في قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... ﴾

والمقصود به بيان كبرياء شأنه تعالى وهو مستعمل في الإنكار والنفي بقرينة الإستثناء منه **تقرير :** والجملة مقررّة لمضمون جملة ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ... ﴾ وما تضمنه تقديم المجرور من قصر ذلك الملك عليه تعالى ، قصر قلب فبطل وصف الإلهية عن غيره بالمطابقة ، وبطل حق الإدلال عليه والشفاعة عنده ؛ لأن الإدلال من شأن المساوي والمقارب ، والشفاعة إدلال وهذا إبطال لمعتقد معظم مشركي العرب . ودعم القوة الإنجازية للفعل باستعمال الأداة (ذا) المزيدة للتأكيد إذ ليس ثم مشار إليه معين . فلما ظهر عدم وجود شخص معين كان ذلك أدل على أن ليس ثمة متطلع ينصب نفسه لإدعاء هذا الحكم.⁽²⁾

تنبيه : فعل كلامي غير مباشر ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ ... ﴾ دلت عليه صيغة الإستفهام الإنكاري وفيه تنبيه للكفار حيث زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله.⁽³⁾

الإخبار : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ ففيه تقرير وتكميل لما تضمنته الجمل السابقة التي دلت على عموم علمه بما حدث . وهذه الجملة دلت على ما سيكون فأكد وكمل وهي أيضاً تعليل الجملة ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴾ لأنه يعلم من يستحق الشفاعة .

تقرير : يخبر عن إحاطة علمه سبحانه فهو محيط بدنياهم ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ومحيط بأمر الآخرة (وما خلفهم) وإن علمه محيط بكل شيء ففيه كناية عن الإحاطة . وتفيد بان هذه الأمور لا يعلمها غيره وهذا يدل على تفرد العلم الذاتي . وفي قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ... ﴾ استعارة تمثيلية وهو من المنتشابه . وهي جملة فيها تقرير لما تضمنته الجمل كلها من عظمة الله وكبريائه . ويراد بالكرسي غير حقيقته . والمعنى أن الله نبهنا إلى عظيم قدرته وسعة ملكوته . ولكنه لم يفصل لنا ذلك . **التعظيم :** فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغ الخبرية ﴿ وَلَا يُوْذُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ووجه عظّمته أنه لا يتقله حفظ السموات والأرض . وهو المتعالي عن الأنداد .

(1) - ينظر : ابن عاشور . المرجع نفسه . 20/ 3 .

(2) - ينظر : نفسه . 21/ 3 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 18 / 2 .

قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٥٦] اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

هذه الآية تتضمن أحكام متفرعة عن الأمر بالقتال مما قد يفهم أن القتال لأجل دخول العدو في الإسلام فبين أنه لا إكراه على الدخول في الإسلام .

النهى : وقيل يجوز أن تكون إخبارا في معنى النهي أي لا تكرهوا في الدين وتجبروا عليه . والنهي وارد في قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... ﴾ ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي استعمل السياق الأداة (قد) وهي كلمة تحقيق صدرت به الجملة لزيادة تقرير المضمون وتعليله .⁽¹⁾

التقرير : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ فوظيفة هذه الجملة تقرير ما قبلها ، والاستمساك بالعروة الوثقى تمثيلي شبهت حياة المؤمن في ثباته على الإيمان ، بهياة من أمسك بعروة وثقى من حبل وهو راكب ، والمعنى أن المؤمن ثابت اليقين ، سالم من اضطراب القلب ، ناج من السقوط كحال من تمسك بعروة حبل متين .⁽²⁾

الوعد والوعيد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه جملة التذييل لما فيه من حث على الإيمان ، وردع عن الكفر في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فالآية تتضمن وعدا للمؤمنين ووعيدا للكافرين .⁽³⁾ إخبار وامتنان للمؤمنين : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ امتن الله على المؤمنين بأن وفقهم وأعانهم . وكرر الإسناد بقصد المبالغة ، وقد وقعت الآية موقع التعليل لقوله تعالى :

﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ فالأفعال الكلامية السابقة المتضمنة (الكفر بالطاغوت) و (الإيمان بالله) وتوليته اقتضى أن يكون الله وليهم وناصرهم ، ويعطيهم من نوره ، ويجنبهم ظلمات الشبهات ، والشك فيزدادون إيمانا ويزيدهم الله هدى. ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي، وقع التعبير بالمضارع (يخرجهم) الدال على الإزدياد المتجدد.

وعيد وتحذير للكافرين : ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وعد وتحذير للكافرين، وهم الفئة المقابلة للمؤمنين . فالكافرون أولياؤهم الطاغوت فهم يزدادون في الضلال . ولأجل هذا الإزدياد المتجدد وقع التعبير بالمضارع . (يخرجونهم) .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 20 / 3 .
(2) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . 29 / 3 .
(3) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 20 / 3 .

قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٌ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [١٦١] الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٢﴾ *
 قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٣﴾
 عاد السياق في هذه الآية إلى التحريض على الإنفاق في سبيل الله .

خبر: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾

أمر: دوموا على تناسي الإحسان والإمتنان. وأكد هذا الفعل بما ترتب عليه من ثواب ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ...﴾
 ففيه تأكيد وتشريف .

ترغيب: وفيه فعل كلامي غير مباشر هو الترغيب . وهو معنى دقيق لا يهتدى إليه إلا بتوفيق . ووجه الترغيب هو قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ومثل على الإنفاق بتشبيهه فقد شبه حال إعطاء النفقة ومصادفتها موقعها بحال حبة أنبتت سبع سنابل الخ وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس .
تنويه: بالإنفاق لدعم الجهاد في سبيل الله والمراد هنا تجهيز جيش العسرة .

إرشاد: فعل كلامي غير مباشر ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ ففيه الحث على الكلام الجميل وستر حال السائل . ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي عمد السياق إلى تكرير (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ) للتقليل ، أي أقل قول معروف خير من صدقة يتبعها أذى ، فالمراد به القول الحسن .
التعريض: في قوله تعالى : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ﴾ "فيها تعريض بأن الأذى يوشك أن يبطل ثواب الصدقة." (1)

وعد ووعيد: في جملة التذليل ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ فالجملة تذييل لما قبلها ، مشملة على الوعد والوعيد مقررلة لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل. (2) وفي جملة التذليل فعل كلامي آخر هو معنى التذكير ، فالمتكلم يذكر المخاطبين بصفيتين من صفات الله تعالى ليتخلق بهما المؤمنون ، وهما الغنى والحلم ، فالمطلوب بطريقة ضمنية تحقيق المؤمن لهذه الصفات فكونه غنيا يتطلب مقاومة الشح ، وكونه حلما يقتضي العفو ، والصفح عن كبرياء بعض المتصدقين . وبمفهوم (الإبطال) يتضح نجاح الفعل الكلامي ، فإبطال الصدقة يحصل بمجرد التلفظ بالمن والأذى ولذلك رغب السياق في اتباع الحسنة بالقول الحسن .

(1) - الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 47 / 3 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 24 / 3 .

قال تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ؕ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ؕ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ؕ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا مُسِيئِينَ أَوْ أخطأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ؕ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ؕ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ؕ

لما نهى الله عز وجل عن كتم الشهادة انتقل إلى ذكر ما انطوى عليه الضمير فكتمه أو أبداه فإن الله يحاسبه به ولما علق الإثم بالقلب ذكر هنا الأنفس .

التقرير : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ أي أن الأمور كلها بيد الله ملك له تعالى تلزم من شاء بما شاء من تعبداته وتكليفاته . ونبه إلى صفة العلم التي بها تقع المحاسبة . (1) "والجملة هي موقع الاستدلال وهي اعتراض بين الجملتين المتعاطفتين ، أو علة لجملة (والله بما تعملون عليم) باعتبار إرادة الوعد والوعيد والمعنى : إنكم عبيده فلا يفوته عملكم والجزاء عليه." (2) ومعنى هذا الاستدلال أنه إذا كان ما في السموات والأرض لله فالإنسان داخل في عموم ذلك . والله تعالى عالم بأحوال مخلوقاته ومالكية الله تعالى أتم أنواع الملك . وهذه الجملة هي تمهيد لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ...﴾

التنبيه : ﴿وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي إن تظهروا ما حصل في أنفسكم من أخلاق ذميمة كالحسد والكبر وكنمان الشهادة ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ففقدتم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه . والمعنى إنكم عبيده وهو محاسبكم .

التقرير : دلت عليه جملة التذييل في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله . "وعقب ذلك بذكر القدرة إذ ما ذكر جزء من متعلقات القدرة ."(3)

الوعد / الوعيد : فعلان كلاميان غير مباشرين في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ فصفا الملك تدل على القدرة ، وذكر المحاسبة يدل على العلم المحيط بالجليل والحقير ،

(1) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 750 .

(2) - ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 129 .

(3) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 755 .

فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين ، وغاية الوعيد للعاصين . ثم بين أن الحالتين من الإخفاء والإبداء بالنسبة إليه تعالى سواء . وبين القاضي عبد الجبار أن أفعال القلوب كأفعال الجوارح في أن الوعيد يتناولها.⁽¹⁾ قال الزجاج : "ختم السورة بهذا تعظيما لنبيه وأتباعه ، وتأكيدا ، وفذلكة لجميع ذلك . وقد شهد سبحانه وتعالى لمن تقدم في صدر السورة بكمال الإيمان وحسن الطاعة".⁽²⁾

المدح والثناء : فعل كلامي غير مباشر دل عليه قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ... ﴾ "مدح الله رسوله والمؤمنين على إيمانهم وأثنى عليهم بقولهم قالوا سمعنا وأطعنا وقد رجعوا إلى التضرع والاستكانة . وقدم ذلك بين يدي رفقة بهم . فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر وهذه ثمرة الطاعة ، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلاء إذ قالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [البقرة 93] وهذه ثمرة العصيان"⁽³⁾

التعريض: فعل غير مباشر في قوله تعالى : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ والمتكلم هو الله عز وجل ، والمخاطبون هم المؤمنون "والمعنى أنهم ليسوا كاليهود والنصارى يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض".⁽⁴⁾ فالمقصود هو إثبات النبوة لجميع الرسل ، وعدم التفريق بينهم ، ولعل في قوله تعالى : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ تعريض باليهود الذين قالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ .

الإقرار : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ "والجمع باعتبار المعنى هو حكاية لامتناعهم للأوامر والنواهي إثر حكاية إيمانهم وفي قوله تعالى : ﴿ سَمِعْنَا ﴾ أي أجابنا وهو المعنى الحرفي للسمع.

وقوله تعالى: ﴿ أَطَعْنَا ﴾ أي قبلنا عن طوع ما دعوتنا إليه في الأوامر والنواهي".⁽⁵⁾ وهذا ما عرف تداوليا بالفعل التأثيري . وهو استجابة المخاطبين للأوامر والنواهي . فلما أمرهم الله بالسمع والطاعة امتثلوا : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وصرحوا بهذا الامتثال ، والسمع هنا كناية الرضا والقبول ، والامتثال . وإنما جيء بلفظ الماضي (سمعنا) دون المضارع ليدلوا على رسوخ ذلك ، لأنهم أرادوا إنشاء القبول والرضا وبعض أفعال الكلام الإيقاعية وصيغ العقود تقع بلفظ الماضي .

التقرير: في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلَ الْمَصِيرُ ﴾ إقرار بالمعاد والرجوع والبعث ، والجملة تذييل لما قبله مقرر للحاجة إلى المغفرة ، وفيها إقرار بالمعاد ؛ أي في الجملة تقرير وإقرار.⁽⁶⁾ وقدم المجرور لإفادة

(1) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 750 / 2

(2) - ينظر : الزجاج . معاني القرآن وإعرابه .

(3) - أبو حيان . نفسه . 755 / 2 .

(4) - نفسه . 758 / 2 .

(5) - الألوسي . مرجع سابق . 93 / 3 .

(6) - نفسه . 93 / 3 .

الحصر (إليك) أي المصير إليك لا إلى غيرك وهو قصر قصدوا به لازم فائدته ، وهو أنهم عالمون بأنهم صائرون إليه ولا يصيرون إلى غيره .

الدعاء :

تقدير الزمخشري : الجملة خبرية

﴿غُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ بمعنى نطلب ، أونسال غفرانك

تقدير سيبويه : الجملة طلبية .

أي اغفر غفرانك نصب على المفعول المطلق .

الإخبار : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فعل كلامي مباشر ، يدل على خبر من الله تعالى : "أخبر به

أنه لا يكلف العباد من أفعال القلوب والجوارح إلا ما كان في وسع المكلف ، ومقتضى إدراكه وبنيته وانجلي بهذا أمر الخواطر الذي تأوله المسلمون ، في قوله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ ⁽¹⁾ . وظهر تأويل من

يقول إنه لا يصح تكليف ما لا يطاق ، وهذا من صميم التداولية في مراعاة حال المخاطب ، وفي

الشروط التأسيسية للفعل الكلامي . فالفعل الكلامي الناجح هو الذي يكون في مقدور المخاطب القيام

به. ⁽²⁾ ونظير هذا قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ، و ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي

الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ، و ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ .

تقرير / ترغيب / وتحذير : ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي ما كسبت من خير وما اكتسبت من شر

وفيه طمأنة للمؤمنين لأن الخواطر ليست من كسب الإنسان. ⁽³⁾ ولتقوية إنجازية الفعل

الكلامي وهو هنا الترغيب ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ والتحذير ﴿عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ . " فإن

اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله ، واقتصار مضرته عليه من

أشد الزواجر عن مباشرته. ⁽⁴⁾

الدعاء : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ هذا على إضمار القول ؛ أي قولوا في

دعائكم : (ربنا). وقد ختمت هذه السورة بالدعاء والتضرع ، إذ الداعي يشاهد نفسه في مقام

الحاجة والذلة والافتقار ، ويشاهد ربه بعين الإستغناء والإفضال . وافتتحت كل جملة في

خاتمة هذه السورة بقولهم : ربنا . إيذانا منهم بأنهم يرغبون من ربهم ، وأنهم مقرون

بربوبيته ، وداخلون تحت رق العبودية ، ولم يأت لفظ (ربنا) في الجمل الطلبية الأخيرة لأنها

نتائج ما تقدم من الجمل التي دعوا فيها بربنا . وفي الجمل الثلاث قابل كل جملة بجملة ؛

فقابل ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ بقوله : ﴿وَاغْفُ عَنَّا﴾ وقابل ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ بقوله :

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ وقابل ﴿وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ بقوله ﴿وَارْحَمْنَا﴾ . لأن من أثار عدم

(1) - أبو حيان . البحر المحيط . 760/2 .

(2) - جورج بول . التداولية . ترجمة : قصي العتابي . ص 25

(3) - أبو حيان . المرجع نفسه . 762/2 .

(4) - الألوسي . مرجع سابق . 94 / 3 .

المؤاخذه بالنسيان والخطأ العفو في الجملة الأولى . ومن آثار عدم حمل الإصر عليهم المغفرة في الجملة الثانية . ومن آثار عدم تكليف ما لا يطاق الرحمة في الجملة الثالثة ،⁽¹⁾ والدعاء بعدم المؤاخذه لأن المؤمنين لما كشف عنهم ما خافوه منم قوله ﴿يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أمروا بالدعاء في دفع ذلك الذي ليس من طاقة الإنسان دفعه ، وذلك في النسيان والخطأ . والفعل الكلامي هنا هو الأمر ، في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ وقد أمر الله تعالى المؤمنين بطلب عدم المؤاخذه بهما (الخطأ ، والنسيان) فهو أمر منه لهم ، أن يطلبوا منه أن لا يعذبهم على المعاصي.⁽²⁾ ومن الدعاء الوارد في الآيات ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهم اليهود ، والإصر هو العهد والميثاق الغليظ ، وقيل الإصر الذنب الذي لا كفارة فيه ولا توبة ، وشبه الإصر بالإصر الذي حمّله على من قبلهم ، فهو مخصص بالتشبيه . "والمعنى : اعصمنا من اقترافه".⁽³⁾ ومن الإصر الذي حمّله على بني إسرائيل ، قتل النفس في التوبة ، أو في القصاص ، وقطع موضع النجاسات من الثياب وقيل من البدن ، وصرف ربع المال في الزكاة.⁽⁴⁾ وفصل المتكلم بين الجملتين المتعاطفين بإعادة النداء مع أنه مستغنى عنه ، لأن مخاطبة المنادى مغنية عن إعادة النداء ، لكن قصد من إعادته ما لا نطيق . والخطاب عام هو إظهار التذلل . ومن الدعاء كذلك ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَاغَةِ لَنَا بِهِ﴾ أي لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا ، ففيه طلب أن لا يحملنا من الأعمال ما لا نطيق والخطاب عام ، وتحمل تفاسيره على سبيل التمني . "المعنى أن لا تحملنا حملا يثقل علينا أداؤه".⁽⁵⁾ والصيغة نهى ، والغرض هو الدعاء . وقد وقع التحول الدلالي للنهي إلى الدعاء . ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ (اعْفُ عَنَّا) ؛ أي امحو آثار ذنوبنا بترك العقوبة . (اعْفِرْ لَنَا) بستر القبيح وإظهار الجميل . ﴿وَارْحَمْنَا﴾ تعطف علينا بما يوجب المزيد.⁽⁶⁾ والصيغ التي جاءت بها الجمل أمرية ، والغرض البلاغي منها هو الدعاء ، والمأمور أعلى من الأمر فوجب تحول الدلالة من الأمر إلى الدعاء .

إقرار: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ ؛ أي مالكننا وسيدنا ، ومتولي أمرنا . وإذا ذكر المولى والسيد وجب في الاستعمال تقديم المولى فيقال : مولانا وسيدنا .⁽⁷⁾

(1) - ينظر : أبو حيان . المرجع سابق . 2 / 763

(2) - ينظر : مرجع نفسه . 2 / 764 .

(3) - الألوسي . مرجع سابق . 3 / 94 .

(4) - المرجع نفسه . 3 / 95 .

(5) - أبو حيان . المرجع نفسه . 2 / 765 .

(6) - ينظر : الألوسي . المرجع نفسه . 3 / 95 .

(7) - ينظر : نفسه . 3 / 96 .

دعاء: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الأمر هنا غرضه الدعاء بالنصرة على الكافرين ، وأتى بالفاء إيذاناً بالسببية لأن الله تعالى لما كان مولاهم ومالكهم ومدير أمورهم تسبب عنه دعوة بأن ينصرهم على أعدائهم. وفي التفريع بالفاء إيذان بتأكيد طلب إجابة الدعاء بالنصر ، لأنهم جعلوه مرتباً على وصف محقق وهو ولاية الله لهم ، ووجه الاهتمام بهذه الدعوة أنها دعوة جامعة لخيري الدنيا والآخرة.

المبحث الخامس : أفعال الكلام في القصص القرآني .

قصة بقرة بني إسرائيل

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا أَلَكِن جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذْخَوْهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارْتُمْ فِيهَا ۚ وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

تقول القصة أن رجلاً ثرياً من بني إسرائيل قتله وارثه الوحيد ، فطلب من موسى معرفة القاتل الحقيقي. (1)

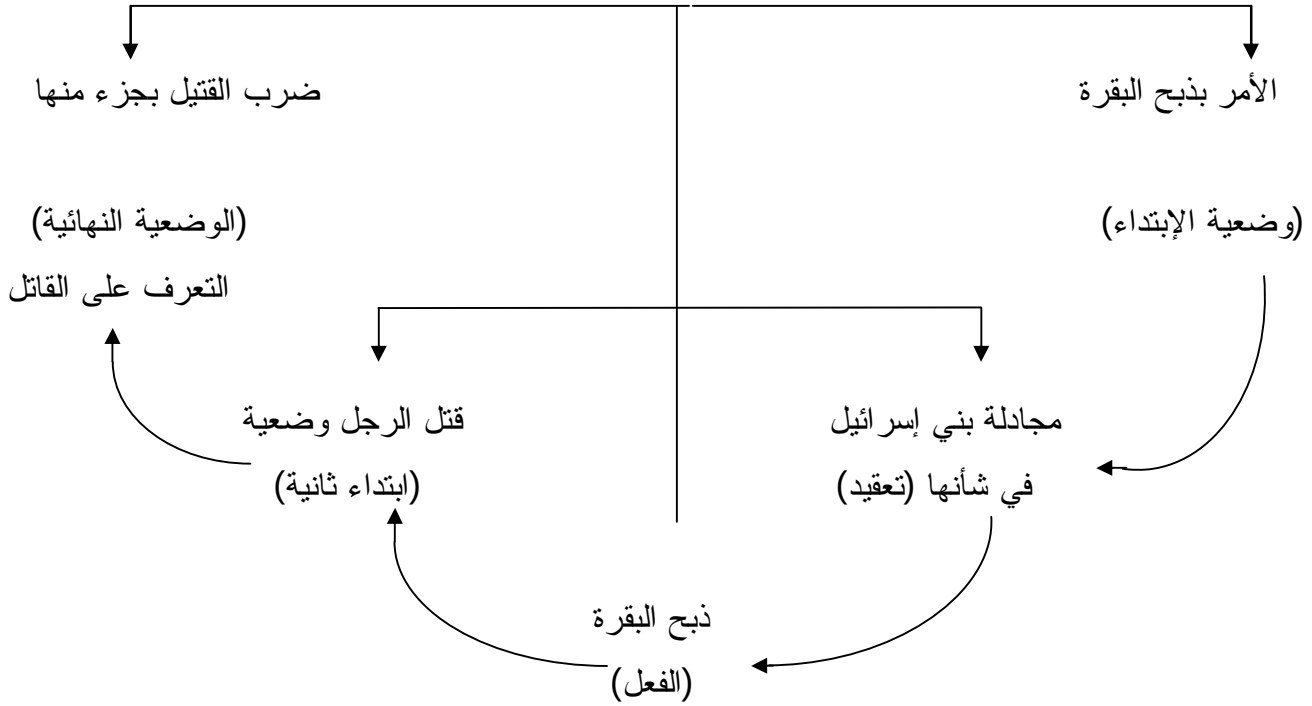
البناء الدائري للقصة :

في هذه القصة بنية سردية قائمة على مبادئ الاستباق والاسترجاع ، أو (المفارقة الزمنية) . والنمط الوارد في هذه القصة حيث : " ينتهي السرد عند نقطة البداية ، ففي الوقت الذي نظن أن القصة قد انتهت ، نفاجأ ببداية القصة من جديد . " (2) وقد بينت الآية الأخيرة السبب الذي أمر الله بموجبه بني إسرائيل أن يذبحوا البقرة مما جعل القصة ترجع إلى بدايتها .

(1) - ينظر : فخر الدين الرازي . التفسير الكبير 122/2.

(2) - بشار إبراهيم نايف . البنية الزمنية في القرآن الكريم . ص 46.

- تتكون القصة من خمسة أجزاء نوضحها في الخطاطة التالية :



استعانَت القصة بسلسلة من الأفعال الكلامية و أغلبها يندرج ضمن الإخبار بالأمر أي أنها تقوم على تأكيد الشحنة الإخبارية للقضايا التي يتداولها المتلفظون . وتقوم الأفعال الكلامية بتشكيل بنية القصة وغرض هذه الأفعال هو إقرار وترسيخ قدرة الخالق على البعث وهو الغرض الذي جاءت من أجله القصة ، وإن كان المفسرون قد قدموا حكما مختلفة من هذه القصة منها " أن وجه الحكمة في جعل البقرة آلة ...أنهم كانوا يعبدون البقر والعجايل ...ثم بعدما تابوا أراد الله تعالى أن يمتحنهم بذبح ما حبيب إليهم ، وقيل إن الحكمة في هذا الأمر إظهار توبيخهم في عبادة العجل . " (1)

التوجه الحجاجي للنصوص السردية :

إن هدف النظرية الحجاجية هو دراسة التقنيات الخطابية التي تسمح بإثارة أو تعزيز موافقة الأشخاص على القضايا المقدمة لهم . " (2) بل يذهب ميشال آدم إلى اعتبار الوظيفة الحجاجية وظيفة سابعة من وظائف اللغة إضافة إلى الوظائف الست التي اقترحها جاكسون . R . jacobson (3) ولا يخلو الخطاب القرآني من المحاجة والبرهان على القضايا وخاصة قضية ترسيخ عقيدة البعث وقدرة الخالق على إحياء الأنفس ، وهناك المقاصد العامة التي تندرج ضمنها نصوص السرد القصصي في القرآن كما أن هناك مقاصد خاصة تخدم تلك المقاصد العامة وتدعمها . "والآلية الأساسية لظهور هذه المقاصد الخاصة في النصوص السردية تتجلى في آليات الحجاج والإقناع . " (4) التي يزر بها النص القرآني .

(1) - الألوسي . روح المعاني . 408/1 .

(2) - Perlman . et tytca . traité de l'argumentation . p 5 -

(3) - J . M . ADAM . les textes type et prototypes . p 103 -

(4) - محمود طلحة . تداولية الخطاب السردية . ص . 104 .

إن النص الواحد باعتباره سلسلة من الأفعال الكلامية المترابطة التي تؤدي أغراضا إنجازية (متضمنة في القول) ترتبط لتشكل فعلا كلاميا واحدا ، ولهذا عرّف ليو أبوستيل (L.Apostil) النص بقوله : " سلسلة من أفعال الخطاب التي من الممكن ان تعتبر في حد ذاتها فعلا خطابيا موحدا." (1) وبذا يغدو " فهم نص ما هو إمكان الإجابة عن سؤال تداولي هو : لماذا ؟ أو لأي هدف ، أو غاية حاجية تم إنتاج هذا النص ؟ " (2) إذا اعتبرنا الحجاج قصدا إنجازيا متضمنا في فعل كلامي مركب ، فإننا من خلال تمازج نظرية أفعال الكلام مع نظرية الحجاج نحاول تحليل التوجه الحجاجي لهذه القصة (بنو إسرائيل والبقرة) ، لقد تمكن التوسع الذي عرفته الأفعال الكلامية من إدراج الحجاج في الأفعال الكلامية . والحجة لا تتعلق بالجملة الواحدة ، وإنما تتعلق بالنص. (3) ومن الوسائل التي يستعملها الحجاج في الإقناع استخدام الأمثال والشواهد والنماذج . وتعد القصة إحدى النماذج ذات المقصد الحجاجي للنصوص والإستشهاد بالقصص والأخبار التاريخية، يأخذ غاية حاجية تأتي من خلال المقارنة بين الحالة التي يعرضها القاص وبين الحالة التي تحكيها القصة .

طريقة عرض الأفعال الكلامية :

نستعرض هذه الطريقة عبر مراحل القصة بأجزائها الخمسة :

الجزء الأول : الأمر بذبح البقرة : ويستخدم السياق في هذا الجزء أكثر من فعل كلامي هي الإخبار

بأمر الله لذبح البقرة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾ فقد جعل أوستين Austin المنطوقات

اللغوية الإنجازية نوعين أدائيات ، وتبليغيات . وتنقسم الأدائيات إلى قسمين : (4) :

1- منطوقات أدائية أولية ضمنية مثاله : اذبحوا بقرة .

2- منطوقات أدائية ثانوية صريحة مثاله : الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾ .

فالمنطوق الثاني هو الذي ورد في القصة ، واللفظ يعتبر فعلا عند قوله ، ويوجد أيضا فعل منجز في صيغة المضارعة (يامر) ، ومفعول به غير مباشر (كم) ، هذه العبارة الأساس ستوضح دائما ما قد يكون ضامرا في ألفاظ المنطوق الأدائي الأولي (اذبحوا بقرة) . وتكمن فائدة هذا النوع من التحليل في كونه يبين العناصر المشتركة في إنشاء اللفظ وتفسيره ... وإن لقول النسخة المنجزة الجلية لصيغة

(1) - D'après . J . M . ADAM . L'inguistique Textuelle . p 103

(2) - IBID . p 73

(3) - ينظر : عبد السلام عشير . حينما نتواصل نغير . ص 104 .

(4) - ينظر : Austin . p 59

الأمر الثانوي (يأمركم) تأثير أكثر جدية من قول النسخة الضمنية (اذبحوا) لذا فإن المقولتين ليستا

متكافئتين.⁽¹⁾ ثم جاء فعل الاستفهام الذي يراد به الاستخفاف في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾

ويتضمن هذا الفعل معنى الاستبعاد لما قاله ، ويضاف إلى ذلك فعلا متضمنا في القول هو: التأدب الذي

أظهره موسى مع ربه: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وهذا معروف من إيراد الاستعانة

أثناء الكلام .

الجزء الثاني : مجادلة بني إسرائيل :

استخدم السياق مجموعة أفعال كلامية مناسبة لهذا الجزء تدور حول الاستفهام الممتزج بالأمر .

فالاستفهام الأول (ما هي ؟) استفهام لبيان المجمل ، و تكرار الأمر في قوله ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾

غرضه التحريض على الامتنال إشفافا عليهم ثم جاء استفهام آخر لبيان اللون ﴿مَا لَوْثُهَا؟﴾ ثم استعمل

استفهاما آخر لبيان الموصوف في قوله ﴿مَا هِيَ﴾ و هو طلب الكشف الزائد على ما حصل، ويتضمن

فعلا كلاميا مباشرا هو: الاعتذار على تكرير السؤال: ﴿إِنَّ أَلْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ وهي جملة اعتراضية

تؤدي وظيفة تداولية ، حيث أظهر الاعتراض إبداء الشكوى من قوم موسى، بعد حيرتهم في أمر البقرة

واشتباهه عليهم، "ولم يرد الاعتراض لهذا الغرض -فيما نرى- من آيات القرآن إلا في هذا الموضع"⁽²⁾

إن الأغراض الإنجازية لهذه الأسئلة والاستفهامان يمكن تلخيصها في غرض إنجازي واحد هو :

الإجابة عن السؤال : أخبرنا عن الأوصاف التفصيلية للبقرة ؟ أو ما الذي يمكننا فعله لمعرفة الجاني ؟

الجزء الثالث : ذبح البقرة : (الفعل)

الأفعال الإنجازية المستعملة في هذا الجزء هي : الخبر الدال على المطاوعة والاهتداء إلى المراد

بالأمر ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وللإعتناء بذلك جاء الفعل الكلامي المؤكد لحصول الهداية ﴿لَ﴾

﴿مُهْتَدُونَ﴾ كما ختم هذا الجزء بفعل أخير هو: الخبر عن إجابتهم الطلب ، وقد فعلوا بعسر ﴿فَذَنَحُوهَا

وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ جملة اعتراضية تفيد الاستبطاء .

الجزء الرابع : موضع الاسترجاع الزمني : (قتل الرجل) ويبدأ هذا الجزء بذكر الخبر وغرضه

الإنجازي هو التذكير والامتنان ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمُ فِيهَا﴾ ثم ذكر بخبر آخر في قوله ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ

(1) - ينظر : جورج يول . التداولية . ترجمة . قصي العنابي . ص 88.

(2) - مختار عطية . مرجع سابق . ص 296

مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» الذي يتضمن التذكير والتعجيز أو التحدي الذي يعبر عنه المنطوق من قوة إنجازية «مُخْرِجٌ»، وبناء الجملة الإسمية على المبتدأ يشير إلى تأكيد الحكم ، وزيادة القوة الإنجازية للفعل الجزء الخامس : الوضعية النهائية : (التعرف على القائل)

في قوله تعالى : ﴿ فَعَلْنَا أَضْرَبُوهُ بِعَصَاهَا ﴾ الأمر لإظهار قدرة الخالق على الإحياء ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾

جملة اعتراضية تفيد تحقق الحياة بعد الموت ، بوسيلة حجاجية وهي التمثيل ، والمقابلة . ووظيفة الجملة الاعتراضية هنا وظيفة الذيل .⁽¹⁾ والذيل وظيفة تداولية تحمل "المعلومة التي توضح معلومة داخل الجملة أو تعدلها أو تصححها"⁽²⁾ ونوع الاعتراض " توضيحي يزيل إبهاما ، ويؤكد على محور الحديث "⁽³⁾ والعلاقة المتينة بين الفعل الكلامي والقول الاعتراضي، أنها تسعى لتبليغ مقصد في مقام معين ، مما يضمن التواصل وإحداث التأثير في المتلقي بإقناعه بالقضية المراد تبليغها ، كما أن الاعتراض هنا يحمل وظيفة داخلية باحتلاله موقع (بؤرة) ، المقابلة بين أجزاء الكلام (الخلق المنظور، الخلق الموعود) ، وتنتمى لإظهار قدرات الخالق استعان بالتقرير ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ وجاءت بصيغة الجمع ، لاشتمالها على أمور كثيرة ولعل منها : القدرة على الخلق ، وصدق موسى ، وبراءة المتهم ، وتعيين القاتل ، الخ . والفعل الختامي يقرر حقائق مهمة أبرزها : أن تعقلوا الحياة بعد الموت ، وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس واحدة قادر على إحياء الأنفس كلها .

الفعل التأثيري :

الغرض الكلامي يتمثل في حمل المخاطبين على القيام بفعل معين ، مع إحداث التغيير بانجاز حدث اجتماعي ، ولعل الفعل الناتج عن القول متمثلا في فعل المطاوعة ، والاهتداء إلى المراد بالأمر ، والخضوع لمقاصد المتكلم ﴿وَأِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ فالهداية حاصلة لهم ، وكذلك في الاستجابة بالفعل ﴿فَذَخَوْهَا﴾ حيث دل على ثبوت الفعل لهم ، واقتناعهم وتسليمهم بشناعة العمل الذي أقدموا عليه .

الفعل الكلامي المركب :

يجمع هذه المحاور مقصد المتكلم ، ممثلا في ترسيخ عقيدة الإحياء بعد الموت ، وإقناع المخاطبين بها ، كما تتدعم المتوالية السردية بخاتمة وعظية ، مجسدة في العبارة الختامية التي تفيد تقرير الحقيقة ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا القول يؤكد ما ذكرناه من شيوع التقريريات في هذه القصة .

(1) - للاعتراض في القرآن الكريم بلاغة خاصة تختلف عن بلاغة الشعر والنثر وتعكس أغراضا خاصة تتضح خلال السياق . (انظر : الإطناب في القرآن الكريم . مختار عطية . ص 495)

(2) - أحمد المتوكل . الوظائف التداولية في اللغة العربية . ص 174.

(3) - كاهنة دحمون . الجملة الاعتراضية . بنيتها ودلالاتها في الخطاب الأدبي . دراسة تداولية . ص 95 .

خصائص التحاورات وقوانين الخطاب :

لرصد ظاهرة التحاور في هذه المدونة السردية وبيان مدى موافقة التحاورات لتلك القوانين .

التعاون : حيث يلاحظ إسناد البيان في كل مرة إلى الله عز وجل لإظهار كمال المساعدة في إجابة مسؤولهم⁽¹⁾

مثل قوله : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ... ﴾ واستعمل لفظ (يقول) للإشارة إلى أنه من عند الله تعالى لا من عند موسى ، وشخصية موسى وتمثل وسيطا محايدا في الحوار .

التأدب : أن طلب بني إسرائيل لكشف الزائد من أوصاف البقرة قد صاحبه اعتذار لتكرير الطلب

﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ ، وكذلك نجد خاصية التأدب في مواضع أخرى من الحوار ففي قوله تعالى على لسان

موسى : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فيه قدر كبير من التواضع والتأدب وهو ما سماه أوزفالد ديكر

O. Ducrot : "بقانون التلطيف" .⁽²⁾

الإقناع : يسعى النص السردى القرآني إلى إقناع المخاطبين بالقضايا التي يبلغها ، ويرسخها من خلال التمثيل

والمقارنة ، والتعجيز ، والتحدي في كشف ما خفي ﴿ وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، وكذلك إظهار قدرة الله على

الخلق ، وإظهار براءة غير القاتل ، وعلى تعيين التهمة على الجاني .

الاستراتيجية التوضيحية (الإخبارية) :

لأن الإخبار لا يمثل إلا إحدى غايات التوضيح ، فقد يكون التوضيح أيضا لغرض الإقناع ، وقد توفر الخطاب السردى على مسلمات تحاورية مهمة ، والتوضيح هو الاختيار الملائم ، وإلا كان اختياره خرقا لهذه المسلمات ، ومن أهم متطلباته السياقية جهل المخاطب بالموضوع ، مثل : (صفة البقرة) ، (الجهل بالقائل) ، كما يعد الاستفهام أحد وسائل التوضيح ، وذلك نظرا لكثرة الأسئلة ، أما الوسائل اللغوية التي استعملها السياق في إنجاز استراتيجية التوضيح ، نجد الأفعال الكلامية ذات الوظيفة التوضيحية مثل التقريريات ، وصيغ التوكيد ، أما الأفعال الكلامية غير المباشرة فتعد من أهم أدوات الاستراتيجية التلميحية .

الاستراتيجية الحجاجية :

فتتجلى بوضوح في امتزاج الإقناع بالإمتاع ، وقد تزوج الأساليب " فتكون إذ ذاك أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب وتوجيه سلوكه لما يصحب هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء ونفوذ في إشهادها للمخاطب كأنه يراها رأي العين " .⁽³⁾ فاختيار النمط القصصي والأسلوب البياني هو مزاجية بين الإقناع والإمتاع . كما أن مفهوم الاقتضاء التداولي يقدم تفسيراً صريحا لمقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول ففي قولهم : ﴿ أَتَّخِذُهَا هُزُوءًا ﴾ فيه استفهام اقتضى الخروج عن

(1) - ينظر : الألوسي . روح المعاني . 1 / 403

(2) - O.Ducrot . Dire et ne pas dire . p 137 .

(3) - طه عبد الرحمن . في أصول الحوار وتجديد علم الكلام . ص 38 .

حقيقته إلى معان أخرى كالإنكار ، والاستهزاء ، والتبويه وقيل هو "استفهام حقيقي" .⁽¹⁾ وأن موسى لم يرددهم بالإجابة مباشرة (لا أستهزيء بكم) ؛ لأن في الهزء مزحا مع استخفاف واحتقار للمزوح معه على أن المزح لا يليق في المجامع العامة ، ولا بمقام الرسول ولذا نفى موسى أن يكون من الجاهلين كناية عن نفي المزح بنفي ملزومه .⁽²⁾ ويتوزع الفعل الكلامي (التقريع) على مقطعي القصة بحيث يرى الزمخشري : أن هذه القصة مكونة من قصتين : " وهاتان القصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع ، وإن كانتا متصلتين متحدتين ، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك الامتثال وما يتبع ذلك ، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة."⁽³⁾ ولعل ما دفعه إلى هذا التقسيم راجع إلى تقنية الاستباق والاسترجاع الزمنيين المستعملين في القصة .

الخروج عن مقتضى الظاهر في الخبر :

قد يقوم المبدع بتشكيل البنية اللغوية على خلاف مقتضى الظاهر ، مراعاة لاعتبارات تداولية تظهر من خلال السياق ، فالمتكلم قد يورد كلاما في غير الصورة التي يجب أن يخرج الكلام عليها ، في الظاهر فقد يخاطب خالي الذهن بخطاب المتردد أو المنكر ، وقد يخاطب المنكر بخطاب خالي الذهن أو المتردد ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخُوا بِقَرَّةٍ ﴾ فقد جاء الخبر على الضرب الإنكاري ، وباعتبار حال المخاطب فقد أكدت الجملة بمؤكدتين (إن + إسمية الجملة) بينما الأصل أن يكون الخطاب في صورته الابتدائية . فمقتضى حال القوم أنهم خالو الذهن ، فهم الذين توجهوا له وسألوه ماذا يفعلون ، فجاء جواب موسى منزلا إياهم منزلة المنكرين ، وهذا العدول مراعاة لحال المخاطبين من بني إسرائيل فهم لا يخرجون من تكذيب الأنبياء وقتلهم ، وموسى على علم بهذه الطباع .⁽⁴⁾ وذلك معلوم في إطار الخلفيات المشتركة بين المتخاطبين ، ومن ثم جاء سياق الآيات يؤكد تلك الحقائق فإن القاتل ذهب هو وأقرباؤه إلى موسى وطلبوا منه أن يخبرهم عن القاتل ظنا منه أن موسى لن يتعرف عليه . وعندها أمرهم موسى بذبح البقرة . ثم ذبحوها . وهنا كان السياق هو الذي يستدعي العدول عن مقتضى الظاهر .⁽⁵⁾

(1) - أشواق محمد اسماعيل . الاقتضاء . دلالاته وتطبيقاته في القرين الكريم . ص 342.

(2) - ينظر : الطاهر بن عاشور . التحرير والتنوير . 530/1 ، وينظر أيضا : القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 303/1

(3) - الزمخشري . الكشلف . 145/1.

(4) - ينظر : محمد أحمد أبو عامود . البلاغة الأسلوبية . ص 31.

(5) - ينظر : المرجع نفسه . ص 32 .

قصة طالوت وجالوت

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ هُمْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأُتْبِئْنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ ﴿٦٥﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٧﴾

تحتوي هذه القصة على أخبار بني إسرائيل من بعد موسى وما حصل لهم مع نبيهم يوشع .

ويستعمل السياق القرآني مصطلحات سردية في رواية الأخبار مثل: 0 حديث ، نبأ ، قص ، خبر ، أساطير وغيرها مع غياب مفهومي : حكاية و خرافة . من القرآن غيابا تاما .⁽¹⁾ ويلاحظ أن مصطلح

(1) - سعيد جبار . الخبر في السرد العربي . ص 16

النبا في الغالب كان يحيل على مفهوم الخبر القصصي . " وعند الرجوع إلى الآيات التي ورد فيها هذا المعنى ، نجد أن النبا كان يقترب في الغالب بفعلين أساسيين هما : أتْل ، نقص ، . وليست التلاوة إلا صورة من صور الإخبار ."⁽¹⁾ وفي هذه القصة قيد الدراسة استعمل مصطلح التلاوة في قوله : ﴿تَلَّكَ

ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ . والملاحظ أن هذا المصطلح جاء في آخر القصة ، وكان من عادته ذكر ذلك في

أول القصة . " والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيها من أمر أو نهى ، وترغيب أو ترهيب ، أو ما يتوهم فيه ذلك وهو أخص من القراءة ، فكل تلاوة قراءة ، وليس كل قراءة تلاوة ، ولا يقال تلوت رفعتك ، وإنما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه"⁽²⁾ وتتم القصة بثلاث مراحل هي :

1- مرحلة البداية :

تبدأ القصة بمخاطبة المولى عز وجل لنبيه الكريم (ص) بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ...﴾ فقد بدأ باستفهام معبر عن فعل إنجازي يفيد التعجب ، وعبر عن الحادثة بالرؤية "كأنها حادث واقع ومشهد منظور."⁽³⁾ وقد طلبوا من نبيهم أن يقيم لهم أميرا للقتال ، وفي موقف حوار بين النبي وجنوده سألهم نبيهم مستفهما بحكم معرفته المسبقة بهم : ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ وهو يريد بذلك الاستفهام إنجاز فعل كلامي متضمن في القول هو التقرير بإثبات ما كان يتوقعه منهم من جبن في القتال ولإثبات صدقهم وعزمهم على القتال ، ردوا على نبيهم بفعل كلامي هو النفي بقولهم : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وغرضهم من ذلك هو تحقيق فعل متضمن هو الإخبار بأنهم يقاتلون لا محالة ، وقد دعموا القوة الإنجازية لقولهم بإفراد الأبناء بالذكر تقوية لأسباب القتال ⁽⁴⁾ بقولهم : ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيرِنَا وَأَبْنَاءَنَا﴾ وحينما دعوا إلى القتال أعرضوا عنه ، وهنا يحدث تحول في مسار الأحداث .

2- مرحلة التحول :

في القسم الثاني من هذه القصة يتدخل الراوي ليواصل سرد الأحداث ، وقد حصل التحول حينما أعرض بنو إسرائيل عن تنفيذ أمره تعالى بالقتال ، إلا طائفة منهم قال : ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا

(1) - سعيد جبار . مرجع سابق . ص 17

(2) - الراغب الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن . ص 167 .

(3) - سيد قطب . في ظلال القرآن . 266/1 .

(4) - الألوسي . مرجع سابق . 769 / 2 .

قَلِيلًا مِّنْهُمْ» ثم ذيل على ذلك الخبر بقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ لتحقيق فعل إنجازي ضمني هو الوعيد على ترك الجهاد. ثم يستأنف الحوار بين النبي يوشع وجنوده بتمهيد إخباري : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فردوا عليه باستفهام يعبرون به عن إنكارهم لملكه عليهم: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ ويراد به الاستفهام الحقيقي أو التعجب ، والدافع لتعجبهم هو اعتبار ما اعتادوه من توارث الحكم ، ثم رد عليهم نبيهم بأبلغ رد : ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَمَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمِ بِهَذَا الْخُطَابِ آدَاءُ وَظِيفَةُ إِقْنَاعِيَّةٍ ، أَفْضَلِيَّةُ الْفَضَائِلِ الْنَفْسَانِيَّةِ (العلم) عَلَى الْفَضَائِلِ الْجِسْمَانِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ قَدِمَ (العلم) . وَالْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِذَلِكَ تَأْدِيَّةَ فِعْلِ إِنْجَازِي هُوَ : النَّهْيُ عَنْ اسْتِبْعَادِ الْقَائِدِ بِسَبَبِ فَقْرِهِ ، وَرَجْعِ سِيَاقِ التَّلَفُّظِ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى سَرْدِ الْأَخْبَارِ ، وَإِيقَافِ الْحَوَارِ ، لِيَفْسَحَ الْمَجَالُ لِإِظْهَارِ مَعْجَزَةِ يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهَا قَائِدَ الْجَنْدِ ، مُسْتَعِينًا بِتَقْنِيَّةِ الْاسْتِبْقَاءِ الزَّمْنِيِّ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ " إن الإخبار بمجيء التابوت شكل استباقا تكميليا جاء لسد ثغرة سردية مقدما ؛ إذ لم يذكر بعد ذلك مجيء التابوت ."(1) ليتحقق الفعل بطريقة صريحة ، ومراد المتكلم الإخبار بما سيكون ، ثم جاء الخطاب ابتداء من المتكلم الله عز وجل إلى الرسول (ص) جاء به قبل تمام القصة إظهارا لكمال العناية وهذا استباق زمني آخر عندما فصل طالوت بالجنود قال لهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ فقد أعلن السياق "عن أحداث ستحصل لاحقا وسيرويها السرد وهو استباق تكراري مباشر أراد به المتكلم (طالوت) أن يختبر جنوده ... لكن بني إسرائيل أخفقوا بهذا الاختبار ."(2) . فالجملة تتضمن فعلا إنجازيا يتمثل في النهي عن الشرب ، وقوله فشربوا منه ، في قوة أن يقال : فلم يطيعوه ."(3) ويوافق الألوسي بمصطلحه (قوة) مفهوم القوة المتضمنة في القول ، المستعمل اليوم في الفلسفة التحليلية ويراد به المعنى الضمني.

ويستمر عرض القصة بحيث يقتضي المقام إبراز موقف المؤمنين قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ وغرض هذا الإخبار تأدية فعل إنجازي متضمن في القول هو التتويه بشأنهم ، وفيه استراتيجية تلميحية إلى أن من عاداهم بمعزل عن الإيمان ، ثم يتفرع الحوار في المقطع الموالي ليصبح حوارا بين الجنود بعضهم مع بعض : ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وذلك لأداء غرض إنجازي ، في إظهار ضعف لا نكوص (4) ويزداد موقف

(1) - بشار إبراهيم نايف . البنية الزمنية في القصة القرآنية . ص 99.

(2) - المرجع نفسه . ص 100 .

(3) - الألوسي مرجع سابق . 775/2

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 776/2.

المؤمنين صلابة بقولهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وقد أراد المتكلمون بهذا الإخبار إنجاز فعل كلامي غير مباشر هو التشجيع ، ويميل الحوار نحو الإستراتيجية التوضيحية لحاجة المخاطبين إلى المزيد من التأكيد والإقناع وتوضيح العمليات التي يقوم بها القائد باختبار الجيش لتمحيص الصف قبل خوض المعركة ، ونظرا لكثرة اعتراضهم على قائدهم وترددهم ، تكررت الأفعال الكلامية : كالاستفهام ، والتقرير ، والوعيد ، والنفي ، والنهي ، والتثويه والتشجيع ، والإثبات . وفي مقام الخوف أثناء المواجهة بين الجيشين ، اقتضى الموقف التوجه إلى الله بالضراعة والدعاء : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ولمناسبة الموقف التخاطبي استخدم المتكلمون عناصر تدعم القوة الإنجازية للفعل المتضمن في القول " بلطافة الدعاء وحسن الأسلوب ومنها : التوسل بوصف الربوبية (ربنا) ومنها التعبير بلفظ (الإفراغ) الدال على الكثرة ، وفيه جعل الصبر بمنزلة الماء المنصب ، ومنها تنكير لفظ (صبرا) الدال على التخميم .⁽¹⁾

قصة إبراهيم (مناظرة الطاغوت)

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

عرضت القصة مناظرة بين إبراهيم عليه السلام وبين طاغية متجبر مغرور ، حجبته ظلمات طغيانه عن رؤية الحقائق . فبدل أن يشكر الله أنكر وجوده ، وأخذ يخاصم ويجادل في ذلك ولكن السياق لم يذكر اسمه . " ولل قصة صلة مباشرة بآية الكرسي ، وما قررته من صفات الله ⁽²⁾ بدأت المحاوره بقول إبراهيم ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ قيل إنه جواب لسؤال الطاغية . فبرهن إبراهيم على وجود الله باتصافه بالإحياء والإماتة . فأجاب المغرور بالإدعاء لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة بحجة عبثية واهية * ثم واجهه إبراهيم بحجة ساطعة قاطعة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ فهذه حجة واقعية ملموسة مشاهدة وهي حقيقة كونية نراها يوميا . وكانت النتيجة هي : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ فغلب

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 777/2

(2) - سيد قطب . في ظلال القرآن . 1 / 296 .

* - كانت حجته بالعفو عن المجرم الذي يستحق القتل . و قتل البريء ، وقد التبس عليه الأمر فلم يميز بين حقيقة الإحياء والإماتة وبين إصدار الأوامر الظالمة .

المغرور ، وصار مبهورا ، متحيرا لاستيلاء الحجة عليه .⁽¹⁾ وهذا الحوار يعرض على الرسول (ص) وأصحابه في أسلوب التعجيب من هذا المجادل .
طريقة عرض الأفعال :

استعانت القصة بجملة من الأفعال الكلامية هي : الاستفهام ، الإنكار ، الأمر ، الإخبار ، التقرير ، التعجيب ، الإدعاء ، والتعجيز .

- الاستفهام : في همزة (ألم) وبه يعبر عن فعل كلامي متضمن في القول هو إنكار النفي، وتقرير المنفي.

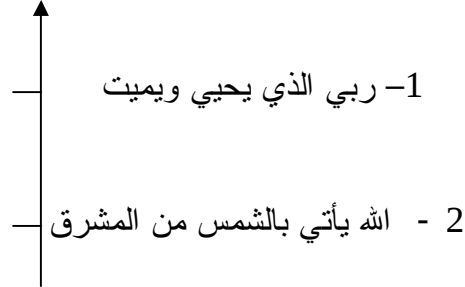
- التعجيب : (ألم تر) ؛ أي ألم تنتظر ؟ سؤال تعليم وتعجيب .

- الإدعاء : (أنا أحيي وأميت) .

- الأمر : (فات بها من المغرب) . ويتضمن هذا الأمر فعلا كلاميا مباشرا هو : التعجيز .

أما على مستوى الفعل التأثيري الناتج عن القول بتقسيم أوستين Austin فإن القصة تكشف عن خضوع المجادل واستسلامه وهو فعل مصرح به (فبهت الذي كفر) وبذلك يتحقق الغرض من الفعل ممثلا في حمل المخاطب على الاستجابة ويتأكد ذلك باستخدام الإستراتيجية الحجاجية : فقد توجه إبراهيم عليه السلام إلى مخاطبه قصد إقناعه ، فوظف حججا لم تكن على درجة واحدة بل تفاوتت وفق مفهوم السلال الحجاجية ، بحيث نجد توظيف ترتيب حجاجي كآلية للإقناع ، إذ تدرج معه وانتقل من الحجة إلى حجة أخرى أقوى وأوضح كما تظهر في الشكل التالي :⁽²⁾

إبطال دعوى نمروذ



إن هذا الاستدلال خاضع لفكرة المراتب الحجاجية التي تعرض لها كل من ديكرود Ducrot و أنسكومبر Anscombe فالمراتب الموجهة قصديا تكون متفاوتة فيما بينها ، وتختلف من جهة قوتها مما يجعل قوة الحجاج ترتفع كلما ارتفعت الحجة الموظفة للتدليل الثانية (2) أقوى من الحجة الأولى (1) . ومن ثم فقد أدى الحجاج وظيفته بإدخال حجة المجادلة وتشخيص القصة ، وتحقيق رؤيتها والخطاب موجه إلى الرسول (ص) مخبرا إياه عن مصير ذلك الطاغية تطييبا لنفسه ، وتبشيرا بالنصر على الطغاة ، والغرض العام من إيراد هذه الأفعال هو إبطال دعوى نمروذ . إن حجاجية القول هنا تظهر في كونه يسد مسد دليل له مدلول يفهم من السياق، ويقصد به المتكلم إلزام المخاطب بالتصديق به ، والإنتهاض للعمل وفقه ، بيد أن هذا عند ديكرود وأتباعه ليست دلالة

(1) - ينظر : عبد الحميد طهماز . الإسلام لله تعالى في سورة البقرة . ص 292.

(2) - ينظر : رضوان الرقبي . الاستدلال الحجاجي التداولي . مقال . مجلة عالم الفكر . مجلد 40 / 2011

أخلاقية ، بل منطقية تجعل المخل بها واقعا بالأحرى في فساد القول وحده (1) وهذا الذي حدث لنمرود ، لكن إبراهيم لم يحاول إبطال حجة خصمه لأنها بعيدة عن المقصود ، ومن ثم انتقل إلى دليل آخر . ولكن كيف يحاج في ربه وقد آتاه الملك ؟ فقد يكون ذلك " من باب العكس في الكلام بمعنى أنه وضع المحاجة وضع الشك والحلة تهكمية كما تقول : عاداني فلان لأنني أحسنت إليه." (2)

قصة عزيز

قال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۖ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ ﴾

هذه قصة أخرى معطوفة على القصة السابقة ، المتكلم فيها هو الله عز وجل ، والمخاطب هو الرسول (ص) والمحاورة جرت بين المخاطب ونبي الله عزيز وكان الحوار غير مباشر إنما كان بواسطة الوحي . وقد تشكلت البنية السردية من مراحل ثلاث (- حالة الابتداء ، - حالة التحول ، - حالة النهاية) وسنعرض للأفعال الكلامية في كل حالة منها مع إبراز أبعادها التداولية .

1- حالة الابتداء : Etat – iniziale فقد استهل الراوي القصة مستخدما أفعالا كلامية غير مباشرة ، أولها الاستفهام الموجه إلى الرسول (ص) في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ﴾ ويراد بالاستفهام إنجاز فعل كلامي متضمن في القول هو (التعجب) بمعنى : أرايت ! وغرضه تقديم وصف للفضاء المكاني الذي جرت فيه الأحداث وهو القرية المدمرة الخالية من أهلها . ثم انتقل الراوي إلى استفهام آخر ولكن في هذه المرة على لسان عزيز : ﴿ قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ ﴾ ويريد من وراء ذلك تحقيق غرض إنجازي أو أكثر ، فقد يريد إظهار التشوق إلى عمارة الله تلك القرية أو ينشئ إقرارا

(1) - رضوان الرقبي . مرجع سابق . ص 90 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 3 / 23 .

بالعجز عن معرفة طريق الأحياء ، أو يكون استعظاما لقدرة الموحى .⁽¹⁾ وقد جرى كل ذلك في حوار داخلي (مساءلة ذاتية) .

2- **حالة التحول:** تبدأ هذه المرحلة بموت عزيز ، فأخبر الراوي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تُهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ﴾ ثم عطف عليه بخبر آخر بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ ثم يبدأ بعد ذلك حوار ثنائي خارجي بسؤال الراوي مستفهما ومستخبرا وهو عارف بالجواب ، إذ الاستفهام صريح في الخطاب الإلهي لأنه ليس بحاجة إلى استفهام وهو المطلع على كل شيء ، وإنما يسأل المقاصد مختلفة أهمها : إقامة الحجة على الناس وإنما الغرض من الاستفهام السابق إنجاز فعل متضمن في القول هو: إظهار العجز عن الإحاطة بشؤون الله ، ثم جاء الجواب عن السؤال في قوله: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ولتصحيح الجواب استعمل السياق (بل) مخبرا ومقررا للحقيقة في قوله: ﴿بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ﴾. ثم استعان بالحجاج الإقناعي كاستراتيجية في الخطاب اقتضتها مرحلة التحول ، وذلك بمتواليه من أفعال الأمر مختلفة الأغراض متنوعة المقاصد ، تمثل نوعا من الأمر وهو الذي تسميه يمنى العيد : "الطلب الذي يقرب معناه من معنى الأمر ، أو هو الأمر المخفف اللبق."⁽²⁾ فالأمر الأول جاء في قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ...﴾ وغرضه تحقيق فعل إنجازي هو : الطمأنة والإقناع ، ثم ينتقل متدرجا إلى الأمر الثاني في قوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ...﴾ وهو يؤدي غرضا إنجازيا يتمثل في دعوة عزيز إلى النظر للمعينة لما استعظمه. ثم كرر الأمر بقوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ...﴾ وغايته تحقيق عرض إنجازي هو الدلالة على المكث المديد .

3- **الحالة النهائية:** وتأتي هذه المرحلة لوصف نهاية القصة وتبين كيف صرح عزيز مخبرا ومقررا للحقيقة المطلقة التي من أجلها جاءت القصة وهذه الحقيقة ناتجة عن المعاينة والنظر ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. معبرا عن قوة متضمنة في القول هي الاستعظام للأمر . وفي بعض القراءات* أنه هو الذي يوجه هذا الأمر إلى نفسه بقوله (إعلم) ليعبر عن فعل إنجازي آخر هو التبكيت والتوبيخ لنفسه لما اعتراها من ذلك الاستبعاد ، فبذلك تنتهي المرحلة الأخيرة من القصة وهي المرحلة التي تسمى : "حالة استرجاع التوازن"⁽³⁾ أما الفعل الكلامي التأثيري الذي يختص بالمخاطب ، فهو يتجلى في المرحلة الأخيرة متمثلا في كون المخاطب استجاب واقتنع . وقد أدت الأقوال غرضها الذي هو حمل المخاطب على القيام بفعل ما ، أو الاعتقاد به ، فقد صرح المخاطب بمعتقدته بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن ثم تتحقق وظائف الأفعال الكلامية بحيث يرى فوندرليش Vanderlich أن الفعل الكلامي يمكن أن يشغل وظائف عدة في وقت واحد ، فيمكن للمنطوق أن يكون إقرارا من الناحية الدلالية ، ولكن من الناحية التداولية قد يكون إقناعا ، أو استعظاما ، كما حصل في هذه القصة .

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 29 /3

(2) - يمنى العيد . في معرفة النص . ص 186

(3) - السيد ابراهيم . نظرية الرواية . ص. 43

لقد ساهم الحوار الحجاجي في إبراز تلك المنطوقات المتدرجة نحو الإقناع بدءًا من الأدنى نحو الأعلى ،ومن المبسط إلى المركب : (أنظر إلى طعامك ... + أنظر إلى حمارك ... + أنظر إلى العظام ...) ويمكن تمثيل ذلك وفق مفهوم السلالم الحجاجية :

إقناع المخاطب بقدرة الله على الإحياء

- 3 - (أنظر إلى العظام)
- 2 - (أنظر إلى حمارك)
- 1 - أنظر إلى طعامك ...)

نلاحظ في هذا الشكل العلاقة الترتيبية التي تستوفي الشروط في كون " كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم منه ما يقع تحته ، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه . وإن كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه ."⁽¹⁾ إن تنظيم الحجاج مكون من مكونات الإعجاز البلاغي للنص القرآني " الذي عليه ترتيب الحجج حسب ترتيب قواها تبعا لحالة المستمع (المقام المستمعي)."⁽²⁾ فالوظيفة الحجاجية تزيد من فاعلية الفعل الكلامي كوظيفة الإقناع ، كما تساهم في كشف مقاصد الخطاب القرآني، ممثلا في المقصد التشريعي، أو التعليمي ،أو التوضيحي ملتزما بقوانين الخطاب ومبادئ التعاون الحوارية ، وتنوع التحويلات (داخلية وخارجية) مع إيجاز مناسب ممثلا في قصر الملفوظات كقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ ﴾ و ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ و ﴿ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ . أما الفعل الكلامي المركب فيظهر في هذه المحاورة ممثلا في (الإقناع) إقناع المخاطب بقدرة الخالق على البعث والإحياء ، وكل الأفعال الكلامية الواردة في سياق الحوار تتدرج تحت فعل الإقناع بما تتضمن من : أمر ، واستفهام ، وإخبار ، وتقدير ، وتعجيب ، وتعجيز ، وتوبيخ ، وتبكيث ، واعتراف ، وطمأنة ويتجلى الأثر النصي للأفعال الكلامية في انسجام النص وتسلسل أحداثه ،فجاء الخطاب آخذا بعضه برقاب بعض ، مفيدا في تكراره وفق (قاعدة التطور) . ويعني مصطلح التطور " أن يحمل الخطاب الملفوظ في تطوره دلالة جديدة ، فلا يكرر بعضه دون أن يتطور."⁽³⁾

وتتوفر القصة القرآنية المدروسة على هذا الشرط وهذه القاعدة ، كما يساهم التكرار في تحقيق تلك الغاية في كون التكرار في القرآن يرتبط بغايات تداولية تراعي أحوال المخاطبين،

(1) - طه عبد الرحمن . اللسان والميزان . ص. 277

(2) - محمد العمري . البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول . ص . 226 .

(3) - عز الدين الناجح . دراسة حكمة عطائية . مقاربة تداولية . مقال ص 33 .

كما روعيت عقولهم وأفهامهم ، وأجناسهم كما يكثر في مواعظ الزجر ، وبيان مصائر العباد من جنة أو نار " كما يكثر في سياقات الوعد والوعيد والعظات في القصص القرآني . " (1)

قصة ابراهيم

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰمُ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

جاءت هذه القصة في بنية قصيرة قائمة على محورين هما : الطلب /الجواب ، ومن ثم فإن للطلب أفعال كلامية مناسبة ، وللجواب أفعال كلامية مناسبة أيضا . ويتضمن الطلب مقطعا حواريا ثنائيا بين الله عز وجل و نبيه ابراهيم عليه السلام ، غرضه توضيح المزيد من التفاصيل حول المطلوب ، والأفعال الكلامية المستعملة في المرحلة الأولى هي :

الإخبار : في قوله ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾

النداء ، والدعاء ، والاستعطاف : في قوله ﴿ رَبِّ ﴾ وفيه معنى الاستعطاف شرع ذكرها قبل الدعاء مبالغة في استعداد الإجابة .

الأمر : في قوله ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ ففيه الطلب ، والدعاء . (2)
" طلب الأدنى من الأعلى ، والمخلوق من الخالق على سبيل الاستغاثة والعون والتضرع . " (3) ويسميه ابن فارس " المسألة " (4)

الاستفهام : في قوله تعالى : ﴿ أُولَٰمُ تُؤْمِنُ ﴾ ؟ الاستفهام بكيف سؤال عن شيء متقرر الوجود عند

السائل والمسؤول - التقرير في قوله : ﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ . وهو تقرير دال على الإيمان والإخلاص ؛ أي آمنت بذلك ، ولكن سألت ليسكن قلبي ، وهذا الكلام في غاية الوضوح وهي الطمأنينة اللائقة بمقام النبوة،

(1) - مختار عطية . الإطناب في القرآن الكريم . ص 494.

(2) - زهير غازي زاهد . في النص القرآني وأساليب تعبيره . ص 149

(3) - ابراهيم عبود السامرائي . الأساليب الإنشائية في العربية . ص 26.

(4) - ابن فارس . الصحابي . ص 297.

أما في المرحلة الثانية من القصة ، فقد استعمل صنفا واحدا من الأفعال الأمرية الصريحة مكررة ومتتابعة وهي: - (قال فخذ أربعة من الطير) - (فصرهن إليك) - (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) - (ثم ادعهن يأتينك سعبا) - (واعلم أن الله عزيز حكيم) .

فهذه الأوامر هي أفعال كلامية مباشرة : (- خذ - صرهن - اجعل - ادعهن - واعلم) فهذه المرحلة هي مرحلة الجواب ، مقتصرة على الأوامر فقط . فهي بالتالي خالية من النداء والاستفهام وغيرها . فقد اقتصر سبحانه على حكاية أوامره جل شأنه من غير تعرض لامتنال خليله عليه الصلاة والسلام ، ولا لما ترتب عليه من آثار قدرته للإيدان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور . بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلا . وفيه دليل على فضل الخليل ، وعن الضراعة في الدعاء و حسن الأدب في السؤال⁽¹⁾ . ومن هنا تتضح الاستراتيجية المستعملة في عرض القصة وهي الاستراتيجية التلميحية التي تعتمد على الإيجاز والحذف . وهو من مقتضيات تداولية الكم الخطابي ، فقد قال الجرجاني : "ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدر أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين."⁽²⁾ هكذا إذن استغنى السياق القرآني عن ذكر بقية القصة لأنها معلومة ، وهذا من مقتضيات التداولية ، ولم يتضح الفعل الكلامي التأثيري إلا بطريقة ضمنية ممثلا في قوله (ليطمئن قلبي) فقد سكن قلبه .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

التحريض : استئناف ابتدائي للتحريض على الجهاد . لأن هذه السورة نزلت في مدة صلح الحديبية . وأنها تمهيد لفتح مكة . فالقتال من أهم أغراضها . ولذلك ختم هذه القصة بالأمر : وقاتلوا في سبيل الله .⁽³⁾
التذكير : تذكير بأن الحذر لا يؤخر الأجل .
موقع القصة :

وقعت قبل قوله تعالى : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ موقع ذكر الدليل قبل المقصود وهذا طريق من طرق

الخطابة أن يقدم الدليل قبل المستدل عليه لمقاصد .

فالكلام رجوع إلى قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ ﴾ وفصلت بين الكلامين الآيات النازلة خلالها المفتحة بـ ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ . والمقصود من مثل هذا التقديم الاهتمام والعناية بالحجة قبل ذكر الدعوى تشويقا للدعوى أو حملا على التعجيل بالامتثال .⁽⁴⁾ واعلم أن تركيب ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ... ﴾ إذا جاء فعل الرؤية فيه متعديا إلى ما ليس من شأن السامع أن يكون رآه كان كلاما مقصودا منه التحريض على علم ما عدى إليه فعل الرؤية ... ولذلك تكون همزة الاستفهام مستعملة في غير معنى الاستفهام بل في معنى مجازي أو كنائي

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 40/3

(2) - الجرجاني . دلائل الإعجاز . ص 112 .

(3) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . 475 / 2 .

(4) - ينظر : المرجع نفسه . 476 / 2 .

من معاني الاستفهام غير الحقيقي. ويتضمن فعل الرؤية في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَى﴾ معنى النظر ، فحصل الإدعاء أن هذا الأمر المدرك بالعقل كأنه مدرك بالنظر ، وجاء الاستفهام إنكاريا أيضا لعدم علم المخاطب بمفعول فعل الرؤية ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا ...﴾ واعلم أن هذا التركيب جرى مجرى المثل.

التعجب : في قوله تعالى : ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فالتعجب من هؤلاء القوم الذين تركوا ديارهم جبنا وهم أُلُوف .

الغرض من القصة : إن الفعل الكلامي الأمري ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يدل على أن المتكلم أمر المخاطبين بالجهاد ونتج عن هذا الأمر انقسام الناس إزاءه إلى فئتين : فئة المثبطين عن القتال حبا للحياة وهم المعنيون بهذه القصة . وفئة تحفزهم رغبة الموت في سبيل الله وهم المذكورون في القصة الثانية . فضرب الله لهذين الحالين مثلين . وقد قدم أحدهما وآخر الآخر ليقع فعل التحريض على القتال بينهما . وتتضمن سلسلة الأفعال الكلامية في هذه القصة تشنيع حال الذين استسلموا و خرجوا من ديارهم مع كثرتهم وهذه الحال أنسب بأن تقدم بين يدي الأمر ﴿وَقَاتِلُوا...﴾ لأن الأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لا محالة ، موضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم

ملخص القصة : قوم خرجوا خائفين من أعدائهم فتركوا ديارهم جبنا ، وقد خالفوا على نبي لهم في دعوته إياهم للجهاد . ففارقوا وطنهم فرارا من الجهاد . فتكون القصة تمثيلا لحال أهل الجبن في القتال بحال الذين خرجوا من ديارهم بجامع الجبن . ولما أخلوا الديار لعدوهم وقعت لهم مصائب في طريقهم وأمراض ثم نجوا وبرئوا ولكن ﴿قَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ والموت قد يكون حقيقة أو مجازا . والأمر هنا **للتحقيق** ورميا لهم بالذل والصغار ثم أحياهم والغرض من هذا **موعظة** المؤمنين بترك الجبن وأن الخوف من الموت لا يدفع الموت . ومحل العبرة من القصة هو : أنهم ذاقوا الموت الذي فروا منه ليعلموا أن الفرار لا يغني عنهم شيئا ، وأنهم ذاقوا الحياة بعد الموت ، ليعلموا أن الموت والحياة بيد الله كما قال تعالى : ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ . وجملة : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ تتضمن فعلا كلاميا يقرر الأحكام السابقة ويعلل جملة ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ والمقصود الذي يريده المتكلم من المخاطبين هو التحلي بخلق الاعتماد على الله في جميع الأمور . ويرسخ فيهم خلق الشكر ليزيدهم من فضله . وجملة : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيها فعل كلامي مباشر هو الأمر . والأمر يقتضي الوجوب . فيكون وجوب القتال هو المقصود الأول . وما قبلها هو تمهيد لها ويمكن ترتيب الأفعال الكلامية في القصة كالتالي :

- **التشويق :** بداية القصة ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ .
- **الاستفهام :** ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ﴾ إنكاريا لعدم علم المخاطب به .
- **التعجب :** ﴿خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ هم أُلُوف لكنهم فروا بسبب الجبن .
- **التحقيق :** فعل كلامي وارد في الأمر ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا...﴾ .
- **التحذير والتذكير :** فعل كلامي وارد في الأمر ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تحذير من ترك القتال وحث على الشجاعة وأن الحذر لا يؤخر الأجل ، التذكير بإحاطة علم الله تعالى بجميع المعلومات .

الفصل الرابع

التوجيهيات (الأمريات)

Directives

المبحث الأول : أحكام الصيام

المبحث الثاني : أحكام الجهاد

المبحث الثالث : أحكام الحج

المبحث الرابع : أسئلة الصحابة

المبحث الخامس : أحكام الأسرة

المبحث السادس : أحكام المعاملات المالية

التوجيهيات (الأمریات) Directives

تعريف التوجيهيات :

يتناول هذا الفصل القسم الثاني من أقسام الفعل الكلامي ، وهو التوجيهيات ، وتسمى أيضا الأمریات ، وهي نوع من أفعال الكلام التي يستعملها المتكلمون لجعلوا شخصا آخر يقوم بشيء⁽¹⁾ . وغرضها الإنجازي هو توجيه المخاطب إلى الفعل ، ومحاولة التأثير فيه⁽²⁾ . واتجاه المطابقة فيها هو جعل العالم يلائم الكلمات ، (س يريد ص) وشرط الإخلاص فيها يتمثل في إرادة المتكلم حدوث الشيء ، أما الشرط المعد لها فهو قدرة المخاطب على أداء المطلوب منه وتنقسم التوجيهيات إلى قسمين هما : توجيهيات نفسية ، وتوجيهيات طلبية .

1- التوجيهيات النفسية : وهي توجيهات تصدر عن المتكلم في شكل انفعال يعبر عنه متوجها به إلى المتلقي لكي يحثه ، أو يحرك مشاعره ليؤدي فعلا ، أو يمتنع عن أداء الفعل ، ومن هذا النوع مثلا : العتاب - الطمأنة⁽³⁾ .

2- التوجيهيات الطلبية : وهي توجيهات تصدر من المتكلم ، لتوجيه المتلقي أو التأثير عليه ، مع خلوها من الجانب الشعوري غالبا ، وينبغي أن يكون قابلا للتنفيذ ، ومن مجالاته الفرعية نجد : الاستفهام - النداء - الأمر - الاستعطاف - النهي الخ . ولكل واحد قوة إنجازية مباشرة وقوى إنجازية مستلزمة مقاميا . ففي الاستفهام تكون القوة الإنجازية مباشرة ، السؤال وطلب الفهم ، وفي الأمر والنهي طلب الأداء أو الترك ، وفي النداء الأمر أو النهي أو الخبر ، أو طلب الإقبال أما القوى الإنجازية المستلزمة مقاميا لهذه الأفعال التوجيهية فنذكر منها :

التقرير - الإنكار - التعجب - التحقير - التمني - التقرير - التهديد - الوعيد - التهكم - التوبيخ - الإرشاد - الإباحة - التعجيز - الدعاء . الخ . فالنداء أول فعل كلامي يقوم به المخاطب لبث مقاصده ، وتحقق آلية النداء في القرآن الكريم أغراضا مختلفة ، كالإغراء ، التحذير ، الاختصاص ، التنبيه ، التعجب ، والتحسر . ويعتبر النداء في القرآن بمثابة مدخل لأفعال كلامية أخرى ، بحيث تكون هي الهدف ، كالأمر ، والنهي و الوعد ... الخ ، ومن هنا نفهم ، أن النداء طلب واستحضار ، يراد منه إقبال المدعوا على الداعي ، ليتمكن من توجيه

(1) - جورج يول . ترجمة . التداولية . ترجمة : قصي العتابي . ص 90 .

(2) - ينظر : هاشم طبطبائي . نظرية الأفعال الكلامية . ص 31 .

(3) ينظر : محمود الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 216 .

ما يريد ، ويصحب في ذلك غالبا الأمر والنهي ، فعن ابن مسعود أنه قال قال رسول الله (ص) : "إذا سمعت الله يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأوعها سمعك ، فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه."⁽¹⁾ والتوجيه ليس عملا لغويا فحسب ، لكنه يعد وظيفة من وظائف اللغة ، وبذلك فإن رومان جاكبسون R , Jacobson يسمي وظيفة التوجيه بالوظيف (الإيعازية) أو الندائية ، كما في الأمر ، والنصيحة ، والرجاء . الخ غير أن نظام اللغة هنا غير كاف لأداء الوظائف ، فهناك بعض العناصر التي تعطي التوجيه قوته الإنجازية ومنها : السلطة ، وجهة المنفعة ، وإعطاء الخطاب سلطة المرسل فإنه يتضمن بعض الإشارات (الضمائر) التي تحيل على المرسل وسلطته.⁽²⁾

تتميز التوجيهيات بالوضوح في التعبير عن قصد المتكلم ، فذلك يزيل اللبس على السامع ، مما يضمن تحقيق الاستجابة ، ومن سمات التوجيه الصريح أنه لا يستلزم أكثر من قصد للخطاب ، ومن ثم فإنه لا يدع للمتلقي أي فرصة للتأويل ، أو التملص من مضمونه . والأفعال التوجيهية يصنفها محمود نحلة ضمن الطلبيات وهي تضم كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب بغض النظر عن صيغتها.⁽³⁾ ويصنف باخ Bach الأفعال التوجيهية على أنها أحد الأفعال الأربعة الإنجازية التواصلية وهي : التقريرات ، التوجيهات ، الالتزامات ، التعبيرات.

أما التوجيهات فقد صنفها إلى : خمسة (الطلبات - الأسئلة - المتطلبات - التحريميات - أفعال النصح).⁽⁴⁾ ومن أدوات التوجيه التي تقوي إنجازية الفعل الكلامي : ذكر العواقب ، وكذلك التوجيه بالألفاظ المعجم ، وربط إنجاز الفعل بالوعد أو الوعيد ، وكذلك مدح الفاعل في الأمر ، أو ذمه في النهي وكذلك ذكر ما يتوقف عليه المطلوب.⁽⁵⁾ وقد يكون التوجيه مركبا باستعمال أكثر من أسلوب كالأمر ، والنهي المتضادين ، في خطاب واحد ، ويعد الأمر من أكثر الأساليب استعمالا في التوجيه . " فبمجرد نطق المتكلم بصيغة الأمر ، يكون قد أضفى على نفسه مرتبة الأمر ، فيضع الآخر في مرتبة المأمور."⁽⁶⁾

(1) - الحديث روي في شعب الإيمان للبيهقي ، بلفظ " فأصغ إليها سمعك ، فإنه خير توصى به ، أو شر تصرف عنه " . تحقيق : محمد السعيد بسيوني . دار الكتب العلمية . بيروت . 391 / 2 . ورواه أيضا أبو نعيم في الحلية بلفظ : فارعها سمعك " ط 4 / 130 .

(2) - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 325 .

(3) - ينظر : محمود نحلة . آفاق جديدة . ص 100 .

(4) - ينظر : عبد الهادي الشهري . المرجع نفسه . ص 338 .

(5) - ينظر : الشاطبي . الموافقات . 3 / 140 .

(6) - عمر بلخير . مقالات في التداولية والخطاب . ص 48 .

وتتدرج أفعال التوجيه في قوتها الإنجازية باختلاف السلطة ، أو المكانة بين المتكلم والمخاطب ، وهذا ما يعطي أفعال التوجيهات أشكالها المختلفة : أمر ، ونصح ، والتماس ، دعاء اقتراح ، نهى ، الخ . وقد تنجز الأفعال التوجيهية من خلال استعمال الأفعال المعجمية الدالة على الغرض الإنجازي مثل : أمرك ، أعدك ، أقترح ، أسألك ...

وقد تنجز من خلال المنطوقات الإنجازية غير المباشرة مثل : خروج الأمر لدلالة التهديد ، أو التحذير ، أو غيره ، وقد يستعمل المتكلم الأسلوب الخبري لإنجاز فعل التوجيه ، وهذا كثير في القرآن ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ...﴾ .

قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الفعل الكلامي في هذه الآية مركب من النداء ، والتنبيه ، والتأكيد ، والاعتناء بأمر المدعو له ، والأمر ، والمدح ، والتذكير . وقد مر بنا سابقا أن النداء في القرآن الكريم يعتبر مدخلا للأفعال الكلامية التي تأتي بعده بحيث تكون هي الهدف المقصود من الخطاب . وإنما النداء وسيلة يتوصل بها لتبليغ التوجيهات . ففي الآية السابقة جاء النداء محفزا للمتلقي ومنبها له تنبيهها يفيد غرض التأكيد . ثم جاء الأمر بالعبادة ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ويدل على طلب في

الحال ، ولتقوية النداء يستعمل أسلوب الالتفات توجيهها للقلوب نحو التلقي واستعمل (الياء) لنداء البعيد للإعتناء بأمر المدعو له ، وقدم التنبيه على خلقهم وإن كان متأخرا بالزمان .⁽¹⁾

قال تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

الصيغة الواردة في هذه الآية تدل على النهي وهو " قول ينبئ عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء."⁽²⁾ نهى عن جعل الأنداد ، والفعل الكلامي الذي يتضمنه القول هو التهكم * ، والقوة الإنجازية الداعمة لهذا المعنى ممثلة في إيقاع الاسم الجليل الله موقع الضمير ، لتعيين المعبود بالذات بعد تعيينه بالصفات ، وكذلك في استعمال (الفاء) وما تحمله من دلالة وكذلك كثافة الأوصاف السابقة مما جعل الآية تضمنت عبادة رب موصوف بما يجعله كالمشاهد ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والحال في هذه

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . ص 266/1

(2) - العلوي . الطراز . ص 156/3.

*- إذ لا يعقل أن يجعل المشركون الأصنام مماثلة له تعالى في العبادة .

الجملة تعبر عن فعل كلامي هو التوبيخ لأنه يقول للمشركين : لا يليق أن تعبدوا الأصنام مع علمكم أنه تعالى لا يماثله شيء⁽¹⁾. من أجل ذلك فإنها تمتلك قوة المخالفة Adversative Force⁽²⁾.

قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي رِيبٍ مِّمَّا تَزْلَمْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

الفعل الكلامي المتضمن في هذه الجملة هو التعجيز والتحدي بغرض إظهار عجز من يرى أن في وسعه أن يفعل أمرا وليس بمقدوره أن يفعله ، والإتيان بسورة فوق مقدورهم ، فالعلاقة بين الأمر والتعجيز هي أن الأمر يكون في الممكنات ، والتعجيز في المستحيلات⁽³⁾.

وقوة المنطوق الإنجازية جزء مكمل لمعناه . ولذلك استخدم القرآن لفظة سورة بالتونين للتكثير ؛ أي إيتوا بسورة ما . كما تعبر عن معنى التبكيت والتخجيل لهم . وكذلك يتدعم الإنجاز باستخدام لفظ (من) التبعية الدالة على القلة وهي مبالغة مناسبة لمقام التحدي ، وتعجيز بلغاء العرب المرتابين فيه عن الإتيان بما يضاهيه .

قال تعالى : ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

تعبر هذه الآية عن فعل كلامي كلي هو فعل الوعيد . لما تتضمنه الآية من تخويف الجاحدين . ويندرج تحت الفعل الكلامي الكلي مجموعة من الأفعال الكلامية المفردة وبتعبير (فان دايك Van Dijk) : (تداولية صغرى)⁽⁴⁾ وهي : (التخويف ، والأمر ، والتهكم ، والتهويل ، والتنفير ، وترك العناد لنفي المستقبل) وتعبر عن معنى التوكيد والتشديد ، والإعجاز بالإخبار عن الغيب⁽⁵⁾. وقد توجه السياق بالخطاب إلى الجاحدين قائلا لهم : إذا بذلتم في السعي غاية المجهود وعجزتم عن الإتيان بمثل القرآن ، ظهر أنه معجز ، والتصديق به لازم فآمنوا . وعبر بالأداة (إن) الدالة على استمرار العجز تهكما بهم وذلك لشكهم في المتقين وفي قوله تعالى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ تهويل لشأن النار ، وتنفير مما

يقرب إليها ، مع المبالغة في إفادة الوعيد ، وفي ذلك مزيد التخويف ، وتدعمت القوة

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . ص 275/1 .

(2) - Halliday M .A .K . and Hassan Ruqaiya : Cohesion in English . Longman London (1983) p 269 .

(3) - ينظر : عبد الواحد حسن الشيخ . دراسات في علم المعاني . ص 80 . مطبعة الإشعاع . الاسكندرية . مصر .

(4) - ينظر : Van Dijk , Text and context , Explorations in the of Discourse , longman , (1980), p 215: Semantics and Pragmatics

(5) - ينظر : الزمخشري . الكشاف . ص 101/1 .

الإنجازية بوسائل يسميها أوستين Austin (1911-1960) مصاحبات المنطوق الخاصة بالمتكلم⁽¹⁾ مثل : تقديم (الناس) والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه (أَعِدَتْ) . وكذلك في استخدام (لن)

قال تعالى : ﴿ وَدَشَّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ هُمْ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

تعبر هذه الجمل عن فعل كلامي كلي هو فعل الوعد، المؤكد بتعدد النعم، وبيان حال المؤمنين في الجنة ويندرج تحت هذا الفعل الكبير متوالية من الأفعال الصغرى وهي : الأمر ، والبشارة ، والتعظيم والتأكيد ، والترغيب، والاستغراب، وهو يخص المؤمنين بالبشارة ، وتنوعت صيغ المنطوقات لكي تساهم في تعديل القوة الإنجازية فتتوین كلمة ﴿ جَنَّتٍ ۖ ﴾ ، لتدل عل التنويع والتعظيم ، وتقديم الخبر (لهم)

أسرُ للسامع ، وجعل صفة الجنة جملة فعلية ﴿ تجري ﴾ لإفادة التجدد ، وتنوین ﴿ رِزْقًا ۖ ﴾ للتنويع أو للتعظيم وتبيين المزية ، وحذف الفاعل ﴿ أُتُوا ﴾ للعلم ، والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع ، وتعدد صفات الجنة من جريان أنهارها ، والرزق من ثمارها ، والأزواج المطهرة ، والخلود فيها . واختار إسمية الجملة في صفة الجنة لإفادة الدوام . كما استعمل السياق القرآني مقويات خاصة بالمخاطبين ، فلما ذكر مسكن أهل الجنة ومطعمهم ومنكحهم أعقب ذلك بما يزيل ما ينغص إنعامه من ذكر الخلود في دار الكرامة ، وجاء هذا في سياق السنة الإلهية من شفع الترهيب بالترغيب والبشارة التي جاءت في صيغة الخبر بمعنى الأمر⁽¹⁾ بأسلوب غير مباشر بعد خروج الفعل الإخباري عن حقيقته.

قال تعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَآرْهَبُونَ ﴾ ﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونَ ﴾

في هذه الآية سلسلة من الأفعال الكلامية التوجيهية، تجسد الغرض القرآني من عرض الأقوال ، فإن الله عز وجل نادى ، وأمر ، وأكد ، ورغب ، وشرف ، وخصص ، ووعد ، وتوعد ، وعرض ، وقرع

(1) - ينظر : Austin , How to do things with Words , p 76

(2) - ينظر : الألو سي . مرجع سابق . 289/1 وما بعدها .

، وحث على الشكر . ففي الآية خطاب لطائفة من الكفار ، والمعاصرين للنبي (ص) ، أقبل الله عليهم بالنداء ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ليحركهم لسماع ما يرد من الأوامر والنواهي، التي منها الفعل الكلامي الأمرى

﴿اذْكُرُوا﴾ الذي يتطلب موقع السلطة المطلقة ⁽¹⁾. والفعل المتضمن في القول هو الشكر على النعمة والقيام بحقوقها لا مجرد التلفظ باللسان . ولتدعيم القوة الإنجازية لهذا الفعل استعمل مجموعة من المؤشرات اللغوية منها: أنه سبحانه وتعالى أضاف المخاطبين إلى هذا اللقب ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تأكيداً لتحريكهم على طاعته ، ويستعمل مثل هذا في مقام الترغيب والترهيب . وكذلك إضافة النعمة إلى ضميره تعالى ﴿نِعْمَتِي﴾ لتشريفها، ثم عاد السياق للأمر ثانية فأمرهم بالإيمان والعمل، ووعدهم بحسن الثواب على حسناتهم . وفي الأمر بالرهبة وعيد بالغ ﴿وَيَايَا قَارِهُبُونَ﴾ فهي أكد في إفادة التخصيص

ثم حث بني إسرائيل على الإيمان بالقرآن ، وتتابع عليهم الأوامر والنواهي في قوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ نهى يراد به التعريض . ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَيَايَا قَانِقُونَ﴾ نهى يراد به التقرير والتجهيل . ثم ختم بالأمر بالتقوى ﴿وَيَايَا قَانِقُونَ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿٤٣﴾

في الآية الأولى فعل كلامي هو النهي الذي يراد به التقرير ^(*) وفي الثانية أمر يراد به توطين النفس على فعل الطاعات من صلاة وزكاة . ولتعديل القوة الإنجازية لهذه الأفعال كرر لفظ (الحق) لزيادة تقبيح النهي عنه . وفي تقيد النهي بالعلم زيادة تقبيح حال المخاطبين لأن الإقدام على تلك الأشياء القبيحة مع العلم أفحش من الإقدام عليها مع الجهل ، وكذلك في تقديم الأمر بالصلاة لأنها أفضل العبادات ثم عبر بالركوع عن الصلاة احترازاً عن صلاة اليهود فإنها لا ركوع فيها ولا جماعة ⁽²⁾.

(1) – Voir : Holdcroft , David , Words and Deads , Problems in the theory of Speech Acts Clarendon Press Oxford (1978) , p155.

* - نهى عن خلط الحق المنزل في التوراة بالباطل الذي اخترعتموه .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . ص 290/1

قال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾^(١)
وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾^(٢) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾^(٣)

في الآيتين مجموعة من الأفعال الكلامية هي : التقرير ، التوبيخ ، التعجيب ، التبكيت ، والتقبيح ، والتفريع ، والتعظيم . وتتدرج هذه الأفعال تحت فعل كلامي كلي هو التوبيخ ، والمقام مقام توبيخ عظيم ظاهر في نبرة الخطاب ، فالهمزة فيه للتقرير مع التوبيخ والتعجيب لأن اليهود من أحبار المدينة يأمرهم باتباع محمد (ص) ولا يتبعونه ، ويأمرهم بالصدقة ولا يتصدقون ، أما التوبيخ فهو على نسيان أنفسهم وفي ذلك مبالغة في عدم المبالاة والغفلة ، وكذلك التوبيخ في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ توبيخ عظيم ؛ بمعنى أفلا تفتنون لقبح ما أقدمتم عليه ، أما التبكيت في قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ فيه زيادة تقبيح بمعنى : تتلون التوراة وفيها نعت محمد (ص) ، أو فيها الوعيد على الخيانة ، ومخالفة القول العمل وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول ؛ لأن العقول تأباه وتدفعه.^(١)

قال تعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٤)
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾^(٥)

في الآيات مجموعة كثيفة في الأفعال الكلامية لأن الله عز وجل نادى وأمر فذكر وامتن وأكد ورجب ورهب ونفى وتوعد كل ذلك في مقام يعبر عنه فعل كلامي كلي هو الإمتنان ، فقد ذكر اليهود وكرر التذكير بالنعمة إجمالاً سيتلوه تفصيل . والتكرار للتأكيد والإيدان بكمال غفلتهم عن القيام بحقوق النعمة وليربط ما بعده من الوعيد الشديد به لتتم الدعوة بالترغيب والترهيب . وفي قوله : ﴿ وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ ﴾ تذكير وامتنان بأن الله لم يزل منعماً عليهم أما الأمر ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ أمر فيه تهويل وإيدان بانقطاع المطاعم . وختم الآيات بنفي أن تغني نفس عن نفس ولا تجديها نفعاً ونفى كلا من الشفاعة والفدية والبدل.^(2*)

(1) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . ص 133/1 . وينظر أيضا : الألوسي . مرجع سابق . ص 350/1 .
(*) - الشفاعة : ضم غيره إلى وسيلة فيصير شفعا بعد أن كان فردا . الفدية : العدل : ما يساوي الشيء ، وعدل الشيء مثله .
البدل : رجل مكان رجل . ينظر : علي بن محمد الجرجاني . التعريفات
(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . ص 355/1 .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١١﴾ أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

انتقل الخطاب إلى النبي (ص) مبينا له أنه على الحق . وفي ذلك تسليية له (ص) بألا يكثرث بأمر اليهود. ثم انتقل السياق إلى وصف موقف بني إسرائيل من رسالة الأنبياء ،وما يقدمون عليه من نقض العهود. مستخدما أسلوب الاستفهام للإنكار على اليهود، فجاء الفعل الكلامي المباشر في قوله : ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ...﴾ وفيه إعظام ما يقدمون عليه من نقض العهود .

وهذا الفعل الكلامي الاستفهامي الإنكاري قد دلت عليه قوة مدركة مقاليا ، ويستدل عليه بقرائن بنبوية هي (الهمزة) ، ولكن إذا روعي مقام إنجاز الجملة ، نجد المعنى لا ينحصر فيما تدل عليه صيغتها الصورية (الاستفهام) ، فإن المتكلم قد يعني أكثر مما يقول ، ولذلك تتجز الأفعال التوجيهية من خلال المنطوقات الإنجازية غير المباشرة بخروج الاستفهام لدلالة التوبيخ والذم . والذي هو قوة منجزة مدركة مقاميا ، ولا قرائن بنبوية تدل عليها في صورة الجملة . والتوبيخ من التوجيهيات الطلبية بطلب الأداء أو الترك بحيث يجب أن يكون طلبا قابلا للتنفيذ سواء رغب المتلقي في تنفيذه أم لم يرغب .⁽¹⁾ إن التوبيخ كان بسبب ما أقدم عليه اليهود من تكذيب الرسل ، ونقض العهود ، وتكذيب الرسول(ص) . من ثم فقد كانت ظروف إنتاج الخطاب دافعا إلى التوبيخ وطلب الكف عن نقض العهود . بعد أن حصل النبذ مرارا : مع ابن سوريا حين قال للرسول (ص) : ما جيئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من آيات فننتبعك . ومع مالك بن الصيف حين قال : والله ما أخذ علينا عهد في كتابنا أن نؤمن بمحمد ولا ميثاق ، أو لقولهم : إن خرج النبي لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركي العرب فلما بعث كفروا به .⁽²⁾ إن فعل التوبيخ يتأسس وفق شروط الملاءمة عند (سيرل) :

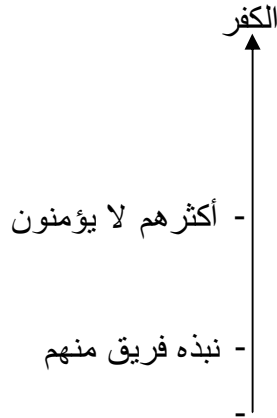
- فشرط المحتوى القضوي هو الدعوة إلى الكف عن تكذيب النبي (ص) ، والكف عن نقض العهود، وعن المكابرة والعناد والحسد . وهذه الأفعال مطلوبة من المخاطبين في المستقبل ، ويتأسس ذلك وفق الشرط التمهيدي . بكون المخاطبين قادرين على إنجاز الفعل ، والمتكلم على يقين من قدرتهم على إنجاز الفعل ، ويتأكد ذلك مع شرط الإخلاص . أما الشرط الأساسي فيتمثل في إرادة المتكلم التأثير في المخاطبين ، لينجزوا الفعل . والمسؤول عن إحداث المطابقة بين العالم والقول هو المتلقي .

(1) - علي محمود الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 212.

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 464/1.

إن نظام اللغة قد لا يكون كافيا لإنجاز الأفعال التوجيهية، فهناك بعض العناصر الهامة ، التي تعطي التوجيه قوته الإنجازية مثل : سلطة المتكلم ، وجهة المنفعة الإنجازية . ولتأكيد هذا التوجيه ، وتدعيم قوته الإنجازية ، استعان السياق بوسائل مختلفة لتحقيق ذلك نذكر منها :

- التكرار : لفظ الكتاب (كتاب الله) فإن المعرفة إذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأول .
 - التشبيه : (كأنهم لا يعلمون) يبين قوة علمهم بالكتاب ، لكنهم يتجاهلونه ، فإعراضهم عن الكتاب يدل على قلة المبالاة ، ونبذهم له ، لا عن شبهة ولكن بغيا وحسدا .⁽¹⁾
 - صيغة الفاسقون : الوصف باسم الفاعل . قال الزمخشري : "إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي وقع على أعظم ذلك النوع " .⁽²⁾
 - كلما : تدل على تكرار النقص ؛ أي نقضوا عهد الله مرارا كثرة .
 - الإخبار بالمضارع الدال على التجدد (يكفر بها)
 - الإبطال بالحجة وفق السلم الحجاجي : فلا ينسب المذمة إلى الخصم إلا بتدرج ، فقد أسند النبذ في البداية إلى فريق منهم ؛ لأن النبذ قد يكون بمعنى عدم العمل ، ثم انتقل إلى حجة أقوى من الأولى ، وهي قوله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعدم الإيمان يقتضي كونهم كفارا .⁽³⁾
- ويمكن تمثيل درجات الحجاج كما يلي :



قال تعالى : ﴿يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا خُنْ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

تتناول هذه الآية الحديث عن الملكين هاروت وماروت والذي أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس ، وسماهما القرآن فتنة ، أخبروا عن ذلك بأنفسهم (نحن فتنة) ، إخبار بالمصدر للمبالغة . ثم أكدت المبالغة بالحصص الإضافي ، والمقصد من ذلك : أنهما كانا يصرحان أن ليس في علمهما شيء

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 467/ 1 .

(2) - الزمخشري . الكشاف . 171/1 .

(3) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 225/1 .

من الخير الإلهي ، وأنهما فتنة محضة البلاء من الله لعباده ، في مقدار تمسكهم بدينهم . فكل من يعلمانه ينصحانه بهذه الجملة ، ويبينان له أن هذا العلم يظهر كأنه فتنة وشر ، فيوشك أن يكفر متعلمه (فلا تكفر) أي فلا تفتن . فالكفر هو الفتنة.⁽¹⁾ وتتضح بنية الفعل الكلامي فيما يلي:

- الفعل الكلامي المباشر هو : المعنى الحرفي : هو النهي عن الوقوع في الفتنة التي تحصل لمن يتعلم السحر حين يرى عجائبه لمن كان في مبدأ التعليم فإذا تحقق في علمه اندفعت الفتنة .

فلا تكفر

(النهي)

- الفعل الكلامي غير المباشر هو : المعنى الضمني : نصح وتحذير أي أن الملكين لا يعلمان أحدا حتى ينصحا ويقولا له: إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلمه وعمل به كفر؛ أي فلا تكفر باعتقاد جواز العمل به . "وأن ذلك التعلم كان للابتلاء والتمييز." ⁽²⁾ وما ذكرنا أن القول على سبيل النصح في هذا الوجه هو الظاهر. "وهذان الملكان لا يعلمان السحر إلا بعد التحذير الشديد من العمل به ."⁽³⁾ وفيه حدث الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني .

الاستهزاء : وهو المعنى الذي ذكره الألوسي أن النهي عن التعليم كان على سبيل الاستهزاء لا النصيحة ، وأضاف الألوسي بقوله : وهو الأنسب بحال الشياطين.⁽⁴⁾ فالكفر يكون بتعلم السحر وباستعماله ، فالملكان يقولان له ﴿لَا تَكْفُرْ﴾ "لأنهما يقولانه لمن قد تحققا ضلاله." ⁽⁵⁾ فذلك هو الاستهزاء . فيكون المتكلم قد أنجز فعلا بالقول .

"وقد جاء بصيغة النهي رغبة لبيان حرصه على أن يمتثل المخاطب ويستجيب لنصحه وإرشاده ."⁽⁶⁾

الأنماط المتحولة عن النهي :

يعد النهي من أقسام الإنشاء الطلبي ، وقد عرفه السبكي بقوله : " هو طلب الكف عن الفعل." ⁽⁷⁾ وقد أشار سيرل الذي صنف النهي في خانة التوجيهيات ، إلى خروج دلالة النهي إلى غيرها ، عند عدم إجرائها على أصل استعمالها ، مما ينتج عنه إنجاز فعل كلامي بطريقة غير مباشرة .⁽⁸⁾

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 644 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 1 / 476 .

(3) - الرازي . التفسير الكبير . 2 / 238 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه 1 / 476 .

(5) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 2 / 38 .

(6) - بسيوني فيود . علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني . ص 301 .

(7) - السبكي . عروس الأفراح . 2 / 558 .

(8) - John Searle . INDIRECT SPEECH ACTS (Syntax and Semantics) Vol .3 . 1975 . p 72 .

وأكد السكاكي : أن الأفعال غير المباشرة " التي تتجز من خلال صيغة النهي كثيرة تنتقل فيها دلالة النهي إلى دلالات أخرى⁽¹⁾ يساعد على إبرازها عناصر سياقية مصاحبة للنص القرآني . إن خروج النهي عن دلالاته الأصلية إلى دلالات غيرها يتحقق عند الإخلال بشروط النهي التي تقتضي وجود علاقة متبادلة بين المتكلم والمتلقي ، يكون فيها الناهي بموقع يسمح له من خلاله توجيه النهي ، وإسناد المتكلم فعلا مستقبلا إلى المتلقي هو الكف عن فعل شيء وهو هنا: النهي عن الافتتان بتعلم السحر، والنصح والتحذير من ذلك ، فهو مؤد إلى الكفر ، ورغبة المتكلم في أن يفعل المتلقي شيئا هو: الكف عن المنهي عنه . " ومتى اختلفت صور هذه الشروط في ذهن المتلقي أدرك خروج النهي عن الصورة المطبوعة في ذهنه إلى غيرها ، ويمكن تلخيص ذلك على النحو التالي :

صيغة نهى (الناهي) ← (النهي) ← (قياس ذهني) # النهي
يوجد إنجاز غير مباشر متحول عن النهي ."⁽²⁾

"وقد صرح السكاكي بعنصري العلو والاستعلاء ، وذكر أهميتها في التفرقة بين دلالات النهي ."⁽³⁾ " بعض هذه الدلالات التي ذكرها تؤيدها الصيغة على نحو افتراضي بمعنى أنها دلالات يمكن توليدها عن طريق تخلف عنصر من العناصر المكونة للدلالة الحقيقية للنهي، وإن لم تكن الصيغة قد استعملت بها في سياق حقيقي."⁽⁴⁾
فقوله تعالى ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ صيغة النهي مكونة من (لا + فعل مضارع) لا يمكن تحليلها على أنها تتضمن فعل نهى ، وإنما يقتضي تحليلها الاعتماد على آلية الاستلزام الحوارية التي تجعل منها جملة منجزة في مقام محدد تخرج بمقتضاه إلى النصح والتحذير ، وذلك انطلاقا من خرق مبدأ الكيفية وهو أحد مبادئ التعاون التخاطبي عند غرايس⁽⁵⁾ فقد عبر السياق بكيفية معينة (فلا تكفر) ولم يقل (فلا تفتن) وهكذا انزاح التعبير عن مبدأ الكيفية فاقتضى السياق ورود النصح والتحذير لا النهي . فالكيفية هو أساس الخروج إلى النصح ، فلو طابقت الجملة مقام إنجازها الحقيقي لكانت بالصيغة دالة على النهي، فبناء على خرق القاعدة

(1) - السكاكي . المفتاح . ص 320.

(2) - علي محمود الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 197.

(3) - حسام أحمد قاسم . تحويلات الطلب . ص 83.

(4) - المرجع نفسه . ص 89.

(5) - Voir : Grice H . P , Logic and conversation In P . and J . Morgan (eds) : Syntax and Semantics 3 -

المذكورة خرجت إلى معنى آخر مستلزم مقاميا . وبالتالي : "القرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفر" (1)

تعديل القوة الإجازية : ولتقوية الفعل الكلامي استخدم السياق مجموعة من المؤشرات اللغوية مثل (من) الزائدة للتوكيد . والقصر (بإنما) .

قال تعالى : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾

في هذه الآية يتطرق السياق إلى تعلم بعض الناس السحر ، ولكن لا يضرهم به أحدا إلا بإذن الله . وقال الزجاج : "(إلا بإذن الله) ؛ إلا بعلم الله " (2) والسحر لا يضر إلا من له قابلية لذلك ، وأمور السحر لا يأتي منها إلا الضر أي في الدنيا . فالساحر لا يستطيع سحر أحد ليصير ذكيا بعد أن كان بليدا ، أو ليصير غنيا بعد الفقر ، وهذا زيادة تنبيه على سخافة عقول المشتغلين به وهو مقصد الآية ، وبهذا التفسير يكون عطف قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ تأسيسا لا تأكيدا عن هذا الضر ، والنفع في الدنيا . وقد أفادت الآية بجمعها بين إثبات الضر ، ونفي النفع ، الذي هو ضده مفاده الحصر كأنه قيل : ويتعلمون ما ليس إلا ضرا ، وإعادة فعل يتعلمون مع حرف العطف لأجل ما وقع من الفصل في الجملة المعترضة . (3)

بنية الفعل الكلامي :

تتشكل هذه الجملة من أسلوب خبري ، يخبر عن ما يتعلمه بعض الناس من سحر ، يفرقون به بين المرء وزوجه ، كما يخبر عن كونهم يتعلمون ما يضرهم في الدنيا والآخرة . ويخرج الخبر عن مقتضى الظاهر ليفيد معنى مجازي هو التحذير من السحر، والعمل به . وعليه تكون بنية الفعل الكلامي كالآتي :

- إخبار : في الآية فعل كلامي هو الإخبار . وتقوم بوصف الواقع . فإذا تحقق الوصف فقد أنجزت الأفعال إنجازا تاما . معنى حرفي مدرك مقاليا ، يستدل عليه بقرائن بنيوية .

الآية

- تحذير: في الآية فعل كلامي غير مباشر. يتضمن تحذيرا بليغا من ممارسة السحر والإضرار

بالناس ، وفيه تحريض على التحرز عنه . (4) وهو معنى مستلزم مقاميا ، ولا قرائن بنيوية تدل عليه .

فعل الإخبار : يتضمن هذا الصنف معظم أفعال الإيضاح عند أوستين ، وكثيرا من أفعال الحكام . وقد ناقش أوستين كيفية كون الحكم أو القرار كاذبا مع وجوب تعبيره عن حالة الصدق نظرا لخروجه من جهات رسمية معتبرة ، واتجاه المطابقة في مجال الإخباريات يكون من القول إلى العالم ؛ إذ إن أي قضية يمكن أن تشكل

(1) - سيد قطب . في ظلال القرآن . 1 / 95 .

(2) - الزجاج . معاني القرآن . 165/1 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 465/1 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 478 .

محتوى في الإخباريات . ومن الضروري في الإخباريات حيازة المتكلم على شواهد ، أو أسس ، أو مبررات ترجح أو تؤيد المحتوى . والحالة النفسية التي تعبر عنها الإخباريات هي الاعتقاد .⁽¹⁾

تعديل القوة الإجازية :

لتقوية إجازية الفعل الكلامي باستعمال صيغ مختلفة منها : النفي ، والإثبات لدلالة الحصر ، بحيث يفيد معنى أنهم يتعلمون ما ليس إلا ضرا ، إضافة إلى ما أفادته الجملة الاعتراضية من نفي الضر إلا بمشيئة الله . فالفعل الكلامي المستخدم كاعتراض هو النفي . بحيث يتحقق الإنجاز بمجرد التلفظ بالقول الاعتراضي ، بهدف التأثير في المتلقي وإقناعه بمحتوى القضية . إن تمييز العلماء العرب بين الخبر والإنشاء لم يرتبط بالصيغة اللغوية للجملة ، بل إنهم اتجهوا إلى اعتبار قرائن الأحوال هي المعيار في الحكم على إنشائية تلك الجمل أو خبريتها . ويميز الباحث مسعود صحراوي بين الخبر والإنشاء بقوله : " الخبر هو الخطاب التواصلي المكتمل إفاديا ، والذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية ."⁽²⁾ وأما بمعايير سيرل فالخبر مندرج ضمن صنف التقريريات (Assertifs) .

إن الجملة قيد الدراسة جاءت في صيغة خبرية ، وباعتبار التميزات السابقة ، وباعتبار قرائن الأحوال وإرادة المتكلم في الخبر مطابقة نسبته الخارجية ، وهذا غير مقصود في الآية السابقة لأن المتكلم يريد من نسبته الكلامية أن توجد نسبته الخارجية . إضافة إلى أن الغرض المتضمن في القول للإخباريات هو التقرير ، ومن ثم فالآية تعبر عن مقصد إنشائي مندرج ضمن التوجيهيات بتصنيف سيرل . والمراد به التحذير من ارتكاب المحذور . وهو الفعل الكلامي غير المباشر " بدليل أن المتكلم قال كلاما وقصد غيره ، كما أن السامع يسمع كلاما ويفهم منه غير ما سمع ."⁽³⁾ إذ إن التأويل الدلالي للعبارات في اللغات الطبيعية أمر متعذر إذا نظر فيه إلى المكونات التركيبية . إن الصيغة الخبرية في الآية خرقت مبدأ الكيف ، الشيء الذي جعل معنى جديدا يضاف إلى الجملة ، وهو التحذير من تعلم السحر وممارسته ، وهذا المعنى ناتج من الاستلزام الحوارية ، وهذا من قبيل الإنشاء غير الطلبي والذي " أكثر أنواعه في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء ."⁽⁴⁾

استراتيجية الخطاب :

يعد أسلوب التحذير من آليات التوجيه ، فيكون إنجاز فعل التحذير بوسائل وأساليب مختلفة من باب أفعال النصح الضمني للمرسل إليه ، وهذه الاستراتيجية تتمثل في الاستغناء عن إنتاج عدد من الخطابات ، والاكتفاء بإنتاج خطاب واحد ليؤدي معنيين هما :

(1) - ينظر : علي محمود الصراف . مرجع سابق . ص 205.

(2) - مسعود صحراوي . التداولية عند العلماء العرب . ص 109.

(3) - العياشي أدراوي . الاستلزام الحوارية . ص 130.

(4) - عبد العزيز عتيق . علم المعاني . ص 57.

المعنى الحرفي ، والمعنى غير المباشر في الآن نفسه ، إذ عبرت الآية السابقة في قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يَظُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ . إذ يعبر المتكلم عن قصد مباشر ، وآخر غير مباشر بخطاب واحد ، فالسياق القرآني استخدم هنا الإنجاز المباشر في الإخبار والتنبيه على سخافة عقول المشتغلين بالسحر الذي ليس فيه إلا الضر واستخدم السياق العبارة نفسها التعبير عن جوانب أخرى غير مباشرة كالتحذير من السحر والتحريض على اجتناب العمل به . وقد أدى السياق هذه المعاني بطريقة ضمنية وهذا الذي يسميه الجرجاني "معنى المعنى" (1)

ويسمى أيضا الاستراتيجية التلميحية . (2)

تعديل القوة الإنجازية :

تقل درجة الصراحة بحذف الفعل (أحذرك) عند استعمال الاستراتيجية التلميحية .
التحذير من آليات التوجيه إلا أنه من الأدوات ذات المرتبة الدنيا في القوة لأن المرسل يوجه المرسل إليه لما فيه منفعته رغم توفر السلطة لدى المرسل . (3)

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ

كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

اننقل السياق في هذه الآية إلى الإخبار عن الذين يتعلمون السحر ، ويجرون خلفه ، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله . "ولقد علموا أن الذي يشتريه لا نصيب له في الآخرة ، فهو حين يختاره ويشتريه يفقد كل رصيد له في الآخرة ، فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفة" . (4) فهؤلاء الذين يعلمون السحر وهم من علماء اليهود ، يعلمون أنه لا خلاق لهم في الآخرة ، فلو كان علمهم ينفعهم لسموا عالمين ، ولكن علمهم نبذوه وراء ظهورهم ، فلم يوفوا العلم حقه ؛ فكأنهم لا عقل لهم . (5) ومن ثم فإن الله عز وجل يعرض بهم : "ومعنى الكلام أن ثواب الله خير لهم من كسبهم بالكفر والسحر" . (6)

(1) - الجرجاني . دلائل الإعجاز .. ص 263.

(2) - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 371.

(3) - ينظر : المرجع نفسه . ص 355.

(4) - سيد قطب . في ظلال القرآن . 96/1 .

(5) - ينظر : الزجاج . مرجع سابق . 164/ 1 .

(6) - الزجاج .. المرجع نفسه . 166/1 .

بنية الفعل الكلامي :

- **المعنى الصريح** : فعل كلامي مباشر هو الإخبار ، والخطاب صريح إلى الرسول (ص) . فالسياق يخبر عن الذين يعملون بخلاف علمهم فلم ينفعهم علمهم ، ولا نصيب لهم في الآخرة.

العبارة

- **المعنى الضمني** : يشتمل مجموعة معان هي : الذم ، والتعريض ، والتهكم .
والغرض الإنجازي لهذه الأفعال : طلب الامتناع عن العمل بخلاف العلم .

لقد اجتمعت في هذه الآية مجموعة من الأفعال الكلامية المتقاربة دلاليا ، ففيها : الإخبار ، والذم ، والتعريض ، والتهكم ، والتمني ، والتحريض ، والترغيب ، والترهيب ، والوعد ، وو الوعيد .

- أما الفعل الكلامي المباشر فهو : الذي تفيد دلالة اللغوية المباشرة ، وهي : القوة الإنجازية الحرفية المدركة بقرائن بنيوية ، والمشكلة من البنية الخبرية : (قد علموا ، اشتراه ، كانوا) وكذلك من نغمة الخبر المنفي .

- أما الفعل الكلامي المتضمن في القول ، وهو القول الضمني المقصود في السياق ، وهو المعنى المشتق من الفعل المباشر ، ويحمل قوة إنجازية مستلزمة ، والمدركة مقاميا ، ولا قرائن بنيوية تدل عليها . ولذلك كان للعلماء والمفسرين أوجه مختلفة في تحديدها والاستدلال عليها . فالغرض الإنجازي في هذه الآية في رأي الألوسي هي : التعريض والذم الشديد .⁽¹⁾

وعند الطاهر ابن عاشور هي : **التعريض والتكليل والتجهيل** .⁽²⁾

وعند الزمخشري هي : **التهكم** " ويجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ تمنيا لإيمانهم ، على سبيل المجاز عن إرادة الله ، إيمانهم واختيارهم له كأنه قيل وليتهم آمنوا ."⁽³⁾ وقال الرازي " فإنه تعالى لما بين فيهم الوعيد بقوله ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ﴾ أتبعه بالوعد جامعا بين الترغيب والترهيب لأن الجمع بينهما أدعى إلى الطاعة والعدول عن المعصية ."⁽⁴⁾ أما السكاكي : فجعلها في قسم فنون الخبر وإخراج مقتضى الظاهر ؛ بمعنى التهكم ، وقد أشار إلى ذلك صاحب التحرير والتنوير .⁽⁵⁾ ومرد هذا الإشكال هو : أن الآية أوردت إثبات العلم ، ونفيه في معلوم واحد في قوله : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ ، و ﴿وَلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ . قال السكاكي : " كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 479/1 .

(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 647 / 1 .

(3) - الزمخشري . الكشف . 174 / 1 .

(4) - الرازي . التفسير الكبير . 241 / 2 .

(5) - ينظر : ابن عاشور . مرجع نفسه . 647/ 1 .

وأخـره بنـفيه عنـهم حيث لم يعلموا بعلمهم .⁽¹⁾ فالـمعنى عند الـزمخـشري والسكاكي أن المراد أنهم كانوا في علمهم ، كمن لا يعلم فذلك على سبيل التهكم بهم . والتهكم من الأفعال التوجيهية عند سيرل .⁽²⁾ والمنطلق التداولي في هذا المجال هو أن السياق القرآني " نزل العالم منزلة الجاهل " ⁽³⁾ فالعالم إذا عمل بخلاف علمه، كان عالما بأنه بمنزلة الجاهل ، ومقتضى هذا العلم أن يتمتع عن هذا العمل ، وذلك من شروط الملاءمة :

- شرط المحتوى القضوي : (الامتناع) فعل في المستقبل مطلوب من المخاطبين .
- الشرط التمهيدي : فهو معلوم عند المتخاطبين ، فالمخاطب قادر على إنجاز الفعل بالكف عن أعمال السحر ، والتكسب منها ومن كتبها ، والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز هذا الفعل والامتثال للتوجيهات وذلك متحقق في :

- الشرط الأساسي : بإرادة المتكلم التأثير في المخاطب ، وحمله على فعل شيء لإحداث المطابقة . فالـمخاطب هو المسؤول عنها ، خاصة ما يقتضيه نمط الإنجاز (منزلة المتكلم) ، وهو صاحب الأمر الإلهي ، مما يعطي المصادقية للمفترضات المتضمنة في القول ؛ بكون الفعل المطلوب الامتناع عنه وهو السحر . و هو أمر في صالح المخاطب، ولذلك ألقى المتكلم الخبر إليهم ؛ بأن ليس لهم علم مع علمهم به ، ثم ذموا بالسوء مطلقا في الدين ، والدنيا لأن (بئس) للذم العام . فالمنفي هو العلم بالسوء المطلق ؛ أي ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ضرره لامتنعوا ، إنما غرهم توهم النفع العاجل .⁽⁴⁾ وقد صرح المتكلم بما هو في صالح المخاطب بأن المقصود من الإخبار عن المثوبة بأنها خير ، و أنها تثبت لهم لو آمنوا . وللشيخ الطاهر ابن عاشور استدلال واضح بقوله : "وعندي وجه آخر وهو أن يقال إن قوله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ دليل الجواب بطريقة التعريض، فإنه لما جُعل معلقا على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا﴾ علم أن في هذا الخبر شيء يهمهم " ⁽⁵⁾ ومن ثم يكون هذا الحكم تنكيلا لهم ، ولتحفيز المخاطبين على تحقيق المطلوب ، أخبر أن شيئا قليلا من ثواب الله في الآخرة خير من ثواب كثير في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ . وقد صرح المتكلم بما هو في صالح المخاطب بان " المقصود من الإخبار عن المثوبة بأنها خير ، أنها تثبت لهم لو آمنوا . " ⁽⁶⁾

(1) - السكاكي . المفتاح . ص 172 .

(2) -

(3) - محي الدين الدرويش . إعراب القرآن الكريم . ص 151 .

(4) - ينظر : الألوسي مرجع سابق . 480 / 1

(5) - ابن عاشور . مرجع سابق . 649 / 1 .

(6) - المرجع نفسه . 649 / 1 .

تعديل القوة الإنجازية :

لتقوية إنجازية المنطوقات السابقة نجد السياق يستعمل عدة وسائل لغوية ، منها التقابل بين (اشترؤا و شرؤا) . فالاشتراء كسب شيء ببذل غيره " إذا كانت بيع سلعة بسلعة صح أن يتصور كل واحد منهما مشتريا ، وبائعا "(1) فالمعنى أن أولئك السحرة اكتسبوا السحر ببذل إيمانهم ولذلك جاء فعل الذم ﴿بئسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ ، (شرؤا) بمعنى ، باعو والمخصوص بالذم محذوف تعريضا لهم . كما استعان السياق بالوظيفة الحجاجية لتقوية إنجازية المنطوقات ، وكان المنطلق هو اكتسابهم السحر مقابل الإيمان وما تبعه من ذم ، وأنهم لا حظ لهم في الآخرة . "والذي جهلوه هو أن السحر شيء مذموم وفيه تجهيل لهم ، حيث علموا أن صاحبه لا خلاق له ، ولم يهتدوا إلى أن نفي الخلاق ، يستلزم الخسران ."(2)

الترغيب والترهيب من أساليب الإقناع في السياق القرآني وقد بدأ بالترهيب : لا خلاق لصاحب السحر ، ولاحظ له في الآخرة ؛ لأنه اشترى السحر بالإيمان وفي ذلك تخويف .

الترغيب : يفيد قوله ﴿لَمُتُوبَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أن شيئا قليلا من ثواب الله تعالى في الآخرة الدائمة خير من ثواب كثير من الدنيا الفانية ، فكيف وثواب الله تعالى كثير دائم ، وفيه من الترغيب والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى"(3) وفي ذلك تحريض على الإيمان ، كما استخدم المفردات المناسبة للترغيب مثل : (آمنوا ، اتقوا ، مثنو ، خير.)

قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

الخطاب لليهود الذين استهانوا بالرسول (ص) " فأراد الله أن يشرح قبائح أفعالهم وكان المسلمون إذا تلا عليهم الرسول شيئا من العلم يقولون راعنا يا رسول الله أي أمهلنا حتى نفهمه ، واليهود كانت لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه هذه الكلمة وهي (راعينا) ومعناها : السمع لا سمعت ، فخطبوا بها النبي وهم يعنون تلك المسبة فنهى المؤمنين عنها وأمرؤا بلفظة أخرى وهي (أنظرنا) فنزلت هذه الآية قال قطرب : "هذه الكلمة وإن كانت صحيحة المعنى إلا أن أهل الحجاز ما كانوا يقولونها إلا عند الهزؤ والسخرية "(4)

(1) - الراغب الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن . ص 453.

(2) - ابن عاشور . المرجع نفسه . 1 / 647 .

(3) - الألوسي . مرجع سابق . 1 / 482

(4) - الرازي . التفسير الكبير . 2 / 242 .

وعن ابن عباس قال : " راعنا بلسان اليهود السب القبيح ، فلما سمعوا أصحابه يقولونه أعلنوا بها له فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم فنزلت الآية ."(1) وفي معجم ابن فارس: "رجل أرعن أي أهوج ، فأما قوله تعالى : ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ فهي كلمة كانت اليهود تتساب بها وهو من الأرعن ، وفي قراءة (راعنا) فتأويلها لا تقولوا حمقا من القول ."(2)

بنية الفعل الكلامي :

تتضمن هذه الآية أفعالا كلامية غير مباشرة هي : النداء ، والنهي ، والأمر .
أما النداء فهو ممد للتوجيه يستعمل قبل توحيه النهي أو الأمر ، ثم بدأ بالنهي ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ لأنه من باب التروك فهو أسهل على النفوس ثم أتى بالأمر بعده ﴿ وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ والأمر هو أشق على النفوس . ثم عطف بأمر آخر في قوله تعالى : ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ وهو أمر بحسن الاستماع ، ففيه تنبيه على التقصير في السماع ، حتى ارتكبوا ما تسبب للمحذور .(3) والسياق يؤكد ذلك النهي .

هذه هي الأفعال الكلامية التي تعبر عنها البنية الظاهرية وتحملها الدلالة الأصلية للعبارة ولكن معنى تلك الجمل إذا روعي ارتباطها بمقامات إنجازها لا ينحصر في ما تدل عليه صيغها الصورية ، إنما المنجز للآية في السياق القرآني ينجز فعلا لغويا غير مباشر يتمثل في المعنى الضمني المشتق من المعنى الأصلي وهو التأديب .(4) وأشار فخر الدين الرازي إلى معان أخرى تستلزمها الجملة وهي : " أن قوله ﴿ رَاعِنَا ﴾ مفاعلة من الرعي بين اثنين ، فكان هذا اللفظ موهما للمساواة بين المخاطبين كأنهم قالوا : ارعنا سمعك ، لنرعيك أسماعنا فنهاهم الله تعالى عنه وبين أنه لابد من تعظيم الرسول (ص) في المخاطبة ... ثم أنهم قلبوا هذه النون إلى النون الأصلية وجعلوها كلمة مشتقة من الرعونة ."(5)

فهذه المعاني تدل على شكل قبيح من استهانة اليهود بالرسول (ص) ، ولذلك جاء الفعل الكلامي المباشر بالنهي والفعل المتضمن بالقول بمعنى التأديب أو "التهذيب"(6) والحث على تعظيم الرسول (ص) . ويمكن رسم بنية الفعل الكلامي كالآتي :

(1) - السيوطي . لباب النقول في أسباب النزول . ص 19 .

(2) - ابن فارس . المقاييس في معجم اللغة . ص 409 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 1 / 483 .

(4) - ينظر : المرجع نفسه . ص 483 .

(5) - الرازي . مرجع سابق . 2 / 242 .

(6) - محي الدين الدرويش . إعراب القرآن . ص 153 .

- الفعل الكلامي المباشر (النهي) في (لا تقولوا) قوة إنجازية حرفية
مدركة مقاليا يستدل عليها بقرائن بنيوية هي : الأداة + الفعل (لا +
تقولوا) وهناك فعل الأمر أيضا في : (قولوا - اسمعوا)

الآية

﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا... ﴾

- الفعل الكلامي غير المباشر (التأديب) أو التهذيب ، والتعريض والذي
يعرف من طريق الاستلزام الحوارى الذي تستلزمه الجملة في سياقات
مقامية ، ولا قرائن بنيوية تدل عليها .

وهناك وجه آخر يقول : لكن المؤمنين يقولون هذه اللفظة (راعنا) لا يقصدون بها ذما ، ولا استهانة ،
ثم نهاهم القرآن عن استعمالها . " لكن اليهود يقولونها وينوون بها السب ، فكشفهم الله وأبطل عملهم
بنهي المسلمين عن قولها حتى ينتهي المنافقون عنها ، ويعلموا أن الله أطلع نبيه على سرهم .
فالخطاب تأديب للمؤمنين وتعريض باليهود . " (1)

وعلى أساس هذا الوجه تكون بنية الفعل الكلامي كالآتي :

- **النهي** : موجه للمؤمنين للامتناع عن استعمال لفظة (راعنا) بصيغة (لا تقولوا)
فعل كلامي مباشر يعبر عن إنجازية حرفية .

العبارة

- **فعل إنجازي غير مباشر** : يتضمن معنيين الأول موجه للمؤمنين وهو
التأديب ، والثاني يخاطب به اليهود وهو التعريض .

إن كلا من الفريقين يستعمل اللفظة نفسها لكن القصد يختلف ،

- فالمسلمون كانوا يستعملون لفظة (راعنا) ويقصدون معنى الرعاية والرفق .

- أما اليهود فيستعملونها ويقصدون بها معنى الرعونة والإهانة فكلاهما منهي عن الاستعمال .

فناسب المؤمنين الفعل الإنجازي المتضمن في القول وهو التأديب . فقولهم : ﴿ رَاعِنَا ﴾ هو فعل طلب
من الرعي بالمعنى المجازي أي الرفق . والأمر في قوله : ﴿ وَقُولُوا أَنْظِرْنَا ﴾ أي أبدلهم الله بقولهم :
﴿ رَاعِنَا ﴾ كلمة تساويها في الحقيقة والمجاز . والمقصود من غير أن يتذرع بها الكفار لأذى "النبي
(ص) وهذا من أبداع البلاغة ، فإن نظر في الحقيقة بمعنى حرس وصار مجازا على تدبير المصالح
فهو من النظر لا من الانتظار . " (2)

(1) - ابن عاشور . مرجع سابق . 650 / 1 .

(2) - المرجع نفسه . 651 / 1 .

شروط الملاءمة :

يؤكد سيرل على تحديد كل العوامل والشروط التي تسهم في نجاح الفعل اللغوي . " وعده لهذه الشروط بمثابة المنهج الذي سار وفقه لتجديد فعل أنموذجي ناجح ."⁽¹⁾

في هذه الآية ارتبط شرط المحتوى القضوي بفعل في المستقبل مطلوب من المخاطب هو الانتهاء عن الإساءة إلى الرسول (ص) ، والتأدب معه في كل الأحوال . ويقوي هذا المحتوى الشرط التمهيدي في كون المخاطبين وهو من اليهود قادرون على إنجاز الفعل بمجرد الترك التلظي ﴿لَا تَقُولُوا﴾ والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز الفعل . ويتأكد الفعل الطلبي بشرط الإخلاص ، فالمتكلم يريد حقا من المخاطبين أن ينجزوا هذا الفعل لأنه يترتب على فعل الإساءة عقوبة شديدة . وبذلك يتحقق الشرط الأساسي في إرادة المتكلم وهو التأثير في السامع ليقوم بفعل ما . واتجاه المطابقة هو المخاطب ، فإذا استجاب أولئك اليهود وانتهوا عن الأذى وتأدبوا مع رسول الله (ص) فقد حدثت المطابقة .

تعديل القوة الإنجازية :

لتقوية إنجازية الفعل الكلامي افتتح الكلام بالنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للتنبيه ، وختم الآية بالأمر ﴿اسْمَعُوا﴾ سماع وعي حتى لا يكونوا بحاجة إلى طلب المراعاة ، وهو في الوقت نفسه تقوية للإمتثال للنهي المذكور ، ولأوامر الرسول (ص) ، والتعبير (بالكافرين) دون اليهود زيادة في ذمهم والتعريض بهم . وتثبت قوة الفعل الكلامي بترتب العقوبة على تلك المعصية ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . كما تساهم درجة الشدة في تقوية الإنجاز بتوجيه النهي الصريح ﴿لَا تَقُولُوا﴾ واتباعه بالأمر الصريح ﴿قُولُوا أَنْطَرْنَا﴾ ، والذي يوافق لنمط الإنجاز ومراعاة منزلة المتكلم . فالأمر والنهي أفعال توجيهية صادرة عن سلطة الأمر الإلهي .

لقد استوفى الفعل الكلامي قوانين الخطاب من إخبارية وشمول وصدق وإفادة مستعملا الإستراتيجية التوجيهية وفق ما يقتضيه المقام ، وقرائن الأحوال . أما ما يرجى تحقيقه بالفعل الإنجازي من تأثير في السامع فقد يتحقق ذلك من خلال الفعل ، لأن إنذار المخاطب أو ترهيبه بالعقاب والعذاب الأليم فذلك يخيفه ويؤثر في سلوكه ويقنعه ومن ثم يكون الفعل الكلامي قد أحدث تغييرا وأنجز فعلا بقول .

استراتيجية الخطاب :

اقتضت استراتيجية التلميح بأن يؤدي القول بطريق التعريض تاركا للمخاطب فرصة التخيير بين أحد معانيه المحتملة . أما النهي فهو معنى صريح وظاهر . أما التأديب والتعذيب ، والتعريض والحث على تعظيم الرسول (ص) ، فهي من المعاني الضمنية التي لمح إليها الخطاب .

إن الغرض الكلامي هو حمل الأشخاص على القيام بفعل معين خاصة وأن الفعل الموجه إليه هنا هو الكف عن الإساءة ، كان شديد الإلزام لارتباطه بالنداء ، ثم النهي ، ثم الأمر الأول ، ثم الأمر الثاني

(1) - نعمان بوقرة . محاضرات في المدارس اللسانية . ص 197 .

(واستمعوا) وهذا كله من الشروط التي تساهم في تحقيق الأفعال الكلامية . إن الخطاب الموجه لليهود استقر على نمط واحد من الأسلوب والصياغة وهو ثابت تقريبا على صنف معين من الأفعال الكلامية المطابقة لمرتبة الأشخاص الدينية والاجتماعية ، فنجد معاني التوبيخ ، والذم والتعريض ملازمة للشخصية اليهودية في القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

الخطاب للمؤمنين بقرينة قوله (رسولكم). والمناسبة في هذا الانتقال تامة ، فإن التقرير الذي قبلها مراد فيه التحذير ، والاستفهام الذي بعدها مراد منه التحذير كذلك ، والمحذر منه في الجميع مشترك في كونه من أحوال اليهود المذمومة ⁽¹⁾ . وقوله تعالى : ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ يؤذن بأن السؤال لم يقع ولكنه ربما جاش في نفوس بعضهم ، أو ربما أثارتهم في نفوسهم . شبه اليهود في إنكارهم النسخ وإقائهم شبهة (البداء) مما قد يبعث بعض المسلمين على سؤال النبي كما سئل موسى . ووجهه أن كثيرا من الأسئلة يسألها بنو إسرائيل لموسى أفضت بهم إلى الكفر مثل : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ فيكون التحذير من تسلسل الأسئلة المفضي إلى ذلك . ⁽²⁾

بنية الفعل الكلامي :

المقام في هذا السياق مقام الإنكار ، والتحذير ، والتوصية ، والنهي . واقتضى هذا المقام التعبير بأكثر من فعل كلامي لغرض تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه بنو إسرائيل وقصة الثقة بالله ورسوله (ص) . ومن ثم جاءت بنية الفعل الكلامي كالتالي :

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 666 / 1 .
(2) - ينظر : المرجع نفسه . 666 / 1 . وينظر أيضا . تفسير الرازي . 254 / 2 .

- الاستفهام : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ... ﴾ (أم) حرف مختص بالاستفهام

وما في معناه والاستفهام هو المعنى الحرفي وهو الفعل الكلامي المباشر. ووراء الفعل الكلامي المباشر فعل كلامي غير مباشر متضمن في القول ، يستنتج من سياق الكلام وهو التحذير

الآية

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾

- التحذير : والاستفهام هنا إنكار وتحذير؛ لأن الآية مسوقة مساق الإنكار التحذيري،

والمراد : توصية المسلمين بالثقة برسول الله (ص) وترك الاقتراح بعد رد طعن المشركين أو اليهود في النسخ . فالمقصد تثبيتهم على الآيات وتوصيتهم بالثقة بها .⁽¹⁾

فالسباق يتضمن معنى النهي عن الاقتراح والمقصود التحذير من تطرق الشك في صلاحية الأحكام المنسوخة قبل نسخها . والتحذير من أفعال التوجيه عند سيرل. ويراد به "محاولة المتكلم توجيه المتلقي إلى فعل شيء ما أو التأثير عليه ليفعل شيئاً معيناً".⁽²⁾ واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات (القول). وشرط الإخلاص فيها هو الرغبة الصادقة أو الإرادة . وتختلف درجة الشدة التي يعرض بها الغرض الإنجازي "ومن الجائز أن تكون المحاولات لينة جداً ، وربما تكون محاولات عنيفة جداً".⁽³⁾ والملاحظ أن الممارسة الخطابية في هذا الفعل الكلامي التحذيري كان من النوع الأول وهو الخطاب اللين . ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ... ﴾ وقد استوفى الفعل الكلامي شروطه (شروط الملاءمة) فالمطلوب فعل في المستقبل ينجزه المخاطب أي (احذروا أن تسألوا رسولكم) والمخاطب في ذلك قادر على إنجاز الفعل بالثقة في رسول الله (ص) والثبات على الآيات ، والمتكلم الله عز وجل على يقين من قدرة المخاطبين على إنجاز الفعل ، والوقوف عند التوجيهات الإلهية خاصة إذا راعينا منزلة المتكلم وهو : (الله عز وجل) صاحب سلطة الأمر والنهي .

الدلالات التحويلية للاستفهام : تعددت الدلالات التحويلية للاستفهام ، فنجد الدارسين العرب حين

نتأمل نصوصهم التطبيقية التي يتعرضون فيها لشرح دلالات أساليب الاستفهام ، نلاحظ أنهم في أكثر الأحيان يذكرون للاستفهام الواحد عدة دلالات متداخلة متكاملة " ذلك أن أسلوب الاستفهام أسلوب ثري ، يتأبى في أحيان كثيرة على أن ينحصر معناه في دلالة واحدة ، فلا يجد الشارح مناصاً من استخدام مجموعة من المعاني في محاولة للإمساك ببعاءاته الدلالية المتنوعة ."⁽⁴⁾

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 491 / 2 .

(2) - علي محمود الصراف . مرجع سابق . ص 62 .

(3) - صلاح إسماعيل عبد الحق . التحليل اللغوي عند أوكسفورد . ص 233 .

(4) - حسام أحمد قاسم . مرجع سابق . ص 120 .

فالاستفهام في هذه الآية مسوق مساق الإنكار، متضمنا معاني النهي ، والتحذير ، والتوصية ، والتنبيه والمبالغة ، والتأكيد . وهذا التعدد هو ما نريد توضيحه . من أن المعنى الذي يفيد الاستفهام خفي ومتغلب ، ولكن هناك معنى مسيطر هو الأصل ، يقول حسام أحمد قاسم نقلا عن صاحب الأساليب الإنشائية د/ صباح دراز: " درج علماؤنا على أن يذكروا لكل أسلوب استفهامي معنى بلاغيا كالاستبطاء ، أو التمني ، أو الإنكار التوبيخي ، أو التذبيبي أو التقريري وما إليها يقصدون رحمهم الله أن هناك معنى أو إحساسا مسيطرا هو الأصل ، ولا ينفي معان أخرى متواردة متصلة بالمعنى الأصلي".⁽¹⁾ ففي هذه الآية اجتمعت الكثير من المعاني كما سبق ذكرها ، والإنكار التوبيخي يؤول إلى النهي، عندما يكون المخاطب بصدد القيام بالفعل الموبخ عليه، والجملة (ومن يتبدل الكفر بالإيمان ...) جملة مستقلة جاءت تذييلا لفعل التحذير الماضي ، وتأكيذا لفعل النهي عن الاقتراح المفهوم من قوله تعالى : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ الخ لأن المقترحين من جملة الضالين المتبدلين .⁽²⁾ ووظيفة التذييل هي الدلالة ، على أن المحذر منه كفر أو يفضي إلى الكفر . فهنا تعلم أن الارتداد عن الإيمان إلى الكفر ، معنى كلي عام يندرج تحت سؤالهم الرسول (ص) كما سأل بنو إسرائيل موسى ، فتكون تلك القضية كفرا . وهو المقصود من التذييل المعرف في باب الإطناب ؛ بأنه تعقيب الجملة بجملة مشتملة على معناها تنزل منزلة الحجة على مضمون الجملة ؛ وبذلك يحصل تأكيد معنى الجملة الأولى . ولا يريبك في ذلك وقوع جواب الشرط (فقد ضل) فعلا ماضيا مع أن الشرط إنما هو تعليق في المستقبل ، ولاقتران الماضي بـ (قد) الدالة على تحقيق المضي ؛ لأن هذا استعمال عربي جيد يأتون بالجزاء ماضيا لقصد الدلالة ، على شدة ترتب الجزاء على الشرط وتحقق وقوعه معه ، حتى إنه عندما يحصل مضمون الشرط يكون الجزاء قد حصل ، فكأنه حاصل من قبل الشرط .⁽³⁾

تعديل القوة الإنجازية :

لنقوية إنجازية الأفعال الكلامية في هذه الآية ، استعان السياق القرآني بمجموعة مؤشرات لغوية ، وضوابط نحوية منها :

- إضافة الوصف إلى الموصوف في قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لقصد المبالغة في بيان قوة الإنصاف
- التذييل بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ لتأكيد معنى الجملة ؛ أي تأكيد النهي السابق ولا يخفى ما تضمنته جملة التذييل من قوة حاجية على مضمون الجملة ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ .
- وقوع جواب الشرط فعلا ماضيا (فقد ضل) للدلالة على تحقق المضي .
- اقتران الماضي بـ (قد) للدلالة على شدة ترتب الجزاء .

(1) - حسام أحمد قاسم . مرجع سابق . 121 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 491/2 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 668/ 1 .

كل هذه المؤشرات ساهمت في تعديل القوة الإنجازية لفعل التحذير ، والمعاني المجازية الحافة به .

الفعل التأثيري :

بعدما تعرفنا على فعل القول ، ثم الفعل المتضمن للقول ، نأتي الآن إلى الفعل الناتج عن القول ، وهو الذي يتجسد فيه الغرض الكلامي ؛ بحمل المخاطبين وهم المسلمون ، على عدم سؤال نبيهم كما سأل اليهود موسى أسئلة مفضية إلى الكفر ، وكان التحذير شديد الإلزام ، وجعل فعله بمنزلة الكفر ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فهذا التعبير يقصد إلى استثارة الخوف ، مما ساهم في تحقيق الفعل الكلامي . فهو قد يتحقق حتى وإن لم تثبت نتيجته في الواقع ، فإن مجرد إصداره يضيف عليه مشروعيته (1).

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ۚ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْهُ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۚ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

الخطاب من الله عز وجل للمؤمنين يبين لهم بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالقصاص والديات. وسبب نزول هذه الآية " أن أهل الجاهلية إذا قتل لهم عبد قالوا لا نقتل به إلا حرا ، وإن قتلت امرأة قالوا لا نقتل بها إلا رجلا ، وإذا قتل لهم وضيع قالوا لا نقتل به إلا شريفا ويقولون (القتل أوفى للقتل) " (2) وقد استهل الخطاب بفعل النداء ، والذي يسبق الأفعال الطلبية والتوجيهية في الغالب أملا في تحقيق تأثيرها عبر فعل المستمع كالنداء والأمر . ويعتبر النداء في القرآن بمثابة مدخل للأفعال الكلامية الأخرى ، التي يأتي بعدها الهدف المقصود للفت الأنظار لتوجيه ما يريد . وبعد النداء وجه الأمر من خلال الصياغة الخبرية فتضمن الخبر أمرا بصيغة (كُتِبَ) ومعناه فُرضَ .

والأفعال الكلامية الواردة في هذه الآية هي :

النداء : بدأت الآية بتوجيه النداء إلى المؤمنين من الله عز وجل بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ والنداء فعل كلامي مباشر "فحين أتى بالنداء من قبل الله للعباد جاء بحرف المقتضي للبعد ثابتا غير محذوف" (3) ويمثل النداء عنصرا هاما في التواصل وتحقق آلية النداء أغراضا مختلفة كالتنبيه والتخصيص .

(1) - ينظر : صلاح إسماعيل عبد الحق . التحليل اللغوي عند مدرسة أوكسفورد . ص 233 . ط 1 / 1993 دار التنوير للطباعة والنشر . بيروت .

(2) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 2 / 165 .

(3) - الشاطبي . الموافقات . 2 / 68 .

كما أن النداء طلب واستحضار يراد منه إقبال المدعو على الداعي ليتمكن من توجيه ما يريد ،
يصحب ذلك غالبا الأمر والنهي .⁽¹⁾ ففي هذه الآية جاء النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم تبعه الأمر
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ بصيغة خبرية .

الأمر : جاء الأمر بالقصاص في القتلى ، فتضمن الخبر أمرا بصيغة (كُتِبَ) أي فرض ، "فكتب هنا
إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء " .⁽²⁾ ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي في جملة
(كتب عليكم القصاص) كما يلي :

-الصيغة خبرية (كتب عليكم)

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾

- الأمر : وفيه الحث والحرص على القصاص كما أوجب رعاية
المماثلة فقد استخدم السياق الأسلوب الخبري في موضع الإنشاء(يقتص).

استخدام الأسلوب الخبري في موضع الإنشاء:

قد يحمل الخبر معنى الأمر ويظهر هذا في استخدام فعل (كُتِبَ) . واستخدام الأسلوب الخبري محل
الإنشاء يوجه المتلقي إلى سرعة الامتثال إلى الأمر فيحمل دلالات لا تتوافر في الصياغة المعتادة .
فلاحظ ذلك في جملة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ .

البنية السطحية : كتب عليكم القصاص

فعل ماضي ← أسلوب خبري

البنية العميقة : اقتصوا من القاتل .

فعل أمر ← أسلوب إنشائي

" فاستخدام الصياغة الخبرية محل الصياغة الأمرية فيه الحث على الحرص على هذا التشريع
(القصاص) الذي هو من أهم التشريعات التي تحافظ على نظام الحياة داخل المجتمع . فالقاتل حين يقدم
على القتل وهو يعلم انه سيقتل قصاصا فإنه سوف يتراجع عن هذه الفكرة حفاظا على حياته ، كما أن
التعبير بالخبر فيه حث للمكلفين على الإسراع في الامتثال للأمر إذا أراد صاحب الحق ذلك ، وكان
ولي الأمر قادرا . وكل هذا يبرز من خلال استخدام الفعل الماضي (كُتِبَ) " .⁽³⁾
أي أن الاختيار التركيبي خاضع لاعتبارات تداولية وعرفية . ففي عرف الشرع
" فكتب هنا إخبار عما كتب في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء " ⁽⁴⁾

(1) - ينظر : الزركشي . البرهان . 2 / 323 .

(2) - القرطبي . المرجع السابق . 2 / 164 .

(3) - محمد أحمد أبو عامود . البلاغة الأسلوبية . ص 38 .

(4) - القرطبي . الجامع لحكام القرآن . 164/2 .

ويتضمن الأمر شرط المحتوى القضوي (اقتصوا من القاتل) وهو فعل في المستقبل مطلوب من المخاطبين "وذلك أن القاتل فرض عليه إذا أراد الولي القتل الاستسلام لأمر الله والانقياد لقصاصه المشروع."⁽¹⁾ والمُخَاطَب (المكلف) قادر على إنجاز الفعل ، والمُخَاطَب على يقين من قدرة المكلف على إنجاز الفعل فإن وجوب القصاص اعتبر بالنسبة إلى الحكام فلا خلاف أن القصاص لا يقيمه إلا أولو الأمر . وأن مدار الأمر قائم على الشرط الأساسي ممثلاً في إرادة المتكلم التأثير في المخاطبين لينجزوا الفعل ، وذلك أنه أمر بالفعل ونهي عن الاعتداء بعد أخذ الدية . وذلك الأمر يستمد قوته من منزلة المتكلم وهو الله صاحب السلطة المطلقة وهو صاحب الأمر والنهي ومن ثم يتحقق الفعل حسب الشروط العامة ⁽²⁾ .

التخصيص والتبيين : وهو فعل كلامي غير مباشر ورد في قوله تعالى : ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾ ووظيفة هذه الجملة تبيين ما قبلها ، وتخصيص بعض جزئياتها . وذكر الإمام الرازي معنى دقيقاً لهذه الآية فقال : إن من فوائدها بيان إبطال ما كان عليه بعض أهل الجاهلية من مخالفات ففائدة التخصيص زجرهم عن قتل العبد بالحر من قبيلة القاتل ، والآية محكمة وفيها إجمال بينه في مواضع أخرى ⁽³⁾ .

الندب / التوصية : وهو فعل كلامي مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ ففي الآية حض من الله على العفو والمسامحة على حسن الاقتضاء من الطالب وحسن القضاء من المؤدي ؛ أي أنه تعالى عز وجل ندب إلى العفو عن القاتل ، وعبر عن ذلك بصيغة المصدر المرفوع (اتباع) فالرفع سبيل الواجبات ، وأما المندوب إليه فيأتي منصوباً مثل قوله تعالى : ﴿ فَضَرْبُ الرِّقَابِ ﴾ [محمد الآية 4] . ⁽⁴⁾ فالأمر بالمصدر أقوى في الدلالة من الأمر بصيغة (افعل) . فالآية تتضمن معنى التوصية وهي من الأفعال الكلامية المباشرة فشرط المحتوى القضوي فيها : التوصية للعفو عنه ، والعافي جميعاً يعني "فليتبع الولي القاتل المعروف بأن لا يعنف به ولا يطالبه إلا مطالبة جميلة وليؤدي إليه القاتل بدل الدم آداء بإحسان بأن لا يبخسه ولا يمطله" ⁽⁵⁾ .

الامتنان : وهو فعل كلامي كتضمن في القول جاء في صيغة الخبر في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ وهذا الإشعار للمؤمنين العاملين بالأحكام بتفضل الله عليهم فقد

(1) - القرطبي . المرجع السابق . 164 / 2

(2) - ينظر : جورج يول . ترجمة قصي العتابي . التداولية . ص 86 .

(3) - ينظر : الرازي . التفسير الكبير . 3 / 54 .

(4) - ينظر : القرطبي . مرجع نفسه . 171 / 2 .

(5) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 222 .

أثبت لهم الخيار في أخذ الدية لأن الأمم السابقة ليس لهم خيار ، " فأهل التوراة (اليهود) كان لهم القتل ، وأهل الإنجيل (النصارى) كان لهم العفو فجعل ذلك تخفيفاً لهذه الأمة ."⁽¹⁾ وخيرت هذه المة بين الثلاث : القصاص، أو الدية ،أو العفو توسعة عليهم وتيسيراً .

الوعيد : وهو فعل كلامي متضمن في القول ودلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ إِعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فختتم سلسلة الأفعال الكلامية بفعل الوعيد ؛أي من اعتدى بعد ذلك التخفيف فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل فله عذاب أليم . فلا يقتل بعد العفو والدية "وذلك أن أهل الجاهلية إذا عفوا وأخذوا الدية ثم ظفروا بعد ذلك بالقاتل قتلوه."⁽²⁾ فتوعد الله سبحانه من يقتل غير قاتله ،أو أكثر من قاتله ،أو طلب أكثر من الدية قال أبو حيان : "وظاهر هذا العذاب أنه في الآخرة لأن معظم ما ورد من هذه التوعيدات إنما هي في الآخرة " .⁽³⁾

تعديل القوة الإنجازية للأفعال الكلامية :

استعان السياق القرآني وسائل لغوية مختلفة لتقوية المنطوقات الإنجازية. فكل غرض درجات مختلفة من القوة يساهم المقام في توجيهها " فقد قامت التداوليات على تحليل مقاميات الخطاب ومقاصده إذ عنيت بدراسة معاني المنطوقات في علاقتها بالمتكلم ودراسة كيفية كون الاتصال شيئاً أوسع من مجرد القول ودراسة الشروط التي تجعل المنطوقات مناسبة إنجازياً ."⁽⁴⁾ ففي الآية السابقة نجد في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ في استعمال كلمة (أخيه) تلطيف للقوة الإنجازية للفعل الكلامي المتعلق القول ففيه حض بالندب للعفو والمسامحة ففيه حظ على الصدقة وقبول الدية ؛ إذ المراد (بالأخ) ولي الدم وسماه أخاً استعطافاً ، وهو أخ في البشرية والدين ، وسماه أخاً القاتل للإشارة إلى أن أخوة الإسلام بينهما لا تنقطع بالقتل .⁽⁵⁾ فالأفعال الكلامية تتفاوت مقدار قوتها الإنجازية ، باختلاف الوسائل اللغوية المختارة في الاستعمال لتقوية المنطوق أو إضعافه .⁽⁶⁾

وكلمة العفو ذات قوة داعية إلى التسامح "والعفو في باب الجنايات عبارة متداولة مشهورة فلا يعدل عنها إلى أخرى قلقة نابية عن مكانها وهي كلمة (محا)."⁽⁷⁾ فبعد أن بين الزمخشري الوظيفة الموقعية لكلمة (عفا) واستحالة استبدالها بلفظة أخرى أخذ يتساءل عن دلالة لفظة

(1) - القرطبي . مرجع سابق . 2 / 171 .

(2) - الرازي . مرجع سابق . 3 / 59 .

(3) - أبو حيان . البحر المحيط . 2 / 153 .

(4) - محمد العبد . تعديل القوة الإنجازية (ضمن كتاب التداوليات) ص 307 .

(5) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 614/2 ، وينظر : الزمخشري . مرجع سابق . . 221/1 .

(6) - ينظر : الصراف . مرجع سابق . ص 267 .

(7) - الزمخشري . المرجع نفسه . 221/1

(شيء) من العفو قال : "للاشعار بأنه إذا عفا له طرف من العفو وبعض منه بان يعفى عن بعض الدم أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص ولم تجب إلا الدية".⁽¹⁾

بالإضافة إلى ذلك نجد أن في هذه الآية مجموعة من الألفاظ المستعملة في خدمة الغرض العام للآية وتبليغ مقاصد المتكلم بالدعوة إلى العفو والتسامح نجد : (القصاص، وعفي له ، وأخيه ، وشيء ، والمعروف ، وإحسان ، وتخفيف، ورحمة) وهذا من قبيل حاجية المفردة القرآنية في الإقناع بالتزام حدود الله.

قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِيهِ الْأَلْبَابُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

"كان في العرب من لا يرضى أن يأخذ بعبد إلا حراً . وبوضيع إلا شريفاً . وبامرأة إلا رجلاً ذكراً . ويقولون : القتل أنفى للقتل . فردهما الله عز وجل عن ذلك إلى القصاص وهو المساواة مع استيفاء الحق فقال : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾" وبين الكلامين في الفصاحة والعدل بون عظيم"⁽²⁾ وقال الزمخشري : "كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة ؛ وهي الحياة الحاصلة بالارتداد عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص فارتدع منه سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين."⁽³⁾ وقد أجمع المفسرون وعلماء البيان على أن هذا من الكلام البليغ الوجيز "ومعناه لا يقتل بعضكم بعضاً".⁽⁴⁾ فقد بين من خلال الآية حكمة شرع القصاص .

بنية الفعل الكلامي :

جاءت الآية موضحة لما أوجبه الله من أحكام القصاص المؤلمة فجاءت إجابة عن سؤال وهو : "أن يقال كيف يليق بكمال رحمته إيلاء العبد الضعيف ؟ فلأجل دفع هذا السؤال ذكر عقبة حكمة شرع القصاص فقال : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾"⁽⁵⁾ فهو فعل كلامي غير مباشر ، دلت عليه الصيغة الخبرية ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي كما يلي :

(1) - المرجع نفسه . 222/1 .

(2) - أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . 1 / 61 .

(3) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 222 و 223 .

(4) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 2 / 172 .

(5) - الرازي . التفسير الكبير . 3 / 60 .

-المعنى الصريح :الصيغة الخبرية . دلالة لغوية مباشرة
،قوة إنجازية حرفية مدركة مقاليا .

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ...﴾

-المعنى الضمني :فعل كلامي غير مباشر .قوة إنجازية
مستلزمة مقاميا ولا تدل عليها قرائن بنيوية .

تحمل الآية في طياتها كثيرا من الأفعال الكلامية غير المباشرة ، جاءت في صورة معان ضمنية تخدم غرضا واحد من زوايا مختلفة . وتتوجه الآية بالخطاب إلى المؤمنين المكلفين انطلاقا من الصيغة الخبرية (ولكم في القصاص حياة) لتشع منها معاني الطمأنة والنهي، والتوضيح والتأكيد والزجر والتخويف والردع والحث على توطين النفس على الانقياد لحكم القصاص ، وترويع القاتل . وقد جاءت الآية في صورة جملة تذييلية تلخص الأحكام السابقة ، وتطمئن به نفوس الفريقين . ومن وظائف التذييل التأكيد لما تقدم . وإن فيه ارتداع عن قتل النفوس فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس ، كل هذه الأفعال الكلامية الضمنية والصريحة عرضها حمل المخاطب على الانقياد للتوجيهات الشرعية في باب القصاص

مفهوم الحياة :

حياة : اسم نكرة دون إضافة ولا وصف ، "حضور المفهوم في القرآن المدني يفيد أن هناك حياة في الدنيا مماثلة للحياة الأخرى في الطيب ، إن تمسكنا بحكم الله وشريعته في الحياة الدنيا ، وأن أحكام الشرع في كلياتها وجزئياتها محببات للفرد والأمة." (1)

وعن المعاني والدلالات لكلمة (حياة) : فقد جاءت "بمعنى الشرعة ، أو الشريعة في القرآن في قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فقد صدرت الآية بقوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم ، عائدة إليكم ، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانا إليكم عقبه بقوله تعالى : ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ إيذانا بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل ، وهو أن يفعل به كما فعل فجعل القصاص كالمنع للحياة." (2)

ونكر سبحانه وتعالى الحياة تعظيما وتفخيما لشأنها . والمعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس . "والمعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس . ثم خص أولي الأبواب وهم أولوا العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته إذ هم المنتفعون بالخطاب." (3)

(1) - محمد الأحمدى . مفهوم الحياة في القرآن والحديث . ص 94 . ط 1 / 2011 . دار السلام للطباعة والنشر . القاهرة . مصر .

(2) - المرجع نفسه . ص 98 .

(3) - السيوطي . الإتقان في علوم القرآن . 2 / 150 .

تعديل القوة الإنجازية :

لتقوية شدة الغرض الإنجازي للفعل الكلامي توفرت الآية على ما يدعم القوة الإنجازية ويتضح ذلك من خلال المقارنة بين التعبير القرآني ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وقول العرب : (القتل أنفى للقتل). "وقد اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعاني باللغة باللغة إلى أعلى الدرجات."⁽¹⁾ ومن المؤشرات اللغوية الداعمة للقوة الإنجازية تتوین (حياة) الدالة على النوعية والتعظيم ،ومنها :صنعة الطباق بين (القصاص – الحياة) فإن القصاص تقويت الحياة فهو مقابلها . ومنها الغرابة في جعل الشيء فيه حاصلًا في ضده (قصاص / حياة) ومن جهة أن المظروف (حياة) إذا حواه الظرف (في) صانه عن التفرق فكان القصاص فيما نحن فيه يحمي الحياة من الآفات . ومنها الإطراد إذ في كل قصاص حياة بخلاف مقولة العرب إذ ليس كل القتل أنفى للقتل . ومنها تعريف (القصاص) بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة على الضرب والجرح والقتل وغير ذلك . وقولهم لا يشملهم .⁽²⁾ كما أن مخاطبة المكلفين بـ(ياأولي الألباب) لاستثارة همة العاقل ، لأن العاقل لا يريد إتلاف غيره بإتلاف نفسه ، والخوف يتولد من الفكر فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر لا يحصل له هذا الخوف .⁽³⁾

الفعل التأثيري :

الخطاب موجه لتحقيق البعد التفاعلي للغة ، من خلال الفعل الكلامي ينجز وفق معطيات السياق "فما يتلفظ به المتكلم من كلام يتحول إلى أفعال ذات امتداد اجتماعي وتعتبر في الوقت نفسه حملاً للمخاطب على القيام بفعل معين."⁽⁴⁾ ففي الآية توجيه غير مباشر إلى المكلفين بأن شرع القصاص يفضي إلى الحياة في حق من يريد أن يكون قاتلاً ، وفي حق من يراد جعله مقتولاً . أما الأول فإنه إذا علم لو قُتل قُتل ترك القتل فبقي حياً . وأما الثاني فيبقى غير مقتول ، وأما في حق غيرهما فلأن في شرع القصاص بقاء من يهم بالقتل ، وفي بقائهما بقاء من يتعصب لهما ، فيقع في تصور الناس أن في مشروعية القصاص زوال كل ذلك ، وفي زواله حياة الكل .⁽⁵⁾

(1) - الرازي . مرجع سابق . 3 / 60 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 616 . وينظر أيضا : الرازي . مرجع سابق . 3 / 61 . وينظر أيضا: أبو حيان الأندلسي .

مرجع سابق . 2 / 154 .

(3) - ينظر : الرازي . 3 / 62 .

(4) - عمر بلخير . مقالات في التداولية والخطاب . ص 189 .

(5) - ينظر : الرازي . مرجع نفسه . 3 / 60 .

وبذلك تتحقق أغراض الفعل الكلامي بصور مختلفة قد يكون أدناه استثارة الخوف ؛ لأن القصاص نفسه سبب للحياة ، والعلم بذلك زجر عن الإقدام عليه "وإن الجارح لا يَأْمَنُ أَنْ تَوْدِي جراحته إلى زهوق النفس فيلزم القود فخوف القصاص حاصل في النفس".⁽¹⁾

"قلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس ؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت".⁽²⁾

قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

المتكلم هو الله عز وجل والمخاطب هم المؤمنون أو الأئمة . في هذه الآية يبين الله حكما آخر من الأحكام الشرعية المذكورة ، وقد فصله عما سبق للدلالة على كونه حكما مستقلا وعبر بصيغة خبرية في البنية السطحية (كتب عليكم) ووراء الخبر فعل كلامي متضمن في القول هو الفرض أو الوجوب لأن كُتِبَ (فرض عين) بمعنى فرض كما مر بنا في الآيات السابقة أي أن الله فرض الإيصاء في الأقربين وإعطاء كل قريب بحسب قرابته ومن ثم فالأمر يتضمن التحريض والحث على الوصية وقد استوفى الفعل الكلامي شروط الملاءمة بتعبير سيرل .⁽³⁾ **فشرط المحتوى القضوي** فعل في المستقبل مطلوب من المخاطبين وهو التحريض على الإيصاء في الأقربين . أما **الشرط التمهيدي** فيتمثل في قدرة المخاطب على إنجاز الفعل والعمل بالأوامر وتنفيذ الوصيات وفي الوقت نفسه المتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز هذا الفعل ، وأنه يريد ذلك حقا، وهو ما يعرف ب**شرط الإخلاص** . أما **الشرط الأساسي** فيظهر في إرادة المتكلم التأثير في المخاطبين لينجزوا الفعل مستعينا بوسائل تعديل القوة الإنجازية والتي نذكر منها فصل الجملة المذكورة عما سبق للدلالة على كونه حكما مستقلا ومنها أن الله عز وجل تولى بنفسه بيان ذلك الحق مستعملا المصدر المؤكد للحدث (حقا على المتقين) والتعبير بـ(المتقين) حيث وضع المظهر موضع المضممر للدلالة على أن المحافظة على الوصية من شعائر المتقين ولم يصدره بـ(يأياها الذين آمنوا) لقرب العهد بالتنبيه.⁽⁴⁾ والغرض الإنجازي من الأمر بالتوصية هو التأثير في السامع ليقوم بها . لأن المسؤول عن إحداث المطابقة في الأموريات هو المخاطب بتنفيذه ما طلب منه والذي يعطي لهذا الأمر قوته هو منزلة المتكلم صاحب السلطة المطلقة فهذا أمر إلهي وهو أدري بمفترضات القوة المتضمنة في القول بكون الفعل المأمور به في صالح المخاطبين .

(1) - الرازي . التفسير الكبير . 3 / 60 .

(2) - الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 146 .

(3) - Voir : John Searle , Speech Acts , p 66 .

(4) - ينظر : الألويسي . مرجع سابق . ص 619/2 .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ . وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ . وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٨٩﴾

ينتمي هذا المقطع القرآني إلى صنف التوجيهيات بتصنيف سيرل ، وغرضها الإنجازي هو إرادة المتكلم توجيه المتلقي إلى فعل شيء ما ، أو التأثير عليه ليفعل شيئاً معيناً هو الصوم ، ومعرفة أحكامه . واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات من ناحية (القول) وسلسلة الأفعال هنا مطابقة للقواعد التأسيسية ، والشرط لنجاح التوجيه هو قدرة المتلقي على أداء الفعل المطلوب ، وإن العنصر الهام الذي يعطي أفعال التوجيه قوتها الإنجازية هي سلطة المتكلم من ناحية ، وجهة المنفعة الإنجازية وهي باتجاه المتلقي من جهة أخرى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وتتجز الأفعال التوجيهية من خلال تنوع المنطوقات الإنجازية فهي تتراوح بين : النداء الأمر بأحد مشتقات الفعل كتب ، التأكيد ، الترغيب ، التطبيب ، الإخبار ، التعظيم ، التقرير ، الرجاء ، والحض على الفعل ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ . " فإنه يقتضي الحض على الصوم أي فاعلموا ذلك وصوموا "(1) وفي الأمر بالصوم تأكيد للحكم وترغيب فيه ، ومن الخصائص التداولية للخطاب حذف ما علم لدى المخاطب كقوله : ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فهذا " القول من لطيف الفصاحة لأن تقريره : فأفطر فعدة من أيام أخر. "(2) والفعل الكلامي الكلي للآيات هو الأمر الذي يقتضي وجوب الصوم . والوسيلة المستعملة لتعديل القوة الإنجازية للمنطوقات السابقة هي قوله : ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أنتجت دلاليًا معنى اليسر والتخفيف ؛ أي هي " أيام قليلة ويقال في القليل : هو شيء غير معدود "(3) " وذلك تسهيلا على المكلف بان هذه الأيام يحصرها العد. "(4)

(1) القرطبي أبو عبد الله . الجامع لأحكام القرآن . 194 / 2

(2) - ابن العربي . أحكام القرآن . ص 178/1 .

(3) الراغب الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن . ص 550 .

(4) - أبو حيان . البحر المحيط . 180/2

واستخدام ظاهرة التكرار مدعمة للقوة الإنجازية بتوكيد الأغراض المتضمنة في القول "ومن التكرار الإفرادي (هدى/الشهر) ومن التكرار التركيبي ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ كاف عن قوله ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ وإنما كرر توكيدا".⁽¹⁾ وقدم القرآن حجة يثبت بها : "بأن المقصود من الدين منفعة البشر لا تعذيبهم ، وفائدتهم لا تسخيرهم".⁽²⁾ والآية من الأمر غير الصريح أو الإخبار عن تقرير الحكم.⁽³⁾ وصيغة اسم الفعل (وعلى الذين يطيقونه...) فإنها تستخدم في الدلالات الطلبية (الوجوب ، والتحرير ، والندب ، والكراهة ، والنصح ...) .

شروط الملاءمة: سلسلة الأفعال الكلامية هنا مطابقة للقواعد التأسيسية ؛ فشرط المحتوى الذي هو فعل في المستقبل مطلوب من المخاطبين (المكلفين) وهو الأمر بالصوم وما يتفرع عنه من قضاء وكفارة . أما الشرط التمهيدي فإن المخاطب (المكلف) قادر على إنجاز الفعل بأداء الصوم أداء أو قضاء أو فدية فالشرط لنجاح التوجيه هو قدرة المتلقي على أداء الفعل المطلوب ، ومن المعلوم عند الأصوليين أنه قد "انعقد الإجماع على أنه لم يقع التكليف بما لا قدرة للمكلف عليه".⁽⁴⁾ والمتكلم على يقين من قدرة المكلفين على إنجاز الفعل ، وإن العنصر الهام الذي يعطي أفعال التوجيه قوتها الإنجازية هي سلطة المتكلم وهو الله صاحب السلطة المطلقة من ناحية ، وجهة المنفعة الإنجازية⁽⁵⁾ وهي باتجاه المتلقي من جهة أخرى ممثلة في قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . وشرط الإخلاص ممثل في أن المتكلم يريد حقا من المخاطب أن ينجز هذا الفعل ، أما الشرط الأساسي فهو توجيه المخاطبين ومحاولة التأثير عليهم لينجزوا الفعل . والمسؤول عن المطابقة في الأموريات هو المخاطب الذي يقوم بالاستجابة للتوجيهيات ، ومن ثم إحداث التغيير . والأفعال الكلامية الواردة في هذه الآيات هي :

- النداء : وهو فعل كلامي صريح وارد في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (للتنبية ، فقد نادى الله المؤمنين عند إعلامهم بهذا المكتوب الذي هو الصيام لينبهم على استماع ما يلقي إليهم من هذا التكليف).⁽⁶⁾

- الإخبار : فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ...﴾ وهذا الإخبار غرضه الإعلام . فهو منطوق معبر عن المعنى الحرفي (إن الله كتب عليكم الصيام) . فقد عدل

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 200/2 .

(2) - خميس جابر صقر . الإعجاز الجدلي في القرآن . ط 1 / 2010 . دار الصحابة للدراسات القرآنية . طنطا . مصر . ص 210 .

(3) - ينظر : الشاطبي . الموافقات . 133/2 .

(4) - المرجع نفسه . 79/ 2 .

(5) - بخصوص مصلحة المكلفين يراجع الموافقات . 84/ 2 .

(6) - أبو حيان . مرجع سابق . 177 / 2 .

السياق عن الإنشاء إلى الخبر بفرضية الصوم ، كما فرض على الأمم السابقة . فيكون المعنى الاستلزامي هو الأمر : صوموا شهر رمضان .

- الأمر : فعل كلامي غير مباشر يعبر عن المعنى الضمني ، ويتضح ذلك من خلال التحليل لمستويي البنية السطحية والبنية العميقة .

البنية السطحية : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ... ﴾

فعل ماضي ← أسلوب خبري .

البنية العميقة : صوموا شهر رمضان

فعل أمر ← أسلوب إنشائي

ويشير الشاطبي إلى هذه الأوامر غير الصريحة بقوله : "وأما الأوامر والنواهي غير الصريحة ، ففُضِرَوب إحداها ما جاء مجيء الإخبار عن تقرير الحكم كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾... وأشباه ذلك مما فيه معنى الأمر فهذا الظاهر الحكم وهو جار مجرى الصريح من الأمر والنهي ⁽¹⁾ فالمعنى الضمني (الأمر) ليس في نفس القوة الإنجازية للفعل الكلامي (الإخبار) ولذلك أثر السياق القرآني التعبير بصيغة الأمر الذي جاء مجيء الإخبار عن تقرير الحكم . فالأمر يتمثل في الحض على الفعل وفي الأمر بالصوم ، تأكيد للحكم وترغيب فيه من خلال أمر الشاهد بالصوم (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

وهذه الآية تتضمن طلب الدعاء . فنجد أن الأفعال الكلامية المستعملة لتبليغ هذا الطلب هي : التشريف ، والتقريب ، والوعد ، والأمر ، والتأكيد ، والحث مع الاعتماد على تلوين الخطاب وتوجيهه إلى النبي (ص) أما التشريف : فهو بمخاطبة النبي (ص) وما فيه من إعلاء منزلته ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ .

أما التقرير : ففي قوله : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ... ﴾ تقرير للقرب فبعد أن قرر وعد من دعاه بالإجابة ، وبعدما وعد أمر بالاستجابة له ، وبالثبات على الإيمان وقد عبر عن الأمر بصيغة المضارع المجزوم بلام الأمر ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا ﴾ ، ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا ﴾ وقد خرج الأمر الثاني عن مقتضى الظاهر ⁽²⁾ إلى الأمر بالثبات والمداومة على الإيمان ، ثم ختم سلسلة الأفعال بالتأكيد والحث

(1) - الشاطبي . مرجع سابق . 92 / 3 .

(2) - ينظر : أشواق محمد إسماعيل . الإقتضاء ودلالاته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم . ص 300

في قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ . وهذه الأفعال موجهة تداوليا بحيث إنها تعبر عن الخلفيات

المشتركة بين المتخاطبين (الداعي، والمدعو) ، والغرض الكلامي ممثل في حمل المخاطبين على التوجه بالدعاء إلى الله ثم طلب الإجابة منه ، ودرجة الشدة التي عرض بها الغرض الإنجازي يعبر عنها الأمر ، والتأكيد والحث . ومن مفترضات القوة المتضمنة في القول أن هذا الوعد هو : في صالح المخاطب وقدرته على أداء المطلوب منه ، والمقصد العام الذي جاءت فيه الآية تدعمه الوظيفة الحجاجية التي تزيد من فاعلية الفعل الكلامي الإنجازية كوظيفة الإقناع ، والتأثير لأن " هناك ضرورة منطقية تربط المقدمات بالنتائج ، فترغم السامع إذا ما اعترف بمقدمات معينة على قبول النتيجة." ⁽¹⁾ وما يساهم في تعديل القوة الإنجازية هو عدم تقييد الإجابة بالمشيئة ، كما في آية أخرى ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام 41] . ⁽²⁾ أما عن دلالة الصيغة المضارع المسبوق بلام الأمر المستخدمة في الطلب " وهي الصيغة الأصل عند الكوفيين" ⁽³⁾ وتبدو هذه الصيغة أقوى صيغ الأمر دلالة عليه ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور محمد توفيق سعد يقول : "إذا تأملنا صورة الأمر في (لتفعل) وصورة (افعل) ألفينا أن دلالة (لتفعل) على حقيقة معنى الأمر التي سبق بيانها أكثر من دلالتها على غيرها ، بينما دلالة (افعل) على غير حقيقة معنى الأمر كثيرة جدا ... و أن صيغة (لتفعل) وردت للأمر في الذكر الحكيم على قراءة حفص في تسعة وسبعين موضعا ، " ومن خلال النظر فيما جاء منه في ضوء سياقه بدا لي أن أغلب هذه الصور كان دالا على معنى الأمر المقتضى إيقاع ما لم يكن." ⁽⁴⁾ ويعني هذا أن صيغة (لتفعل) هي الأقوى وهذا لا ينفي أنها قد تخرج عن الدلالات الطلبية . "وقد أكد الأمر في هذا السياق بأن جاء على صيغة المضارع المقرون باللام وهي أكد من صيغة (افعل)." ⁽⁵⁾

(1) - عبد السلام عشير . عندما نتواصل نغير . ص 90

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . ص 633/2

(3) - أبو البركات الأنباري . الإنصاف في مسائل الخلاف . ص 254 / 2.

(4) - ينظر : محمد توفيق سعد .. صورة الأمر والنهي في القرآن الكريم . ص 145 .

(5) - حسام أحمد قاسم . تحويلات الطلب . ص 207 .

قال تعالى : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

في بدء فرضية الصوم كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء أو يرقد. فإذا صلى أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة. ثم إن بعض الصحابة واقع أهله بعد صلاة العشاء ، فندموا واعتذروا لرسول الله (ص) فنزلت الآية (1). تتضمن هذه الآية جملة من الأفعال الكلامية هي : الإخبار، الأمر، النهي ، الدعاء ، التقرير، والترغيب . وغرض المتكلم وهو الله عز وجل توجيهه وتقرير أحكام متعلقة بالصيام يقوم بها المكلفون . ونبدأ فيما يلي باستعراض الأفعال الكلامية في هذه الآية :

الإخبار : في قوله تعالى ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ... ﴾ فعل كلامي مباشر بصيغته الحرفية "ولفظ (أحل) يقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك ثم نسخ ، والرفث كناية عن الجماع ؛ لأن الله عز وجل كريم يكتفي "(2) لكن السياق القرآني استخدم الأسلوب الخبري في موضع الإنشاء . وقد يحمل الخبر معنى الأمر للتعبير عن معان لا تتوفر في الصياغة المعتادة . فلو أخذنا بالمنهج التحويلي فسنلاحظ من خلال البنية السطحية ، والبنية العميقة تحول الإنشاء إلى الخبر .

البنية السطحية : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ... ﴾

فعل ماض ← أسلوب خبري .

أرفثوا : **البنية العميقة :**

فعل أمر ← أسلوب إنشائي

فتكون صيغة الأمر للإيجاب وهو يختلف عن الوجوب في العلو . والإيجاب إلزام من غير العالي . "وعنصر العلو من العناصر المكونة للدلالة الحقيقية لصيغة الأمر هو عنصر العلو، والمقصود بالعلو أن تكون مكانة الأمر أعلى من مكانة المأمور ، كمكانة الخالق بالنسبة للمخلوق "(3)

(1) - ينظر : الزمخشري . الكشاف . 1 / 229 .

(2) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 2 / 210 .

(3) - حسام أحمد قاسم . تحويلات الطلب . ص 47 .

فالسباق القرآني أثر الصياغة الخبرية محل الصياغة الأمرية ، وهدفه إبراز معان مختلفة ، وتحقيق وظائف تداولية ، كمرعاة حال المخاطب بحذف الفاعل ، والبناء للمفعول في قوله تعالى : ﴿ أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّقْتُ ﴾ " لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه ألا يقتزن بالتصريح بالفاعل. "(1)

ومن ثم فإن الصياغة الأمرية ليست في نفس القوة الإنجازية للصيغة الأمرية .

الاستراتيجية التلميحية : استعمل السياق القرآني طريقة التلميح لتحقيق الأفعال الكلامية ، ومن أشكال التعبير التلمحي استعمال الكناية في الكلام عن الألفاظ المستهجنة كالتكنية عن الجماع بقوله : ﴿ الرَّقْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا نَبَأَ بِشِرْوَاهُنَّ ﴾ ، و ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ ﴾ . وهي استراتيجية غير مباشرة "يعبر بها المتكلم عن القصد بما يغيّر المعنى الحرفي لينجز بها أكثر مما يقوله مستثمرا في ذلك عناصر السياق ، أما البنية اللغوية الظاهرة فهي مجرد ممر. "(2) ومن مسوغات استعمال الإستراتيجية التلميحية (الأفعال الإنجازية غير المباشرة) التأدب في الخطاب كمرعاة البعد الشرعي والاجتماعي . ويؤكد سيرل أن : " التأدب يعد من أبرز الدوافع إلى استعمال الاستراتيجية غير المباشرة في الطلب ومنها تجنب المحذور اللغوي. "(3) وهذا المبحث هو ما يعرف عند علماء الأنثربولوجيا بـ (التابو Tabou) وقد نظروا إليه على أنه نسق ، أو نظام له مضمون اجتماعي أو ديني ، وقد يكون لقيم المجتمع وأعرافه تأثير في لغته ، و أكثرها إثارة ما يعرف بظاهرة المحذور ، الذي يعتقد أنه ممنوع أو غير أخلاقي فلا يتقبل إعلانه . (4) ويشمل هذا الحظر مجالات معينة : كالجنس ، وقضاء الحاجة وما يدل على الأمراض الخبيثة والوحوش الكاسرة . (5)

وقد كنى القرآن عن هذه المحظورات بألفاظ مهذبة فكنى عن الجماع بالملامسة : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ والمباشرة ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ ﴾ وكنى عن قضاء الحاجة بقوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ ، ومن كنايات القرآن كذلك الكناية عن التبول والغائط بلفظ ﴿ يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة 75] وكنى عن العورة بلفظ السوءة في قوله تعالى : ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ [الأعراف 22] . (6) ويقول أولمان ستيفن عن ظاهرة التلطف في الكلام : " إنه وسيلة مقنعة بارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعه . "(7)

(1) - فاضل السامرائي . معاني النحو . 3 / 78 .

(2) - عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 371 .

(3) - J . Searle . Expression and meaning . p 36 .

(4) - ينظر : محمد حسن عبد العزيز . علم اللغة الاجتماعي . ص 314 .

(5) - ينظر : محمود فهمي حجازي . مدخل إلى علم اللغة . ص 139 .

(6) - ينظر : مثني نعيم حمادي . الجهود البلاغية لابن الجوزي . ص 160 .

(7) - أولمان ستيفن . دور الكلمة في اللغة . ترجمة : كمال بشر . ص 174 .

وتعد الصور البيانية من الأنواع التي تتأتى من خلالها الأفعال الكلامية غير المباشرة من خلال الاستعارة أو التشبيه أو الكناية . وهناك من جعل الكناية "هروبا من اللغة وهو نفور النفس من القبيح لأن الكناية في وظيفتها جعلت لتحسين القبيح " . (1)

وهذه النماذج من التعبير القرآني إلى جانب وظيفتها التلميحية فإنها تؤدي وظيفة توجيهية . فإن الله عز وجل يعلم الناس آداب الكلام والتخاطب ، باستعمال مثل تلك الصيغ الكنائية . كما قال الشاطبي : "فاستقر ذلك أدبا لنا استنبطناه من هذه المواضع " . (2) أما على مستوى الخطاب البشري فإن التداوليين نبهوا إلى قواعد التهذيب والتأدب والتلطف في الخطاب . يقول طه عبد الرحمان في تعليقه على مباديء روبيين لاكوف : "توجب قاعدة التعفف على المتكلم ألا يستعمل من العبارات إلا ما يمكنه من حفظ مسافة بينه وبين المخاطب ، فلا يفتاحه بما يكشف أحوال أحدهما للآخر متجنباً الصيغ التي تحمل دلالة وجدانية مثل : أعمال القلوب ، ولا يحمل على فعل ما يكره محترزا من استعمال عبارات الطلب المباشرة ، ولا يقتحم عليه شؤونه الخاصة إلا بالاستئذان قبل الكلام فيها والاعتذار بعده " . (3)

الأمر : وهو فعل كلامي توجيهي في قوله تعالى : ﴿ قَالَانَ بِأَشْرُوهُنَّ ﴾ وهو أمر يقتضي الإباحة " معناه . قد أحل الله لكم ما حرم عليكم " . (4) والتقدير قد أبحنا لكم مباشرتهن وهو كناية عن الجماع . والمقصود إزالة التحريم السابق . وإن الأمر إذا ورد مجردا عن القرائن حمل على الوجوب . " وإن ورد بقرينة ، حمل على ما تدل عليه القرينة من الإباحة لأنه إذا ورد بعد الحظر فهو للإباحة " . (5) وكفى عن الجماع بالمباشرة لصناعة فعل كلامي غير مباشر بقول كنائي يعبر عن شروط صدقية هذا القول . "وهذا يعني أن الانتقال من معنى الجملة إلى معنى المتكلم لا يتم في مستوى بنية الفعل الإنجازي (باشروهن) بل في مستوى البنية الدلالية إلى المحتوى القضوي ، ومن ثم تكون وظيفة العبارات البيانية المختلفة إنجاز الأفعال غير المباشرة وموضحة لها" . (6) ومن الأفعال الكلامية الأمرية كذلك الأمر في قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ وهو أمر صريح يقتضي الإباحة ؛ أي إباحة ما تقدم . وهناك أمر ثالث في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ وهو أمر بإتمام الصيام المعهود "وهذا الأمر يقتضي الوجوب" . (7) ويعبر الأمر عن فعل كلامي مباشر هو طلب القيام بالفعل على وجه الإلزام والاستعلاء " وفيه معنى التأكيد للنسخ السابق" . (8) فهذه الأوامر : (باشروهن ، كلوا واشربوا ، أتموا

(1) - ينظر : أبو القاسم حمام . الكناية . هروب من اللغة . مقال . مجلة الأثر . مارس 2006 جامعة ورقلة .

(2) الشاطبي . الموافقات . 69 / 2 .

(3) - طه عبد الرحمان . اللسان والميزان أو التكوثر العقلي . ص 241 .

(4) - أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . 91 / 1 .

(5) - ابن جزي . تقريب الوصول إلى علم الأصول . ص 93 .

(6) - الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 144 .

(7) - القرطبي . مرجع سابق . 218 / 2 .

(8) - الرازي . التفسير الكبير . 114 / 3 .

الصيام) تتوفر على محتوى قضوي ،وهو فعل تلك الأوامر في المستقبل مطلوب من المكلفين ، وهم قادرون على إنجاز تلك الأفعال ، والمتكلم على يقين من قدرتهم على إنجاز الأفعال ، وتستمد هذه الأوامر قوتها من سلطة صاحب الأمر وهو الشارع الحكيم . وقد كان لمعاني الحروف دور في تحصيل الأغراض اللغوية ، فمقصود النص بعبارة أي دلالة الصريحة المقصودة من سياقه مجموعة من الأفعال المباحة كالأكل والشرب والجماع في جميع الليل من ليالي رمضان إلى طلوع الفجر . فحينما ننظر في مقصود النص نجد أن حرف المعنى (حتى) حاضر في الإشارة إلى الغاية التي تمتد في زمن الليل إلى وقت هي نهاية الظرف ؛ أي آخر أجزاء الليل ، وهذه الغاية المتضمنة في معنى (حتى) هي انتهاء الشيء وتامه ، وغاية الشيء آخره فكأنه قال : كلوا واشربوا إلى انتهاء وقت الليل.(1) أي بداية الإمساك . أما المعنى غير المقصود بدلالة الإشارة وهو جواز المباشرة الزوجية في جميع أجزاء الليل .(2)

النهي : هناك فعل كلامي هو النهي في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ وهذا النهي يراد به التحريم ، وهو تقييد الخطاب بالحال(3) . وهناك نهى آخر في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ وهو كناية عن النهي عن قرب الباطل . وهو أبلغ من (لاتعتدوها) وفي قوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ " إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي.(4) وهي : الإيجاب ، والتحريم ، والإباحة .

الدعاء : في قوله تعالى : ﴿ ابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فالصيغة الظاهرية هي الأمر ، والمعنى المتضمن في القول المستلزم حواريا هو الدعاء "أي اطلبوا ما قدره الله لكم ، وقولوا: "اللهم ارزقنا ما كتبت لنا"(5)

التقرير : وهو فعل كلامي وارد في قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ ... ﴾ جملة اعتراضية لتقرير الأحكام السابقة .

الترغيب : وهو فعل كلامي وارد في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وهو ترغيب بامتثال الأحكام السابقة . لأنها شرعت لأجل تقواهم . ولتقوية الفعل الإنجازي فإنه رغب بمؤشرات دالة على التحقيق للإقناع كقوله تعالى : (أحل لكم- فتاب- عفا عنكم- فالآن باشروهن) . ولتقوية إنجازية الأفعال الكلامية السابقة استعمل السياق القرآني مؤشرات لغوية وذلك لتعديل القوة الإنجازية منها:

(1) - ينظر : إدريس بن خويا . البحث الدلالي عند الأصوليين قراءة في مقصدية الخطاب الشرعي عند الشوكاني . ط1 / 2009 . مطبعة بن سالم . الأغواط الجزائر . ص 144 .

(2) - ينظر : أحمد كروم . الاستدلال في معاني الحروف . ص 221 .

(3) - إدريس بن خويا . المرجع نفسه . ص 151 .

(4) - ينظر : القرطبي . مرجع سابق . 2 / 225 .

(5) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 636 .

- تعدية (الرفث) بـ (إلى) لتضمنه معنى الإفضاء .
- إيثار لفظة (الرفث) على غيرها من الكنايات في هذا الباب استقباحا لما وجد منهم قبل الإباحة ولذا عبر عنه بـ (تختانون) .

- إضافة كلمة (النساء) إلى ضمير المخاطبين (نساءكم) للاختصاص .
- استعمال الجملة الاعتراضية (علم الله...) لبيان حالهم بالنسبة إلى ما فرط منهم في فترة المنع.⁽¹⁾
- إيثار الكناية عن النهي بقوله تعالى : (فلا تقربوها) لأنها أبلغ من التصريح (لا تعتدوها) وفي ذلك تقوية للنهي مما يدفع بالمكلفين إلى الامتنال للمنهايات . ومن ثم يتحقق المستوى الثالث من الأفعال الكلامية وهو : الفعل التأثير الإعتداء على الظالمين . كما ختم الأمر السابق بأن من انتهى عن الكفر ودخل في الإسلام غفر الله له ورحمه.⁽²⁾ لأن مشركي العرب ليس في حقهم إلا الإسلام أو السيف . (تقاتلونهم أو يسلمون) .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- النهي : فعل كلامي مباشر هو النهي الذي دلت عليه القوة الإنجازية الحرفية . ومضمونه النهي عن الأكل الحرام المفضي إلى عدم قبول العبادات ، وقد عبر بـ (الأكل) عن الأخذ والإستيلاء والباء للسببية .⁽³⁾ "أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يشرعه الله " .⁽⁴⁾ وهناك نهى آخر معطوف على النهي الأول في قوله تعالى : ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ...﴾ عطف على ﴿تَأْكُلُوا﴾ فهو منهي عنه مثله . فقد نهى عن الإلقاء بالخصومة إلى الحكام على وجه الرشوة .⁽⁵⁾

- التوبيخ : فعل كلامي غير مباشر دل عليه قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فهو يوبخهم على أكلهم أموال الناس بالباطل مع علمهم أنهم على الباطل . " وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها ، وأقبح وصاحبه أحق بالتوبيخ".⁽⁶⁾

(1) - ينظر : الألوسي مرجع سابق . 2 / 635 .

(2) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 272 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 2 / 642 .

(4) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 233 .

(5) - ينظر : الألوسي . المرجع نفسه . 2 / 642 .

(6) - الزمخشري . المرجع نفسه . 1 / 233 .

قال تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)

الإخبار : فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴾ أخبر تعالى أن هتك حرمة الشهر الحرام بسبب القتال فيه وهو شهر (ذي القعدة) . وكانوا يكرهون القتال فيه حين خرجوا لعمره القضاء جائز لكم بسبب هتكهم حرمة فيه حين قاتلوكم فيه عام الحديبية وصدوكم عن البيت ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴾ فاقترض أن كل من هتك أي حرمة اقتضى منه بأن تهتك له حرمة ، فكما هتكوا حرمة شهركم لا تبالوا بهتك حرمة لهم. (١) قال الزجاج : "ومعناه قتال الشهر الحرام." (٢)

الإباحة : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ أي إن استحلوا قتالكم في الشهر الحرام فقاتلوهم ؛ أي أباح الله لهم قتال المدافعة . وذلك أن قريشا صدتهم عن البيت عام الحديبية سنة (6هـ) ويسر الله لهم الرجوع عام القضية سنة (7هـ) فقال لهم : هذا الشهر الذي دخلتم فيه بدل عن الذي صدتكم فيه ، يعني أنه من قبيل قولهم : "يوم بيوم والحرب سجال" و(الباء) في قوله (بالشهر) للتعويض ودلالة الباء تساهم في تدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي فالتعويض كقولهم : صاع بصاع ، وليس ثمة شهران بل المراد انتهاك الحرمة منهم ومنكم وهما انتهاكان . (٣)

الاعتراض : ﴿ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴾ وهي جملة تنبيئية . عطفه ليكون كالحجة لما قبله . ومعنى كونها قصاص أي مماثلة في المجازاة فمن انتهكها بجناية يعاقب فيها جزاء جنايته وقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ تفريع عن قوله تعالى : ﴿ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴾ ونتيجة له فسمي جزاء الإعتداء اعتداءً مشاكلة . (٤)

الأمر : فعل كلامي مباشر ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ أمر بالمجازاة لمن اعتدى علينا بعقوبة مثل عقوبته . تأكيد لما سبق. (٥) "والأمر للإباحة إذ العفو جائز." (٦)

الأمر : فعل كلامي مباشر (واتقوا الله) + (واعلموا أن الله مع المتقين)

- الأشهر الحرم : أربعة ثلاثة متتابعة : ذو القعدة - ذو الحجة - محرم . وحرمتها لوقوع الحج فيها . وشهر واحد مفرد وهو رجب ، وكان في الجاهلية شهر العمرة وقد حرمته مضر فقيل (رجب مضر) قال تعالى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 211 / 2.

(١) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 272 / 2 .

(٢) - ينظر : تفصيله في الزجاج . مرجع سابق . 228 / 1 .

(٣) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 210 / 2 .

(٤) - ينظر : نفسه . 211 / 2 .

(٥) - ينظر : أبو حيان . المرجع نفسه . 272 / 2 .

(٦) - الألوسي . مرجع سابق . 652 / 2 .

"أمر بالاعتناء في الإعتداء ؛ أي بألا يتجاوز الحد . وافتتاح الكلام بكلمة (اعلم) إيدان بالاهتمام بما سيقوله فغن قولك في الخطاب اعلم إنباء باهمية ما سيقلى للمخاطب".⁽¹⁾

وأمر بالتقوى فلا يوقع في المجازاة غير ما سوغه له . ودعم القوة الإنجازية لهذا الفعل الكلامي بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ومن كان الله معه فهو المنصور على عدوه.⁽²⁾ "فأمرهم الله أن يتقوه في الانتصار لأنفسهم وترك الاعتداء بما لم يرخص لهم فيه".⁽³⁾

الأمر : فعل كلامي مباشر ﴿وانفقوا في سبيل الله﴾ فقد أمر الله عز وجل بإنفاق المال في سبيله ، ونصرة دينه والمراد "الجهاد في سبيل الله وكل ما أمر الله به من الخير فهو في سبيل الله ؛ لأن السبيل في اللغة الطريق ، وإنما استعمل في الجهاد أكثر لأنه السبيل الذي يقاتل فيه على عقد الدين".⁽⁴⁾

النهي / الإرشاد : فعل كلامي مباشر ﴿وَلَا تُقْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ "فقد نهانا عن الالتباس بالدعة والهويينا فنضعف عن أعدائنا ويقوون هم علينا فيؤول أمرنا معهم لضعفنا ، وقوتهم إلى هلاكنا . وفي هذا الأمر وهذا النهي من الحض على الجهاد ما لا يخفى".⁽⁵⁾ فيه نهى عن الأعمال التي لها عواقب ضارة إبلاغا للنصيحة والإرشاد لئلا يدفع بهم يقينهم بتأييد الله إياهم إلى التفريط في وسائل الحذر . فالنهي عن إلقاء النفس إلى التهلكة يجمع معنى الأمر بالإنفاق وغيره من تصارييف الحرب . ولذلك فالجملة فيها معنى التنذيل ، وإنما عطفت ولم تفصل باعتبار أنها غرض آخر من أغراض الإرشاد.⁽⁶⁾ وفيه حض على عدم ترك الغزو والإنفاق فيه . والنهي مؤكد للأمر السابق واختار البلخي أنها اقتحام الحرب من غير مبالاة وإيقاع النفس في الخطر والهلاك . واستدل بالآية على تحريم الإقدام على ما يخاف منه تلف النفس .⁽⁷⁾

الأمر : فعل كلامي مباشر ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ جاء الأمر بالإحسان إشارة إلى أن كل تلك الأحوال يلابسها الإحسان ويحف بها . وذلك بالوقوف عند الحدود.⁽⁸⁾ وأنه تعالى يحب من أحسن، وأمر تعالى بالإحسان في الأعمال بامتنال الطاعات فذكر ابن العربي أن له ثلاثة أقوال : الأول : أحسنوا الظن بالله الثاني : في أداء الفرائض . والثالث : أحسنوا إلى من ليس عنده شيء . وختم بقوله الإحسان مأخوذ من الحسن وهو كل ما مدح فاعله وليس الحسن صفة للشئ

(1) - ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 211 .
(2) - ينظر : أبو حيان . المرجع نفسه . 2 / 272 .
(3) - الألوسي . المرجع نفسه . 2 / 651 .
(4) - الزجاج . مرجع سابق . 1 / 229 .
(5) - أبو حيان . المرجع نفسه . 2 / 272 .
(6) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 213 .
(7) - ينظر : الألوسي . المرجع نفسه . 2 / 652 .
(8) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 216 .

وإنما الحسن خبر من الله تعالى عنه بمدح فاعله. (1)

الترغيب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ دلت عليه جملة التذييل للترغيب في الإحسان إذ محبة الله عبده غاية ما يطلبه الناس .

الحج والعمرة والإحرام :

قال تعالى : { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١٦﴾ }

الأمر : فعل كلامي مباشر ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ... ﴾ أمر تعالى باتمام الحج والعمرة بأن يأتوا بهما كاملين تامين بمناسكهما وشرائطهما . وأن يكون فعل ذلك لوجه الله لا يشوب فعلها رياء ولا سمعة ، وكانوا في الجاهلية قد يحجون لبعض أصنامهم فأمروا بإخلاص العمل في ذلك إلى الله . (2)

توضيح : فعل كلامي مباشر ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فذكر أن من أحصر وحبس عن إتمام الحج أو العمرة فيجب عليه ما يسر من الهدي ، والهدي يشمل (البعير ، والبقرة ، والشاة) . (3)

بمعنى أن المحرم إذا أحصر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدي . وهذه الآيات نزلت في شأن عمرة الحديبية ، ثم جاء المسلمون في عام عمرة القضاء معتمرين وإن مكنوا من الحج أن يحجوا. (4)

النهى: فعل كلامي مباشر ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ... ﴾ نهى عن حلق الرأس حتى يبلغ الهدي محله (وهو الحرم) أولا بمعنى "لا تتحللوا من إحرامكم حتى ينحر الهدي" وذلك أن سنة الذبح قبل الحلاق ، وكذلك فعل رسول الله (ص) بدأ فنحر هديه ثم حلق بعد ذلك. (5) والخطاب للمحصر

(1) - ينظر : أبو بكر بن العربي . مرجع سابق . 1 / 117 .

(2) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 272 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 226 .

(4) - ينظر : القرطبي . مرجع سابق . 2 / 252 .

(5) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 273 .

توضيح: ما يعرض للإنسان ما يقتضي حلق رأسه لمرض أو أذى برأسه من قمل أو قرح ، فأوجب تعالى عليه بسبب ذلك . فدية من صيام أو صدقة أو نسك . ثم ذكر أنهم إذا كانوا آمنين ، وتمتع أحدهم بالعمرة إلى وقت الإحرام بالحج ؛ فإنه يلزمه ما استيسر من الهدى ، وإذا لم يجد ذلك بتعذر ثمن الهدى أو فقدان الهدى ، فيلزمه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع ، ثم ذكر أن هذا التمتع ولازمه من الهدى أو الصوم وهو مشروع لغير المكي.(1)

وقال الألوسي : "من كان مريضاً يحتاج للحلق فعليه فدية إن حلق".(2)

الأمر: لما تكررت الأوامر والنواهي في هذه الآية كرر الأمر بالتقوى وأعلم أنه تعالى شديد العقاب لمن خالف ما شرع . ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ . وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

قال تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَاِتِّبُوا خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾^(٣٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾^(٣٨) ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ سَكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴾^(٤٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(٤١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾^(٤٢)

التقرير: ﴿الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ﴾ أي لا حج إلا في هذه الأشهر ، "إذ يفهم أنه لا يصح الحج في أوقات غير هذه الشهور المحددة".(3)، ولا يجوز في غيرها كما كان بعض من أهل الجاهلية يستجيزونها في غيرها من الأشهر .(4) وأشهر الحج ثلاثة (شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة) وأحالهم في معرفة تلك الأشهر على ما كانوا علموه قبل نزول هذا الشرع . فجاء الشرع مقررًا لما عرفوا والمراد بأنها معلومات أي مؤقتة في أوقات معينة لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها . لا كما يفعله البعض .

(1) - ينظر : القرطبي . مرجع سابق . 2 / 252 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 658 .

(3) - إدريس ابن خويا . البحث الدلالي عند الأصوليين . ص 151

(4) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 173 .

النهى: ﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ...﴾ فنهاه عن مفسدت الحج . فقله تعالى : ﴿لا رفث﴾ أي لا جماع ، أو لا فحش من الكلام ونهى عن ﴿الفسوق﴾ أي لا خروج عن حدود الشرع بارتكاب المحظورات ، ونهى عن ﴿الجدال﴾ أي الخصام مع الرفقة . ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي استعمل السياق النفي للمبالغة في النهي والدلالة على أنه حقيقة بأن لا تكون . فإن ما كان منكرا مستقبلا في نفسه منهيا عنه مطلقا . فهو للمحرم بأشرف العبادات وأشقها أنكر وأقبح . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأولين بالرفع حملا لهما على معنى النهي . أي : لا يكون رفث و لا فسوق . والثالث بالفتح على معنى الإخبار ، لا جدال بانتفاء الخلاف في الحج .⁽¹⁾

الإخبار: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أخبر تعالى أن ما يفعله الإنسان من الخير الذي فرض الحج منه يعلمه الله . فهو تعالى يثيب عليه . قال الألوسي : بتأول الأمر معطوف على {فلا رفث} أي لا ترفثوا ، وافعلوا الخيرات . وفيه التفات وحث على الخير عقيب النهي عن الشر ليستبدل به.⁽²⁾

الأمر: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ففي الأمر حث على التقوى واتخاذ الزاد . أمر الله تعالى بالتزود للدار الآخرة بأعمال الطاعات ، وأخبر أن خير الزاد ما كان وقاية بينك وبين النار . ونزلت هذه الآية في طائفة من العرب يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ثم يقدمون فيسألون فكانوا عالة على الناس فنهوا عن ذلك وأمر بالزاد.⁽³⁾

النداء: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ نادى ذوي العقول الذين هم أهل الخطاب ، وأمرهم باتقاء عقابه لأنه قد تقدم ذكر المناهي فناسب أن ينتهوا على اتقاء عذاب الله بالمخالفة فيما نهى عنه.⁽⁴⁾

الإباحة: دلت عليه صيغة الخبر المنفي الوارد في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ "لما كان الحاج مشغولا بهذه العبادة الشاقة ، كان مما يتوهم أنها لا يمزج وقتها بشيء غير أفعالها فبين تعالى أنه لا حرج على من ابتغى فيها فضلا بتجارة ، أو إجارة أو غير ذلك من الأعمال المعينة على كلف الدنيا."⁽⁵⁾ وقيل في سبب نزولها أنه كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية ، فتأثموا في الإسلام أن يتجروا فيها ، فنزلت هذه الآية ، وفي هذا دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة .⁽⁶⁾

الأمر: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ليرجعهم بذكره إلى الاشتغال بأفعال الحج ، لئلا يستغرقهم التعلق بالتجارات والمكاسب ، وهذا يدل على أن الحصول عند المشعر الحرام

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق 2 / 664 . وينظر أيضا : القرطبي . مرجع سابق . 2 / 272 .

(2) - الألوسي . نفسه . 2 / 664 .

(3) - القرطبي . مرجع سابق . 2 / 273 .

(4) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 213 .

(5) - المرجع نفسه . 2 / 314 .

(6) - أبو بكر بن العربي . مرجع سابق . 1 / 135 .

واجب ، ويكفي فيه المرور به . والأمر بالذكر لا بالوقوف فعلم أن الوقوف عند المشعر الحرام تبع للذكر، والمراد منه الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء هناك ، والصلاة تسمى ذكرا والأمر فيه للوجوب ، ولا ذكر هناك يجب إلا هذا ، وقيل المراد منه ذكر بالتسبيح والتحميد والتهليل .⁽¹⁾

الأمر: أمرهم بالذكر على هدايته التي منحها إياهم ، وقد كانوا من قبل في ضلال فاصطفاهم للهداية ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ وجملة (وإن كنتم) تذييل لما قبلها كأنه قيل : اذكروه الآن ، وكرر الأمر تأكيدا وهذا يقوي إنجازية الفعل الكلامي . ثم ذكرهم بحال ضلالهم ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ليظهر قدر الإنعام عليهم . والمعنى اذكروه ذكرا حسنا كما علمكم المناسك وعلمكم كيف تذكرونه.⁽²⁾

الأمر: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الجملة معطوفة على فإذا أفضتم فالأمر أفيضوا من عرفة لا من مزدلفة . والمقصود إبطال ما كان عليه الحمس^(*) من الوقوف بمزدلفة ولما كان المقصود من هذه التعريض كانت في قوة ثم لا تفيضوا من مزدلفة، وأتى بالأداة (ثم) إيذانا بالتفاوت بين الإفاضتين في الرتبة ، بأن أحدهما صواب والأخرى خطأ .⁽³⁾

التعريض: فعل كلامي غير مباشر عبرت عنه جملة الأمر ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ففيه تعريض بقريش ، الذين حرفوا بعض مناسك الحج ، فاتخذت طائفة منهم (الحمس) الوقوف بمزدلفة فدعاهم إلى الوقوف بعرفة ، والإفاضة منها بقوله معرضا ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ثم وجه إليهم الأمر بالاستغفار بقوله تعالى : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي استغفروا الله من جاهليتكم في تغيير المناسك وغيرها فإن الله يغفر للمستغفرين رحيم بهم.⁽⁴⁾

الأمر: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدُّ ذِكْرًا﴾ أمر بالذكر بعد أداء المناسك . وقد مثل ذكر بذكر الآباء "ثم أكد مطلوبة المبالغة في الذكر بقوله : ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ ليفهم أن ما مثل به ليس إلا على طريق ضرب المثل لهم والمقصود أن لا يغفلوا عن ذكر الله تعالى طرفة عين .

ولما كان الإنسان كثيرا ما يذكر أباه ويثني عليه بما أسلفه من كريم المآثر . وكان ذلك عندهم الغاية في الذكر".⁽⁵⁾ فمضمون الأمر هو الحث على الإكثار من ذكر الله .

التبيين: في قوله تعالى : ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ...﴾ قسم مقصد الحاج إلى دنيوي صرف وإلى دنيوي وأخروي . وبين ذلك في سؤاله إياه . وذكر أن من اقتصر على دنياه فإنه لاحظ له في الآخرة ثم أشار إلى مجموع الصنفين

(1) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 192 .

(2) - ينظر : القرطبي . مرجع سابق . 2 / 282 .

(*) - شرح الحمس . ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 195 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 668 .

(4) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 195 .

(5) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 314 .

بأن كلا منهما له مما كسب من أعماله حظ إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وأنه تعالى حسابه سريع فيجازي العبد بما كسب.(1) فقد قسم السياق الذاكرين إلى قسمين قسم مقل لا يطلب بذكر الله إلا الدنيا . ومكثر يطلب خير الدارين . في الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ﴾ . والغرض هو الحط من طالب الدنيا .(2)

الدعاء: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ففي الآية الدعاء بالرحمة والإحسان ونعم الدنيا والآخرة . وهذه الآية من جوامع الدعاء . بها يدعو الرسول (ص) وأصحابه . وأشار إلى الفريق الثاني الذين ينالون ثواب الحج والدعاء ، وقيل يرجع (أولئك) إلى الفريقين فللمؤمن ثواب عمله ، وللكافر عقاب شركه وقصر نظره على الدنيا . وختم الآية بجملة التذيل ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد بسرعة بمقدار لمحبة البصر . والله سريع الحساب لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد . وفي الخبر: "إن الله يحاسب في قدر حلب الشاة".(3)

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢٢٣﴾

الأمر: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ فقد تضمنت الآية الأمر بذكر الله في أيام معدودات . "أي قلائل ودل الذكر على الرمي وإن لم يصرح به لأن الذكر المأمور به في تلك الأيام هو عند الرمي . ودل الأمر على مشروعيته في أيام . ثم رخص في التعجيل عند انقضاء يومين منها ، فسقط الذكر المختص به اليوم الثالث . وأخبر أن حال المتعجل والمتأخر سواء في عدم الإثم ، وإن كان حال من تأخر أفضل ، وكان بعض الجاهلية يعتقد أن من تعجل أثم ، وبعضهم يعتقد أن من تأخر أثم . فلذلك أخبر أن الله رفع الإثم عنهما . ثم أخبر أن ارتفاع الإثم لا يكون إلا لمن اتقى الله تعالى ."(4) فالمراد اذكروا الله وكبروه إدبار الصلوات ، وعند ذبح القرابين ، ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق ويراد بذلك التخيير بين التعجل والتأخر ، وأضاف إلى التوجيه أمران آخران هما : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فالمراد اتقوا الله واحذروا الإخلال بما ذكر من أمور الحج ، وجملة (واعلموا) تأكيد للأمر بالتقوى وموجب للامتنال به ، ودعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي بتقديم لفظ

(1) - ينظر : أبو حيان مرجع سابق . 2 / 314 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 669 .

(3) - القرطبي . مرجع سابق . 2 / 286 .

(4) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 358 .

(إليه) للاعتناء بمن يكون إليه الحشر، ولتوخي الفواصل.⁽¹⁾ والأيام المعدودات هي: أيام منى وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وهي غير الأيام المعلومات التي هي أيام النحر الثلاثة وهي اليوم العاشر ويومان بعده . وإنما أمروا بالذكر في هذه الأيام لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر والغزل لأنهم كانوا يرون أن الحج قد انتهى بانتهاء العاشر بعد أن أمسكوا عن ملاذهم مدة طويلة . واختير لفظ (تحشرون) هنا دون تصيرون أو ترجعون لأن (تحشرون) أجمع لأنه يدل على المصير وعلى الرجوع كما كانوا مجتمعين حين استحضر حالهم في هذا الخطاب . وهو اجتماع الحج فذكرهم بالحشر العظيم فلفظ (تحشرون) أنسب للمقام .⁽²⁾

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٩﴾

نزلت في عبد الله بن سلام و أصحابه فزيادة على إسلامهم يؤمنون بشرائع موسى . فقالوا للنبي (ص) إنا نقوى على هذا وهذا . وإن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها فأنكر المسلمون عليهم ذلك فنزلت الآية . والخطاب لمؤمني أهل الكتاب .⁽³⁾ نادى المؤمنين وأمرهم بالدخول في الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ .

الأمر: فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ والمعنى ادخلوا في الإسلام بكليتكم واستسلموا لله تعالى ، ولا تفرقوا بين الشرائع ، والمقصود أمر المسلمين بالثبات على الإسلام . وقد أمر المؤمنون بأن يدخلوا في الطاعات كلها وأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة كما فعل ابن سلام حين استأذن رسول الله (ص) أن يقيم على السبت ، وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل .⁽⁴⁾ ومعنى السلم الأمر بالدخول في المسالمة دون قتال ، وكما تقتضيه صيغة الأمر في (ادخلوا) من أن حقيقتها طلب تحصيل فعل لم يكن حاصلًا ، أو كان مفرطًا في بعضه ، وقد يكون السلم هو الرضا بصلح الحديبية . ويؤول الأمر كذلك بأنه أمر بزيادة التمكن منه والتغلغل فيه وهذا هو الظاهر .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 670 .

(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 261 - 263 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 2 / 678 .

(4) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 1 / 252 .

فيراد بالأمر في (ادخلوا) الدوام على ذلك . وقيل أريد بـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين أظهروا الإيمان فتكون خطابا للمنافقين .⁽¹⁾

النهي : وبعد الأمر ثنى بالنهي . لأن الأمر أشق من النهي لأن الأمر فعل والنهي ترك .
﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ بمخالفة ما أمرتم به . وعلل النهي بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي لا تقتفوا آثاره لأن ترككم شيئا من شرائع الإسلام هو اتباع للشيطان .⁽²⁾

التحذير : وقد مر الكلام في مثلها . "وفي النهي تحذير مما يصددهم عن الدخول في السلم هو من مسالك الشيطان ، فهذا النهي إما أخص من المأمور به ، مع بيان علة الأمر . تنبيهها للصحابة أن ما خامر نفوسهم من كراهية الصلح وهو من وساوس الشيطان ، وأما المجرد بيان علة الأمر بالدخول في السلم".⁽³⁾ والاستعارة الواردة في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ قد مر شرحها .

الوعيد : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي إن عصيتم أو كفرتم أو أخطأتم أو ضللتهم بعد نزول الكتب فاعلموا أن الله عزيز حكيم أي دوموا على العلم إن كان الخطاب للمؤمنين، وإن كان الكافرين أو المنافقين فهو: أمر لهم بتحصيل العلم . ففي وصفه هنا بالعزة التي هي تتضمن الغلبة والقدرة اللتين يحصل بهما الانتقام . وعيد شديد لمن خالفه وزل عن منهج الحق وفي وصفه بالحكمة دلالة على إتقان أفعاله ، وأن ما يرتبه من الزواجر لمن خالف هو من مقتضى الحكمة . وروى أن قارئاً قرأ غفور رحيم فسمعه أعرابي فأنكره ولم يكن يقرأ القرآن . وقال : إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم . ولا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه .⁽⁴⁾ واستعمال الزلل : الزلق أي اضطراب القدم والمجاز في الضر الناشيء عن اتباع الشيطان من بناء التمثيل على التمثيل : لأنه ما شبهت هيئة من يعمل بوسوسة الشيطان بهيئة الماشي على أثر غيره . شبه ما يعتريه من الضر في ذلك المشي بزلل الرجل في المشي في الطريق المزلفة ، وقد استفيد من ذلك أن ما يأمر به الشيطان هو أيضا بمنزلة الطريق المزلفة على طريق المكنية . وجيء في الشرط بـ(إن) لندرة حصول هذا الزلل من الذين آمنوا أو لعدم رغبة المتكلم في حصوله إن كان الخطاب لمن آمن بظاهره دون قلبه ، وفيه إشارة إلى أن ما خامر نفوسهم من كراهية الصلح هو زلة عظيمة .⁽⁵⁾

الإعذار : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ وإنما قال ذلك إذارا لهم ، وفيه إشارة إلى أنهم يجب عليهم تفويض العلم إلى الله الذي أوحى إلى رسوله (ص) بإبرام

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 277 / 2 .

(2) - ينظر : الزجاج . مرجع سابق . 241 / 1 .

(3) - ابن عاشور . مرجع سابق . 279 / 2 .

(4) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 342 / 2 .

(5) - ينظر : ابن عاشور . مرجع نفسه . 280 / 2 .

الصلح مع المشركين لأن ما أوحاه الله إلا لمصلحة وليس ذلك بوهن للمسلمين لأن الله عزيز لا يهن لأحد ، ولأنه حكيم يضع الأمور في مواضعها .⁽¹⁾

الاستفهام: في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ضَلَالٍ... ﴾ لفصل القضاء و ينزل الله تعالى والملائكة وقضي الأمر بإتمام أمر العباد وحسابهم فأنثب الطائع وعوقب العاصي . ووضع الماضي (قضي الأمر) موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه ، والاستفهام في معنى النفي ؛ أي

﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ .⁽²⁾ فالكلام خبر في صورة استفهام . وعلى كل الاحتمالات التي لا تتنافى فقد جاء نظم قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون ﴾ بضمير الجمع نظما جامعا للمحامل كلها مما هو أثر من آثار إعجاز القرآن الدال على علم الله تعالى بكل شيء .⁽³⁾ وهذا المركب (هل ينظرون) ليس مستعملا فيما وضع له من الإنكار بل مستعملا إما في التهديد والوعيد . وإما في الوعد إن كان الضمير لمن يشري نفسه . وإما في القدر المشترك وهو العدة بظهور الجزاء إن كان الضمير راجعا للفريقين ، وإما في التهكم إن كان المقصود من الضمير المنافقين اليهود أو المشركين . ويجوز على هذا أن يكون خبرا عن اليهود ؛ أي أنهم لا يؤمنون . ويدخلون في السلم حتى يروا الله تعالى في ظلل من الغمام .⁽⁴⁾ وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة (ينظرون) بحيث أعرض الله تعالى عن خطابهم وأخبر عنهم إخبار الغائبين مسليا لرسوله عن تباطئهم في الدخول في الإسلام فقال : ما ينتظرون إلا قيام الساعة ورجوع جميع الأمور إليه . فهناك تظهر ثمرة ماجنوا على أنفسهم.⁽⁵⁾ وقال الزمخشري : "فإن قلت : لم يأتهم العذاب في الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أظع وأهول ؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان الأمر أسر ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير " .⁽⁶⁾ وفي الآية المذكورة التفات من الخطاب إلى الغيبة "إما لمجرد تجديد نشاط السامع إن كان راجعا إلى المخاطبين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأما لزيادة نكتة إبعاد المخاطبين بقوله : ﴿فَإِنْ زُلْزِلْتُمْ﴾ عن عز الحضور."⁽⁷⁾

"إن كان الضمير (ينظرون) راجعا إلى الذين آمنوا ، فجملة ﴿هل ينظرون﴾ استئناف للتحريض على الدخول في الإسلام . وإن كان الضمير عائدا لليهود فهو توبيخ لهم على مكابرتهم عن الاعتراف بحقيقة الإسلام."⁽⁸⁾

(1) - ينظر : ابن عاشور مرجع سابق . 2 / 280 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 679 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع نفسه . 2 / 282 .

(4) - ينظر : المرجع نفسه . 2 / 283 .

(5) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 359 .

(6) - الزمخشري . مرجع سابق . 1 / 253 .

(7) - ابن عاشور . مرجع نفسه . 2 / 282 .

(8) - نفسه . 2 / 282 .

﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ... ﴾ وأسند الإتيان إلى الله ، فافتضى ظاهرة اتصاف الله به ولما كان الله منزها عن ذلك تعين صرف اللفظ عن ظاهره بالدليل العقلي ، فإن كان الكلام خبرا أو تهكما فلا حاجة للتأويل ، وإن كان الكلام وعيدا من الله لزم التأويل فلا بد من تأويل هذا عندنا على أصل الأشعري في تأويل المتشابه (1).

التأكيد : فعل كلامي مباشر دلت عليه جملة التذييل ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أسئلة الصحابة :

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أُنْفِقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝ ﴾
نزلت هذه الآية "في عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا هرما وعنده مال عظيم فقال ماذا تنفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت هذه الآية". (2)

الإرشاد / التبيين / البيان : سئل الرسول (ص) عما ينفقون من أموالهم في وجوه البر فلم يبين لهم جنس ما ينفقون ولا مقداره . وذكر مصرف ذلك لأنه هو الأهم في الجواب وهذا يسمى : أسلوب الحكيم* . وكأنه قيل : أي شيء ينفقون من قليل أو كثير فمصرفه لأقرب الناس إليكم وهما : الوالدان والأقربين (بصفة التفضيل) والإنفاق عليهم صدقة وصلة . ثم اليتامى ثم المساكين . وابن السبيل . (3)
والسؤال للتعليم لا للجدال قال الزمخشري : "قد تضمن قوله تعالى : ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ بيان ما ينفقونه وهو كل خير . وبنى الكلام على ما هو أهم وهو المصرف". (4) وراعى السياق الترتيب في الإنفاق مقدما الوالدين ... قال الرازي : " وهذا هو بيان الترتيب الصحيح الذي رتبته الله تعالى في كيفية الإنفاق ثم لما فصل هذا التفصيل الحسن الكامل أردفه بعد ذلك بالإجمال فقال تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي وكل ما فعلتموه من خير إما مع هؤلاء المذكورين ، وإما مع غيرهم ... فإن الله به عليم . لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء". (5)

الترغيب : والفعل الكلامي الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ...﴾ هو الترغيب في وجوه الإحسان وأبواب الإنفاق . فإن الله يجازي عليه أحسن الجزاء . والفعل أعم من الإنفاق . وأكد ذلك المعنى بالجملة الإسمية ﴿إِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ .

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 282 .

(2) - الرازي . مرجع سابق . 3 / 24 .

* - "من عادة القرآن أن يكون بيان التوحيد ، وبيان الوعظ ، والنصيحة ، وبيان الأحكام مختلط بعضها ببعض ، ليكون كل واحد منها مقويا للآخر ومؤكدا له". الرازي . 23/3

(3) - ينظر : أبو حيان . البحر المحيط . 2 / 377 .

(4) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 257 .

(5) - الرازي . مرجع سابق . 3 / 26 .

قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

الاجابة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ...﴾ "معنى (كتب عليكم) أي فرض عليكم". (١)

"(عسى) الأولى للإشفاق، والثانية للترجي. والله يعلم ما هو خير لكم ، وما هو شر لكم . وأنتم لا تعلمون ذلك . ثم بين أنه مكروه للطباع لما فيه من إتلاف المهج وانتقاص الأموال . ثم ذكر أن الإنسان قد يكره الشيء وهو خير له ... ثم ذكر مقابل هذا ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ فمن المحبوب ترك القتال وفي ذلك الشر العظيم من تسلط أعداء الله ... فمتى أخذ الإنسان إلى الراحة طمع فيه عدوه". (2)

الترغيب: إن الله تعالى يرغب في القتال بعد أن أخبر عن حكمه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فبادروا إلى ما يأمركم به ، وانتهوا عما نهاكم عنه لأنه لا ينهاكم إلا عما هو شر لكم. (3)
فالسباق يأمر بطريق غير مباشر المؤمنين بالقتال في سبيل الله لأن الله يعلم ما لا يعلمون فهو عالم بما يترتب لكم من المصالح الدينية والدنيوية على مشروعية القتال . وبين أن ترك القتال سبب للوعيد .

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥)

لما كتب عليهم القتال كان عند القوم الشهر الحرام والمسجد الحرام أعظم الحرمة في المنع من القتال. اقتضى المقام أن يكون الأمر بالقتال مقيدا في المكان والزمان فدعاهم ذلك إلى أن يسألوا النبي (ص) :
أيحل لنا أن نقاتلهم في هذا الشهر وفي هذا الموضع . فنزلت الآية . والسائلون هم المسلمون . وقيل

(١) - الزجاج . مرجع سابق . 1 / 248 .
(٢) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 397 .
(٣) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 691 .

نزلت في سرية عبد الله بن جحش لترصد عير قريش في بطن نخل بين (مكة والطائف) فقتلوا عمرو بن الحضرمي فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام .⁽¹⁾

البيان / التقرير : واختلف الناس في نسخ هذه الآية قال أبو بكر بن العربي : "والصحيح أن هذه الآية رد على المشركين حين أعظموا على النبي (ص) القتال في الشهر الحرام فقال تعالى : ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ فإن فعلتم ذلك كله في الشهر الحرام تعين قتالكم فيه".⁽²⁾ والمعنى أن القتال في الأشهر الحرم إثم كبير ، والآية دليل على تحريم القتال في الأشهر الحرم وتقرير لما تلك الأشهر من الحرمة وهذه الأشهر هي زمن للحج والعمرة . ولو لم يحرم القتال في خلالها لتعطل الحج والعمرة و لذلك أقرها الإسلام أيام كان في بلاد العرب مشركون لفائدة المسلمين وفائدة الحج وتحريم القتال في الشهر الحرام قد خصص بعد هذه الآية ثم نسخ . فالآية قررت حرمة القتال في الأشهر الحرم لحكمة تأمين سبل الحج والعمرة فمعنى نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم أن الحاجة إليه قد انقضت إذ لم يبق مشرك يقصد الحج.⁽³⁾

التعريض : تضمنت الآيات فعلا كلاميا غير مباشر وذلك إن كان السائل هم المشركون فيكون تعريضا وإيكاتا بالمسلمين حين قاتل بعضهم في الشهر الحرام . وفيه تقرير لحرمة القتال في الشهر الحرام وما وقع فيه أصحاب الرسول (ص) كان من باب الخطأ في الاجتهاد.⁽⁴⁾ "ويكون الجواب تشريعا إن كان السؤال من المسلمين".⁽⁵⁾ لأنهم يدعون أنهم يعظمون المسجد الحرام ويفعلون خلاف معتقدهم .

التأكيد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه جملة التذييل في قوله تعالى : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ ففيها تذييل لما تقدم . مسوق مساق التعليل لأن إخراج أهل الحرم منه أكبر من القتل . وكل ما فعلوه من جرائم أكبر من قتل المسلمين رجلا من المشركين وهو عمرو الحضرمي .

الإخبار : في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ...﴾ والمقصود الإخبار بدوام عداوة الكفار بطريق الكناية تحذيرا للمؤمنين منهم ، وإيقاظا في بعض الأمور . وقوله تعالى : ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ تعريض بأنهم لا يستطيعون رد المسلمين عن دينهم . وتعليق الشرط بـ(إن) للدلالة على أن إستطاعتهم أمر مستبعد الحصول لقوة إيمان المسلمين.⁽⁶⁾ وفائدة التقييد بالشرط التنبيه على سخافة

(1) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 31 .

(2) - أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . 1 / 147 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 326 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 694 .

(5) - ابن عاشور . مرجع نفسه . 2 / 325 .

(6) - ينظر : مرجع نفسه . 2 / 331 .

عقولهم و(حتى) للغاية والتقييد بالغاية الممتنع وقوعها شائع مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ (7). كقول الرجل: إن ظفرت بي فلا تنق علي؛ وهو واثق بأنه لا يظفر به. وجملة ﴿ولا يزالون...﴾ اعتراضية "دعا إلى الاعتراض بها مناسبة قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ...﴾ لما تضمنته من صدور الفتنة من المشركين." (1)

التحذير: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قِمْتُ وَهُوَ كَافِرٌ...﴾ أخبر تعالى أن من رجع عن دينه الحق ووافى على ذلك، فجميع ما تقدم من أعماله الصالحات قد بطلت في الدنيا، بإلحاقه بالكفار وإجراء أحكام المرتدين عليه، وفي الآخرة يكون مآله إلى النار خالدا فيها. (2) وأكد ما تقدم بجملة التذليل ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فهنا تحذير لأن ذكر حرص المشركين على رد المسلمين وعقبه باستبعاد حصول ذلك أعقبه بالتحذير منه بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ﴾. وشرح حبط: "قال أهل اللغة: أصل الحبط أن تأكل الإبل شيئا يضرها فتعظم بطونها فتهلك. وسمي بطلان الأعمال بهذا لأنه كفساد الشيء بسبب ورود المفسد عليه" (3). فإطلاقه على إبطال الأعمال تمثيل لأن الإبل تأكل ما يشبعها فتموت، فشبه حال من عمل عملا للآخرة فلم يجد لها أثرا بالماشية التي أكلت حتى أصابها الحبط. (4)

تنبيه / بشارة: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ لما بين حال المرتدين عن دينه ذكر حال من آمن بالله وثبت على إيمانه وهاجر من موطنه إلى دار الإسلام ثم جاهد في سبيل الله وأنه طامع في رحمة الله. "إن تعقيب ما قبلها بها من باب الإنذار بالبشارة وتنزيه للمؤمنين من احتمال ارتدادهم" (5). فلا دلالة قطعية على تحقق الثواب، إنما هو تفضل من الله أي لا ينبغي الإتكال على العمل، وروي أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي ظن قوم أنهم إن سلموا من الإثم، فليس لهم أجر فنزلت الآية. (6)

التأكيد: تأكيد مضمون الآية السابقة دلت عليه جملة التذليل ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

أي لا ينبغي الاتكال على العمل؛ و أن الله يحقق رجاءهم إذا ماتوا على الإيمان والعمل الصالح. (7)

الذم / الإنباء: إنحاء على المشركين وإظهار لظلمهم، بعد أن بكتهم بتقرير حرمة الأشهر الحرم الوارد في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَّرَ بِهِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنْ

(7) - الزمخشري. مرجع سابق. 1 / 259

(1) - ابن عاشور. مرجع سابق. 2 / 331.

(2) - ينظر: أبو حيان. مرجع سابق. 2 / 397.

(3) - الرازي. مرجع سابق. 3 / 40.

(4) - ينظر: ابن عاشور. مرجع نفسه. 2 / 332.

(5) - ابن عاشور. نفسه. 2 / 337.

(6) - ينظر: أبو حيان. مرجع نفسه. 2 / 394.

(7) - ينظر: الرازي. مرجع نفسه. 3 / 42.

القتل ﴿ من أن ما وقع من أهل السرية من قتل رجل فيه كان عن خطأ في الشهر ، أو ظن سقوط
الحرمة بالنسبة لقتال العدو فإن المشركين . استعظموا فعلا وهم يأتون ما هو أفضع منه مثل صد
المسلمين ، والكفر بالله وإخراج أهل الحرم منه وإيذائهم . فهذه الأفعال أكبر إثما عند الله من إثم القتال

في الشهر الحرام .⁽¹⁾ ودعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي بصيغة التفضيل (أكبر) لإظهار التفضيل
في الإثم فكل واحدة من المذكورات أعظم إثما . وجاء الترتيب بتقديم ما هو أفضع من جرائمهم ، وهذا
بتوظيف الطاقة الحجاجية لترتيب النظم على تقديم الأهم فالأهم . ولذلك قدم الصد عن سبيل الله ، ثم
ثنى بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دل عليه الصد عن سبيل الله بدلالة التضمن .⁽²⁾

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ۚ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٢٨﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ
فَأَحْسَنُ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢٩﴾

التوبيخ : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الآية : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾

ومعنى الآية يسألونك عما في تعاطي هذين ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ وقيل : أراد بها التوبيخ أي ؛أنتخذون
منه سكرا وتدعون رزقا حسنا . ويحتمل أنهم سألوا عن حل شربه وحرمة فأجاب تعالى بذكر الحرمة
فدل تخصيص الجواب أن ذلك السؤال كان واقعا على الحل والحرمة وفي سبب نزولها قيل أن عمرا
ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا يا رسول الله افتنى في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال فنزلت
﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾.⁽³⁾

الإخبار / الذم : فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ
نَفْعِهِمَا ﴾ ولكنه خبر يذم الخمر والميسر.⁽⁴⁾ ووقع السؤال عنهما لأنهما من مصارف المال ، والميسر
هو قمار أهل الجاهلية .

البيان / الترغيب : في قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ...﴾
يسألونك عن صفة ما ينفقونه قل العفو أي نقيض الجهد . وقد ذكر أبو بكر بن العربي أقوالا كثيرة منها

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 328 .

(2) - ينظر : نفسه . 2 / 329 .

(3) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 1 / 260 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 701 .

"أنه ما فضل عن الأهل ، أو الوسط من غير تبذير ولا إسراف ، أو ما سمحت به النفس ، أو الصدقة عن ظهر غنى ، أو صدقة الفرض . ثم قال وأقواه عندي : الفضل." (5)

الرجاء : وهو فعل كلامي وارد في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ والمعنى أن الله بين لهم ووضح الآيات وكل ما سألوا عنه ، فبين لهم الآيات أي العلامات والدلائل لعلكم تتفكرون ، ترجئة للتفكر تحصل عند تبين الآيات لأنه متى كانت واضحة لا لبس فيها ترتب عليها التفكير والتدبر . ويكون توضيح الآيات لرجاء التفكير في أمر الدنيا والآخرة. (1)

البيان / التعريض : في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ... ﴾ ويروى في سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا ينتفعون بأموال اليتامى ، ثم سألوا الرسول (ص) عن ذلك وتمنوا أن يبين الله لهم كيفية الحال في هذا الباب ، وفي الآية تعريض بأن ما كانوا عليه في معاملتهم ليس بخير بل هو شر ، والكناية تقع مع إرادة المعنى الأصلي. (2)

وفي سبب نزولها روي أنه لما نزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا... ﴾ تخرج الناس من مخالطتهم في الأموال فاعتزلوهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ... ﴾. (3) فبين لهم كيفية القيام باليتامى والتصرف في أموالهم ويحث الإسلام على المخالطة المشروعة بالإصلاح ، أي تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن والمصاهرة (4) . "والمخالطة مجاز في شدة الملازمة والمصاحبة ، والمراد بذلك ما زاد على المصاحبة من إصلاح المال والتربية والكفالة والمصاهرة." (5) وهنا التفات من غيبة إلى خطاب في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ وأخبر الله أنه يعلم المفسد من المصلح في أمورهم.

الوعد والوعيد : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ وهو فعل كلامي غير مباشر ، فالوعد للمفسد ، والوعد للمصلح في أمور اليتامى ، وقدم لفظ (المفسد) اهتماما بإدخال الروح عليه ، وتقوية إنجازية فعل الوعد ، و(ال) في الموضعين للعهد ، ويدخل المعهود دخولا أوليا ، وكلمة (من) للفصل بين المفسد والمصلح ، وضمن (يعلم) معنى يميز . فلذا عداه بها . (6)

التذكير : فعل كلامي وارد في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ والإعنات هو الحمل على مشقة لا تطاق ثقلا ، أي لو شاء ضيق عليكم في مخالطتهم ، وحذف مفعول المشيئة لدلالة الجواب عليه ، وفي ذلك إشعار بكمال لطفه ، وفي الجملة تذكير بإحسانه تعالى على الأوصياء.

(5) - أبو بكر ابن العربي . مرجع سابق . 1 / 153 .

(1) - ينظر . أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 408 .

(2) - ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 356 .

(3) - ينظر : أبو بكر ابن العربي . مرجع سابق . 1 / 154 .

(4) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 53 .

(5) - ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 357 .

(6) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 705 .

التأكيد : فعل كلامي دلت عليه جملة التذييل ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ودلالة (عزيز) على الغلبة ،فهو لا يغلبه أمر ، وتدل لفظة (حكيم) على أنه فاعل لأفعاله حسب ما تقتضيه الحكمة ، والجملة تذييل وتأكيد لما تقدم من حكم النفي والإثبات ؛ أي لو شاء لأعنتكم لكونه غالبا ، لكنه لم يشأ لكونه حكيما.(7)

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۚ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَبَيِّنُ ۖ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

نزلت هذه الآية في عبد الله ابن رواحة أعتق أمة سوداء وتزوجها ، فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا نكح أمة ، وأنه تعالى لما ذكر حكم اليتامى في المخالطة وكانت تقتضي المناكحة وغيرها ، مما يسمى مخالطة ، وكان من اليتامى أولاد الكفار ، نهى الله تعالى عن مناكحة المشركين.(4) فجاءت الأفعال الكلامية معبرة عن الأحكام المتعلقة بنكاح المشركين .

النهي : فعل كلامي مباشر، دلت عليه القوة الإنجازية الحرفية في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۚ ﴾ والمراد النهي عن إيقاع هذا الفعل، ففيها نهي وتنفير، والمراد بالمشركات مشركات العرب ؛ أي لا تتزوجوهن . "وظاهر النهي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا ﴾ التحريم ، وقيل هو نهي كراهة حتى يؤمن ، غاية للمنع من نكاحهن . ومعنى إيمانهن إقرارهن بكلمتي الشهادة."(1)

الترغيب : في قوله تعالى : ﴿ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ "صدر بلام الابتداء (لأمة) الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة في الحمل على الإنزجار ، ففي الآية تفضيل الأمة المؤمنة على المشركة مطلقا ولو حرة ، والأمة بعد العتق حرة ، فهي مع خسارة الرق خير من مشركة صاحبة شرف الحرية ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ لجمالها (ولو) لمجرد الفرض."(2) ففي الآية التنفير من نكاح الحرة المشركة .

النهي : فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ ﴾ "ولما لم يجز نكاح العبد المشرك للمؤمنة ، كذلك لا يجوز نكاح المسلم للمشركة ." (3) "فالآية فيها نهي عن تزويج الكفار من المؤمنات ، والمراد النهي عن إيقاع هذا الفعل ، لأنه كفار يدعون إلى النار . فالمؤمن يجب أن يكون حذرا عما يضره في الآخرة، وجملة (ولعبد مؤمن خير...) معللة لخيرية المؤمنين والمؤمنات."(4)

(7) - ينظر : نفسه . 2 / 705 .

(4) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 415 .

(1) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 417 .

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 708 .

(3) - ابن العربي . مرجع سابق . 1 / 157 .

(4) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 708 .

النصح / الإرشاد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه جملة التذييل ﴿ وَيَبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وغرض الجملة النصح والإرشاد .

قال تعالى : ﴿ وَبَسَّأْتُمْ لَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ﴿ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلْقَوُهُ وَنَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

روي في سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت لم يؤاكلوها ، ولم يشاربوها ، ولم يجالسوها على فرش ، ولم يساكنوها في بيت كفعل اليهود والمجوس فنزلت هذه الآية .⁽¹⁾

الأمر : الفعل الكلامي الذي يتضمنه الجواب عن السؤال هو : الأمر ﴿ اعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ أي اعتزلوا مواضع الحيض ، وحمل الأذى على الحيض للمبالغة ، واستعمل فيه بطريق الكناية أي اعتزلوا كناية عن الجماع ، ووضع الظاهر موضع المضمرة (المحيض) لكمال العناية بشأنه بحيث لا يتوهم غيره أصلا ، ووصفه بأنه أذى تقوية لإنجازية الفعل الكلامي ، ورتب الحكم عليه بـ (الفاء) (فاعتزلوا) ، ولم يكتف في الجواب بالأمر للإشعار بأنه العلة ، والحكم المعلل أوقع في النفس ، وهو كذلك يدعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي ﴿ هو أذى ﴾ .⁽²⁾ وإذا كان النهي معللا تلقته النفوس على بصيرة ، وتهيات به الأمة للتشريع في أمثاله ، وعبر عنه بالأذى ، إشارة إلى إبطال ما كان من التغليب في شأنه ، وشأن الحائض في شريعة التوراة .⁽³⁾

النهي : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ ﴾ نهى عن قربانهن ، وجعل غاية ذلك النهي أن يطهرن ، بمعنى ينقطع حيضهن . قال أبو بكر ابن العربي : "إذا قيل لا تقرب (بفتح الراء) كان معناه لا تلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء ، كان معناه لا تدن منه" .⁽⁴⁾ وجاء النهي عن قربانهن ، تأكيدا للأمر باعتزالهن ، وتبيينا للمراد من الاعتزال ، وإنه ليس التبعاد عن الأزواج بالأبدان ، كما كان عند اليهود ، بل هو عدم القربان ، ويكنى عن الجماع بالقربان .⁽⁵⁾

(1) - ينظر : الزمخشري . الكشاف 1 / 265

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق 2 / 711 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق 2 / 367 .

(4) - ابن العربي . مرجع سابق 1 / 164 .

(5) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق 2 / 367 .

الأمر: فعل أمر ﴿قَاتُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ والأمر للإباحة ، إباحة الإتيان، لكنه مقيد. (6) أي فاتوهم في المأوى، فإنه هو الذي أمر الله به ، ولا توتوهم في غير المأوى (7)

التأكيد: فعل كلامي لتأكيد الأحكام السابقة ، دلت عليه جملتا التذييل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ وهو تذييل مستقل لما تقدم، وجاء عقب الأمر والنهي ،إيذاناً بقبول توبة من يقع منه خلاف ما شرع له ،فإن الله يحب التوابين الراجعين إلى الخير، ويحب المتطهرين ، أي المبرئين من الفواحش ، وهذا يتضمن الثناء على من امتثل أمر الله ، ورجع عن فعل الجاهلية ، فكان ختم الآية بذكر محبة الله للممتثلين ، وذكر الفعل (يحب) ليدل على اختلاف الجهتين من التوبة والتطهر ، وكرر ذلك على سبيل التوكيد. (1) واختار السياق صيغة (التواب) ،وهو المكثّر من فعل ما يسمى التوبة تدعيماً للقوة الإنجازية. إن الصفات التقويمية تشكل في المعجم القرآني سلماً تقويمياً، ذا درجات متفاوتة في الاتصاف بالصفة من قبيل : تاب ، تائب ،تواب ،متابا... وهذا يساعد على المفاضلة بين الأشخاص ،والأعمال، والأشياء.فهذا التقويم التفاضلي يكسب الخطاب القرآني بعداً حجاجياً موجهاً إلى التحلي بالتقويم الأخلاقي، الذي يحمل صفة (حسن) المتفرعة عن ثنائية حسن /قبيح . ولذلك كثر ورود تعبير (الله يحب) و (الله لا يحب) .فإذا نظرنا إلى البعد العملي للمفهوم الأخلاقي نجده يوجه إلى العمل فهو بذلك كلام إلزامي يلزم بالعمل ،ولا يكتفي بالدعوة إليه فيجوز فقولنا "هذا شيء حسن" يعني "يجب أن يؤخذ به" .ومدار القيمة اللاقولية على الأمر بفعل ما لكونه حسناً ، والنهي عن فعل أن يؤخذ آخر لكونه قبيحاً ، هو شبيه بقول بعض الأصوليين بقاعدة الملازمة بين الحسن والقبح ، والأمر والنهي. (2)

تقرير: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ "الحَرْثُ إلقاء البذر في الأرض، وهو غير الزرع ،لأنه إنباته والحارث الزارع والتشبيه البليغ؛ أي كموضع ذلك، وتشبيههن بتلك الموضع متفرع على تشبيه النطف بالبذور، من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ، ولا يحسن بدونه ، فهو تشبيه يكتفى به عن تشبيه آخر". (3) وقوله تعالى : ﴿هُوَ أَدَى فَأَعْتَزَلُوا النَّسَاءَ﴾ و ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ و﴿قَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريفات المستحسنة. (4)

﴿قَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ الأمر جاء بصيغة الفعل .

(6) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 425 .

(7) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 74 .

(1) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 426 .

(2) - ينظر : عبد الله صولة . الحجاج في القرآن . ص 150 .

(3) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 714 .

(4) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 266 .

البيان - التوضيح : " ﴿ أَلَيْسَ شَيْئُكُمْ ﴾ يراد به تعميم جهات ، لا تعميم مواضع الإتيان. " (5)

أي ما هو كالحرث فيه استعارة تصريحية . وهذه الجملة مبينة للجملة السابقة (فاتوهن من حيث أمركم الله) وما قبلها علة لما بعدها ، وقدم عليه اهتمام بشأن العلة . وليحصل الحكم معللاً فيكون أوقع ، وهذا يساهم في تعديل القوة الإنجازية ، والتقيد بمواضع الحرث ، يدفع الآراء الشاذة . (1) وتشبيه النساء بالحرث تشبيه لطيف. (2)

الأمر : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ / وَاتَّقُوا اللَّهَ / وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ / وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

الأوامر معطوفة على قوله تعالى : ﴿ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ ﴾ وفائدتها الإرشاد العام ، ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين تلقوا ما خوطبوا به بالقبول والامتثال ، ولعل هذا المعنى يمثل الفعل التأثيري الناتج عن القول . ويتضح ذلك من خلال استجابة المؤمنين وامتثالهم للأوامر والنواهي . " فهم مستوجبين للمدح والتعظيم بترك القبائح وفعل الحسنات. " (3) ويأتي الفعل الكلامي في تبشير المؤمنين في ختام سلسلة الأفعال الكلامية المتعلقة بنص اعتزال المحيض ، حيث ختم بالأمر بتقديم العمل الصالح ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ ، وأن ما قدمه الإنسان إنما هو عائد على نفع نفسه ، ثم أمر بتقوى الله تعالى ، وأمر بأن يعلم ويوقن اليقين الذي لا شك فيه أنا ملاقو الله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ فيجازينا عن أعمالنا ، وأمر نبيه أن يبشر المؤمنين ، وهم الذين امتثلوا ما أمر به ، فكان ابتداء هذه الآيات بالتحذير عن معاطاة العصيان ، واختتامها بالتبشير لأهل الإيمان ، وهكذا جمعت الآيات بين براعة اللفظ ، ونصاعة المعنى من سؤال ، وجواب ، وتحذير من عقاب ، وترغيب في ثواب هدت إلى صراط مستقيم. (4)

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ فعل كلامي غير مباشر "يجمع التحذير والترغيب ، أي فلاقوه بما يرضى به عنكم ، وإنما أمرهم الله تعالى بتعلم أنهم ملاقوه ، مع أن المسلمين يعلمون ذلك تنزيلاً لعلمهم منزلة العدم في هذا الشأن ، ليزداد من تعليمهم بهذا المعلوم ، وتنافساً فيه ، على أننا رأينا أن في افتتاح الجملة بكلمة (اعلموا) ، اهتماماً بالخبر واستتصاهاً له. " (5)

قال تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

(5) - الألوسي . المرجع نفسه . 715 / 2 .

(1) - ينظر : نفسه . 715 / 2 .

(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 371 / 2 .

(3) - الزمخشري . مرجع سابق . 266 / 1 .

(4) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 434 / 2 .

(5) - ابن عاشور . مرجع سابق . 375 / 2 .

حَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾

وفي سبب نزولها قال ابن حيان : "كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية ، كان الرجل لا يترك المرأة ، ولا يحب أن يتزوجها غيره ، فيحلف أن لا يقربها ، فيتركها لا أيما ، ولا ذات زوج فأنزل الله هذه الآية ، وقال ابن عباس: "كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر، فوقت الله ذلك".⁽¹⁾

النهي: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ نهي عن ابتذال اسمه . "وأن يجعلوا اسم الله حائلا ، دون فعل ما تركوا على حلفه"⁽²⁾ . ونهي عن الجرأة على الله بكثرة الحلف به ، والحكمة في الأمر بتقليل الإيمان، أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ، ولا يبقى لليمين له وقع ، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة ، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين ، وأيضا كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله تعالى، كان أكمل في العبودية ، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجلا ، وأعلى عنده من أن يتشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية ، وأما قوله تعالى : ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ فهو علة لهذا النهي ؛ أي إنما نهيتكم عن هذا لما أن توفي ذلك من البر، والتقوى ، والإصلاح ، فتكونون يا معشر المؤمنين بررة ، أتقياء مصلحين في الأرض ، لأن من ترك الحلف تعظيما لله ، فلا شك أن هذا من أعظم أبواب البر، وأما معنى التقوى فظاهر أنه أتقى ، أن يصدر منه ما يخل بتعظيم الله .⁽³⁾ "وجيء بهذه الآية لبيان ما يترتب على تعظيم اسم الله، واتقائه في حرمة أسمائه عند الحنث، مع بيان ما رخص فيه من الحنث، أو لبيان التحذير من تعريض اسمه تعالى، للإستخفاف بكثرة الحلف".⁽⁴⁾ "إن الإكثار من اليمين بالله تعالى فيه عدم مبالاة ، وقلة اكتراث بالمقسم به ؛ إذ الإيمان معرضة لحنث الإنسان فيها كثيرا".⁽⁵⁾ فالآية على هذا الوجه ، نهي عن المحافظة على اليمين ، إذا كانت المحافظة عليها تمنع من فعل خير شرعي ، وهو نهي تحريم أو تنزيه بحسب حكم الشيء المحلوف على تركه فالفعل الكلامي هو طلب من المخاطب فعل في المستقبل بأن يتحرز حين يحلف ، وعدم التسرع للإيمان "وفي الجاهلية كان الرجل يحلف على ترك الخير من صلة الرحم ، أو إصلاح ذات البين ، أو إحسان ثم يقول أخاف أن أحنث في يميني . فيترك فعل البر".⁽⁶⁾ فتكون الآية واردة لإصلاح خلل من أحوالهم .

(1) - أبو حيان . مرجع سابق . 445 / 2 .

(2) - ابن عاشور . التحرير والتنوير . 378 / 2 .

(3) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 80 / 3 .

(4) - ابن عاشور . المرجع نفسه . 377 / 2 .

(5) - أبو حيان . نفسه . 483 / 2 .

(6) - الزمخشري . الكشاف . 1 /

"وهذا النهي يستلزم أنه إن وقع الحلف على ترك البر والتقوى والإصلاح . أنه لا حرج في ذلك وأنه يكفر عن يمينه ويفعل الخير".⁽⁷⁾

التنبيه : ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم ، عليم بأحوالكم ، فحافظوا على ما كلفكم به ، فقد نهاكم عن ابتذال اسمه.⁽¹⁾ فقد ختم هذه الآية بهاتين الصفتين ، لأنه تقدم ما يتعلق بهما "فالذي يتعلق بالسمع الحلف ، والذي يتعلق بالعلم هو إرادة البر ، والتقوى والإصلاح ؛ إذ هو شيء محله القلب".⁽²⁾

الإخبار : فعل كلامي تدل عليه جملة التذييل ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ خبر منفي ، والمعنى أن الله لا يؤاخذكم أصلاً بما لا قصد لكم فيه ، من الإيمان كما يستعمل في بعض الكلام ، لمجرد التأكيد كقولهم : لا والله . ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمُ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي بما قصدتم من الإيمان .

الامتنان : فعل كلامي تدل عليه جملة التذييل ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وفائدته الامتنان على المؤمنين وشمول الإحسان لهم ، والحليم هو الذي يمهل بتأخير العقاب.⁽³⁾ فقد جاءت هاتان الصفتان تدلان على توسعة الله على عباده ، حيث لم يؤاخذهم باللغو في الأيمان ، وفي تعقيب الآية بهما إشعار بالغفران ، والحلم عن أوعده تعالى بالمؤاخظة ، وإطماع في سعة رحمته ، لأن من وصف نفسه بكثرة الغفران والصفح ، مطموع فيما وصف به نفسه ، فهذا الوعيد الذي ذكره تعالى ، مقيد بالمشيئة كسائر وعيده تعالى.⁽⁴⁾ "واقترن وصف (الغفور) بـ(الحليم) هنا دون الرحيم ؛ لأن هذه مغفرة لذنب ، هو من قبيل التقصير في الأدب مع الله تعالى ، لذلك وصف نفسه بالحليم ، لأن الحليم هو الذي لا يستغفره التقصير في جانبه ، ولا يغضب للغفلة ويقبل المعذرة".⁽⁵⁾

الإخبار : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ . والإيلاء في الشرع الحلف المانع عن جماع المرأة ، فهؤلاء يعتزلون من نسائهم بالآلية . ﴿فَإِنْ قَاعُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن رجعوا في المدة لما حدث منهم من اليمين ، على الظلم ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي إن لم يفيئوا فإن الله سميع لإيلائهم ، الذي صار طلاقاً بائناً بمضي العدة ، فإن عزم الطلاق أوقعه . و(عليم) بغرضهم من هذا الإيلاء ، فيجازيهم وفق نياتهم .⁽⁶⁾ وكان هذا الحكم من أهم المقاصد في أحكام الأيمان ، التي مهد لها بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً﴾ . وتقديم ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ على المبتدأ المسند إليه ، للاهتمام بهذه التوسعة ، وتشويق لذكر المسند إليه.⁽⁷⁾

(7) - ابن عاشور . مرجع نفسه . 379/ 2 .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 719 / 2 .

(2) - أبو حيان . مرجع سابق . 242 / 2 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 720 / 2 .

(4) - ينظر : أبو حيان . مرجع نفسه . 445 / 2 .

(5) - ابن عاشور . مرجع سابق . 384 / 2 .

(6) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 722 / 2 .

(7) - ينظر : ابن عاشور . المرجع نفسه . 385 / 2 .

قال تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ أَرْحَامَهُنَّ فِي إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَتُعْوَظُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

هذه الآية متميزة بصيغها ومضامينها ، التي اختلف فيها العلماء: قال أبو بكر بن العربي (ت 543 هـ) : "هذه الآية من أشكال آية في كتاب الله تعالى من الأحكام ، تردد فيها علماء الإسلام ، فاختلف فيها الصحابة قديما وحديثا ، ولو شاء ربك لبين طريقها وأوضح تحقيقها ، ولكنه وكل درك البيان إلى اجتهاد العلماء ، ليظهر فضل المعرفة في الدرجات الموعد فيها ، فقد أطال الخلق فيها النفس ، فما استضاءوا بقبس ، ولا حلوا عقدة الجلس".⁽¹⁾ وعلاقة هذه الآية بما قبلها أنهما في سياق واحد ، " لما ذكر الله تعالى الإيلاء ، وأن الطلاق قد يقع فيه بيت تعالى حكم المرأة بعد التطليق".⁽²⁾ وفي العبارة فعل كلامي غير مباشر، هو الأمر. الموجه إلى المطلقات بالتربص ثلاثة قروء ، ولكن هذا بعد أن مر عبر فعل لغوي آخر مباشر هو الإخبار. وملخص تصور (غرايس) للفعل اللغوي هو: أن جمل اللغات الطبيعية ، يمكن أن تدل على معنى غير المعنى الذي نستخلصه من محتواه القضوي ، أو معناها الحرفي ، بحيث يمكن في هذا المقام أن ننجز فعلين لغويين اثنين فعل لغوي مباشر هو : دلالة هذه الجملة على الخبر المدلول عليه حرفيا ، بقرائن بنيوية هي قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ...﴾ غير أن الجملة في المقام السياقي الذي وردت فيه ، لا يقصد بها إنجاز فعل الإخبار ، وإنما أنجز بها الأمر بالتربص (يتربصن)، فالجملة الإسمية خبرية بمعنى الأمر ، وعليه فبنية الفعل الكلامي كالتالي : (3)

بنية الفعل الكلامي

المعنى الحرفي الصريح : الإخبار فعل لغوي مباشر.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ...﴾

المعنى الضمني (المستلزم) الأمر. فعل غير مباشر.

فالمعنى الحرفي الصريح هو: الظاهر في قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ لا شك أنه خبر، والمراد منه الأمر. فما الفائدة في التعبير عن الأمر بلفظ الخبر؟ والجواب عند الرازي : أنه لو ذكره بلفظ الأمر، لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود ، إلا إذا شرعت فيها بالقصد والاختيار، فلما ذكر الله تعالى هذا التكليف بلفظ الخبر، زال ذلك الوهم ، وعرف أنه مهما انقضت هذه

(1) - أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . 1 / 183 .

(2) - القرطبي . مرجع سابق . 3 / 75 .

(3) - ينظر : يحيى يعيطيش . الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو (ضمن التداوليات) . ص 89 .

العدة ، حصل المقصود.(1) وناقش الإمام الزمخشري مسوغ استعمال صيغة الماضي : " فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص ؟ قلت : هو خبر في معنى الأمر ، وأصل الكلام : ولتربص المطلقات ، وإخراج الأمر في صيغة الخبر، تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجودا.(2) فالتعبير كما ذكر أبو حيان الأندلسي : "صورته صورة الخبر، وهو أمر من حيث المعنى".(3) "أنك إذا قدمت الاسم فقلت : زيد فعل فهذا يفيد من التأكيد ، والقوة ما لا يفيد قولاك فعل زيد ، فيكون المقصود من تقديم ذكر المحدث عنه (والمطلقات)، لإثبات ذلك الفعل ، وعند تقديمه يشعر بأنك تريد الإخبار عنه".(4) فالجملة الإسمية (والمطلقات يتربصن) خبرية بمعنى الأمر؛ أي تحريض النساء على التربص . وقد اصطلح غرايس على تسمية هذه الظاهرة بظاهرة الاستلزام الحواري ، التي تتضمن قوة إنجازية مستلزمة من المقام أو السياق.(5) وقد تعدلت القوة الإنجازية لهذا الأمر، بالتأكيد الناتج عن تغيير العبارة ، وتقييد التربص بقوله تعالى : ﴿يَأْتُسِهِنَّ﴾ لتحريض المطلقات على الانتظار ، ولإشعار بأنه مما يجب أن يسارع إلى امتثاله ، " فيكون المأمور به أن يقمعن أنفسهن ويحملنها على الانتظار".(6) وفائدة التأكيد هنا أنهن يباشرن التربص، وزوال احتمال أن غيرهن تباشرن ذلك بهن ، بل هن أنفسهن ، هن المأمورات بالتربص ، إذ ذاك أدعى لوقوع الفعل منهن ، فاحتيج إلى ذلك التأكيد لما في طباعهن من الطموح إلى الرجال والتزويج ، فمتى أكد الكلام دل على شدة المطلوب".(7) وتساءل غرايس عن الآليات التي يتوسل بها في الانتقال من الفعل اللغوي المباشر إلى الفعل اللغوي غير المباشر ، فقد قدم تصورا في شكل نظرية لتقنين الحوار اللغوي، يحكمها مبدأ عام سماه : (مبدأ التعاون). وجملة من الشروط لها طبع اجتماعي وأخلاقي وجمالي.(8) فالسؤال إذن حول كيفية حدوث عملية الاستلزام الحواري ؛ أي كيف يتم الانتقال ، من المعنى الصريح إلى، المعنى الضمني المستلزم خطابيا . "فغرايس يقترح أن توصف ظاهرة الاستلزام التخاطبي ، إنطلاقا من مبدأ التعاون ، والقواعد المتفرعة عنه".(9)

(1) - ينظر : الرازي . التفسير الكبير . 92 / 3

(2) - الزمخشري . الكشاف . 270 / 1

(3) - أبو حيان الأندلسي . البحر المحيط . 453 / 2

(4) - الجرجاني . مرجع سابق . ص 162

(5) - ينظر : العياشي أدراوي . الاستلزام الحواري . ص 128

(6) - الألوسي . روح المعاني . 725 / 2

(7) - أبو حيان . مرجع سابق . 454 / 2

(8) - ينظر : أحمد المتوكل . اللسانيات الوظيفية . مدخل نظري . ص 23

(2) - أحمد المتوكل . الاستلزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة . (ضمن كتاب التداوليات) . ص 295

ويرى غرايس أن الحمولة الدلالية للجملة ، تنقسم إلى معاني صريحة وضمنية. ويقصد بها : **المعاني الصريحة** : المعنى الحرفي المدلول عليه بصيغة الجملة ، وبالمعاني **الضمنية** : المعنى المستلزم من المقام ، والذي لا تدل عليه صيغة الجملة.

المعاني الصريحة : وتشتمل على المحتوى القضوي ، والقوة الإنجازية الحرفية ، فالمعنى الصريح في الآية هو : الخبر . والمحتوى القضوي هو : تربص المطلقات . والقوة الإنجازية الحرفية : فهي تشمل المؤشرات اللغوية ، الدالة عن الإخبار عن تربص المطلقات.

المعاني الضمنية : تتألف الحمولة الدلالية الضمنية للآية المذكورة من معنيين عريبيين هما : **الإقتضاء** . وهو وجود نساء مطلقات . و**الاستلزام المنطقي** : وهو ضرورة وجود مدخول بهن ، ومن معنى سياقي خاص (استلزام حوارى) وهو أمر المتكلم المطلقات أن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، والأمر عند الأصوليين يقتضي الوجوب ، ما لم تصرفه قرينة . "والحكم في هذه الآية عام لكل مطلقة"⁽¹⁾ . ولكنه مخصوص بالمدخول بهن ذوات الأقراء"⁽²⁾ .

أما **السكاكي** فهو ينطلق من ثنائية الخبر والإنشاء ، مراعيًا إجراء الكلام على غير أصله ، أي على خلاف مقتضيات الحال ، أن يخرج عن قصده إلى أغراض مختلفة ، وكانت مقترحاته تتجاوز الملاحظة الشكلية ، إلى التحليل الملائم لظاهرة الاستلزام ، التي تتم عنده بمرحلتين :

المرحلة الأولى : يؤدي عدم المطابقة المقامية ، إلى خرق أحد الشروط لإجراء المعنى الأصلي . أما **المرحلة الثانية** : يتولد عن خرق شرط المعنى الأصلي ، وبالتالي امتناع إجرائه ، معنى آخر يناسب المقام.⁽³⁾ والسبب الذي جعل الآية تفيد ذلك المعنى عند تقديم ذكر المبتدأ . "أنك إذا قلت : عبد الله فقد أشعرت بأنك تريد الإخبار عنه ، فيحصل في العقل شوق إلى معرفة ذلك ، فإذا ذكرت ذلك الخبر قبله العقل قبول العاشق لمعشوقه ، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة."⁽⁴⁾

"ونخلص من هذا إلى أن الجملة الإسمية ، تستعمل في الكلام للدلالة على إثبات الأمر ، ودوامه واستمراره ، وعلى قوة إنصاف الموصوف بصفته ، ورسوخها فيه ، فهي أقوى في تصوير الحدث ، وأكمل في التعبير عنه مطلقا ، مجردا من الأزمنة والأمكنة."⁽⁵⁾

الفعل التأثيري :

الغرض الكلامي من الأمر السابق **﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾** هو تربص المطلقات ، على القيام بذلك الفعل المطلوب والفعل وفق الشروط التأسيسية السابقة ، يهدف إلى إحداث التغيير عن طريق الاستجابة للطلب ، فإن

(1) - أبو بكر بن العربي . مرجع سابق . 185 / 1 .

(2) - أبو حيان . مرجع سابق . 452 / 2 .

(3) - أحمد المتوكل . الاستلزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة . ص 298 .

(4) - الرازي . التفسير الكبير . 93 / 3 .

(5) - شكر محمود عبد الله . دلالة الجملة الإسمية في القرآن الكريم . ص 63 .

التصميم على الفعل هو مجاله التأثيري، فقد لمح الزمخشري إلى هذا المعنى ، وذلك "بإخراج الأمر في صورة الخبر، تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجودا".⁽¹⁾

النهى: فعل كلامي ورد في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ "والنهى يراد به التحريم ، فقد أخبر الله تعالى أن كتم ذلك حرام ، والمنهيعن كتمانته هو: (الحيض والحبل) معا أي إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، لأنه لا يحل لهن".⁽²⁾ فكان المقصود من النهى منع المرأة عن إخفاء أحوال الرحم ، ولا شك أن هذا تهديد شديد على النساء ، والآية دالة على أن كل من جعل أمينا في شيء ، فخان فيه فأمره عند الله شديد.⁽³⁾ وعبر عن ما يمكن كتمانته بالأداة (ما) وقال صاحب التبيان : "(ما) يجوز أن تكون بمعنى (الذي)".⁽⁴⁾

الوعيد: ويتضمن قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فعلا كلاميا غير مباشر ، هو الوعيد بتعظيم فعلهن ، وأن من آمن بالله وبعباقبه لا يجترئ على مثله من العظائم.⁽⁵⁾ ففي هذا المعنى تبيان منافاة الكتمان للإيمان ، وتهويل شأنه في قلوبهن ، وفيه معنى التهديد أيضا ، كما سبق في قول الرازي . وأكد ذلك ابن العربي بقوله : "هذا وعيد عظيم شديد ، لتأكيد تحريم الكتمان في إيجاب أداء الأمانة ، في الإخبار عن الرحم بحقيقة ما فيه ، وفائدة تأكيد الوعيد هاهنا أمران : أحدهما حق الزوج في الرجعة ، والثاني : هو صيانة الأنساب".⁽⁶⁾ وأول الزجاج معنى العبارة المتضمنة للوعيد بقوله : "إن كن يصدقن بالله ، وبما أُرهب به ، وخوف من عذابه لأهل الكبائر، فلا يكتمن . كما تقول لرجل يظلم ، إن كنت مؤمنا فلا تظلم".⁽⁷⁾

التقرير: وهو الفعل الكلامي الوارد في قوله تعالى : ﴿وَبَعُولُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ . وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ...﴾ وغرض هذه التقارير تقرير أحكام شرعية . فقوله تعالى : ﴿وَبَعُولُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ...﴾ تضمنت الجواز، وجعل الشرط في حل المراجعة، إرادة الإصلاح وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ فيلزم إذا لم توجد إرادة الإصلاح ، أن لا يثبت حق الرجعة ، فجوازها فيما بينه وبين الله موقوف على هذه الإرادة.⁽⁸⁾

(1) - الزمخشري. الكشاف. 270/1.

(2) - الألوسي . مرجع سابق . 729 / 2 .

(3) - ينظر : الرازي . مرجع سابق 99 / 3 .

(4) - العكبري . التبيان في إعراب القرآن . 157 / 1 .

(5) - ينظر : الزمخشري . مرجع نفسه . 272 / 1 .

(6) - أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . 186 / 1 .

(7) - الزجاج . معاني القرآن وإعرابه . 262 / 1 .

(8) - الرازي . مرجع نفسه . 101 / 3 .

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ تضمنت **الوجوب** ، بين المولى تعالى أن لكل واحد من الزوجين حقا على الآخر ومنها : "أن لهن على الزوج إرادة الإصلاح عند المراجعة ، مثل ما عليهن من ترك الكتمان ، فيما خلق الله في أرحامهن".⁽¹⁾ ولتعديل القوة الإنجازية لتقرير قوامه الرجال أتى بالمظهر (الرجال) بدل (المضمر) للتتويه بذكر الرجولية.⁽²⁾ فعلى النساء مزيد إكرام ، وتعظيم لرجالهن ، والعلة في ذلك هي: كونه رجلا يغالب الشدائد والأهوال ، ويسعى دائما في مصالح زوجته ، ويكفيها تعب الاكتساب ، فبإزاء ذلك صار عليهن درجة للرجل في مبالغة الطواعية.⁽³⁾ فالتقرير يخبر عن مكانة الرجل ، وينقل أخبارا عن أحكام الشرع ، ويتضمن هذا التقرير فعلا كلاميا غير مباشر ، هو التهديد . يقول الرازي : "وكان معنى الآية ؛ أنه لأجل ما جعل الله للرجال من الدرجة عليهن في الاقتدار ، كانوا مندوبين إلى أن يوفوا من حقوقهن أكثر ، فكان ذكر ذلك كالتهديد للرجال ، في الإقدام على مضارتهن وإيذائهن ، وذلك لأن كل من كانت نعم الله عليه أكثر ، كان صدور الذنب عنه أقبح ، واستحقاقه للزجر أشد".⁽⁴⁾

الترغيب والترهيب: ويتمثل في الفعل الكلامي الوارد في جملة التذييل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فذكر المولى عز وجل هاتين الصفتين من صفاته ﴿عزیز﴾ وهو الغالب الذي لا يعجزه الانتقام ، ممن خالف الأحكام و﴿حكيم﴾ عالم بعواقب الأمور ، والمصالح التي شرع .⁽⁵⁾ "وناسب وصفه تعالى بالعزة ، وهو القهر والغلبة ، وهي تناسب التكليف ، وناسب وصفه بالحكمة ، وهي إتقان الأشياء ، ووضعها على ما ينبغي وهي تناسب التكليف أيضا".⁽⁶⁾ فهذا ما تحت عليه الأمور السابقة ، من الدعوة إلى الالتزام بالتوجيهات الشرعية ، والتحذير من مخالفتها ، ويؤكد ذلك بجملة التذييل " التي تقوي المعنى ، وتثبتته في ذهن المتلقي ، فهو كالتلخيص لما سبق من معان".⁽⁷⁾

وفي الختام فإن **الفعل الكلامي الكلي** لهذه الآية هو : الأمر الذي تضمنته في قوله تعالى: ﴿يَتْرَبْنَ﴾ ويندرج تحته **النهي** في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ و**الجواز** في قوله تعالى: ﴿وبعولتهن أحق﴾ و**الوجوب** في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ كما تضمنت **الوعيد** و**التهديد** و**التقرير** و**الإخبار** عن تقرير الحكم و**الترغيب** و**الترهيب** ، وكل ذلك يخدم الاستراتيجية التوجيهية ، التي قامت عليها بنية الفعل الكلامي .

(1) - الرازي . مرجع سابق . 101/ 3 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 731 / 2 .

(3) - ينظر : أبو حيان . البحر المحيط . 462/ 2 .

(4) - ينظر : الرازي . مرجع نفسه . 102 / 3 .

(5) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 731 / 2 .

(6) - أبو حيان الأندلسي . مرجع نفسه . 463 / 2 .

(7) - أحمد علي عبد العزيز . من بلاغة القرآن . ص 261 .

قال تعالى : ﴿ اَلطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَاِمَسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ اَنْ تَاْخُذُوْا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوْهُنَّ شَيْئًا اِلَّا اَنْ تَخَافَاْ اَلَّا يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللّٰهِ فَاِنْ خِفْتُمْ اَلَّا يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللّٰهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيْمَا اَفْتَدْتُمْ بِهٖ تِلْكَ حُدُوْدُ اللّٰهِ فَلَا تَعْتَدُوْهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُوْدَ اللّٰهِ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ ﴿٣١﴾ ﴾

مناسبة الآية لما قبلها ظاهر، وهو أنه لما تضمنت الآية قبلها الطلاق الرجعي، وكانوا يطلقون ويراجعون من غير حد ، ولا عد ، بين في هذه الآية أنه مرتان، ولا رجعة بعد الثالثة . فقد علمهم القرآن كيف يطلقون، ثم قال هذا الكلام ، وإن كان لفظه لفظ الخبر ، إلا أن معناه هو الأمر؛ أي طلقوا مرتين يعني دفعيتين، وإنما وقع العدول عن لفظ الأمر، إلى لفظ الخبر، لأن التعبير عن الأمر بلفظ الخبر يفيد تأكيد معنى الأمر. فثبت أن هذه الآية دالة على الأمر، بتفريق الطلقات ، وعلى التشديد في ذلك الأمر والمبالغة فيه.⁽¹⁾ أما من حيث التعبير بالمصدر فقد ارتبط استخدام صيغة المصدر بالدلالات الطلبية كالوجوب والتحريم والندب والكراهة ... وميز بعض المفسرين بين استخدام المصدر منصوبا واستخدامه مرفوعا . ففي الآية السابقة جاء المصدر مرفوعا (إمساك) (تسريح) ، بأن سبيل الواجبات الإتيان بالمصدر مرفوعا ، وسبيل المندوبات الإتيان به منصوبا (فضرب الرقاب).⁽²⁾

"والإعتداد بدلالة المغايرة (العدول) ، هو ما يفسر أن الأمر بالمصدر أقوى في الدلالة ، من الأمر بصيغة (افعل) ، فإن العدول إلى المصدر ورفع ، دلالة على الثبات."⁽³⁾

ولتحقيق تحريض على إيقاع الفعل إن جملة (إمساك بمعروف) إنشاء صريح ، وجملة (أمسك بمعروف) إنشاء أولي. وقد قرر التداوليون أن : "الإنشاء الصريح ذو معنى أشد تخصيصا ، من الإنشاء الأولي."⁽⁴⁾

فمفهوم نظرية الأفعال ، تتجه إلى الكشف عن طريقة عمل الإنشائيات ؛ لأنها الميدان الذي تتحقق فيه الأفعال ، فهي من ثمة تقلل من الاهتمام بالجانب الإخباري للغة ، لأن "عد الممارسة اللغوية مجرد عمل نفعي ، مصلحي ، غائي ، يقلل من شأن الوظيفة الإخبارية للغة."⁽⁵⁾ وقد قامت نظرية النحو الوظيفي ، بإدماج مفهوم الإنجاز كمؤشر للأفعال اللغوية المختلفة ، التي تقوم بها الذات ، لا لتبادل المعلومات ، ووصف الواقع فحسب ؛ بل لسعيها لتغيير ذلك الواقع ، نحو الأحسن بإقامة علاقات مختلفة فيما بينها... وبالتالي فهي تحاول تغيير الواقع ، أكثر مما تصفه فقله تعالى : ﴿ اَلطَّلُقُ مَرَّتَانٍ... ﴾ تغيير لواقع سابق جاهلي ، وإنشاء واقع جديد ، وفق توجيهات التشريع الإسلامي ، فأهم العناصر الدلالية في الخبر هي : أنه يقدم معلومة جديدة للسامع يعرفها المخبر ، وأنه يحتمل الصدق والكذب (باستثناء

(1) - الرازي . مرجع سابق . 104 / 3 .

(2) - ينظر : حسام أحمد قاسم . تحويلات الطلب . ص 218 .

(3) - المرجع نفسه . ص 227 .

(4) - صابر الحباشة . في المعنى . ص 146 .

(5) - صابر الحباشة . مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية . ص 11 .

النصوص الصادقة طبعا : كالقرآن والحديث وغيرهما) إذ إن هذه المعلومة تحيل على الواقع الخارجي ، فإن طابقتها كانت صادقة ، وإلا كانت كاذبة ، وعندما يتخلف عنصر من هذين العنصر ، تنتقل دلالة الخبر إلى دلالات أخرى ، منها مجموعة من المعاني الطلبية نحو دلالاته على الأمر ، كما في الآية ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾. وآية ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ...﴾ فالآية ظاهرها الإخبار، بيد أن عرض هذا الخبر على الواقع يؤكد عدم إطراده ، وعدم إطراده هذا ، يؤشر على أنه تعرض في الجملة لتحويل دلالي، وإن المعنى : (اجعلوا الأمر كذلك).⁽¹⁾ أي طلقوا مرتين ، وأرضعن أولادكن . "إذ خبر الصادق لا يتخلف".⁽²⁾ وربما كان اللفظ خبرا والمعنى شرطا وجزاء كقوله تعالى : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ فظاهره خبر، والمعنى من طلق امرأته مرتين ، فليمسكها بعدهما بمعروف، أو ليسرحها بإحسان.⁽³⁾ ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي في قوله تعالى : ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾

خبر : من حيث اللفظ . انتقلت دلالاته إلى مجموعة من المعاني الطلبية

أمر: من حيث المعنى؛ أي طلقوا مرتين. وهذا العدول يفيد تأكيد معنى الأمر، والتشديد فيه ، ومن هذا الأمر اشتقت معان مختلفة: كالشرط والجزاء والمبالغة ، والتأكيد . فقد أمر الله المخاطبين ، أن يكون التسريح مقرونا بالإحسان .

استوفى الفعل الكلامي شروط الملاءمة بتعبير سيرل، فشرط المحتوى القضوي هو: فعل في المستقبل مطلوب من المخاطب ، وهم المكلفون. والفعل المطلوب هو: التطليق مرتين فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان، وعدم الأخذ من أموالهن ... ، والمكلفون قادرون على إنجاز هذا الفعل ، والمتكلم على يقين من قدرتهم على إنجاز الفعل ، والمتكلم يريد حقا منهم أن ينجزوا هذا الفعل ، ويؤكد الأمر للتأثير على المخاطبين لإنجاز الفعل، والمحافظة على حدود الله ، مع التحذير الشديد من المخالفة ، والاعتداء. ومن مفترضات القول كون الفعل المطلوب هو: أمر في صالح المكلفين ، والمسؤول عن المطابقة في الأموريات هو: المخاطب ، والسلطة هي أقوى العناصر، التي تعطي التوجيه قوته الإنجازية ، ولإعطاء الخطاب سلطة المرسل ، فإنه يتضمن الضمائر التي تحيل على المرسل وسلطته.⁽⁴⁾ في قوله تعالى :

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ومن الأفعال الكلامية الواردة في الآية نجد الأفعال التالية :

النهى: وهو فعل كلامي مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا...﴾

(1) - ينظر : حسام قاسم . مرجع سابق . ص 306 .

(2) - الغزالي . المستصفى . ص 187 .

(3) - الزركشي . البرهان في علوم القرآن . 2 / 321 .

(4) - عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 324 .

فهذا نهي موجه إلى الحكام ، بألا يأخذوا في مقابلة الطلاق شيئاً من الصدقات التي آتيتموهن ، وقيل الخطاب للأزواج ، والأخذ من أموالهن .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَكَحَّ زَوْجًا غَيْرَهُ ۖ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ۝

إخبار: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى... ﴾ فهو يخبر عن حكم المرأة بعد الطلقة الثالثة ، فهي لا تحل له إلا بنكاح زوج غيره ، ودلالة المطابقة أي تطابق الدال والمدلول (اللفظ والمعنى) على الوطء والعقد معا.⁽¹⁾ والحكمة في هذا الحكم ، ردع الزوج عن التسرع إلى الطلاق ، لأنه إذا علم أنه إذا بت الطلاق ، لا تحل له حتى يجامعها رجل آخر . إنما جعل الله ذلك لعلمه بصعوبة تزوج المرأة على الرجل ، فحرم عليهما التزوج بعد الثلاث لئلا يعجلوا وأن يثبتوا ، وقد علم السامعون أن اشتراط نكاح زوج آخر ، هو تربية للمطلقين. فلم يخطر ببال أحد ، إلا أن يكون المراد من النكاح في الآية حقيقته ، وهي العقد.⁽²⁾

تشجيع: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا... ﴾ فيه تشجيع على المراجعة ، لأن الظن كاف فيها فإن طلقها الزوج الثاني، وأراد الأول أن يراجعها فله ذلك ، لكنه شرط في هذا التراجع ، ظنهما إقامة حدود الله ، فمن لم يظن ذلك ، لم يجز لهم أن يتراجعا.⁽³⁾ والمراد بحدود الله ، الحقوق الزوجية المشروعة. وفي تعديل القوة الإنجازية ، استعمل السياق (إن) المصدرية للتوقع ، وهذا يلائم التشجيع على المراجعة بناء على الظن ، وليس العلم.⁽⁴⁾

التحريض: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ للتحريض على العمل ، أو لأنهم المنتفعون بالبيان .

الأمر: أي فراجعوهن من غير ضرار ، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن ، من غير تطويل ، فالإمسك مجاز عن المراجعة ، والأمر وارد في قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

(1) - ينظر : إدريس بن خويا . البحث الدلالي عند الأصوليين . ص 40

(2) - ينظر : ابن عاشور . التحرير والتنوير . 2 / 416 .

(3) - أبو حيان الأندلسي . البحر المحیط . 2 / 485 .

(4) - ينظر : الألوسي . روح المعاني . 2 / 740 .

الزجر / النهي : ﴿وَلَا تُمَسِّكُوهُمْ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ فيه تأكيد للأمر السابق (الإمساك بالمعروف)، وتوضيح لمعناه يتضمن زجرا عما كانوا يتعاطونه وهو نهى عن إرجاعهن للمضارة ، والظلم الملجئ إلى الإفتداء فكأنه قال : لا تمسكوهن بالتطويل ، لتلجنوهن إلى الإختلاع .⁽¹⁾ وجاء النهي على حسب ما كان يقع منهم في الجاهلية ، من الرجعة ثم الطلاق ، ثم الرجعة ثم الطلاق على سبيل المضارة للنساء ، فنهوا عن هذه الفعلة القبيحة .⁽²⁾

التحذير / التهديد : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ظلم نفسه بتعريضها للعذاب ، فمن ارتكب ما نهى الله عنه فقد ظلم نفسه ، أي إن إمساك النساء على سبيل المضارة ، وتطويل عدتهن ، إنما وبال ذلك على نفسه ، حيث ارتكب ما نهى الله عنه.

النهي : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ وهي آيات في النكاح ، والحيض ، والإيلاء ، والطلاق ، والعدة والرجعة ، والخلع وحقوق الزوجية ، وكان من عادة العرب عدم الاكتراث بأمر النساء ، حتى كانوا لا يورثون البنات احتقارا لهن ، وذكر قبل هذا أن من تعدى حدود الله فهو ظالم ، وأكد ذلك بالنهي عن اتخاذ آيات الله هزوا ، بل تؤخذ بجد وقبول ، وإن كان فيها ما يخالف عاداتهم ، والنهي عن التهاون في العمل بأحكام الله ، وهذا نهى أريد به الأمر بضده أي ؛ جدوا في الأخذ بها ، والعمل بما فيها.⁽³⁾

الأمر / الامتنان : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي الأمر بمقابلة النعمة بالشكر والقيام بحقوقها . وهي نعمة عامة ، وأما الخاصة فهي معطوفة في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ﴾ عطف الخاص على العام ، حيث خص بالذكر الإسلام ونبوة محمد (ص) ليناسب ما سبقه ، وليبين لهم أن ما كانوا عليه من الإمساك ، إضرار من سنن الجاهلية.⁽⁴⁾ ففي الآية أمرهم بذكر نعمته ، تنبيهها على أن من أنعم عليك ، فيجب أن يأخذ ما يلقي الله بالقبول ، ليكون ذلك شكرا لنعمته .⁽⁵⁾

الترغيب / التعليل / التنبيه : فعل كلامي غير مباشر ، دلت عليه الجملة الاعتراضية (يعظكم به) أي يعظكم بما أنزل . وتؤدي الجملة غرض الترغيب في الاعتاض بالقرآن الكريم ، فقد نبه على أن ما أنزل من الكتاب والحكمة ، فهو واعظ لكم فينبغي قبوله .

أمر / تحذير : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء ، فليحذروا من عقابه ، فقد أمروا بتقوى الله تعالى ، وبأن يعلموا أن الله بكل شيء عليم .

(1) - ينظر : نفسه . 2 / 741 .

(2) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 511 .

(3) - ينظر : الألوسي . المرجع نفسه . 2 / 741 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 741 .

(5) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 511 .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

النهي : ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ فيه نهى الأولياء عن العضل ، لدفع الضرر عنهن . وقوى الفعل الإنجازي بتهويل أمر العضل ، فلا تمنع النساء إذا إنقضت عدتهن ، أن يتزوجن من أردن ، إذا وقع تراض بين الطرفين ، وكان من عادة العرب أن من طلق منهم امرأة ، وبثها يعضلها عن التزوج بغيره ، ثم أشار بقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾ أشار إلى العضل ، وذكر أن يوعظ به المؤمن ، لأن من لم يكن مؤمناً لم يزدجر عما نهى الله عنه.⁽¹⁾

التذكير / الحث : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الإشارة ﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ... ﴾ فهو يحث بطريق غير مباشر، على التمكين من التزويج ، وعدم العضل لما في ذلك من الثواب .

وعبر بصيغة التفضيل (أزكى - أظهر) تدعيماً للقوة الإنجازية .لفعل الحث .

قال تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۖ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۚ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۚ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

إن كثيراً من أحكام هذه الآية متعلق بالرضاعة ، والكسوة ، والفظام ، والاسترضاع ، وواجبات وحقوق كل من الوالدين ، والورثة ، وما تعلق منها بفئة الأطفال الضعفاء . فجاءت الأفعال الكلامية التوجيهية - الضمنية منها والصريحة - وعلى رأسها الأمر بتقوى الله ، بضمان حقوق كل فئة ، فاقتضى المقام أن يكون منها : الأمر ، والنهي ، والإباحة ، والإذن ، والاعتراض ، والحث ، والندب ، والتأكيد ، والتحذير ، والتهديد من مخالفة التوجيهات ، حتى تتحقق العدالة وتضامن الحقوق ، ومن ثم تحقق وظيفة الأفعال الكلامية في أنها ترمي إلى صناعة أفعال ، ومواقف اجتماعية ، وتعديل سلوك عن طريق التأثير في المخاطب ، بحمله على فعل ، أو ترك ، أو تقرير حكم ، ومن ثم يحدث التواصل والتغيير .

(1) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 511 / 2 .

في هذه الآية الحكم عام ، وخصه بعضهم بالوالدات المطلقات ؛ لأن الله ذكر هذه الآية عقيب آيات الطلاق ، فكانت تنمة ؛ لأنه إذا حصلت الفرقة ، ربما يحصل التباعد ، الذي قد يحمل المرأة على إيذاء الولد نكاية بالمطلق ، وغيرها من الأسباب. فتهمل الصبي ، ولذلك جاء الأمر ، على أبلغ وجه برعاية شأن الصبي .⁽¹⁾ قال أبو بكر بن العربي : "هذه الآية عضلة ، ولا يتخلص منها إلا بجريئة الذقن ، مع الغصص بها برهة من الدهر ، وفيها خمس عشرة مسألة."⁽²⁾ وهو إخبار عن تقرير الحكم المتعلق بالإرضاع ، والنفقة والكسوة ، وهو من الأمر غير الصريح بحسب تقسيم الشاطبي .⁽³⁾ أو "هو خبر عن حكم الشرع ."⁽⁴⁾ ويقول الزمخشري (ت 528هـ) : "يُرْضِعَنَّ" مثل يتربصن ، في أنه خبر في معنى الأمر المؤكد ."⁽⁵⁾ والأمر ، يقتضي الندب أو الوجوب ."⁽⁶⁾ فالفعل الكلامي هو الأمر ، على الرغم من أن الصيغة خبرية وغرضه الإنجازي هو : الندب أو الوجوب ، ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي في الآية كما يلي :

الآية

- خبر (من حيث اللفظ) انتقلت دلالاته إلى مجموعة من المعاني الطلبية . فالعبارة ظاهرها الإخبار والقصد به "إفادته المخاطب ، وقد يشرب مع ذلك معان أخرى."⁽⁷⁾

- أمر (من حيث المعنى) أمر غير صريح فمعنى الآية : لترضع الوالدات يقول الزجاج (ت 311هـ) : "فاللفظ لفظ الخبر ، والمعنى الأمر ، كما تقول : حسبك درهم ، فلفظه لفظ الخبر ، ومعناه : اكتف بدرهم . وكذلك معنى الآية : لترضع الوالدات ."⁽⁸⁾ "والأمر من الأفعال الكلامية المنبثقة عن الإنشاء ، فهو ذو ميزة عند الأصوليين ، باعتباره ألصق بالأوامر والنواهي الشرعية ، لذلك أدت تطبيقات أسلوب الأمر والنهي خصوصا ، إلى تشقيق فروع كلامية ، منبثقة تدرج ضمن الأفعال الكلامية ، فنشأت مفاهيم وأفعال كلامية أخرى ، مثل : الوجوب الإباحة ، الحرمة ، الكراهة ، والتنزيه ."⁽⁹⁾ والذي يجمع هذه الأصناف في رأي مسعود صحراوي صنفان هما : الإذن في حالة الأمر ، والمنع في حالة النهي .⁽¹⁰⁾ بمعنى أن يأتي الأمر للإباحة .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق 2 / 744 .
(2) - أبو بكر ابن العربي . أحكام القرآن . 1 / 202 .
(3) - ينظر : الشاطبي . الموافقات . 2 / 133 .
(4) - أبو بكر بن العربي . نفسه . ص 186/1 .
(5) - الزمخشري . الكشاف . ص 1 / 278 .
(6) - الشوكاني . إرشاد الفحول . ص 84 .
(7) - الزجاج . معاني القرآن . 1 / 267 .
(8) - المرجع نفسه . 1 / 267 .
(9) - مسعود صحراوي . التداولية عند العلماء العرب . ص 188 .
(10) - المرجع نفسه . ص 189 .

والصيغة الخبرية تحولت إلى دلالة الإنشاء ، فالتحويل إلى الطلب ينقسم إلى قسمين:

"تحويل داخلي" ، يتم بين أساليب الطلب بعضها إلى بعض ، كأن يتحول الاستفهام إلى الأمر ، والأمر إلى التمني ، وتحويل خارجي ، حين يدخل الخبر على الطلب ، يحكمها بشكل أساسي ، الوعي بصفات المتكلم ، والتحويلات الدلالية لأسلوب الخبر ، يمكن تفسيرها وفقا لفكرة الخروج ، على شروط الإجراء على الحقيقة.⁽¹⁾ ذلك أن أخبار القرآن صادقة ، يقول الشاطبي (ت790هـ) : "وقد تبين في أصول الدين ، امتناع التخلف في خبر الله تعالى ، وخبر رسوله(ص)."⁽²⁾ والأمر يعرف من السياق ، قال الزركشي (ت794هـ) : "فإن السياق يدل على أن الله تعالى أمر ، بذلك لأنه خبر ، وإلا لزم الخلف في الخبر."⁽³⁾ ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي ، عبر عن المخاطب بلفظ (الوالدات) لاستعطافهن نحو أولادهن ، وكذلك إخراج الأمر بالإرضاع مخرج الخبر مبالغة وتقوية للحكم. كما استعان السياق بوصف الحولين بالكمال (حولين كاملين) دفعا للمجاز ، وهي صفة تؤكد كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة الآية 196] لبيان أن التقدير تحقيقي ، لا تقريبي مبني على المسامحة المعتادة.⁽⁴⁾ "ولولا ذكر الصفة ، لجاز أن يحمل على ما دون الحولين."⁽⁵⁾ وجعل الخبر فعلا (يرضعن) ؛ لأن الإرضاع مما يتجدد دائما ، ويحتمل أن يكون معناه . كقوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ لكنه أمر ندب لا إيجاب ؛ إذ لو كان واجبا لما استحق الأجرة ، ويكون الأمر للوجوب في بعض الوالدات. فالوالدات أحق بإرضاع أولادهن ، فإن الإرضاع من خصائص الولادة ، لا من خصائص الزوجية.⁽⁶⁾ ويمكن توضيح ذلك كما يلي

ندب (أمر ندب) ، وهو ما دلت عليه الصيغة ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ...﴾

الأمر بالإرضاع

وجوب : إذا لم يقبل الصبي إلا ثدي أمه ، أو لم توجد له ظئرا.⁽⁷⁾

ومن الأفعال الكلامية في بقية الآية السابقة نجد مجموعة أفعال وهي :

الأمر: فعل كلامي مباشر ، ورد في قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ...﴾ ففيه إيجاب الرزق والكسوة للوالد بالمعروف ، ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ معطوف على جملة الأمر ،

(1) - حسام أحمد . تحويلات الطلب . ص 305 .

(2) - الشاطبي . الموافقات . 1 / 63 . 250 .

(3) - الزركشي . البرهان . 2 / 320 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 744 .

(5) - العكبري . التبيان . 1 / 160 .

(6) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 496 .

(7) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 1 / 279 .

"وجعل الخبر جارا ومجرورا ، بلفظ (على) الدالة على الإستعلاء المجازي ، والوجوب. فأكد بذلك مضمون الجملة ، وجاء الرزق مقدما على الكسوة ، لأنه الأهم في بقاء الحياة ، والمتكرر في كل يوم." (1)

النهى: فعل كلامي غير مباشر ، ورد في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ ؛ أي لا تضار والدته زوجها بسبب ولدها ، بأن تطلب ما ليس بعدل من الرزق ، والكسوة ، وكذلك الأب ، والوارث . ولتعديل القوة الإنجازية للنهي ، بعدما نُهيت المرأة عن المضارة ، أضيف إليها الولد ﴿ لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا ﴾ استعطافا لها عليه ، فمن حقها أن تشفق عليه ، وكذلك الوالد. (2)

وقلنا هو فعل كلامي غير مباشر ، لأن الصيغة خبرية في الظاهر لكن المراد منه النهي .

خبر في الظاهر . لكن المراد منه النهي .

﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَهُ...﴾

إنشاء (نهى) عن إساءة الوالدة إلى الصبي بترك الرضاع ، وترك التعهد والحفظ. (3)

الاعتراض: فعل كلامي متضمن في القول ، وقد وقع الاعتراض بين الجملتين المتعاطفتين وهما: (وعلى المولود) و (على الوارث) وما بينهما ، اعتراض لبيان (المعروف) ، والاعتراض بجملتين هما : (لا تضار والدته بولدها - ولا مولود بولده) ووظيفة الاعتراض التفسير والبيان. (4)

الإباحة والإذن: وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ وَتَشَاوُرٍ... فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ ؛ أي إن أرادا فطام الولد قبل الحولين ، إذا تشاورا وحصل التراضي بينهما ، أي الوالدان مع توفر الشروط ، ولكن " حتى عند اجتماع الشرائط ، لم يصرح بالإذن ، بل قال لا جناح. (5) ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي ، استعان السياق ببعض المؤشرات اللغوية ، مثل: تنكير كلمة (فصالا) للإيدان بأنه فصال غير معتاد ، ويجوز أن يكون إشارة إلى عظمه ، نظرا للصبي لما فيه من مفارقة المألوف ، وكذلك تنكير كلمة (تشاور) للدلالة على التفخيم. (6)

فالإباحة والإذن من الأفعال الكلامية المتفرعة عن أسلوب الأمر ، من بين أساليب الإنشاء الطلبية ، أفعال مستدعاة بالقول جديدة ، فكلها يمكن إدراجها ضمن الأمرات عند سيرل ، أما المأذون فيه إذنا غير جازم ، أي المباح ، فهو وارد في تطبيقات الأمر أو النهي . فالمباح ، نوع من الأفعال الكلامية المسكوت عنها. (7)

(1) - أبو حيان . مرجع سابق . 1 / 504 .

(2) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 280/1 .

(3) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 3 / 130 .

(4) - ينظر : أبو حيان الأندلسي . مرجع نفسه . 2 / 505 .

(5) - الرازي . مرجع نفسه . 3 / 133 .

(6) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 747 .

(7) - ينظر : مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 196-199 .

الحث / النذب / والجواز: فعل كلامي وارد في قوله تعالى ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو خطاب للآباء ، بين فيه أنه يجوز العدول في الرضاعة عن الأم ، إلى غيرها في ظروف معينة ، فهذا أمر جائز . وتتضمن الجملة فعلا آخر متضمنا في القول . قال الزمخشري : " ويجوز أن يكون بعثا (حشا وتحريضا) ، على أن يكون الشيء الذي يعطى للمرضع ، من أهني ما يكون لتكون راضية فأمرنا بإيتائها ناجزا يدا بيد ، وأمرنا أن يكونوا عند تسليم الأجرة ، مستبشري الوجوه ، ناطقين بالقول الجميل ، مطيبين لأنفس المرضع ، بما أمكن".⁽¹⁾ وقوله : ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ "أي ما أعطيتموهن إياه".⁽²⁾

التحذير والتهديد : ختم الآية بفعل كلامي غير مباشر، هو التهديد في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وصيغة العبارة أمر، أفاد فعلا متضمنا في القول هو : التحذير الذي جاء بعد سلسلة من الأوامر، والنواهي والطلبات ، حتى لا يقع الناس في المحذور، فجاء الأمر بتقوى الله خاصة أن كثيرا من أحكام هذه الآية متعلق بأمر الأطفال ، الذين لا قدرة لهم ، ولا منعة مما يفعله بهم ، حذر وهدد بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ . وأتى بالصفة التي هي ﴿بَصِيرٌ﴾ مبالغة في الإحاطة بما يفعلونه معهم والاطلاع عليه .⁽³⁾ وفي إظهار الإسم الجليل ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ تربية للمهابة.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

الأمر: ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ واستدل بالآية على وجوب العدة على المتوفي عنها ، أربعة أشهر وعشرا .

النهي : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ ﴾

(1) - الزمخشري . مرجع سابق . 1 / 281 .

(2) - العكبري . التبيان . 162/1 .

(3) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 1 / 510 .

نهى أن يفعلن ما حرم عليهن في العدة ، وفي التقيد إشارة إلى علة النهي ، فإذا فعلن ، ولم يكفوهن أثموا ، ونفى الحرج عما فعلن من تعرض لخطبة وتزين ، وذلك بالمعروف .

خبر : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إعلام بانه تعالى خبير بما يصدر منا .

تهديد :

تهديد + وعد + وعيد . أي "فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به " وفيه تهديد لهم ، ويحتمل أن يكون وعدا ووعدا⁽¹⁾ .

الإباحة : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾

إباحة الخطبة بالتعريض ، وعدم التصريح بذلك لهن ، ورخص لكم ما رخص ، وفيه نوع ما من التوبيخ ، ولا جناح على من أكن التزويج في نفسه ، فقد عذر الله في التعريض ، لأن النفوس تتوق إلى التزوج .⁽²⁾ وتقدم ذكر أمد العدة ، وجاء هذا الفعل الكلامي ناهيا عن التزوج ، قبل انقضاء تلك المدة ، ولما كان التحدث في التزوج ، إنما يقصد منه المتحدث حصول الزواج ، وكان من عادتهم أن يتسابقوا إلى خطبة المعتدة ، ومواعيدتها ، فبينت الشريعة لهم تحريم ذلك ، ورخصت في شيء منه ؛ أي في كلام عرضتم به ، لأن التعريض يطلق على ضرب من ضروب المعاني المستفادة من الكلام.

النهي : ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ نهى عن العهد ، عن الامتناع عن التزوج بالغير ، والمستثنى منه ما يدل عليه النهي ، أي لا تواعدوهن إلا مواعدة معروفة . والأمر بالتعريض ، وهو في معنى عرضوا بخطبتهن ، أو أكنوا في أنفسكم . فقد كنى بالسر عن النكاح ، وهي من أبلغ الكنايات . ﴿وَلَا تَعَزَّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ﴾ أي لا تبرموا عقدة النكاح ، حتى ينتهي ما فرض من العدة ، وهو نهى عن بت النكاح ، قبل انقضاء العدة ونهي عن التصميم ، لأنه إذا وقع وقع ما صمم عليه ، وقيل نهى عن العزم مبالغة ، والمراد النهي عن المعزوم عليه ، مثل النهي عن الاقتراب ، في قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ والآية صريحة في النهي عن النكاح في العدة ، وفي تحريم الخطبة في العدة.⁽³⁾

التحذير / التهديد : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ واعلم أن ما في نفس الإنسان

يعلمه الله ، ثم اعلم بأنه غفور يستر الذنب ، حلیم يصفح عن المسيء ، ويعلم ما في أنفسكم من العزم

(1) - الألوسي . روح المعاني . 2 / 750 .

(2) - ينظر : المرجع نفسه . 2 / 751 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 454 .

على ما لا يجوز ، أي لا تعزموا عليه ، ففيه تحذير من العزم ابتداء ، أو إقلاعا عنه⁽¹⁾ وفيها تعريض في قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ . وفيها تهديد في قوله تعالى : ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾⁽²⁾ قال القرطبي : "هذا نهاية التحذير في الوقوع فيما نهى عنه"⁽³⁾ "وابتدى الخطاب بـ(اعلموا) ، لما أريد قطع هواجس التساهل ، والتأول في هذا الشأن ، ليأتي الناس ما شرع لهم ، من صفاء سريرة من كل دخل وحيلة "⁽⁴⁾ قال تعالى : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁵⁾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾⁽⁶⁾

نفى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ "أي لاتبعة عليكم من إيجاب مهر، إن طلقتم النساء ما لم تجامعوهن ،إلا أن تفرضوا لهن فريضة ؛أي تسمية المهر".⁽⁵⁾ وقوله تعالى : ﴿تَمْسُوهُنَّ﴾ كناية عن الجماع ، والنفي يقتضي الوجوب .

الإباحة: " إباحة الطلاق قبل المسيس ،لأنه بعيد عن قصد التدوق ... وكان الرسول (ص) ينهى عن فعل الذواقين ، وحضهم أن يقصدوا من التزوج دوام المعاشرة".⁽⁶⁾

الأمر: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ الوجوب ، فالجملة مبينة لمقدار حال المتعة ، بالنظر إلى حال المطلق ، وسموا محسنين ترغيبا وتحريضا ، وبه استدلووا على استحباب المتعة ، وجعلوه قرينة صارفة للأمر إلى الندب ، ومنهم من جعلها واجبة لقوله تعالى : ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾⁽⁷⁾ . إلا في حال العفو ، "وهذا الحكم دلنا على أن الشريعة قد اعتبرت أن النكاح عقدا لازما بالقول".⁽⁸⁾ وتأكد الوجوب بقرينة قوله تعالى : ﴿حَقًّا﴾⁽⁹⁾ **الأمر:** ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ الأمر على أبلغ وجه . "أي لا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض كالشيء المنسي".⁽⁹⁾ ففي التعبير تلطيف للأمر وترغيب فيه ،وأكد ذلك

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 751 / 2 .

(2) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 527 / 2 .

(3) - القرطبي . الجامع في أحكام القرآن . 129 / 3 .

(4) - ابن عاشور . نفسه . 456 / 2 .

(5) - الزمخشري . مرجع سابق . 284 / 1 .

(6) - ابن عاشور . مرجع نفسه . 458 / 2 .

(7) - ينظر : الألوسي . مرجع نفسه . 754 / 2 .

(8) - ابن عاشور . المرجع نفسه . 462 / 2 .

(9) - الألوسي . المرجع نفسه . 754 / 2 .

بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَسَوَّا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ، "والمعنى أن العفو أقرب إلى التقوى ،من التمسك بالحق".⁽¹⁾ وجملة (ولا تتسوا) تذييل ، لزيادة الترغيب في العفو ، بما فيه من التفضل الدنيوي، فأمرُوا في الآية أن يتعاهدوا الفضل، ولا ينسوه ،ففي تعاهده عون كبير على الإلف والتحابب ، والنسيان هنا مستعار ، للإهمال وقلة الاعتناء، وفي كلمة (بينكم) ، إشارة إلى هذا العفو.⁽²⁾

التأكيد: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا نَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم ، وفي هذا تحفيز ، على الامتثال للأمر السابق.

الوعد: فهي جملة تذييل ، ففي الجملة " تعليل الترغيب في عدم إهمال الفضل ، وتعرض بأن من العفو ، مرضاة الله تعالى ، فهو يرى ذلك منا ، فيجازي عليه".⁽³⁾

- خبر . معنى صريح .
الآية

- وعد . قال القرطبي : "خبر في ضمنه الوعد للمحسن ، والحرمان لغير المحسن ؛ لا

يخفى عليه عفوكم واستغفاركم".⁽⁴⁾ فإن الله تعالى دعانا إلى خلق حميد ، وهو العفو عن الحقوق .

قال تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾  فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ 

الأمر: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ...﴾ "أي حافظوا على مداومة أدائها ، ولا يشغلنكم التعلق بالنساء وأحوالهن ، وتوجهوا إلى مولاكم بالمحافظة على ما هو عماد للدين".⁽⁵⁾ وخص الوسطى منها بالذكر، تنبيها على فضلها ، وتميزها عن غيرها . فقد حث الله على المحافظة عليها ، لأنها معينة على التقوى . "وحافظوا صيغة مفاعلة استعملت هنا للمبالغة ، على غير حقيقتها والمحافظة عليها ، هي المحافظة على أوقاتها من أن تؤخر عنها".⁽⁶⁾ وهذه المبالغة تقوي الفعل الكلامي ، وتدعم قوته الإنجازية .

الأمر: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ ؛ أي قوموا في الصلاة خاشعين مطيعين.

التأكيد: ومجيء فعل الأمر بالصلاة ، هنا لأداء وظيفة دينية ، وذلك أن المتكلم يذكر المكلفين ، بأن لا تستغرقهم أحكام النساء ، فنبههم على أشرف العبادات ، التي يتقرب بها إلى الله ، ثم للمبالغة في توكيد

(1) - ابن عاشور . مرجع سابق . 464 / 2 .

(2) - المرجع نفسه . 465 / 2 .

(3) - نفسه . 465 / 2 .

(4) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 146 / 3 .

(5) - الألوسي . روح المعاني . 756 / 2 .

(6) - ابن عاشور . مرجع سابق . 467 / 2 .

(7) - ينظر : أبو حيان الأندلسي . البحر المحيط . 557 / 2 .

إيجاب الصلوات ، لم يسامح بتركها حالة الخوف ، فأمر تعالى أن تؤدي في تلك الحال ، سواء كان الخائف ماشيا أو راكبا ، وإن كان في ذلك بعض اختلال لشروطها.(1) وكل ذلك دعم للقوة الإنجازية للأمر بالصلاة ، والحث على العناية بأدائها .

الامتنان: ﴿ فَإِذَا أُمِيتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

أمر أن تؤدي الصلاة على حالها الأول مع إتمام شروطها إذا أمن اتلخوف وأن يؤديها على الحالة التي علمه الله في أدائها قبل الخوف . ومعنى الامتنان في قوله تعالى : ﴿ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ... ﴾ " قيل معناه اشكروه على هذه النعمة ، في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بها الإجزاء ... فالكاف في قوله (كما) بمعنى الشكر ، تقول افعل بي كما فعلت بك ، كذا مكافأة وشكرا." (2) فهذا وجه الامتنان .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

الأمر : معنى صريح ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ﴾

الآية

الوجوب (وصية) : وهي "بمعنى ألزم الذين يتوفون وصية ، وتدل عليه قراءة عبدالله : كتب عليكم الوصية"(3) بمعنى : يجب على الذين يتوفون أن يوصوا لأزواجهم قبل أن يحتضروا يحتضروا بأن يمتنع بعدهم حولا بالنفقة والسكنى ، وأنهن لا يخرجن من بيوتهن في ذلك الحول . وكان ذلك في أول الإسلام ، ثم نسخت المدة بقوله تعالى : ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي أن هذه الآية "شرعت حكم تربص المتوفي عنها ، حولا في بيت زوجها ، وذلك في أول الإسلام ثم نسخ ذلك بعد الوفاة ، وبالميراث . وكان من عادة العرب المتبعة ، أن المرأة إذا توفي عنها زوجها ، تمكث في شر بيت لها حولا محدة ، لابسة شر ثيابها ، متجنبة الزينة والطيب... فلما جاء الإسلام أبطل ذلك الغلو." (4)

(1) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 3 / 147 .

(2) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 557 .

(3) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 289 .

(4) - ابن عاشور . التحرير والتنوير . 2 / 472 .

الإباحة: ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ... ﴾ لا جناح يا أولياء الميت ، فيما فعلن من معروف لا ينكره الشرع ، بعد مضي العدة ، كالتطيب والتزيين ، وترك الحداد والتعرض للخطاب.(1)

نفي: نفي الجناح ، قوة إنجازية مباشرة
الآية

الإباحة : "أي أن الله عزوجل لما أراد نسخ عدة الجاهلية ، وراعى لطفه بالناس ، في قطعهم عن معتادهم ، أقر الاعتداد بالحلول ، وأقر ما معه من المكث في البيت ، مدة العدة لكنه أوقفه على وصية الزوج ، لزوجته بالسكنى..."(2)

تحذير: ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ غالب على أمره ، ينتقم ممن خالف أمره ، فينبغي أن يمثل أمره ونهيه ، ففيه معنى التحريض على الفعل المطلوب ، وهو إنجاز الوصة . وهو توجيه غير مباشر ، وذلك عن طريق التذكير بالصفة (عزيز - حكيم) .

التأكيد: ﴿ وَلِلْمَطْلَقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ... ﴾ وهن المذكورات في الآية السابقة والتكرير للتأكيد وذكرت هنا للتعميم . وهناك تأكيد آخر في قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تفهموا ما أريد منها.

قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْضَعًا كَثِيرًا وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

الاعتراض: فعل كلامي غير مباشر عبرت عنه هذه الآية واقع بين جملة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ إلى آخرها وجملة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ الآية . قصد به الاستطراد للحث على الإنفاق لوجه الله في طرق البر ، لمناسبة الحث على القتال.(3) فإن القتال يستدعي الإنفاق وبذل المال والأنفس. كما تتضمن الآية أداء وظيفة تبين مضمون جملة(واعلموا أن الله سميع عليم) فكأن الجملة الاعتراضية وقعت فاصلا بين قصتين .

الاستفهام: فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ مستعمل في التحضيض والتهيج على الاتصاف بالخير كأن المستفهم لا يدري من هو أهل هذا الخير والجدير به . فمقصود المتكلم استثارة هم المخاطبين للامثال لهذا الطلب فيقبل على الإنفاق وعلى بذل المال والأنفس . ولتدعيم القوة الإنجازية لهذا الفعل الكلامي عبر عن الإنفاق بلفظ (يقرض) . والقرض إسلاف المال

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 762

(2) - ابن عاشور مرجع سابق.. 2 / 472 .

(3) - ينظر : المرجع نفسه . . 2 / 481 .

بنية إرجاع مثله . واستعمل الإقراض هنا مجازاً في البذل الذي يرجى الجزاء عليه تأكيداً في تحقيق حصول التعويض والجزاء . كما وصف القرض بالحسن الخالي من العيوب وشوائب الرياء .

كما استعمل الأداة (ذا) بعد إسم الإستفهام (من) وليس في مقام الكلام شيء يصلح لأن يشار إليه بالإستفهام فدل على أنها مجازية وذلك بأن يتصور المتكلم في ذهنه شخصاً موهوماً مجهولاً صدر عنه فعل فهو يسأل عن تعيينه (من ذا)؟ وإنما يكون ذلك للإهتمام بالفعل الواقع وتطلب معرفة فاعله "فكأنه قيل : أقرض الله تعالى أحد فيضاعفه"⁽¹⁾

التقرير / التأكيد : في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

"إذا علمتم أن ما عندكم إنما هو من بسطه فلا تبخلوا عليه فأقرضوه . فالكلام كالتأكيد والتقرير لما قبله أي يقبض الصدقات ويبسط الجزاء عليها."⁽²⁾

الوعد : ويرى الشيخ الطاهر ابن عاشور أنه : "يحتمل أن المراد يقبض نفوساً عن الخير، ويبسط

نفوساً للخير . وفيه تعريض بالوعد بالتوسعة على المنفق في سبيل الله ، والتفتير على البخيل"⁽³⁾

والتعريض بالوعد فعل كلامي غير مباشر، يقصد به المتكلم حث المخاطبين على الإنفاق .

التنبيه / التذكير : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية (وإليه ترجعون) " وهو خبر

مستعمل في التنبيه والتذكير ؛ بأن ما أعد لهم في الآخرة من جزاء على الإنفاق أعظم مما وعدوا به من الخير في الدنيا . وفيه تعريض بأن الممسك البخيل عن الإنفاق في سبيل الله محروم من خير كثير."⁽⁴⁾

والفعل الكلامي التعريض يقصد به المتكلم تحريك همة المؤمنين للإمتثال للإنفاق في سبيل الله ، فقد نجد الفعل التأثيري الناتج عن القول ممثلاً فيما قام به أبو الدحداح فقد روي أنه لما نزلت هذه الآية جاء إلى رسول الله (ص) فقال : "أو أن الله يريد منا القرض ؟ قال نعم يا أبا الدحداح . قال فإني أقرضت الله حائطاً فيه ستمائة نخلة . فقال رسول الله (ص) : كم من عذق رداح ودار فساح في الجنة لأبي الدحداح."⁽⁵⁾

الزكاة ومصارف الصدقات :

قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا

شَفَعَةٌ ۖ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

الأمر : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾

(1) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 768 .

(2) - المرجع نفسه .

(3) - الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 483 .

(4) - المرجع نفسه . 2 / 483 .

(5) - ينظر : المرجع نفسه .

فعل كلامي مباشر ، يتضمن الأمر بالإففاق كزكاة الفرض ، والأمر يقتضي الوجوب ، فهذا فعل مطلوب من المخاطبين القيام به في المستقبل، لأن الأمر حقيقة في الوجوب ، ودعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي، باقتران الأمر بالوعيد (من قبل أن يأتي يوم) .

الحث / الترغيب : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ حث على الإففاق وترغيب فيه ، ولتقوية هذا الطلب ذكر المتكلم بأن هناك وقتا تنتهي الأعمال إليه ويتعذر الاستدراك فيه وهو يوم القيامة ، والشفاعة المنفية هنا لا شفاعة مراد بها الشفاعة التي لا يسع المشفوع إليه ردها. (1)

التعريض والتهديد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه صبغة النفي في قوله تعالى : ﴿ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ ودلت عليه صيغة القصر في قوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ فذلك النفي تعريض وتهديد للمشركين فعقب بزيادة التخليط عليهم بسبب ظلمهم فما ظلمهم الله . وهذا يقوي إنجازية الفعل الكلامي لأن المظلوم يجد لنفسه سلوى بأنه معتدى عليه . فالقصر قصر قلب بتزليل السامعين منزلة من يعتقد أنهم مظلومون. (2)

تحريم الربا :

قال تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا أَلْصَدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ



قد يتساءل السامع عن الصدقات الخفية ، وهل إبداء الصدقات يعد ربا ؟ وقد سبق قولها تعالى : ﴿ فَإِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ . وهكذا حث القرآن على باب الإففاق ، ورغب فيه ، وأطنب في الحث عليه ، وحذر من إمساك المال ، ثم انتقل إلى إبطال وسيلة من وسائل ابتزاز الأغنياء أموال المحتاجين ، وهي : المعاملة

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 16 .

(2) - ينظر : نفسه . 3 / 17 .

بالربا ، وروي في سبب نزول هذه الآيات أنهم قالوا : يا رسول الله أصدقة السر أفضل ، أم صدقة العلانية ، فنزلت هذه الآية ، وتضمنت أفعالا كلامية توجيهية هي :

الترغيب : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا...﴾ وأشار إلى أن الإخفاء خير لهم ودعم القوة الإنجازية لفعل الترغيب بذكر الثواب المترتب على الفعل في قوله تعالى : ﴿يُكَفِّرُ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ففي الجملة ترغيب في الإعلان والإسرار ، وإن اختلفا في الأفضلية ويجوز أن يكون الكلام مساقا للترغيب في الإسرار. (1)

المدح : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فقد مدح الله المتصدقين ، وقوله (هي) مخصوص بالمدح وهي الصدقات ، وقد علم السامع أنها الصدقات ، المبدأة بقرينة فعل الشرط .

الإعراض : في قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هذه جملة معترضة ، جيء بها على طريق تلوين وتوجيهه إلى سيد المخاطبين (ص) ، مع الالتفات إلى الغيبة ، مبالغة في حملهم على الامتنال. (2)

النهي : في قوله تعالى : ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ قيل إنه نفي بمعنى النهي أي ؛ لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ، " وإقحام الوجه للتعظيم لأنك إذا قلت : فعلته لوجه زيد كان أجل من قولك فعلته له لأن وجه الشيء أشرف ما فيه. " (3) ووظيفة هذا الفعل الكلامي هو زيادة بيان فضل الصدقات كلها . وأنها لما كانت منفعتها لنفس المتصدق ، فليختر لنفسه ما هو خير . وفيه حث على الإكثار منها ، لأن ثوابها مضمون ، وقيل إن الجملة خبر ، مستعمل في معنى الأمر أي ؛ إنما تكون منفعة الصدقات لأنفسكم ، إذا ابتغيتم بها وجه الله ، وهذا الكلام خبر مستعمل في الطلب ، لقصد التحقيق والتأكيد .

الربا والمعاملات المالية

قال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾** **يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾** **فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾** **وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾** **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾** ﴿

(1) - ينظر : الألوسي . روح المعاني . 12 / 3

(2) - ينظر : المرجع نفسه . 12 / 3

(3) - المرجع نفسه . 13 / 3

التنبيه: فعل كلامي غير مباشر، دل عليه الإخبار في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ... ﴾ فقد خصى الله الصلاة والزكاة ، مع إندراجهما في الأعمال ، للتنبيه على عظم فصلهما ، فإن الصلاة أعظم الأعمال البدنية بالذكر ، والثانية أفضل الأعمال المالية ، وأبرز السياق مكانتهما عند الله تعالى ، فقال : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ وفي ذلك مزيد لطف وتشريف . والآية جملة معترضة ، لمقابلة الذم بالمدح ، والمقصود التعريض ، بأن الصفات المقابلة لهاته الصفات صفات غير المؤمنين. (1)

الأمر: فعل كلامي مباشر، في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا... ﴾ ففيها أمر، أي اتركوا ما بقي لكم من الربا ، عند الناس وقوا أنفسكم عقابه ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فدليل إيمانكم هو امتثالكم للأمر، وهو شرط حذف جوابه ، ثقة لما قبله . "وقدم الأمر بالتقوى على الأمر بترك الربا ، لأن تقوى الله هي أصل الامتثال ، ولأن ترك الربا من جملتها ، فهو كالأمر بطريق برهاني." (2)

تهديد وتخويف: فعل كلامي غير مباشر ، دلت عليه الجملة في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والآية تدل على معنيين ، الأول حقيقي ، وهو الإعلام بحرب حقيقية ، كحرب المرتدين أو البغاة ، والثاني ، قيل لا حرب حقيقية ، وإنما هو تهديد وتخويف ، وجمهور المفسرين على الأول ، وينكر (حرب) للتعظيم . (3) وهذا يعدل القوة الإنجازية للفعل الكلامي ليجعل التهديد أكثر خطورة .

الأمر: فعل كلامي مباشر، في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنُظْرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ ففي الجملة أمر بإنظار المعسر أي ؛ وإن كان ذو عسرة لكم عليه حق ، فعليكم الإمهال والتأخير، وقرأ عطاء (فناظره) أي فالمستحق ناظره وممهله ، وعنه أيضا (فناظره) أمر من المفاعلة ، أي فسامحه بالنظرة ، فالأمر هو الله ، والمأمور هم المكلفون. (4) والصيغة طلب ، وهي محتملة للوجوب والندب.

الترغيب / التحريض: فعل كلامي غير مباشر، دلت عليه الآية في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ففي الآية تحريض على الفعل ، أي وتصدقكم على معسري غرمائكم ، برؤوس أموالكم خير، أي أكثر ثوابا من الإنظار، أو خير مما تأخذونه ، أي أن إسقاط الدين على المعسر والتنفيس عليه ، بإغنائه أفضل لكم ، وجعله الله صدقة ، لأن فيه تفريج الكرب. (5)

التحذير / التهويل: فعل كلامي غير مباشر، وارد في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ... ﴾ فالآية فيها تحذير من اليوم الآخر ، وما فيه من الشدائد ، ولتقوية

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 94 .

(2) - المرجع نفسه . 3 / 93 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 3 / 73 .

(4) - ينظر : نفسه . 3 / 73 .

(5) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 96 .

الفعل الكلامي نكر (يوما) للتفخيم ، وعلق الإتياء به للمبالغة في التحذير ، وعبر بلفظ (ترجعون) وهو من الرجوع ، وهو أدخل في التهويل.⁽¹⁾ فجاء بقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ تذييلا لهاته الأحكام . لأنه صالح للتهيب من ارتكاب ما نهى عنه ، والترغيب في فعل ما أمر به ، أو ندب إليه ، لأن في ترك المنهيات سلامة من آثامها ، وفي فعل المطلوبات استكثارا من ثوابها ، والكل يرجع إلى اتقاء ذلك اليوم.⁽²⁾

قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بَدَيْنَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۚ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَانِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

فيها مبالغة وتأکید في حفظ الأموال ، وصيانتها من الضياع ، والمنع من إضاعتها وتبذيرها .

جاءت الأفعال الكلامية ، أمره ناهية ومحذرة ، هادفة لحفظ الأموال ، وجاءت الأفعال التوجيهية موضحة للتعاملات كي ، لا يظنوا أن تحريم الربا ، والرجوع بالمتعاملين إلى رؤوس أموالهم، إبطال للتدائين كله فكمل هذا التشريع ، بالتوثيق والكتابة والإشهاد. الخطاب موجه إلى المؤمنين ، عامة والمتدائنين خاصة ، والأخص بالخطاب هو المدين ، الذي يطلب منه أن يجعل دائته مطمئن البال على

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 96 / 3 .

(2) - نفسه . 97 / 3 .

ماله ، وأكد المتكلم حرصه على حفظ الأموال ، بزيادة قيد (بدين) إما لمجرد إطناب أو دفعا لتوهم المجاز ، وقوله تعالى : ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ طلب تعيين الآجال للديون ، لئلا يقعوا في الخصومات .⁽¹⁾

الأمر: فعل كلامي مباشر ، في قوله تعالى : ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ وهو أمر بكتابة التعاملات ولكن الجمهور على استحبابه ، والأمر إجمالي.⁽²⁾ "الأرجح أن الأمر للوجوب فإنه الأصل في الأمر والقصد من الأمر التوثيق للحقوق وتنظيم معاملات الأمة وإمكان الإطلاع على العقود الفاسدة وهذا في صالح المخاطبين بألا تضيع حقوقهم. وأن هذا التوثيق مطلوب بأمر من الله تعالى."⁽³⁾

ثم تبعه أمر آخر في قوله تعالى : ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾ وهو أمر لبيان كيفية الكتابة للمأمور بها . ويكتب عدل فقيه ، وصيغة الأمر (وليكتب) المضارع ، الذي دخلت عليه لام الأمر ، فجاء الأمر إلى المتدائنين ، أن يوسطوا كاتباً بينهم .

النهي: فعل كلامي مباشر ، في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ...﴾ أي لا يمتنع عن الكتابة للمأمور بها .

الأمر: فعل مباشر في قوله تعالى : ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وهو تفريع على قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ وهو تصريح بمقتضى النهي ، وتكرير للأمر في قوله تعالى : ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ فهو يفيد تأكيد الأمر ، وتأكيد النهي أيضا ، وإنما أعيد ليرتب عليه قوله تعالى : ﴿وَلْيُمْلَأِ﴾ لبعد الأمر الأول.⁽⁴⁾ والأمر بالكتابة بعد النهي عن الأداء منها فله وجهان هما :

التأكيد: وهو (الوجه الأول) لأن النهي عن الشيء ليس أمراً بضده صريحا على الأصح ، فأكدته بذكره صريحا اعتناءً بشأن الكتابة ، ومن هنا ذهب بعضهم إلى أن الأمر للوجوب ، ومن فروض الكفاية .

الأمر: أمر بالكتابة المقيدة بعد النهي عن الامتناع من المطلقة . وهذا لا يفيد التأكيد بل يفيد الأمر.⁽⁵⁾

الأمر: في قوله تعالى : ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسَ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي الذي عليه الحق يتق (الله ربه) فقد جمع بين الإسم الجليل والوصف الجميل (الله) - (ربه) مبالغة في الحث على التقوى . وقد جمع في تكليف المملي بين الأمر بالإتقاء ، والنهي عن البخس لما فيه من الدواعي إلى المنهي عنه.⁽⁶⁾ والذي عليه الحق لا ينقص رب الدين شيئا حين الإملاء وهو على هذا أمر للمدين بأن يقر بجميع الدين ولا يغبن الدائن ، والنهي عن البخس ﴿وَلَا يَخْسَ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أشد تعلقا بالكاتب .

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 99 / 3 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 77 / 3 .

(3) - الطاهر ابن عاشور . المرجع نفسه . 100 / 3 .

(4) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 103 / 3 .

(5) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 77 / 3 .

(6) - ينظر : نفسه . 77 / 3 .

أمر: ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا... فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾ وهذا أمر متفرع عن السابق .

أمر: ﴿ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ ﴾ أي اطلبوهما ليتحملا الشهادة ، ولدعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي ، اختار السياق صيغة المبالغة (شهيدين) ، إيماء إلى طلب من تكررت منه الشهادة ، والأمر للندب أو للوجوب على الخلاف في ذلك.⁽¹⁾ (واستشهدوا) بمعنى : أشهدوا . والسين والتاء فيه لمجرد التأكيد ، فيكون تأكيد بالسعي للإشهاد . ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ وهنا التسوية بالشرط أي سواء كانا رجلين ، أم رجلا وامرأتان⁽²⁾ وجعل المأمور به طلب الإشهاد ، لأنه الذي في قدرة المكلف وقد فهم السامع أن الغرض من طلب الإشهاد حصوله ، ولهذا أمر المستشهد - بفتح الهاء - بعد ذلك بالامتنال فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ ﴾ .⁽³⁾

النهي: في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ نهي عن رفض أداء الشهادة أو تحملها فالنهي فيه تكليف لمن يطلب منه صاحب الحق ، أن يشهد عليها ألا يمتنع .

النهي: في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ... إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً ﴾ أي لا تكسلوا عن كتابة الدين ، وقدم لفظ (صغيرا) اهتماما به ، والخطاب للمؤمنين ، ويقصد بهذه التوجيهات تعليم العباد ، وإرشاد الحكام ، لأن الكتابة أعدل عند الله ، ولكن التجارة الحاضرة يجوز فيها عدم الاستشهاد والكتابة ، فلا مضرة في ذلك ولا إثم في عدم الكتابة ، ثم أمر بالاستشهاد على التتابع في قوله تعالى : ﴿ وَاسْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ . في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ فيه نهي عن المضارة ، ونهي الكاتب والشاهد عن ترك الإجابة ، إلى ما يطلب منهما وعن التحريف والزيادة والنقصان .⁽⁴⁾

التحذير: فعل كلامي غير مباشر ﴿ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ ﴾ إن تفعلوا ما نهيتهم عنه من الضرار فذلك خروج عن طاعة متلبس بكم ، وفي هذا التعبير تقوية للفعل الإنجازي ، لأنه أبلغ إذ جعلوا محلا للفسق.⁽⁵⁾

الأمر / الوعد / التعظيم : اجتمعت في هذه الجملة ثلاثة أفعال كلامية : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وكرر الاسم الجليل في الجمل الثلاث ، وهو تكرير مستحسن ففي الجملة الأولى حث على تقوى الله ، وجاءت بصيغة الأمر ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ . وفي الثانية ﴿ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾ ، وعد بإنعامه سبحانه وفي الثالثة تعظيم لشأنه (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 77 / 3 .

(2) - ينظر : تمام حسان . البيان في روائع القرآن . ط2 / 2003 . مكتبة الأسرة . 177 / 2 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . نفسه . 106 / 3 .

(4) - ينظر : الألوسي مرجع سابق . 83 / 3 .

(5) - ينظر : نفسه . 83 / 3 .

الأمر: وجاء أمر آخر في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ أي فليؤخذ رهان ، وفيه إقامة التوثيق بالارتهان ، مقام التوثيق بالكتابة .

التحذير / التأكيد: في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ أي إن أمن بعض الدائنين بعض المدينين ، فلم يتوثق بالكتابة والشهود والرهن ، فليؤد المدين دينه ، ودعم السياق القوة الإنجازية للفعل الكلامي بمجموعة مؤشرات منها : التعبير عن الدائن (الذي أؤتمن) ، وعن الدين (الأمانة) ، وفي الجمع بين عنوان الألوهية (الله) ، وصفة الربوبية (الرب) في قوله تعالى : ﴿وليتق الله ربه ﴾ في الخيانة وإنكار الحق ، ففي الجمع بينهما تأكيد وتحذير ، ثم أمر الله بالتقوى عند

الوفاء ، وذكر إسم الجلالة مع إمكان الإستغناء ، لإدخال الروح في ضمير السامع وتربية المهابة .⁽¹⁾
النهى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ نهى عن إخفاء الشهادة بالامتناع عن أدائها ، إذا دعيتم إليها ، وهو خطاب للشهود المؤمنين . (فَلَا تَكْتُمُوهَا) فينبغي أن تقرروا بالحق عند المعاملة ، أو لا تحتالوا بإبطال الشهود عليكم "وهذا نهى تحريم ، ألا ترى إلى الوعيد لمن كتمها ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ﴾ والكتم من معاصي القلب وإسناد الفعل إلى الجارحة أبلغ وأكد." ⁽²⁾ وهذه وصاية ثانية للشهداء بالنهي عن كتمان الشهادة كلها ، فكان هذا النهي بعمومه بمنزلة التذليل لأحكام الشهادة في الدين ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ نهى ، وأن مقتضى النهى إفادة التكرار (عند الأصوليين) أي تكرار الانكفاف عن فعل المنهي في أوقات عروض فعله ، ولولا إفادة التكرار لما تحققت معصية ، وإن التكرار الذي يقتضيه النهى تكرار يستغرق الأزمنة ، التي يعرض فيها داع لفعل المنهي عنه ، فكان حقا على الشاهد أن يعلن ، ويبلغ كلما ظهر الداعي إلى الاستظهار به ﴿فَذَلِكَ أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ .⁽³⁾

التحذير: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الجملة الخبرية .

التهديد: أي إن الله عليم بكتمان الشهادة ، وأدائها فيجازيكم ، وتتضمن الصيغة تحذيرا من كتمان الشهادة ، وتهديدا من أن كاتمها مرتكب الإثم ، وفي الجملة توعد شديد لكاتم الشهادة ، لأن علمه بها يترتب عليه المجازاة ، وإن كان لفظ العلم ، يعم الوعد والوعيد .⁽⁴⁾

الإرشاد: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ... ﴾ الآية دالة على مشروعية الرهن في السفر لتعويض الكتابة ، وهو نوع من التوثقة في الدين ، فيؤخذ من الإذن بالرهن أنه مباح ، وعلق

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 3 / 83 .

(2) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 746 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 125 .

(4) - ينظر : أبو حيان . المرجع نفسه . 2 / 749 .

على السفر بمعنى الفرض ، والتقدير وقد أحيلوا على الرهن ، عند الضرورة على معنى الإرشاد والتنبية .⁽¹⁾

التحذير : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا... ﴾ تكميل لطلب الكتابة ، والإشهاد طلب ندب واستحباب ، والكتابة والإشهاد مقصود بهما حسن التعامل ، والأخذ بهما ، وإن اكتفيا بما يعلمانه من أمان بينهما فلهما تركهما ، ويفهم من أنه لم يأمنه لا يدانيه ، ولكنه طوي هذا ترغيبا للناس في المواساة ، والالتسام بالأمانة .⁽²⁾

إن القرآن على الرغم من أنه كتاب دعوة إلى التوحيد والإيمان ، لا نجد فيه أمرا صريحا للناس بالإيمان (أمنوا) إلا في مواضع قليلة جدا وهي (18) موضعا ، فإذا قارنا ضالة تواتر الدعوة الصريحة إلى الإيمان بارتفاع تواتر الدعوة الضمنية إليه ، بواسطة المفهوم اللاقولي ، أدركنا أن الإيمان في القرآن قد وقع التعويل في الدعوة إليه على السبل الضمنية أكثر من السبل الصريحة ، وذلك بنجاعة المحاجة ، ومن ثم فإن ترسيخ العقيدة لم يكن بواسطة الأمر بالإيمان ، وإنما تم بواسطة الإيحاء بوجوبه بترك المتلقي يتمعن في الجزء الضمني فيكون ذلك ألزم له بالحجة .⁽³⁾ والأمر نفسه يمكن أن يقال في النهي عن الشرك ، في ضيغة (لا تشركوا) . ويمكن استخلاص ملاحظتين اثنتين :

الأولى : قلة ورود الأمر والنهي مطلقا في القرآن المكي ، قياسا إلى القرآن المدني حيث يكثر الأمر والنهي بشكل لافت للإنتباه .

الثانية : فهي أن التوكيد أكثر شيوعا في المكي منه في المدني .

(1) - ينظر : ابن عاشور . المرجع نفسه . 121 / 3 .

(2) - ينظر : نفسه . 124 / 3 .

(3) - ينظر : عبد الله صولة . الحجاج في القرآن . ص 296 .

الفصل الخامس

التعبيريات

المبحث الأول : الدلالة الإفصاحية

المبحث الثاني : فعل الامتنان

المبحث الثالث : أفعال السخط والغضب

المبحث الرابع : أفعال التعجب والتوبيخ

المبحث الخامس : الاعتراف والاعتذار

المبحث السادس : الندم والحسرة

المبحث السابع : الذم والتجهيل

التعابير (البوحيات) Expressives

مفهوم التعابير وأقسامها :

التعابير نوع من أفعال الكلام ، التي تبين ما يشعر به المتكلم ، وغرضها الإنجازي هو : التعبير عن الحالة النفسية تجاه الواقعة التي تعبر عنها القضية ، ويطلب فيه الإخلاص في التعبير عن القضية. "ويمكن أن تتخذ شكل جمل تعبر عن سرور ، أو ألم ، أو فرح ، أو حزن ، أو عمل محبوب ، أو ممقوت".⁽¹⁾ ويشمل هذا الصنف كذلك أفعال الشكر ، والتهنئة ، والاعتذار ، والتعزية ، والترحيب.⁽²⁾ يتطلب البحث في هذا الأمر ، الفصل بين موضوعين مهمين هما الأول : ما يوحى به ظاهر الآيات أنه انفعالات نفسية تصدر عن الذات الإلهية المقدسة . والآخر : الانفعالات التي تصدر عن الإنسان ، وهنا يلزمنا الفصل بين الحالتين ، لأن الله عزوجل ليس كمثله شيء ، ينبغي تنزيهه عن كل فعل يصدر عن البشر ، كالأفعال النفسية مثل : الغضب ، والرضى ، والفرح ، والحزن وغيرها من أفعال تسند إلى الله صراحة ، وبنصوص قرآنية . وقد فسر بعض الدارسين ذلك ، بأن الله خاطب الناس بما يفهمونه ويعلمونه ، وقد قرب إليهم كثيرا من القضايا ، بما اعتادوا على فعله أو التلبس به ، أو ما يشعرون به فينسب إلى نفسه ما يتصفون به من غضب ، ورضى ، وفرح ، لا لكون هذه الصفات مما يتصف بها ، بل على وجه التقريب والإفهام ، وعلى ضوء هذا نفهم المعاني النفسية . يستعمل المتكلم في مقامات خاصة كالرضا ، والغضب ، والحزن أفعالا كلامية غرضها التعبير عن المشاعر . وتنقسم التعابير إلى قسمين : اجتماعية ، ونفسية.⁽³⁾ **التعابير الاجتماعية :** هي التي تتصل بوجودان المتكلم ، لكنها تقتضي مشاركة من المتلقي ، بحيث يلتفت المتكلم إلى حالة المتلقي ، وكون هذا المتلقي مشاركا أساسيا في الموقف التداولي . أما **التعابير النفسية :** فهي تخص وجدان المتكلم وتعبر عن حالته النفسية ، ولا تقتضي بالضرورة مشاركة من المتلقي .⁽⁴⁾

الدلالة الإفصاحية :

يحدد تمام حسان أهم غايات الأداء اللغوي في غايتين : (التعامل – والإفصاح). "أما التعامل فهو استخدام اللغة بقصد التأثير في البيئة الطبيعية أو الاجتماعية المحيطة بالفرد . فيدخل في ذلك البيع والشراء والمخاصمة والتعليم ، والمناقشات وهلم جرا..."⁽⁵⁾ فالدلالات السابقة دلالات تعاملية ، وتختلف عنها الدلالات الإفصاحية وهي التي يقصد بها المتكلم التعبير عن انفعالاته ،

(1) - جورج يول . التداولية . ترجمة : قصي العتاي . ص 90 .

(2) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 80 .

(3) - ينظر : كريم ناصح الخالدي . الخطاب النفسي في القرآن الكريم . ص 242 .

(4) - المرجع نفسه . ص 214 .

(5) - تمام حسان . اللغة العربية معناها ومبناها . ص 238 .

والإفصاح عن مشاعره ، ومن ثم فاللغة هنا وفق مخطط جاكبسون لعملية التواصل اللغوي تركز على المتكلم نفسه ، ووظيفتها انفعالية.⁽¹⁾ وحين يخلص الاستفهام للإفصاح يختفي الطلب ، فالطلب كما يقول السكاكي : "يستدعي مطلوباً لا محالة" وليس هنا مطلوب ، ولا مطلوب منه .

ويقول تمام حسان : "أما الإفصاح فهو استعمال اللغة بقصد التعبير عن موقف نفسي ذاتي ، دون إرادة التأثير في البيئة ، ولا يتحتم في هذه الحالة أن يكون الإسماع مقصوداً ، ومن ذلك اللغو والغناء ، مع عدم قصد الإسماع والتعجب والمدح والذم."⁽²⁾

وما سبق يعني أن عنصر الإرادة يغيب عن الاستفهام الإفصاحي، فلا يكون السائل منتظراً الإجابة ، ومن ثم تغيب بقية العناصر، الممثلة لشروط إجراء الاستفهام على حقيقته⁽³⁾. ويخلص الاستفهام في بعض استعمالاته للتوبيخ ، وذلك حينما لا يراد بالتوبيخ النهي ، ويكون ذلك إذا وقع التوبيخ على فعل قد مضى وانتهى ، فيدل الأسلوب على الذم والتقريع ، ومن المهم هنا أن نلاحظ أن التوبيخ درجات ، فقد يكون عتاباً ولوماً خفيفاً ، وقد يكون ذماً وتشنيعاً ، وذلك بحسب الفعل الموبخ عليه ، وطبيعة العلاقة بين المتخاطبين.⁽⁴⁾ وكثيراً ما يقترن التوبيخ بالتعجب ، كقول إبنة أنس رضي الله عنه ، وقد أخبرها أن امرأة وهبت نفسها للنبي (ص) : (أما تستحي المرأة من أن تهب نفسها ؟) [صحيح البخاري 147/7] . فدلالة التعجب واضحة ، كما أن في الأسلوب ذماً وتشنيعاً على ما فعلته هذه المرأة ، وهذا ما فهمه أنس رضي الله عنه فأجابها : (هي خير منك).⁽⁵⁾ والتعجب انفعال يهز النفس عند حدوث شيء غريب قال الاستربادي : "واعلم أن التعجب انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه ولهذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب ، ولا يجوز التعجب منه تعالى حقيقة ؛ إذ لا يخفى عليه شيء."⁽⁶⁾ والتعجب من الله في القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ [البقرة 28] .

"ونسبة أساليب التعبير عن معنى التعجب إلى الله تعالى لا تعني أنه يتعجب ، أو يتأثر سبحانه وتعالى عن ذلك بل أريد أن ما يحدث للبشر عند قولهم مثل هذه العبارات ، يفسر على سبيل الفهم والتقريب ، ولا يعني أن يحدث فيه مثلما يحدث في النفس البشرية لاختلاف الحالين ، ولكون الله عز وجل يعرف أسباب هذه الأحداث"⁽⁷⁾ و يجتمع التقدير والتعجب كقول عائشة للنبي (ص) ، وقد نهاها عن سب بعض

(1) - حسام قاسم . تحويلات الطلب . ص . 145 .

(2) - تمام حسان . مرجع سابق . ص . 363 .

(3) - ينظر : حسام قاسم . المرجع نفسه . ص . 145 .

(4) - ينظر : نفسه . ص . 147 .

(5) - ينظر : نفسه . ص . 148 .

(6) - الاستربادي . شرح الكافية . 4 / 222 .

(7) - كريم حسين ناصح . الخطاب النفسي في القرآن . ص . 93 .

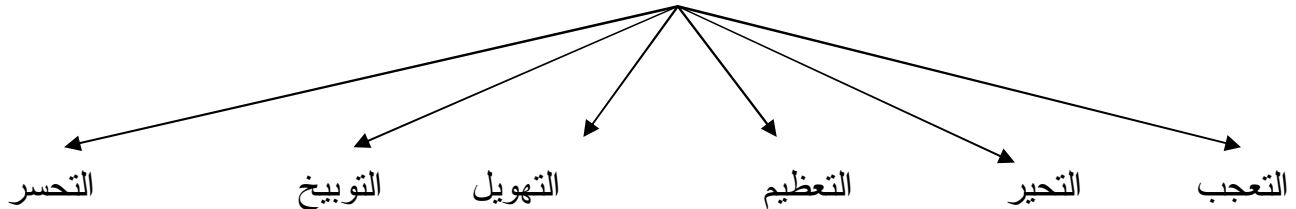
اليهود : (أو لم تسمع ما قالوا؟) [صحيح البخاري 111/5] . وكذلك قول بعض أهل النار لمن كان يعظهم في الدنيا : (أليس كنت تأمرون بالمعروف وتنهى عن المنكر.) [البخاري 295 / 5] . وكذلك يكثر اجتماع التقرير والتوبيخ ، بحيث يستخدم التقرير بغرض التوبيخ ، كقول عمر لحفصة وقد أغضبت النبي (ص) : (أو لم أكن حذرتك؟) [البخاري 4 / 247] . وإن دلالات الاستفهام المجازية تتداخل على نطاق واسع ، ولا تقتصر الدلالات الإفصاحية للاستفهام على دلالاتي التعجب والتوبيخ ، بل تضم دلالات أخرى بحسب قصد المتكلم ، بإظهار حالته النفسية عن طريق الاستفهام ، نحو دلالة التحسر ، ودلالة التحير ، ودلالة التهويل ، كقول ابن عباس : (يوم الخميس ، وما يوم الخميس؟) [البخاري 174/5] متحدثا عن وفاة الرسول (ص) .

والاستفهام التهويلي يكون تواسليا ، في بعض استعمالاته ، وذلك حينما يشفع بإجابة من السائل ، إذ إنه يحمل حينئذ تشويقا للمخاطب ، لسماع الإجابة كقول ابن عباس : (يوم الخميس وما يوم الخميس ؟ اشتد برسول الله وجعه).⁽¹⁾

كانت أكثر حالات الغضب في القرآن الكريم صادرة عن الذات الإلهية ، وقد نسب الله الغضب إلى نفسه معبرا عنه بالغضب أو السخط ، وكثيرا ما يقترن الغضب بالانتقام أو التهديد به ، أو التذكير به مثاله قوله تعالى : ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ [الفتح 6] . وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة 14] . وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ [محمد 27] وقوله تعالى : ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف 25] . وقوله : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف 54] . وقد يربط الإنتقام بما قبله بالفاء الدالة على السبب ، وذلك في آيات كثيرة مثال في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصْمَمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد 23] . وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر 42].⁽²⁾

ويمكن إيضاح الدلالة الإفصاحية للاستفهام في التخطيط التالي .

الدلالة الإفصاحية للاستفهام



(1) - ينظر : حسام قاسم . المرجع نفسه . ص . 154 .

(2) - ينظر : كريم حسين ناصح الخالدي . مرجع سابق . ص . 78 .

فعل التهويل والسخط :

قال تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ تَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْٓءَاذَانِهِمْ مِّنَ

الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝٧٩﴾

المتكلم هو الله عز وجل ، والمخاطبون هم المنافقون . وقد شبه في هذا التمثيل دين الإسلام بالصيب ؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر . وشبه الكفار بالظلمات ، وشبه الوعد والوعيد بالبرق والبرق وشبه ما يصيب الكفرة من فزع بالصواعق .⁽¹⁾ فقد شُبِّهت حيرة المنافقين وشدة الأمر عليهم ، بمن أخذته السماء في الليلة المظلمة ، وسط خوف من الصواعق.

التهويل : وهو فعل كلامي غير مباشر ، وارد في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ... ﴾

وهو يدل على الحيرة وشدة الأمر وفظاعته . ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي ، استعمل السياق التكرير لألفاظ (صيب) ، و (ظلمات) ، و (رعد) و (برق) وذلك لزيادة شدة الغرض الإنجازي ، وإحداث المزيد من التهويل ، فنكر كلمة (صيب) . " لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل ، ونكر (ظلمات) و (رعد) و (برق) ، لأن المراد أنواع منها كأنه قيل : ظلمات داجية ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف." ⁽²⁾

قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۝٨٠﴾

السخط والإبعاد من رحمة الله : ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون... ﴾

" واللعة في اللغة الإبعاد ، وفي عرف الشرع الإبعاد من الثواب." ⁽³⁾ وجاء بـ (أولئك) اسم الإشارة البعيد تنبيها على ذلك الوصف القديم ، وأبرز الخبر في صورة جملتين ، توكيدا وتعريفا وتعظيما ، وأتى بالفعل المضارع المقتضي التجدد لتجدد مقتضيه . وأسند الفعل إلى الله لأنه هو المجازي على ما اجترحوه من الذنب ، وأبرز إسم الجلالة (الله) على سبيل الإلتفات ، ولم يقل (يلعنهم) لأنه في إظهار هذا الإسم من الفخامة ما لا يكون في الضمير .⁽⁴⁾ وأعاد الفعل (يلعنهم) لأنه لعنة اللاعنين بمعنى الدعاء عليهم بالإبعاد عن رحمة الله ، واللاعنون هم كل شيء في الأرض إلا الثقلين الجن والإنس ؛ أي تلعنهم الملائكة والجمادات وقيل يلعنهم المؤمنون . " والتعريف في (اللاعنون) للإستغراق . وهو إستغراق عرفي ؛ أي يلعنهم كل لاعن" ⁽⁵⁾.

(1) - ينظر : الزمخشري . الكشاف . 1 / 79 .

(2) - نفسه . 1 / 82 و 83

(3) - الرازي . مرجع سابق . 2 / 182 .

(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 70 .

(5) - الزجاج . مرجع سابق . 1 / 205 .

التهويل: فعل كلامي غير مباشر، دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ ...﴾ والخطاب للرسول (ص)، يخبره المولى عز وجل عن قدر ما يشاهده الكفار ويعانون من العذاب يوم القيامة، ووراء هذا الخبر قوة إنجازية ضمنية، هي ما تدل عليه الآية من تهويل الخطب، وتفضيع الأمر، فالآية بمعنى، أن الذين ظلموا عاينوا العذاب المعد لهم، وأبصروه يوم القيامة، وقد بالغ في ذلك التهويل بذكر الجملة الثانية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

تعديل القوة الإنجازية:

تعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي (التهويل) استعمل السياق الحذف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ فحذف جواب لو. وهذا كثير في القرآن والتقدير: (ولو يرى الذين ظلموا شدة عذاب الله وقوته لما اتخذوا من دونه أندادا). وهذا الحذف أفخم وأعظم لأن على هذا التقدير يذهب خاطر المخاطب إلى كل ضرب من الوعيد، ومنها أيضا أنه أورد صيغة المستقبل بعد لو ﴿ولو يرى﴾ والأداة إذ ﴿إذ يرى﴾ المختصين بالماضي، لتحقق مدلوله، فيكون ماضيا تأويلا، مستقبلا تحقيقا. (1)

التحذير:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤) فعل كلامي غير مباشر، يحذر المسلمين مما أحدثه اليهود في دينهم، من تحريم بعض ما أحل الله لهم وتحليل بعض ما حرم الله عليهم، وكتمان بعض الأحكام، كما فعلوا في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة، حين دعا النبي (ص) أحد اليهود ليقراً ذلك الحكم من التوراة، فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك، كما أخرجه البخاري في صحيحه. (2) و لجريانه على مناسبة إباحة ما أبيح من المأكولات، جاء قوله هنا ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ لقصد المشاكلة. (3)

الامتنان:

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١٢) المتكلم هنا هو الله عز وجل، يخاطب الناس أجمعين، ويذكرهم بعظيم صنعه، وبدائع خلقه وإيجاده مصادر الرزق وهو خالق الثمرات، ما دل أنه منفرد بالإيجاد، مستحق أن يعبد دون غيره، ثم نهى

(1) - ينظر: الرازي. مرجع سابق. 2 / 230.

(2) - البخاري. صحيح البخاري. كتاب الحدود.

(3) - ينظر: ابن عاشور. مرجع سابق. 2 / 122.

أن يجعل له ندا .⁽¹⁾ والفعل الكلامي المتضمن في القول هو الامتتان ، فقد امتن الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم من النعم التي ذكرها . وقد "بدأ بذكر الإنعامات العامة لكل البشر ، أعقبها بذكر الإنعامات الخاصة على أسلاف اليهود كسرا لعنادهم ولجأهم ، بتذكر النعم السالفة ، واستمالة لقلوبهم بسببها."⁽²⁾ واعلم أنه سبحانه ذكرهم تلك النعم أولا ، على سبيل الاحتمال فقال : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم...وأني فضلتكم على العالمين﴾ ويتخلل ذكر هذه النعم ، الأمر بالإيمان بمحمد (ص) ، ثم شرع بعد ذلك في تعديد تلك النعم على سبيل التفصيل .⁽³⁾ ليكون أبلغ في التذكير ، وأعظم في الحجة .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكَ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

-في هذا السياق يمتن الله عليهم بتخليصهم مما كانوا فيه من البلاء ، من فرعون وقومه . وهذا هو الإنعام الثاني.

- قال تعالى : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .. وهذا هو الإنعام الثالث والمقصود من هذه الآيات تعديد النعم التي أنعم الله تعالى عليهم .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ . هو الإنعام الرابع .

وقوله تعالى : ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ هو الإنعام الخامس .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهو الإنعام السادس .

وقوله تعالى : ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْكَ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالْهُلَّى﴾ وهو الإنعام السابع ، والغرض هو تعريف النعم التي خصهم الله تعالى بها .

وفي قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا رَغَدًا﴾ . وهذا هو الإنعام الثامن ، وهذه الآية معطوفة على النعم المتقدمة ، في معرض الامتتان بما أنعم الله عليهم ، من نعم دنيوية ودينية .

وقوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ وهذا هو الإنعام التاسع ، من الإنعامات المعدودة على بني إسرائيل وهو جامع لنعم الدنيا والدين .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذا هو الإنعام العاشر .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 1 / 276 .

(2) - الرازي . التفسير الكبير . 2 / 30 .

(3) - ينظر : المرجع نفسه . 2 / 30 .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي قتلتم نفسا ، واختلقتم وتنازعتم فإني مظهر لكم القاتل ، الذي سترتموه ، وهذه منة من الله تعالى على بني إسرائيل .
قال تعالى :

وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٧٧﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾

الامتنان : وهو فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ فالصيغة الخبرية ، تدل على أن ما خلقه الله هو آيات للذين يعقلون . أما المعاني الضمنية ، التي يعبر عنها المتكلم فهي : **الامتنان والتذكير** . فهو يذكر عباده ويمتن عليهم ، بما خلق وسخر لهم ، من خلق السموات والأرض ، ومن اختلاف الليل والنهار ، وجريان الفلك ، وإنزال المطر ، وإحياء الأرض ، وتصريف الرياح ، وتحريك السحب .

فقد قرر الله في هذه الآية دلائل كلها واضحة ، تبين تفضل الله على عباده وتذكرهم بنعمه عليهم .
"وروي أنه لما نزل ﴿وَالْهَكْمُ...﴾ قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ؟ فنزل : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾" (1) ولتدعيم القوة الإنجازية للفعل الكلامي (الامتنان) استخدم السياق القرآني التعبير عن حركة الليل والنهار ، وما بينهما من ضياء وظلمة بلفظة (اختلاف) وفي هذا الاختيار سر بديع يدركه العقلاء ، وفي قوله تعالى : وما أنزل الله معطوف على الأسماء قبله جيء به إسم موصول ليأتي عطف صلة على صلة فتبقى الجملة بمقصد العبرة والنعمة ؛ لأن في الصلة من استحضار الحالة ما ليس في نحو كلمة المطر والغيث ، وكذلك في إسناد الإنزال إلى الله ، لأنه الذي أوجد أسباب نزول الماء ، وأما كلمة (كل) فقد دلت على أن المراد جميع أنواع الدواب ، فانتفى أن يراد من الدابة خصوص ذوات الأربع ، وقد أختير لفظ (تصريف) الرياح دون لفظ التبديل ، أو الاختلاف مثلا لأنه اللفظ الذي يصلح معناه ، لوصف حال الرياح ، لأن (التصريف) تفعيل ، من الصرف للمبالغة (2) وفي كل هذه المؤشرات ، تقوية لإنجازية الفعل الكلامي ، وتبليغ هذه المضامين وما فيها من عبرة ومنة .

(1) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 77 .
(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 82 .

قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ... ﴾ (١)

الامتنان : أي الأمر بمقابلة النعمة بالشكر، والقيام بحقوقها ، وهي نعمة عامة ، وأما الخاصة فهي معطوفة في قوله تعالى : ﴿وما أنزل عليكم ﴾ عطف الخاص على العام ، حيث خص بالذكر الإسلام ونبوة محمد (ص) ليناسب ما سبقه ، وليبين لهم أن ما كانوا عليه من الإمساك إضرار ، من سنن الجاهلية ففي الآية أمرهم بذكر نعمته ، تنبيهها على أن من أنعم عليك ، يجب أن يأخذ ما يلقي الله بالقبول ، ليكون ذلك شكرا لنعمته . (1)

الامتنان : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ : فهدى الله الذين آمنوا بتوفيقه ، فإنه تعالى لما وصف حال أهل الكتاب ، وأنهم بعد كمال البينات أصروا على الكفر والجهل ، بسبب البغي والحسد ، بين أن حال هذه الأمة ، بخلاف حال أولئك فإن الله عصمهم عن الزلل ، وهداهم إلى الحق في الأشياء ، التي اختلف فيها أهل الكتاب ، فامتن الله على عباده المؤمنين بهدايتهم إلى الحق في مسائل : الجمعة ، القبلة ، الصلاة ، الصيام ، إبراهيم ، عيسى فهدى الله أمة محمد إلى الحق من ذلك . (2)

قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

حَلِيمٌ ﴾ (٣)

الامتنان : فعل كلامي تدل عليه جملة التذييل ﴿والله غفور حلیم﴾ وفائدته الامتنان على المؤمنين وشمول الإحسان لهم . والحليم هو الذي يمهل بتأخير العقاب . (3) فقد جاءت هاتان الصفتان تدلان على توسعة الله على عباده ، حيث لم يؤاخذهم باللغو في الأيمان . وفي تعقيب الآية بهما إشعار بالغفران . والحلم ، عمن أوعده الله تعالى بالمؤاخذه ، وإطماع في سعة رحمته ، لأن من وصف نفسه بكثرة الغفران ، والصفح مطموع فيما وصف به نفسه ، فهذا الوعيد الذي ذكره تعالى مقيد بالمشيئة كسائر وعيده تعالى . (4) "واقترن وصف (الغفور) بـ(الحليم) هنا دون الرحيم ، لأن هذه مغفرة لذنب هو من قبيل التقصير في الأدب مع الله تعالى ، لذلك وصف نفسه بالحليم ، لأن الحليم هو الذي لا يستغفره التقصير في جانبه ، ولا يغضب للغفلة ويقبل المعذرة." (5)

(1) - ينظر : أبو حيان الأندلسي . مرجع سابق . 511 / 2 .

(2) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 17 / 3 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 720 / 2 .

(4) - ينظر : أبو حيان الأندلسي . المرجع نفسه . 445 / 2 .

(5) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 384 / 2 .

قال تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ ٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ٢٣٩

الامتنان : ﴿ فإذا أمنتُم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾

أمر أن تؤدي الصلاة على حالها الأول ، مع إتمام شروطها إذا أمن الخوف ، وأن يؤديها على الحالة التي علمه الله في أدائها قبل الخوف ، ومعنى الامتنان في قوله تعالى : ﴿ فاذكروا الله... ﴾ " قيل معناه اشكروه على هذه النعمة ، في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بها الإجزاء ... فالكاف في قوله (كما) بمعنى الشكر ، تقول افعل بي ، كما فعلت بك كذا مكافأة وشكرا. "(1) فهذا وجه الامتنان .

التعجب

قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ ٢٨

قال الزجاج : "وتأويل (كيف) استفهام في معنى التعجب ، إنما هو للخلق وللمؤمنين ؛ أي اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون وقد ثبتت حجة الله عليهم. "(2)

وصيغ التعجب في القرآن متنوعة ، فقد عبر عن هذا المعنى بدلالات منها : دلالة الألفاظ مثل : عجب ، سبحان ، ياويلتا ، يأسفا ، يا حسرة ، يا بشرى ، كيف ، من ، ألكم ، ألم ترى ، أرأيت ، أو لم يروا . والاستفهام هنا يتضمن دلالة إفصاحية هي : التعجب وهو من قبيل التعبيرات الإجتماعية ، وهي التي تتصل بوجودان المتكلم ، التي تقتضي مشاركة المتلقي ، بحيث يلتفت المتكلم إلى حالة المتلقي ، لكونه مشاركاً أساسياً في الموقف التداولي . وينعدم اتجاه المطابقة . ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي كما يلي

المعنى الصريح . الاستفهام . فعل كلامي مباشر .

﴿ كيف تكفرون بالله... ﴾

المعنى المستلزم . هو التعجب . فعل كلامي غير مباشر .

فلما خلاص الاستفهام إلى الإفصاح بالمعنى التعجيبى اختفى الطلب ؛ بمعنى أن عنصر الإرادة يغيب عن الاستفهام الإفصاحي ، بحيث لا يكون السائل منتظراً الإجابة . (3) ومن ثم تغيب بقية العناصر الممثلة لشروط إجراء الاستفهام على حقيقته ، ومن ثم فإن الفعل الكلامي التعجب يفتقر إلى شروط الملاءمة ؛ لأن المتكلم لا يطلب فعلاً في المستقبل .

(1) - بنظر : القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 3 / 147 .

(2) - الزجاج . معاني القرآن وإعرابه . 1 / 100 .

(3) - بنظر : حسام قاسم . مرجع سابق . ص 145 .

قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ط ﴾

جاءت الآية في سياق الإخبار ،الذي يراد به التعجب، فالملائكة تتعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها "ككيف يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية"⁽¹⁾ فالغرض الإنجازي من هذا الفعل التعبيري هو التعبير عن الموقف النفسي حيال الواقعة ، التي تعبر عنها القضية. والتعجب جاء على لسان الملائكة ، فهم يسألون كيف يستخلف بنو آدم لعمارة الأرض ؟ فالاستفهام يتضمن دلالة إفصاحية . ويقسم تمام حسان الجمل الإنشائية إلى طلبية وإفصاحية . فالطلبية منها : الإستفهام ،والأمر، والنداء... الخ . والإفصاحية كالمَدح ، والذم ، والتعجب.⁽²⁾

والإفصاح هنا من قبيل التعبيرات الإجتماعية ، وهي التي تتصل بوجودان المتكلم ،وتقتضي مشاركة المتلقي . " فاللغة هنا وفق مخطط جاكبسون لعملية التواصل اللغوي ، تركز على المتكلم نفسه ، ووظيفتها إنفعالية فحين يخلص الاستفهام للإفصاح يختفي الطلب ؛ يعني أن عنصر الإرادة يغيب عن الاستفهام الإفصاحي ، فلا يكون السائل منتظرا الإجابة."⁽³⁾ ونوضح ذلك فيما يلي :

المعنى الصريح : إخبار .

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾

المعنى الضمني : استفهام يراد به التعجب.

فالقوة الإنجازية هي التعجب ، وهو المعنى المستلزم مقاميا ، وهو فعل كلامي غير مباشر ، يفتقر إلى شروط الملاءمة ؛ لأن الملائكة لا يطلبون فعلا في المستقبل ، كما أنه يفتقر إلى الشرط التمهيدي ، لأن الملائكة لا يتوجهون إلى المخاطب بفعل طلبي ، وهو أيضا يفتقر لعنصر التأثير ، لأن المتكلم يعبر عن مشاعره الداخلية فقط ومن ثم فإن اتجاه المطابقة اتجاه فارغ ، لأن المتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي ، وهذا من مقتضيات المقام ، وعبر القرآن عن معنى التعجب بأداة الإستفهام الهمزة (أتجعل) للتقرير والإثبات وليست إستفهاما إنكاريا بمعنى ؛ إنك تجعل . قال الزجاج : "وتأويل استخبارهم هذا على جهة الاستعلام ، وجهة الحكمة ، لا على جهة الإنكار ، فكأنهم قالوا : يا الله إن كان هذا ظننا فعرفنا وجه الحق فيه."⁽⁴⁾

الاعتراف :

قال تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ط ﴾

الكلام على لسان الملائكة ، يعبرون فيه عن حالتهم النفسية ، وما يشعرون به من عجز عن معرفة الأسماء . هذا الشعور بالعجز قادهم إلى البوح بفعل كلامي هو الاعتراف . وهو الفعل الكلامي الذي يطلب فيه الإخلاص في التعبير عن القضية . وفي ذلك الإفصاح يختفي الطلب ، إذ ليس هنا مطلوب ولا مطلوب منه .

(1) - الزمخشري . الكشاف . 125 / 1

(2) - ينظر : تمام حسان . اللغة العربية معناها ومبناها . ص 124 .

(3) - حسام قاسم . تحويلات الطلب . ص 145 .

(4) - الزجاج . معاني القرآن وإعرابه . 102/ 1 .

ونوضح بنية الفعل الكلامي فيما يلي :

الجواب . قوة إنجازية حرفية ، فعل كلامي مباشر .

﴿قالوا سبحانك لا علم...﴾

الاعتراف . قوة إنجازية مستلزمة ، فعل كلامي غير مباشر

والغرض الإنجازي هو فعل كلامي متضمن في القول ، بحيث تضمن الجواب اعتراف الملائكة بالعجز عن أمر الخلافة ، والقصور عن فهم الأسماء ، ودعموا ذلك الاعتراف بفعل التوكيد (إنك أنت العزيز الحكيم) وهو جملة تذييلية ، تؤكد مضمون الجملة السابقة ، فلما نفوا العلم عن أنفسهم ، أثبتوه الله تعالى على أكمل وجه، والضمير (أنت) عنصر مدعم للقوة الإنجازية (الاعتراف) يفيد تأكيد الحكم . ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي استخدمت لفظة (سبحانك) الدالة على التنزيه والتعظيم . واستخدم كذلك أسلوب القصر (لا - إلا) ينفون به أي علم إلا الذي علمهم الله إياه ، وهنا صميم الاعتراف .

الاعتذار :

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ

الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾

إعتذار كاذب في قوله تعالى : ﴿نؤمن بما أنزل علينا﴾ ستروا به حسدهم ، نزول الوحي على رجل من غيرهم ، فقد قدم حجة مبطلا أن يكون ذلك العذر هو الصارف لهم عن الإيمان ، مع إثبات أن الصارف لهم هو الحسد.⁽¹⁾ فاعتذارهم . إكتفاء بالإيمان بما أنزل على موسى . وهروب من الإيمان بما أنزل على محمد (ص) . والفعل الكلامي الاعتذاري يعد من الأفعال الكلامية التعبيرية ، وهو يفتقر إلى شروط الملاءمة ، فهو لا يتضمن فعلا مطلوباً في المستقبل . كما يفتقر إلى الشرط التمهيدي ، لأن المتكلم وهم اليهود لا يتوجهون إلى المخاطب بفعل طلبى ، كما يفتقر إلى الشرط الأساسي لافتقاره لعنصر التأثير ، فهو يعبر عن المشاعر الداخلية فقط . ومن ثم فإن اتجاه المطابقة ، اتجاه فارغ . وغرض المتكلم الإنجازي هو التعبير عن الحالة النفسية المتعلقة بوجودان المتكلم ، ولا تقتضي بالضرورة مشاركة من المتلقين . لأنه لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي ، وطبع اليهود الراسخ في سلوكهم هو انغلاقهم على معتقدتهم الباطل ، وحسدهم للمؤمنين ، أن ينزل عليهم خير من ربهم وهو الحق ، ولذلك بكتهم الله بالحجة في قوله : ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فهذه الوظيفة الحجاجية تبطل اعتذارهم الكاذب . ويمكن اعتبار هذا الفعل الكلامي الاعتذاري فعلا غير ناجح ، بأن هذا اعتذار كاذب ستر اليهود به حسدهم نزول الوحي على رجل من

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . 1 / 619 .

غيرهم . وأن السياق القرآني أبطل عذرهم بحجة قاطعة كما أن الشروط المعدة للالزام تحققها ليكون الفعل صحيحا غير مكتملة . " فيكون الاعتذار فاسدا ، إذا لم يكن الأمر المتعذر عنه سيئا ."(1) فاليهود اعتذروا عن الإيمان بالقرآن وهذا أمر لا يتعذر منه . ولاحظ سيرل وفاندرفنك انتفاء شرط الصراحة عن بعض الأفعال ، لأن المتكلم من الممكن أن يعبر عن حالة نفسية لا ينطوي عليها ، وهذا هو سبيل التمييز بين الفعل الكلامي الصريح وغير الصريح . فالثاني يعبر عن حالة نفسية رغم عدم إنطوائه عليها واقعا . فهذا الاعتذار هو إخبار غير صريح (كذب) هو الذي لا يعتقد قائله بمضمونه ؛ فاليهود هنا يخالف قولهم مضمونه ، ولذلك جاء فعل التبكيت يكشف هذا الفساد بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ "والفعل الكلامي غير الصريح فاسد ، لكنه غير باطل"(2) فالهدف إذن من هذا الفعل هو : "التعبير عن حالة نفسية محددة بشرط عقد النية والصدق في محتوى الخطاب عن تلك الأمور المحددة."(3)

التمني :

قال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ

أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

المتكلم هو الله عز وجل ، والمخاطب هو الرسول (ص) حيث يخبر عن صفات بني إسرائيل ومن جملة أخبارهم أنهم حريصون على الحياة وأنهم يتمنون الحياة الطويلة ، ولا يتمنون الموت لسوء ما قدموا ، ولكن ذلك لا يعفيهم من العذاب . إن المقام الذي يدور فيه الخطاب يقتضي إنجاز مجموعة من الأفعال الكلامية غير المباشرة وقد استهل هذا الموقف الكلامي ، بفعل الإخبار (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) وهي جملة معطوفة على ما قبلها في قوله تعالى : (ولن يتمنوه أبدا) والغرض من الخبر تحقيق فعل إنجازي متضمن في القول هو : التوبيخ والتقريع . بسبب شدة حرصهم على الحياة ، وقد استحقوا التوبيخ لأنهم أشد حرصا على الحياة من المشركين . بالرغم من عدم إيمانهم بالمعاد " فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليهم اليهود في الحرص وهم أهل الكتاب كان حقيقا بأعظم التوبيخ."(4) إنه حرص شديد على الحياة ، ولو كانت ذميمة ولتدعيم القوة الإنجازية لفعل التوبيخ نكر الحياة (حياة) " قصدا للتنويع أي كيفما كانت تلك الحياة " (5)

(1) - هاشم طبطباي . نظرية أفعال الكلام . ص 20 .

(2) - المرجع نفسه . ص 22 .

(3) - عبد الهادي بن ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 158 .

(4) - الرازي . التفسير الكبير . ص 208 / 2 .

(5) - ابن عاشور . مرجع سابق ص 617/1 .

ويقول الألوسي : " ويجوز أن يكون التذكير للإيهام ، أي حياة غير معلومة المقدار ، واللام في (لتجدنهم) لإفادة المبالغة في حرصهم ، والزيادة في توبيخهم وتقريعهم ، والتتوين في (حياة) للتعظيم ، ويجوز أن يكون للتحقير فإن الحياة الأخروية هي الحياة الحقيقية " (1)

عدم توفر شروط الملاءمة :

انتقل السياق إلى مزيد من الأخبار ، والتوضيح لمواقف بني إسرائيل ، مخبرا عما يتمنونه من عمر طويل (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) وراء هذا الأخبار فعل كلامي متضمن في القول هو: التمني . فهم يودون لو تطول أعمارهم ، لكن ذلك متعذر . " وعبروا عن فعل التمني بقوله : (يود) وهو وإن لم يكن قولا ولا في معناه ، لكنه فعل قلبي يصدر عن الأقوال ، فعمول معاملتها وكان أصله (لو أعمر) ، إلا أنه أورد بلفظ الغيبة لأجل مناسبة (يود) فإنه غائب كما يقال : حلف ليفعلن - مقام لأفعلن ... فحذف فعل التمني لدلالة لو عليه . " (2) وألف سنة يراد بها الكثير ، ليشمل من يود أن لا يموت أبدا . والفعل الكلامي (التمني) يعد من الأفعال الكلامية التعبيرية ، لأنه يفتر إلى شروط الملاءمة بتعبير سيرل . فلا يتضمن فعلا مطلوبا في المستقبل ، كما هو شرط المحتوى القضوي . كما يفتر إلى الشرط التمهيدي ، لأن المتكلم لا يتوجه إلى المخاطب بفعل طلب . وهو أيضا يخلو من شرط الإخلاص ، لأنه لا يريد من المخاطب أن ينجز شيئا ، كما يفتر إلى الشرط الأساسي لافتقاره لعنصر التأثير ، فهو يعبر عن مشاعره الداخلية فقط . والأفعال التعبيرية "هدفها التعبير عن حالة نفسية محددة بشرط عقد النية ، والصدق في محتوى الخطاب عن تلك الأمور المحددة . " (3) وإن هدفها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي حيال الواقعة التي تعبر عنها القضية . إذ ليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة . فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي ، ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات ، وهذا ما يسميه (سيرل) الاتجاه الفارغ . (4) فغرض المتكلم الإنجازي هو : التعبير عن الحالة النفسية القلقة الخائفة ، التي لا تتمنى الموت ، ولكن تتمنى أن تعمر ألف سنة . فقد كشف المتكلمون عن موقف انفعالي ، أفصحوا فيه عن مشاعرهم الخاصة . فبذلك بين السياق "بعدهم عن تمني الموت ، من حيث أنهم يتمنون هذا البقاء ، ويحرصون عليه هذا الحرص الشديد ، ومن هذا حاله كيف يتصور منه تمني الموت؟" (5) وبهذه الحجة القاطعة يبطل دعوى اليهود . وتنتقل فيما يلي إلى فعل كلامي آخر هو: النفي الوارد في قوله (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) والمعنى : ما أحدهم يزحزحه من العذاب تعميرة ؛ لا يؤثر

(1) - الألوسي . مرجع سابق . ص 2 / 458 .

(2) - المرجع نفسه . 2 / 458 .

(3) - ظافر الشهري . استراتيجيات الخطاب . ص 158 .

(4) - Voir : J. Searle . Speech Acts . p 20 .

(5) - تفسير الرازي . مرجع سابق . ص 209 / 2 .

التعمير في إزالة العذاب عن هؤلاء المخبر عنهم من بني إسرائيل ، والغرض من هذا النفي هو المبالغة ، وهذا فعل كلامي مباشر ، ويختتم هذا الموقف بفعل كلامي إخباري في قوله تعالى : (والله بصير بما يعملون) والبصير هنا بمعنى العليم " وهو خبر مستعمل في التهديد والتوبيخ ، لأن التقدير إذا علم بما يجترحه الذي يعصيه ، وأعلمه بأنه علم منه ذلك ، علم أن العقاب نازل به لا محالة . "(1)

الذم: قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾

يخبر أنهم لما جاءهم رسول الله (ص) مصدقا لما معهم نبذوا كتابه بعله أنهم متمسكون بالتوراة ، ولكنهم اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وهو مخالف للتوراة .

الذم: وهذه الآيات هي من قبيل عطف القصة على القصة ، وفيها اعتراض على كفر سليمان ، وتبرئته مما نسب إليه اليهود من كفر ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، فقد جاء الذم لمن يتعلم السحر للإغواء والإضلال . فجملة الفعل الكلامي هي ما تحمله الدلالة المباشرة من قوة إنجازية حرفية ، وهي : الإخبار عن الوقائع التاريخية ، فهي القوة المدركة مقاليا . فالجملة تخبر عن بني إسرائيل وإتباعهم للأفعال الذميمة ، غير أن المنجز للآية في السياق القرآني ينجز فعلا لغويا متضمنا في القول ، يتمثل في المعنى المشتق من المعنى الأصلي (الإخبار) . فالقوة الإنجازية هنا وهي (الذم) مدركة مقاميا تستلزمها الجملة من خلال السياقات ، لا قرائن بنيوية تدل عليها في صورة الجملة .

ويستدل عليها بقرائن بنيوية هي مجموعة الأفعال الماضية مثل : (اتبعوا ، كفر ، كفروا ، أنزل) . والفعل الكلامي غير المباشر الذم الذي ينتمي إلى التعبيرات النفسية حسب تصنيف (سيرل) وهي الأفعال التي يعبر فيها المتكلم عن حالته النفسية تجاه أشياء محددة . وينعدم فيها اتجاه المطابقة " وإن عدم وجود اتجاه المطابقة في التعبيرات من أهم العلامات المميزة للتعبيرات " (2) والذم في هذا السياق القرآني جاء نتيجة ارتكاب النهي " والتعليم المساق للذم هنا محمول على التعليم

للإغواء والإضلال . "(3) والفعل التأثيري يستمد قوته من الخطاب الإلهي ، الذي يجعل الأفعال الكلامية متحققة لا محالة ، وذلك بالاعتماد على شروط سابقة .

(1) - ابن عاشور . مرجع سابق . ص 619 / 1 .

(2) - علي محمود الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 213 .

(3) - الألوسي . مرجع سابق . ص 470 / 1 .

الندم / الحسرة : قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّنَا كَرَّاهُ فَنَتَّبِعُ اللَّهَ مِمَّا نَكْذِبُ ۖ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ﴿١٧٧﴾
فقد عبر الأتباع عن الندم والحسرة ، جراء اتباعهم الظالمين والكفرة ، فقد تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا بعدما علموا الحقيقة .

العجز والخوف : في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ﴿١٨١﴾

الضجر : في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ ﴿١٨٦﴾ فقد عبر اليهود عن ضجرهم ، وكراهيتهم للطعام الواحد .
المكابرة والقسوة :

قال تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾
فقد عبر اليهود عن القسوة والمكابرة وغمط الحق ، في قوله تعالى حكاية عنهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ كما عبروا عن العصيان والتمرد في قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ولهذا جاء فعل الذم مناسباً لهم بعد هذه السلوكات المنحرفة عن نهج الحق ، فقال تعالى : ﴿قُلْ بئسما بآمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ .

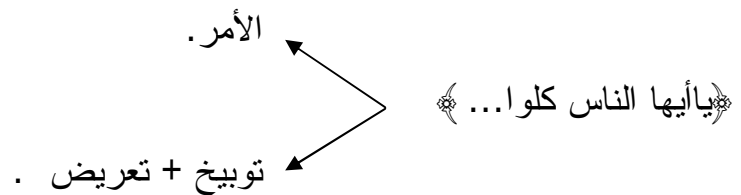
التعجب : قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾

فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾
فالقوة الإنجازية الحرفية للصيغة الخبرية تبين أن قوما لم يهتدوا مع قيام الدلائل الواضحة ، واتخذوا لأنفسهم شركاء . ووراء القوة الإنجازية الحرفية قوة إنجازية مستلزمة مدركة مقامياً هي التعجب من هؤلاء الذين يتخذون من دون الله أنداداً . مع قيام تلك الدلائل الواضحة . "وعطفه على ذكر دلائل الوجدانية وتقديم الخبر ، وكون الخبر من الناس مؤذن بأنه تعجب من شأنهم ، فكيف يسوون بين الله والأنداد في محبتهم ، ومن ثم فهو ينكر محبتهم الأنداد من أصلها".⁽¹⁾ وجملة (والذين آمنوا أشد حبا لله) معترضة والغرض منها : التنويه بشأن الذين آمنوا ، بأن حبهم لله صار أشد من حبهم الأنداد ، التي كانوا يعبدونها .⁽²⁾

قال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٨٨﴾

(1) - الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 78 .
(2) - ينظر : الكشف . مرجع سابق . 1 / 212 .

التوبيخ: فعل كلامي غير مباشر يتضمن الرد على من حرم بعض الحلالات كاليهود . والأمر في قوله: ﴿كلوا﴾ مستعمل في التوبيخ على ترك ذلك ، وليس للوجوب ولا للإباحة ، إذ ليس الكفار بأهل للخطاب بفروع الشريعة ، فقله : ﴿كلوا﴾ تمهيد بعده لقوله تعالى : ﴿ولا تتبعوا...﴾ (1).
 التعريض: ﴿حلالا طيبا﴾ فعل كلامي غير مباشر تعريض بتحقيقهم فيما أعتوا به أنفسهم ، فحرموها من نعم طيبة افتراء على الله ، وفيه إيماء إلى علة إباحته في الإسلام ، وتعليم للمسلمين بأوصاف الأفعال التي هي مناط الحل والتحريم ، والمقصود إبطال ما اختلقوه من منع أكل البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة والحامي (2). حلالا و طيبا : حالان . الأول : لبيان الحكم الشرعي . والثاني : لبيان علته ، لأن الطيب من شأنه أن تقصده النفوس للإنتفاع به .



التحذير: فعل كلامي غير مباشر ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ مبين الخطاب لجميع الناس . ففيه تحذير من اتباع أمر الشيطان . ولا طلب منه للفعل منا وليس إلا التزيين ، فالأمر بمعنى التزيين والوسوسة (3). وتحذير آخر في قوله تعالى: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ فإن الشيطان يأمركم بأن تفتروا على الله الكذب ، بأنه حرم هذا وأحل هذا ، وهنا تحذير عن القول ، ففيه المنع من اتباع الظن . " ولك أن تجعل جملة (إنما يأمركم) تمثيلية بتشبيه حاله وحالهم في التسويل والوسوسة وفي تلقينهم ما يوسوس لهم بحال الأمر والمأمور . ويكون لفظ يأمر مستعملا في حقيقته مفيدا مع ذلك الرمز إلى أنهم لا إرادة لهم وفي هذا زيادة تشنيع لحالهم وإثارة للعداوة بين الشيطان وبينهم (4).

التعجب: فعل كلامي غير مباشر . فإن الله يدعو إلى التعجب من أولئك المخاطبين الذين لا يتبعون ما أنزل الله و يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان آبائهم على ضلال فهو ينكر عليهم اتباع أسلافهم . والهمزة لإنكار مضمون تلك الجملة وهو التزامهم بالاتباع . " وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر (5) والمراد بالإنكار الرد والتخطئة لا الإنكار بمعنى النفي . والمثل هو في تشبيه حالهم عند سماع دعوة النبي (ص) إياهم إلى الإسلام بحال الأنعام عند سماع دعوة من ينطق بها في أنهم لا يفهمون (6) " ضرب الله عز وجل لهم هذا المثل وشبههم بالغنم المنعوق بها بما لا يسمع منه إلا

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 101 .

(2) - ينظر : نفسه . 2 / 102 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 599 .

(4) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 104 .

(5) - القرطبي . مرجع سابق . 2 / 142 .

(6) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير . / 112 .

الصوت ؛ فالمعنى مثلك يا محمد ومثلهم كمثل الناقع والمنعوق به بما لا يسمع لأن سماعهم ما كان ينفعهم فكانوا في شركهم وعدم قبول ما يسمعون بمنزلة من لا يسمع والعرب تقول لمن يسمع ولا يعمل بما يسمع أصم... ووصفهم بالعمى لأنهم في تركهم ما يبصرون من الهداية بمنزلة العمى.⁽¹⁾ والتشبيه من الأساليب التي وافق القرآن بها، أساليب العرب في كلامهم ، وهو من الاتساع في العربية ، ففي الآية أن الكفار لم يشبهوا بما ينطق ، وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به . فجاء التشبيه بمعنى "متكلم ومثل الذين كفروا، كمثل الناقع والمنعوق به ،الذي لا يسمع ، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز، لعلم المخاطب بالمعنى".⁽²⁾

قال تعالى : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢١٣﴾

الذم : فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات﴾ بين السياق حقيقة أخرى من أحوال اختلاف الأمم ، وهو الاختلاف بين أهل الكتاب بعضهم مع بعض وبين أهل الكتاب الواحد مع تلقينهم ديناً واحداً . وقد ذم القرآن أولئك الذين اختلفوا بعد نزول الكتب ، حيث عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل ليزيح الاختلاف ، سبباً لاستحكام الخلاف ، وهم أرباب العلم وخصم بالذكر ﴿الذين أوتوه﴾ تنبيهاً منه على شناعة فعلهم ، ولأن غيرهم تبع لهم في الاختلاف ، فهم أصل الشر ، وأن الحامل على الاختلاف هو البغي : ﴿بغيا بينهم﴾.⁽³⁾

التحذير : والمقصود من هذا بيان عجيب لحال البشر في تسرعهم إلى الضلال . وهي حقيقة تاريخية من تاريخ الشرائع وتحذير المسلمين من الوقوع في مثل ذلك .⁽⁴⁾ من الاختلاف في الدين أي في أصول الإسلام.

التعريض : "وفي الآيات تعريض بأهل الكتاب ، وهم أشهر أهل الشرائع يومئذ ، فيما صنعوا بكتبهم من الاختلاف فيها ، وهذا من بدیع القرآن في توبيخ أهل الكتاب ، وخاصة اليهود . وهي طريقة عربية بليغة".⁽⁵⁾

الاستبطاء : قال تعالى : ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ...﴾

(1) - الزجاج . معاني القرآن وإعراجه . 1 / 210 .

(2) - منثى نعيم حمادي . الجهود البلاغية لابن الجوزي . ص 89 . ط 1 / 2005 . مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .

(3) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 366 .

(4) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 308 - 311 .

(5) - نفسه . 2 / 309 .

لما اشتد عليهم البلاء ، اضطروا إلى طلب نصر الله ، وتمنيه استتالة لمدة الشدة .

الذم / الإنحاء : قال تعالى : ﴿ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١)

إنحاء على المشركين وإظهار لظلمهم ، بعد أن بكتهم بتقرير حرمة الأشهر الحرم ، الوارد في قوله تعالى : ﴿ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ من أن ما وقع من أهل السرية من قتل رجل فيه كان عن خطأ في الشهر ، أو ظن سقوط الحرمة بالنسبة لقتال العدو ، فإن المشركين استعظموا فعلا ، وهم يأتون ما هو أفضح منه مثل صد المسلمين ، والكفر بالله ، وإخراج أهل الحرم منه وإيذائهم ، فهذه الأفعال أكبر إثما عند الله من إثم القتال في الشهر الحرام . (١)

قال تعالى : ﴿...وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) **أُولَئِكَ الَّذِينَ** **أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** ﴿ (٣)

الغضب : في قوله تعالى : ﴿ لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ نفي ، كناية عن الغضب ، فالمراد نفي كلام التكريم **الذم / التوبيخ :** ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي لا يثني عليهم في ذلك المجمع . وذلك إشعار لهم بأنهم صائرون إلى العذاب "لأنه إذا نفيت التزكية أعقبها الذم والتوبيخ فهو كناية عن ذمهم في ذلك الجمع إذ ليس يومئذ سكوت" . (٢)

التعجب : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أي ما أشد صبرهم . "أي هؤلاء يجب أن يتعجب منهم ، لإرتكابهم ما يوجب النار من غير مبالاة ، وإنما لا يوصف الله تعالى بالتعجب ، لأن التعجب استعظام يصحبه الجهل وهو سبحانه منزّه عن ذلك" . (٣)

الذم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ... ﴾ وقد بالغ الله في ذمهم ؛ لأنهم آثروا الضلال على الهدى ، والعذاب على النعيم .

المدح : قال تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ ... ﴾ (٤) **﴿ إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾** فقد مدح الله المتصدقين . وقوله تعالى : ﴿ هِيَ ﴾ مخصوص بالمدح وهي الصدقات ، وقد علم السامع أنها الصدقات المبدأة بقريضة فعل الشرط .

قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ ... ﴾ (٥)

(١) - ينظر: ابن عاشور مرجع سابق . 311 / 2 .

(٢) - نفسه . 124 / 2 .

(٣) - هادي نهر . علم الدلالة التطبيقي . ص 335 .

المدح والثناء : فعل كلامي غير مباشر دل عليه قوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله .. ﴾ "مدح الله رسوله والمؤمنين على إيمانهم وأثنى عليهم بقولهم : {قالوا سمعنا وأطعنا} وقد رجعوا إلى التضرع والاستكانة . وقدم ذلك بين يدي رفقة بهم . فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ، ورفع المشقة في أمر الخواطر ، وهذه ثمرة الطاعة ، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم ، وتحميلهم المشقات من الذلة ، والمسكنة والجلاء إذ قالوا : ﴿سمعنا وعصينا﴾ [البقرة 93] وهذه ثمرة العصيان. ⁽¹⁾

التجهيل : قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾

تقرر الآية أهمية التمثيل ، وتعني الرد على اليهود والمنافقين ، واستخدام الأداة ما لمزيد الإبهام وقد يفيد التحقير أيضا أو التعظيم أو التنويع ، والمراد من ضرب الأمثال هو التذكير . وقدم بيان حال المؤمنين لشرفه واستخدام الأداة أما للدلالة على أفعال متضمنة في القول هي الإحسان للمؤمنين والذم للكافرين والتقدير بأن ضرب المثل تربية وإرشاد للمؤمنين . أما أداة الاستفهام ماذا تدل على أفعال متضمنة في القول هي : التجهيل لأن الاستفهام إما لعدم العلم أو للإنكار وكل منهما يدل على الجهل.

(1) - أبو حيان . نفسه . 2 / 755 .

الفصل السادس

الوعديات (الإلتزاميات)

المبحث الأول : ماهية الغرض الإنجازي لأفعال الوعد.

المبحث الثاني : الوعد والوعيد .

المبحث الثالث : الترغيب والترهيب.

المبحث الرابع : التخويف والتهديد.

المبحث الخامس : الزجر والتحذير.

الوعديات (الالتزاميات) Comissives.

تعريف الوعديات :

الوعديات هي الالتزاميات Comissives. وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل ، ويسمى الغرض الوعدي وأطلق عليها جورج يول : "الملتزمات وهي تعبر عما ينويه المتكلم من وعود وتهديدات وتعهدات"⁽¹⁾. بحيث يأخذ المتكلم على عاتقه جعل العالم ملائما للكلمات ، والمحتوى القضوي فيها دائما فعل المتكلم شيئا في المستقبل . "لقد كان أوستين أول من لاحظ أن الأقوال الأدائية - مثل المواعيد - تتضمن التزاما معيناً من جانب المتكلم ، الذي يفعل ما يقوله عند قوله . فبقوله : "أعد بذلك" ، هو في الواقع "يعد" أي يجعل نفسه ملزماً بفعل ما يقول إنه يفعله." ⁽²⁾ والشرط المعد هو قدرة المتكلم على أداء ما يلزم نفسه به.⁽³⁾ (س ينوي ص) .

أفعال الوعد والوعيد : يلتزم المتكلم بفعل شيء تجاه المخاطب ، وتمثله أفعال الوعد والوعيد والضمان والإنذار ، وهي كثيرة في القرآن الكريم . وذكر العواقب من الآليات المباشرة والصريحة التي يوجهها المرسل ، مرتبة على مجموعة من الأوامر والنواهي ، وتختتم بإظهار العاقبة في الأخير ، أو ما يسمى بالجزاء . وأفعال الوعيد تصحبها إدانة نحو قوله تعالى : ﴿إنكم مجرمون﴾ في الآية ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً﴾ [المرسلات 46] . ويتعلق فعل الوعيد بمعنى التحذير من معصية الله ، والإشراك به ، ومنها التهيب من مخالفة التشريع الإلهي . "ذلك أن من النفوس ما لا يجد بها الترغيب وحده بل لابد لها من التهيب والوعيد ، فهو لذلك يقدم مثلاً من سنن الله في الذين خلوا ، وما أصابهم من عذاب بسبب كفرهم وجحودهم . ويشفع ذلك بالتهديد بوقوع مثل ذلك العذاب الذي لقيه الأولون ، ويضاف إلى ذلك عذاب الآخرة الذي وعد به المكذبون." ⁽⁴⁾ وحول إمكان وصف الوعد بالكذب في حال كون الواعد غير ناو لتحقيق ما وعد به "فإن الكذب يختص بالماضي والحاضر ، والوعد إنما يتعلق بالمستقبل فلا يدخله الكذب." ⁽⁵⁾ ، وأما وعد الشرائع ووعيدها فهي عند القرافي مما يقبل الصدق والكذب ، ومن ثم فهي صادقة ، والفرق هو "أن الله تعالى يخبر عن معلوم ، وكل ما تعلق به العلم تجب مطابقتها فيكون الوعد به خبراً صادقاً أما وعود البشر فأمرها يختلف ، فالواعد إنما ألزم نفسه أن يفعل فعلاً ما ، مع تجويز أن يقع ذلك منه وأن لا يقع ، فلا تكون المطابقة وعدمها معلومين ولا واقعين ، فانتقيا بالكلية وقت

(1) - جورج يول . التداولية . ترجمة : قصي العتابي . ص 90 .

(2) - بول ريكور . نظرية التأويل - الخطاب وفانض المعنى . ترجمة سعيد الغامي . ط2 / 2006 . المركز الثقافي العربي . المغرب . ص 41

(3) - ينظر : هاشم طبطباي . نظرية الأفعال الكلامية . ص 30 .

(4) - كريم حسين ناصح . الخطاب النفسي في القرآن الكريم . ص 101 .

(5) - القرافي . الفروق . 22/4 .

طرق التعبير القرآني للوعديات :

وقد تنوعت طرق التعبير القرآني عن فعل الوعديات ومنها :

1- اعتماد صيغ الأمر (فعل الأمر) ، كقوله تعالى : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾

[الطور 45]

2- المصادر . مثل ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ [الماعون 4-5] .

3- لام الأمر الداخلة على المضارع . مثل في قوله تعالى : ﴿ فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ﴾ [التوبة

82] وصيغ الأمر هنا لا تحمل معنى الطلب للمخاطب لإيجاد ما لم يكن حاصلًا على وجه الوجوب ،

بل هو تهديد ووعيد . "والتهديد ليس خاصًا بالقائمين فعلا بتلك الأعمال ، بل لكل من أراد أن يسير

على دربهم." (2)

وعبر القرآن الكريم عن الوعيد والتهديد ، بأدوات الاستفهام بطريقة لا يقصد بها طلب الفهم ، بل يراد معنى

التهديد أو التخويف ، نحو قوله تعالى : ﴿ ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ [الفيل 1] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذيري ﴾ [الملك 17] .

ويزيد في رهبة هذا التهديد ، تكرير جملة ﴿ فستعلمون كيف نذيري ﴾

ومنها قوله تعالى : ﴿ أين تذهبون ﴾ [النازعات 26] . وقوله تعالى : ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾

[العنكبوت 68] فليس المقصود الاستفهام ، بل التذكير بمصير الكافرين .

وعبر الخطاب القرآني عن معنى الوعيد ، بصيغة الفعل الماضي على الرغم من كون العذاب سيحدث في

المستقبل ، قال تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ﴾ [النمل 90] ، وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا

جاءها وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر 71] وقد وردت هذه الأفعال بصيغة الماضي ، للدلالة على أن أحداثها

متحققة الوقوع. (3) أما الفعل المضارع ، فقد دل على هذا المعنى في كثير من استعمالاته ، ولاسيما عند

اقتترانه بعدد من الأدوات التي تدخل عليه : كالسين ، أو سوف ، أو لام الابتداء ، أو اتصاله بنون التوكيد ، أو

اللام السببية . كقوله تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ [القلم 16] ، وقوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾

[التكاثر 2] ، ولا شك في أن السين وسوف من أدوات الاستقبال لذا جاء الوعيد بهما مطابقا لما يحملانه من

دلالة زمنية . أما لام التوكيد ونونه فإن التهديد بهما ينسجم مع دلالتهما على تأكيد تحقق الحدث كقوله تعالى :

﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ [فصلت 27] . ولم يقتصر القرآن على

(1) - نفسه . 4 / 24 .

(2) - القرافي . الفروق . ص 102 .

(3) - ينظر : كريم حسين ناصح . مرجع سابق . ص 103 .

الأفعال في التعبير عن معنى الوعيد والترهيب ، بل اعتمد الجملة الإسمية لما فيها من دلالة على الإثبات والاستقرار ، وتأکید حقيقة وقوع الحساب ، وتحقق الوعيد . قال تعالى: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُونَهَا﴾ [المجادلة8] وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نَرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف 41-42] ، وعبر الخطاب القرآني عن هذين المعنيين بالتكرار لما فيه من قرع على آذان الكافرين كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكَّرٍ﴾ [القمر 15] والتكرار أيضا في : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر 18] . وقد يتكرر المعنى بصيغتين غير متماثلتين مؤثرا في نفوس السامعين ، فنقشعر من الهلع أبدانهم كقوله تعالى : ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾ [الطارق17] .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر10] . كما اعتمد الخطاب القرآني في التعبير عن معنى التهديد على الجرس الصوتي للحروف للتأثير على النفوس كقوله تعالى : ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةٌ ...﴾ [الحاقة24] ويلاحظ التذكر بما سيحل بالمذنبين ، فالكافر سيصعق حين يعلم أنه من أصحاب النار ، ويصرخ بأصوات مسموعة ، فالهاء في آخر كل كلمة في الآية يمد بها الصوت حتى كأننا نسمعه وهو يستغيث .⁽¹⁾

الترغيب والإغراء : ويراد بالترغيب وسيلة الإقناع بالدخول في الإسلام ، والتمسك به بمخاطبة المشاعر ، وتحريك الرغبات الكامنة ، وذلك بإغراء النفوس بما ينتظرها من ثواب ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بأدوات كثيرة .

1- الجملة الإسمية : الدالة على الثبات لتأكيد حصول هذا الثواب ، ولهذا جاءت هذه الجمل في

أكثرها مؤكدة بأدوات التأكيد ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾

[الطور17]

2- الأمر والنهي : فقد عبر القرآن بصيغ مختلفة عن معنى الترغيب كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّقْدَمَتْ لَغْدٍ﴾ [الحشر18] .

ونورد فيما يلي المبحث الأول المتعلق بأفعال الوعد والوعيد في سورة البقرة

أفعال الوعد والوعيد :

﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الفعل الكلامي المتضمن في القول التقريري ، هو نفي الإيمان عن تلك الفئة المذكورة ، وتعدلت القوة الإنجازية بتقديم القلوب لأنها محل الإيمان ، والسمع والإبصار طرق وآلات له ، وبمصطلحات (جون

(1) - ينظر : كريم حسين ناصح . مرجع سابق . ص 104 و 105 .

سيرل) يكون الفعل الكلامي غير المباشر، هو الوعيد ، ودليل ذلك عدم العفو وهو شرط ضمنى ، قال الألويسي : "إننا ندعي أن أخبار الوعيد، في الكفار مشروطة بعدم العفو ، وإن لم يكن هذا الشرط مذكورا صريحا ...على أنه يحتمل أن تكون تلك الجمل دعائية ،أو إخبارية لكن الإخبار عن استحقاق الوقوع ، لا عن الوقوع نفسه ."(1)

قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾^١
مرض القلب يحمل على المعنى المجازي، ذلك المرض يمنعهم من الإيمان ، فالفعل الكلامي يتضمن الوعيد: بسبب النفاق والخداع ، والكذب بقولهم آمنا ، كما يتضمن معنى الذم ، بالكذب والتكذيب ، وبمصطلحات (جون سيرل) يكون الفعل الكلامي غير المباشر ، هو تحريض المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان والتصديق .

قال تعالى:

﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾^٢
تتضمن الآية فعلا كلاميا غير مباشر هو الوعيد .

عند ملاحظة شروط التحقيق الناجح للأفعال الإنجازية التي وضعها سيرل خاصة منها:

فعل الوعد L'acte de promesse نجد شروط المحتوى القضوي ، وتفرض هذه الشروط ورود الفعل الإنجازي المقصود داخل سياق ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾
أما الشروط التمهيدية ، فهي تلزم أن يكون المتكلم ذا سلطة على المأمور، معتقدا قدرة المأمور على فعل المأمور به ، وأما شروط الجدية ، فتقتضي من المتكلم أن يكون جادا في كلامه ، قاصدا إلى تحقيق مضمون الفعل الإنجازي وهو هنا : إعلام المخاطب بما يترتب عن الوقوع في المخالفات ، وما أعد للكافرين من عذاب . وأن يكون الواعد في حالة فعل الوعد قصد تنفيذ ما وعد به .(2) وهذا أمر معلوم في صفات المتكلم الذي لا يخلف الميعاد .*

والشروط السابقة محكومة بشرط أساسي ، هو توافر الظروف العادية لسلامة مجرى الكلام ، ابتداء من المتكلم (الله عزوجل) ، وانتهاء بالمخاطب وهم (المكلفون) مروراً بقناة التواصل، بينهما ممثلة في الوحي المنزل على الرسول (ص) ،وما يتضمنه من قواعد وتوجيهات ، بلغت إلى الناس كافة .(3)

(1) - الألويسي مرجع سابق . 206/1

(2) -

Voir : J.Searle . les actea de langage . p 99 .

*- من مقتضيات الشرط الأساسي عند سيرل أن يكون سلوك المتكلم ، أثناء وبعد تحقيقه لأحد الأفعال منسجما مع ما يفرضه ذلك الفعل بحيث يتعين على المتكلم الواعد أن يدرك أن تلفظه بفعل الوعد يضعه أمام فعل واجب عليه تنفيذه . هذا خاص بالمتكلمين من البشر . أما الله تعالى فلا يجب عليه شيء.

(3) - ينظر : ادريس سرحان . التأويل الدلالي -التداولي للمفوضات . ضمن التداوليات علم استعمال اللغة . ص 168 .

قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ ... أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا تُخَفِّفْ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، ﴿ وَوَيْلٌ لَهُمْ ... ﴾ مبالغة في الوعيد والزجر والتهويل . ومما يدخل ضمن التوضيح تبين أصناف اليهود في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ ... ﴾ ثم توسع السياق إلى ذكر أمنياتهم ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا ... ﴾ ولعلها أيام عبادتهم العجل ، ويأتي الجواب من الله بقصد التوبيخ والتبكيت ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ لأنهم لم يقدموا أعمالاً توجب ما يدعون . كما جسدت الأفعال الكلامية التحوارات الشخصية التي كانت وسيلة لتقديم الصورة التفصيلية عن اليهود ، وتمثلت التحوارات بالقول : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ ؟ ﴾ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ ﴾ ووراء هذا الاستفهام أفعال إنجازية غير مباشرة ، هي التوبيخ على القول ، والمبالغة فيه ، وكذلك فعل التهكم حين أبطل قولهم ، وعلق الكسب بالسيئة ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ (1) وقد جرت عادته جل شأنه أن يشفع وعيده بوعده ، مراعاة لما تقتضيه الحكمة ، في إرشاد العباد من الترغيب والترهيب ، فقد مرت أفعال الوعيد ، والآن ينهي بالوعد والترغيب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. ﴾ * ولمزيد من التفصيل والتوسع في ذكر أخبار اليهود ، عاد السياق

مرة أخرى ليشرع في تعداد بعض قبائح أسلافهم ، مما يدل على استبعاد إيمان أسلافهم بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ والفعل الكلامي هنا هو الإخبار ، في معنى النهي ، وإلى ذلك ذهب الفراء ويرجح أنه أبلغ من صريح النهي . (2) ومن جملة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل : الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، والذي عبر عنه بصيغة المصدر النائب عن الفعل ، ثم ذوي

(1) - ينظر : الألوسي مرجع سابق . 426/1

* - "ويرد التخويف ويتسع مجاله لكنه لا يخلو من الترجية" الشاطبي . الموافقات 212/3.

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 428/1 .

القربى واليتامى والمساكين . والذي جاء على هذا الترتيب إعتناء بالأوكد فالأوكد . ثم الأمر بقول الحسن ، وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وبعد سلسلة الأوامر والنواهي الصريحة منها والضمنية ، هاهو السياق ينتقل إلى التوبيخ على الارتداد بعد الانقياد ، وتتمثل قوته الإنجازية في أنه أشنع من العصيان ، من الأول بعد توليهم وإعراضهم عن الميثاق ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ ويكون تشديد التوبيخ أنه وجه الخطاب لليهود المعاصرين ، بحيث يعم الخطاب بتنزيل الأسلاف منزلة الأخلاف .⁽¹⁾ ثم عطف الميثاق على الميثاق ، في هذه المرة ميثاق الدماء ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ والفعل الكلامي هنا هو الإخبار ، في معنى النهي . والمراد : أن لا يتعرض بعضكم بعضا بالقتل والإجلاء . ثم انتقل إلى الإخبار عن إقرارهم واعترافهم بلزوم الميثاق ودعم القوة الإنجازية بالتأكيد الذي دلت عليه الجملة الحالية ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ . ويتوسع السياق في تفصيل الأحداث ، وما ترتب عن تلك المواقف من خيانة ونكوص ، فقد عيّرهم المولى عز وجل بذلك الإقتتال المشهور في التاريخ ، بين قريظة والأوس وبين بني النضير والخزرج . ويلتف السياق مرة أخرى عائداً إلى توبيخ اليهود ، وذهمهم على جنائياتهم ، وتناقض أفعالهم ﴿ خُذِرْ جُونُ فَرِيقًا مِنْكُمْ مَنْ دَبَرَهُمْ ﴾ ويستمر تسلسل الأفعال الكلامية التي تصف سلوك اليهود منتقلا إلى الاستفهام الذي يراد به التهديد والتوبيخ على التفريق بين أحكام الله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ إذ العهد كان بثلاثة أشياء : ترك القتل ، وترك الإخراج ، ومفاداة الأسارى ، ولكنهم قتلوا ، وأخرجوا ، وفدوا . ثم انتقل إلى الوعيد بالخزي ، تنكيها على شناعة أفعالهم ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ تُعْظَمُ الْفَيَاقِمَةُ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

ووعيد آخر يوم القيامة هو الخلود في النار ولتدعيم القوة الإنجازية لفعل الوعيد قدم لفظ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) على ما يقع فيه لتهويل الخطب ، وكذلك تأكيد الوعيد ، بالاعتراض والتنذيل . ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ واستمر الإخبار ، الدال على فعل كلامي غير مباشر هو : الذم في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ

(1) - ينظر : الألوسي مرجع سابق . 431 / 1 .

الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴿١٧﴾ كما استعمل النفي الدال على فعل كلامي غير مباشر هو: الوعيد في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

الخطاب موجه إلى الرسول (ص) وهذه الجملة كالجمل السابقة للرد على اليهود الذين اعتذروا عن الإيمان وقالوا نؤمن بما أنزل علينا فقد أمر الله نبيه بصيغة ﴿قل﴾ بان يخاطبهم في شأن عداوتهم لجبريل لأنه يجري مجرى المحاجة .^(١) فإن اليهود اتخذوا جبريل عدوا بزعمهم أنه يخبر محمدا (ص) بأسرارهم ويأمره بقتالهم ووراء ذلك الأمر فعل كلامي غير مباشر هو التهديد والوعيد فإن الله عز وجل يبلغ هذا المعنى لبني إسرائيل لأنهم اتخذوا جبريل عدوا فالتقدير : " من كان عدوا لجبريل فلا يعاده وليعاده الله تعالى " .^(٢) فكأنه قال : من عاداه فأنا عدوه . وقد دلت الآية على تعظيم جبريل والتتويه بقدره حيث جعله الوساطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه ، ودلت كذلك على ذم اليهود حيث أبغضوا من كان بهذه المنزلة الرفيعة عند الله .^(٣)

والفعل الكلامي يحمل دلالة غير مباشرة هي ذلك الوعيد لأولئك اليهود كما يحمل قوة إنجازية مستلزمة هي التهديد والذم على ذلك الموقف الشنيع من عداوتهم لجبريل . وهذه القوة المنجزة مدركة مقاميا والتي تستلزمها الجملة ﴿من كان عدوا لجبريل﴾ ولا قرائن بنيوية تدل عليها في صورة الجملة . ويندرج فعل التهديد ضمن صنف الوعديات Commissives بتعبير سيرل . وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل، وشرط الإخلاص فيه هو القصد Intention^(٤)

ويسمى : (الغرض الوعدي) ويطلق عليها الملزمات ، وهي تعبر عما ينويه المتكلم .^(٥) بحيث يأخذ المتكلم على عاتقه جعل العالم ملائما للكلمات ، فقد توعدهم الله بفعل حاصل في

(١) - فخر الدين الرازي . التفسير الكبير . 210 / 2 .

(٢) - ابن عاشور . مرجع سابق . 621 / 1 .

(٣) - الألوسي . مرجع سابق . 461 / 1 .

(٤) - Voir : John Searle . Speech Acts , An essay in the philosophy of language , p 56 .

(٥) - جورج يول . التداولية . ترجمة : قصي العتابي . ص 90 .

المستقبل، هو العداوة والسخط ، وأن سبب عداوته تعالى لهم وسخطه ، هو كفرهم . : " وخص جبريل بالذكر لزيادة الاهتمام بعقاب معاديه في قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ جواب شرط ، والعدو هنا مستعمل في معناه المجازي ، وهو ما يستلزمه من الانتقام والهلاك⁽¹⁾ .

إن المحتوى القضوي هو : استحقاق بني إسرائيل للعقاب ، و الشرط المعد هو : قدرة المتكلم على أداء ما يلزم نفسه به⁽²⁾ ، وأما ما يتعلق بمفترضات القوة المتضمنة في القول : فإن الفعل الموعود بوقوعه ، هو في غير صالح المخاطبين .^(*) ولتعديل القوة الإنجازية ، لهذا الفعل الوعيدي ، استعان السياق بجملة من المقويات ممثلة في : المؤشرات اللغوية منها :

تأكيد الكلام باعتبار حال المخاطبين ، لأنهم منكرون في قوته (فإنه نزله) ، والضمير الله " إضمار ما لم يسبق ذكره ، فيه فخامة لشأن صاحبه ، حيث يجعل لفرط شهرته ، كأنه يدل على نفسه ، ويكتفي عن اسمه الصريح ، بذكر شيء من صفاته⁽³⁾ ومنها إدخال (لام) التقوية ، على مفعول (مصدقا لما) للدلالة على تقوية ذلك التصديق . ومنها أنه قدم جبريل لأفضليته ، ومنها أنه أتى باسم الله ظاهر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ للتعظيم والتفخيم ، والعرب إذا فخمت شيئا كررته بالإسم ومنها إثارة الجمل الإسمية ، للدلالة على التحقق والثبات ، ووضع المظهر ، موضع المضمّر (للكافرين) تفيد أن عداوة المذكورين كفر ، وأن سبب عداوته تعالى لهم ، وسخطه هو كفرهم .⁽⁴⁾ كما جاء الحجاج في السياق وسيلة لدعم القوة الإنجازية المتعلقة بتهديد بني إسرائيل . " فقد صارت عداوتهم جبريل كالحـد الوسط في القياس ، وكانت عداوتهم الله بمنزلة المقدمة الكبرى ، وداوتهم الرسول (ص) بمنزلة المقدمة الصغرى ، وأن عداوة الملائكة والرسـل عداوة الله ، وقد أثبت لهم عداوة الملائكة والرسـل مع أنهم عادوا جبريل ومحمدا لأنهم لما عادوهما عادوا الله .⁽⁵⁾ هذا الفعل الكلامي غير ظاهر في البنية اللغوية ، وذلك ما دلت عليه قرائن ظاهرية ، وأخرى ضمنية استدلالية.

قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

(1) - ابن عاشور . مرجع سابق . 1/ 625 .
(2) - ينظر : طالب هاشم طبطبائي . نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب . ص 31 .
(*) - لأن من مفترضات القوة المتضمنة أن يكون الفعل المهـدد بإيقاعه مما يضر بالمخاطب .
(3) - الرازي . مرجع سابق . 2/ 212 .
(4) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 1 / 462 .
(5) ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 623 .

الترغيب : في هذا الأمر ترغيب وتوكيد للأمر بالعفو ، وكذلك الأمر بالصلاة والزكاة ، وترغيب فيه بقوله تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ .

الوعد والوعيد : وفي هذه الآيات فعل كلامي متضمن في القول هو (الوعد) للمؤمنين ، وهذا الوعد يتضمن فعلا كلاميا آخر هو (الوعيد) لغير المؤمنين ؛ لأنه إذا كان بصيرا بما يعمل المؤمنون ، كان بصيرا بما يعمل غيرهم .⁽¹⁾

الإخبار / الوعيد : قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

وهنا فعل كلامي مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ وهو إخبار نفي بمعنى (النهى) ، أي النهي عن التمكين من دخولهم المساجد ، فلا يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين ويتضمن الخبر فعلا كلاميا غير مباشر هو (الوعد) في قوله تعالى ﴿ ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ فيه وعد المؤمنين بالنصرة ، وتخليص المساجد من الكفار ، يعني إذا استولى عليها المسلمون فلا يتمكن الكفار حينئذ من دخولها ، فإن دخلوها فعلى خوف ، من إخراج المسلمين لهم منها .⁽²⁾

الوعيد : وهو فعل كلامي غير مباشر ، وارد في قوله تعالى : ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ فقد توعد الله الظالمين المانعين مساجد الله بعقوبتين: خزي في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

قال تعالى : ﴿ ... ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۖ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

الوعد : وهو فعل كلامي متضمن في القول ، دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ فختتم سلسلة الأفعال الكلامية بفعل الوعيد ؛ أي من تعدى بعد ذلك التخفيف ، فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل فله عذاب أليم . فلا يقتل بعد العفو والدية "وذلك أن أهل الجاهلية إذا عفوا ، وأخذوا الدية ثم ظفروا بعد ذلك بالقاتل قتلوه."⁽³⁾ فتوعد الله سبحانه من يقتل غير قاتله ، أو أكثر من قاتله ، أو طلب أكثر من الدية قال أبو حيان الأندلسي : "وظاهر هذا العذاب أنه في الآخرة . لأن معظم ما ورد من هذه التوعيدات إنما هي في الآخرة "⁽⁴⁾.

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 672/ 1 .

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 502/ 2 .

(3) - الرازي . مرجع سابق . 59/ 3 .

(4) - أبو حيان . البحر المحيط . 153/ 2 .

قال تعالى : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

الوعد : ويشتمل الإخبار على فعل كلامي متضمن في القول هو : فعل الوعد ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ فقد وعد الله نبيه أن يوليه قبلة يرضاها أي يحبها و يميل إليها وهي جهة المسجد الحرام ؛ أي "فلنعطينك ولنمكنك من استقبالها" (1).

وفعل الوعد ينتمي إلى صنف أفعال الإلتزام أو (التعهد) ، بتعبير أوستين التي يقول عنها : "إن النقطة الأساسية في التعهد هي أن يلتزم المتكلم من خلال الفعل الذي ينطقه بتصرف أو نشاط معين" (2). وجاء هذا الوعد قبل الأمر (فول وجهك) لفرح النفس بالإجابة ، ثم بإنجاز الوعد فيتوالى السرور مرتين "لأن بلوغ المطلوب بعد الوعد به أنس في التواصل" (3) وتتفاوت مستويات القوة الإنجازية للوعديات ، حيث تكون هذه الأفعال في أوج قوتها عند التعبير عن الإلتزام باستخدام فعل إنجازي مدعم بالقسم . وقد تتراخى درجة التعبير عن هذه القوة عندما يقوم المتكلم بمجرد الوعد (4) ففي الآية عبر السياق "بإضمار قسم مبالغة في وقوعه ؛ لأن القسم يؤكد مضمون الجملة المقسم عليها" (5) ثم وصف القبلة الموعودة بأنها مرضية للنبي (ص) ، "وإنما أحبها النبي (ص) لأنها كانت قبلة الأنبياء" (6) فالوعد الذي جاء في الجملة من الإنشائيات الأولية ، لكنه لم يصرح بلفظ الوعد ، ولكن المؤشرات اللغوية ، وقرائن السياق ، والمقام تحدد ذلك . فالوعد عادة يقال في سياق يعتقد فيه الواعد أن المخاطب يتطلع إلى هذا الوعد ، ويتعلق به فالرسول (ص) كان يتشوق ويتوقع تحويل القبلة . لذلك فإن الإنشائيات الضمنية تعتمد على المقام إذ به تكون إنشائية أو لاتكون (7) وإن المرجع في الإلتزاميات (الوعديات) هو المتكلم وفي هذا النوع لا يعمل المتكلم على التأثير في السامع كما في التوجيهيات .

(1) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 202 .

(2) - محمد حسن عبد العزيز . كيف ننجز الأشياء بالكلمات . مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة . عدد 19 .

(3) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 23 .

(4) - ينظر : علي محمود الصراف . مرجع سابق . ص 48 .

(5) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 560 .

(6) - الزجاج . معاني القرآن . 1 / 194 .

(7) - محمود نحلة . آفاق جديدة . ص 67 .

الوعد والوعيد : في قوله تعالى : ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ فهذه الجملة الاعتراضية بين كلامين جئ بها للوعد والوعيد للفريقين من أهل الكتاب . "فإن جعلناه خطابا للمسلمين (تعملون) فهو وعد لهم وبشارة ... وإن جعلناه كلاما مع اليهود (يعملون) فهو وعيد وتهديد لهم." (1)

﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾
 (وعد) على قراءة الخطاب (تعملون) بالتاء فهو وعد للمؤمنين .
 (وعيد) على قراءة الغيب (يعملون) بالياء فهو وعيد لأهل الكتاب .

قال تعالى : ﴿أَيَّنْ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤٨﴾

الوعد / الوعيد : تتضمن هذه الجملة ، مجموعة من الأفعال الكلامية غير المباشرة .
 ﴿أيما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ هذه الجملة تتضمن فعلا كلاميا غير مباشر هو : "الوعظ والتحذير وإظهار لقدرته تعالى . " (2) كما تتضمن الترغيب والترهيب ، والحث على الاستباق إلى الخيرات ، وبيان حكم الأمر السابق ، وهذه الأفعال الكلامية اقتضاها المقام لتعليل ما قبلها .
 ولذلك قال الرازي : " هو وعد لأهل الطاعة ، ووعد لأهل المعصية." (3)

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٦٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٦٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾
الوعد : ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون...﴾

فيها ذكر الوعيد لكاتم العلم ، الواضح البين والله تعالى توعده على كتمان الدلائل السمعية ، والعقلية وجمع بين الأمرين في الوعيد . فهذه الآية تبين أن من أمكنة بيان أصول الدين بالدلائل العقلية لمن كان محتاجا إليها ثم تركها أو كتم شيئا من أحكام الشرع ، مع شدة الحاجة إليه ، فقد لحقه الوعيد العظيم . (4)
 " واللعة في اللغة الإبعاد ، وفي عرف الشرع الإبعاد من الثواب." (5) وجاء بـ(أولئك) اسم الإشارة البعيد تنبيها على ذلك الوصف القديم ، وأبرز الخبر في صورة جملتين توكيدا وتعريفا وتعظيما ، وأتى

(1) - الرازي . مرجع سابق . 2 / 136 .

(2) - نفسه . 2 / 38 .

(3) - نفسه . 2 / 150 .

(4) - ينظر : نفسه . 2 / 181 .

(5) - نفسه . 2 / 182 .

بالفعل المضارع المقتضي التجدد لتجدد مقتضيه ، وأسند الفعل إلى الله ، لأنه هو المجازي على ما اجترحوه من الذنب ، وأبرز إسم الجلالة (الله) على سبيل الالتفات ، ولم يقل (يلعنهم) لأنه في إظهار هذا الإسم من الفخامة ما لا يكون في الضمير.⁽¹⁾ وأعاد الفعل (يلعنهم) لأنه لعنة اللاعنين بمعنى الدعاء عليهم بالإبعاد عن رحمة الله ، واللاعنون هم كل شيء في الأرض إلا الثقلين الجن والإنس ؛ أي تلعنهم الملائكة والجمادات وقيل يلعنهم المؤمنون . "والتعريف في (اللاعنون) للإستغراق . وهو إستغراق عرفي؛ أي يلعنهم كل لاعن"⁽²⁾. وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يبينوا التوراة ولا يخفوها .

وعيد : ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله...﴾

ويراد به الذين كتموا ، وعبر عن الكتمان ، بالكفر نعيًا عليهم به ، ولم تعطف الجملة على ما قبلها إشارة إلى كمال التباين بين الكاتمين ، والتائبين . والآية مشتملة على الجمع والتفريق ، جمع الكاتمين في حكم واحد هو (ملعونون) ثم فرق فقال تعالى : ﴿إلا الذين تابوا﴾ وأما الذين ماتوا على الكتمان فقد استقرت عليهم اللعنة ، وهذه الجملة سبقت لبيان ، أن اللعن باق على غير التائبين . ويدعم القوة الإنجازية للفعل الكلامي (الوعيد) بتقييده بعدم التخفيف ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ . وعدم الإنظار ﴿ولا هم ينظرون﴾ والإنظار هو التأجيل والتأخير ، وجيء بالجملة الإسمية هنا ﴿ولا هم ينظرون﴾ لدلالاتها على الثبات والاستقرار .⁽³⁾

التهويل / الوعيد : فعل كلامي غير مباشر ، دلت عليه الصيغة الخبرية في قوله تعالى : ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ...﴾ والخطاب للرسول (ص) يخبره المولى عز وجل ، عن قدر ما يشاهده الكفار ، ويعاينون من العذاب يوم القيامة ، ووراء هذا الخبر قوة إنجازية ضمنية ، هي ما تدل عليه الآية من وعيد ، وتهويل الخطب ، وتفطيع الأمر ، فالآية بمعنى أن الذين ظلموا ، عاينوا العذاب المعد لهم ، وأبصروه يوم القيامة ، وقد بالغ في ذلك التهويل ، بذكر الجملة الثانية ﴿وإن الله شديد العذاب﴾

تعديل القوة الإنجازية : لتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي (التهويل) استعمل السياق الحذف في قوله تعالى : ﴿ولو يرى﴾ فحذف جواب لو . وهذا كثير في القرآن والتقدير : ﴿ولو يرى الذين ظلموا شدة عذاب الله وقوته لما اتخذوا من دونه أنداداً﴾. وهذا الحذف أفخم وأعظم لأن على هذا التقدير يذهب خاطر المخاطب إلى كل ضرب من الوعيد ، ومنها أيضا أنه أورد صيغة المستقبل بعد لو ﴿ولو يرى﴾ والأداة إذ ﴿إذ يرى﴾ المختصين بالماضي لتحقق مدلوله ، فيكون ماضيا تأويلا مستقبلا تحقيقا .⁽⁴⁾

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 70 / 2 .

(2) - الزجاج . مرجع سابق . 205 / 1 .

(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 587 / 2 .

(4) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 230 / 2 .

الزجر: فعل كلامي وارد في قوله تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ...﴾ أي تبرأ الأتباع وانفصلوا عن متبوعيهم وندموا على عبادتهم ، وأنهم حين صاروا أحوج إليهم تبرأوا منهم لأنهم تبرأوا في حال رؤية العذاب ، ودلت على ذلك (واو الحال) في قوله ﴿ورأوا العذاب﴾ . وفي الجملة الثانية (وتقطعت بهم الأسباب) إفادة تكثير أسباب التهويل .⁽¹⁾ وفيها "كناية عن أن لا منجي لهم من العذاب ، ولا مخلص ولا تعلق بشيء يخلص من عذاب الله".⁽²⁾

وهو فعل كلامي غير مباشر ، دلت عليه صيغة الإخبار . إذ هو يعبر عن اليأس الذي حصل للظالمين ، ومن ثم فهو يزجر كل ظالم عن ظلمه .⁽³⁾ حين يتبرأ المتبوعون من الأتباع وعبر السياق عن المتبوعين بالبناء للمجهول (الذين اتبعوا) وهم الذين ظللوا المشركين ونصبوا لهم الأنصاب ، ومعنى براءتهم منهم تتصلهم من مواعيد نفعهم في الآخرة الذي وعدوهم في الدنيا .⁽⁴⁾

الوعيد : ﴿كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ ...﴾ فعل كلامي غير مباشر ، دلت عليه هذه الجملة التذييلية ، التي تؤكد فعل الوعيد . فالآية تبين حال المشركين في الآخرة ، وأنهم خالدون في العذاب . وأنهم يرون أعمالهم السيئة حسرات ، " أي ندامات ومعناه ؛ أن أعمالهم تتقلب حسرات عليهم فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم".⁽⁵⁾ ويدل على خلودهم في النار قوله تعالى : ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽⁶⁾

التحذير: فعل كلامي غير مباشر يحذر المسلمين مما أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم وتحليل بعض ما حرم الله عليهم ، وكتمان بعض الأحكام كما فعلوا في ترك قراءة حكم رجم الزاني في التوراة حين دعا النبي (ص) أحد اليهود ليقراً ذلك الحكم من التوراة ، فوضع اليهودي يده على الكلام الوارد في ذلك كما أخرجه البخاري في صحيحه.⁽⁶⁾ و لجريانه على مناسبة إباحة ما أبيح من المأكولات جاء قوله هنا ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ لقصد المشاكلة .⁽⁷⁾

الوعيد : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الصيغة الخبرية ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ ويقوي إنجازية الفعل الكلامي، تقييد الأكل بالبطون لإفادة الملء ، لا للتأكيد ففي ذلك تعظيم وعيد

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 597 .

(2) - أبو حيان . البحر المحيط . 2 / 91 .

(3) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 2 / 233 .

(4) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 98 .

(5) - الزمخشري . الكشاف . 1 / 212 و ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 94 .

(6) - البخاري . صحيح البخاري . كتاب الحدود . 8 / 13 .

(7) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 122 .

الكاتمين .⁽¹⁾ وفي ذكر البطون دلالة وتأکید على حقيقة الأكل ، إذ قد يستعمل مجازا ، وفي ذكر البطون أيضا تنبيه على جشعهم ، وأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم ، ومعنى ﴿إلا النار﴾ أي إنه حرام . يعذبهم الله عليه بالنار.⁽²⁾ وكل ذلك يدعم القوة الإنجازية لفعل الوعيد .

قال تعالى : ﴿...فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

فعل الوعيد : وهو فعل كلامي متضمن في القول ، فيه توجيه غير مباشر ، ووعد للمبدلين الذين يغيرون الإيصاء عن وجهه ، فإنما إثمهم على الذين يبدلونهم.⁽³⁾ وفي هذا زجر لمن أعرض على هذا التكليف . "وأن الإثم يثبت أو يعظم بشرط أن يكون المبدل قد علم ذلك."⁽⁴⁾ (بعدما سمعه) ويتأكد هذا الوعيد بجملة ﴿إن الله سميع عليم﴾ وتتضمن صفتين سميع وعليم . "ففي هاتين الصفتين تهديد ووعد للمبدلين فلا يخفى تعالى عليه شيء ، فهو يجازيهم على تبديلهم شر الجزاء ، وقيل سميع لقول الموصي وعليم بفعله."⁽⁵⁾

فعل الوعد : وهو فعل كلامي غير مباشر ، يعبر عنه قوله تعالى : ﴿فمن خاف من موص جنفًا أو إثمًا فأصلح بينهم فلا إثم عليه...﴾ والمراد بالإصلاح تبديل الوصية ، من الباطل إلى الحق. قال الرازي "إعلم أنه تعالى لما توعد من يبدل الوصية ، بين أن المراد بذلك التبديل ، أن يبدله عن الحق إلى الباطل أما إذا غيره عن الباطل إلى الحق ، على طريق الإصلاح فقد أحسن."⁽⁶⁾ وهذا هو الفرق بين هذا التبديل ، وبين ذلك التبديل الأول ، وأكد ذلك الوعد بجملة التذيل في قوله تعالى : ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وهي تذييل أتى به للوعد بالثواب ، للمصلح على إصلاحه ، وذكر (المغفرة) مع أن الإصلاح من الطاعات ، وهي إنما تليق من فعل ما ، لا يجوز لتقدم ذكر ، الإثم الذي تتعلق به المغفرة ، ولذلك حسن ذكرها ، وفائدتها التنبيه على الأعلى بما دونه يعني أنه تعالى غفور للآثام فلأن يكون رحيمًا من أطاعه من باب الأولى."⁽⁷⁾

قال تعالى : ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

الوعيد : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أي إن عصيتم ، أو كفرتم ، أو أخطأتم ، أو ضللتهم بعد نزول الكتب ، فاعلموا أن الله عزيز

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 606 .

(2) - ينظر : القرطبي . مرجع سابق . 2 / 158 .

(3) - ينظر : الزمخشري الكشف . 1 / 224 .

(4) - الرازي . مرجع سابق . 3 / 69 .

(5) - أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 166 .

(6) - الرازي . مرجع سابق . 3 / 70 .

(7) - الألوسي . مرجع سابق . 2 / 623 .

حكيم ؛ أي دوموا على العلم ، إن كان الخطاب للمؤمنين . وإن كان للكافرين أو المنافقين ، فهو أمر لهم بتحصيل العلم . ففي وصفه هنا بالعزة ، التي تتضمن الغلبة والقدرة اللتين يحصل بهما الانتقام وعيد شديد لمن خالفه ، وزل عن منهج الحق ، وفي وصفه بالحكمة دلالة على إتقان أفعاله ، وأن ما يرتبه من الزواج لمن خالف هو من مقتضى الحكمة . وروي أن قارئاً قرأ : غفور رحيم ، فسمعه أعرابي فأنكره ، ولم يكن يقرأ القرآن . وقال : إن كان هذا كلام الله ، فلا يقول كذا الحكيم ، ولا يذكر الغفران عند الزلل ؛ لأنه إغراء عليه .⁽¹⁾ واستعمال الزلل : الزلق أي اضطراب القدم ، والمجاز في الضر الناشيء عن اتباع الشيطان ، من بناء التمثيل على التمثيل : لأنه ما شبهت هيئة من يعمل بوسوسة الشيطان ، بهيئة الماشي على أثر غيره ، شبه ما يعتريه من الضر ، في ذلك المشي بزلل الرجل في المشي ، في الطريق المزلفة ، وقد استفيد من ذلك أن ما يأمر به الشيطان ، هو أيضاً بمنزلة الطريق المزلفة على طريق المكنية . وجيء في الشرط بـ (إن) لندرة حصول هذا الزلل ، من الذين آمنوا ، أو لعدم رغبة المتكلم في حصوله ، إن كان الخطاب لمن آمن بظاهره دون قلبه ، وفيه إشارة إلى أن ما خامر نفوسهم من كراهية الصلح ، هو زلة عظيمة .⁽²⁾

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾⁽³⁾
الوعد / التقرير : ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ وهو استئناف نحوي على تقدير القول أي فقل لهم حينئذ ذلك تطبيقاً لأنفسهم ، وإيثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد للدلالة على تحقق مضمونها وتقريرها واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنهم في حكم إنشاء الوعد للرسول (ص) .⁽⁴⁾

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ... ﴾⁽⁵⁾
الوعد والوعيد : ورد هنا فعل كلامي غير مباشر ، فالوعد للمفسد ، والوعد للمصلح في أمور اليتامى وقدم لفظ (المفسد) ، اهتماماً بإدخال الروع عليه ، وتقوية إنجازية فعل الوعيد ، و(ال) في الموضعين للعهد ، ويدخل المعهود دخولا أوليا ، وكلمة (من) للفصل ، بين المفسد والمصلح وضمن (يعلم) معنى يميز . فلذا عداه بها .⁽⁶⁾

قال تعالى : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ أَرْحَامَهُنَّ فِي إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... ﴾⁽⁷⁾



(1) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 342 .
(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 280 .
(3) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 2 / 688 . وينظر أيضا : الكشف . 1 / 256 .
(4) - ينظر : نفسه . 2 / 705 .

فعل الوعيد : ويتضمن قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْ يَوْمَ الْآخِرِ﴾ فعلا كلاميا غير مباشر، هو الوعيد بتعظيم فعلهن ، وأن من آمن بالله وبعقابه ، لا يجترئ على مثله من العظائم. (1) ففي هذا المعنى تبيان منافاة الكتمان للإيمان ، وتهويل شأنه في قلوبهن ، وفيه معنى التهديد أيضا ، كما سبق في قول الرازي . وأكد ذلك أبو بكر ابن العربي بقوله : "هذا وعيد عظيم ، شديد لتأكيد تحريم الكتمان ، في إيجاب أداء الأمانة في الإخبار ، عن الرحم بحقيقة ما فيه ، وفائدة تأكيد الوعيد هاهنا أمران : أحدهما حق الزوج في الرجعة ، والثاني : هو صيانة الأنساب ."(2) .

وأول الزجاج معنى العبارة المتضمنة للوعيد بقوله : "إن كن يصدقن بالله وبما أُرهب به وخوف من عذابه لأهل الكبائر فلا يكتمن كما تقول لرجل يظلم إن كنت مؤمنا فلا تظلم ."(3)

قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **الوعد** : في قوله تعالى : ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فهي جملة تذييل . ففي الجملة " تعليل الترغيب في عدم إهمال الفضل وتعرض بأن من العفو مرضاة الله تعالى فهو يرى ذلك منا فيجازي عليه." (4) **خبر . معنى صريح .**

الآية

وعد . معنى ضمني . قال القرطبي: "خبر في ضمنه الوعد للمحسن، والحرمان لغير

المحسن؛ لا يخفى عليه عفوكم واستقضاؤكم" (5) . فإن الله تعالى دعانا إلى خلق حميد وهو العفو عن الحقوق .

قال تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ **الترغيب** : والفعل الكلامي الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿وما تفعلوا من خير ...﴾ هو الترغيب في وجوه الإحسان وأبواب الإنفاق . فإن الله يجازي عليه أحسن الجزاء . والفعل أعم من الإنفاق . وأكد ذلك المعنى بالجملة الإسمية ﴿إن الله به عليم﴾ .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ **وَجَنَّهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**

(1) - ينظر : الزمخشري . مرجع سابق . 1 / 272 .

(2) - أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . 1 / 186 .

(3) - الزجاج . معاني القرآن وإعرايه . 1 / 262 .

(4) - ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 465 .

(5) - القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 3 / 146 .

التحذير : في قوله تعالى : ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر...﴾ أخبر تعالى أن من رجع عن دينه الحق ووافى على ذلك ، فجميع ما تقدم من أعماله الصالحات ، قد بطلت في الدنيا بإحاقه بالكفار . وإجراء أحكام المرتدين عليه . وفي الآخرة يكون مآله إلى النار خالدا فيها.(1) وأكد ما تقدم بجملة التذييل ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ . فهنا تحذير لأن ذكر حرص المشركين على رد المسلمين ، وعقبه باستبعاد حصول ذلك ، أعقبه بالتحذير منه بقوله : ﴿ومن يرتدد﴾ وشرح **حبط** : "قال أهل اللغة : أصل الحبط أن تأكل الإبل شيئا يضرها ، فتعظم بطونها فتهلك ، وسمي بطلان الأعمال بهذا ؛ لأنه كفساد الشيء ، بسبب ورود المفسد عليه"(2) . فإطلاقه على إبطال الأعمال تمثيل لأن الإبل تأكل ما يشبعها فتموت ، فشبه حال من عمل عملا للآخرة فلم يجد له أثر ، بالماشية التي أكلت حتى أصابها الحبط .(3)

تنبيه / بشارة : في قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ لما بين حال المرتدين عن دينه ، ذكر حال من آمن بالله ، وثبت على إيمانه ، وهاجر من موطنه إلى دار الإسلام ، ثم جاهد في سبيل الله ، وأنه طامع في رحمة الله ، "إن تعقيب ما قبلها بها من باب الإنذار بالبشارة ، وتنزيه للمؤمنين من احتمال ارتدادهم"(4) . فلا دلالة قطعية على تحقق الثواب إنما هو تفضل من الله أي لا ينبغي الإتكال على العمل وروي أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين قتلوا الحضرمي ظن قوم أنهم إن سلموا من الإثم ، فليس لهم أجر فنزلت الآية.(5)

قال تعالى : ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

الوعد : فهي جملة تذييل . ففي الجملة " تعليل الترغيب في عدم إهمال الفضل وتعرض بان من العفو مرضاة الله تعالى فهو يرى ذلك منا فيجازي عليه"(6)

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ **قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ**

(1) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 397 .

(2) - الرازي . مرجع سابق . 3 / 40 .

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 332 .

(4) - ابن عاشور . نفسه . 2 / 337 .

(5) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 2 / 394 .

(6) - ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 465 .

وعد ووعيد : في جملة التذييل ﴿ والله غني حليم ﴾ فالجملة تذييل لما قبلها ، مشتملة على الوعد والوعيد ، مقررّة لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل. (1) وفي جملة التذييل فعل كلامي آخر هو معنى التذكير ، فالمتكلم يذكر المخاطبين بصفيتين من صفات الله تعالى ليتخلق بهما المؤمنون ، وهما الغنى والحلم . فالمطلوب بطريقة ضمنية تحقيق المؤمن لهذه الصفات ، فكونه غنيا يتطلب مقاومة الشح . وكونه حليماً يقتضي العفو والصفح ، عن كبرياء بعض المتصدقين . وبمفهوم (الإبطال) يتضح نجاح الفعل الكلامي . فإبطال الصدقة يحصل بمجرد التلفظ بالمن ، والأذى ولذلك رغب السياق في اتباع الحسنة بالقول الحسن .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

فعل الوعيد : فعل كلامي مباشر في قوله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا ... ﴾ حيث أخبر عن مصير الذين يأكلون الربا ، وحالهم يوم القيامة وعبر عن الربا بالأكل لأنه معظم ما قصد به فهو لاء لا يقومون يوم القيامة إلا قياما كقيام المتخبط المصروع في الدنيا . وهذه العقوبة المترتبة على أكل الربا فيها تحذير ووعيد . وقوله تعالى : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى ﴾ تفريع على الوعيد المتضمن التحذير من أكل الربا .

فعل الوعيد : فعل كلامي غير مباشر في قوله تعالى : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ... ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ففي الآية وعيد لآكل الربا بالعقاب الشديد ، ودعم القوة الإنجازية لفعل الوعيد ، بمجموعة عناصر منها تعظيم شأن الموعظة (موعظة). وفي ذكر (الرب) تأنييس لقبول الموعظة ، فمن انتهى واتعظ فله ما تقدم أخذه ، قبل التحريم ، فلا يؤاخذ عليه في الدنيا ولا في الآخرة ، ومنها أن الله يمحق الربا ، أي يذهب بركته ، ويهلك المال الذي يدخل فيه ، وأنه يربي الصدقات ؛ أي يكثر المال الذي أخرجت منه الصدقة . (2) . وأن الله لا يحبه ، وأنه كفار آثم كل ذلك يقوي الوعيد على الفعل ، وهو الدافع إلى تركه . ومعنى (أمره إلى الله) أن أمر جزائه على الإنتهاء موكل إلى الله تعالى ، وهذا من الإيهام المقصود منه التفخيم ، فالمقصود الوعد بقريته مقابلته بالوعيد ، في قوله تعالى : ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار ... ﴾ ولما توقع السياق سؤال من يسأل عن

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 12 / 3

(2) - ينظر : مرجع نفسه . 14 / 3 .

حال هؤلاء ، الذين لا ينتهون بموعظة الله ، جاء باستئناف بياني يجيب فقال : ﴿ يحق الله الربا ﴾ فهذا وعيد دنيوي. وفي قوله تعالى : ﴿ يربي الصدقات ﴾ استطراد لبيان عاقبة الصدقة ، وهذا وعد دنيوي. (1)

قال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٨﴾

فعل التهديد وفعل التخويف : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الجملة في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والآية تدل على معنيين . الأول حقيقي وهو الإعلام بحرب حقيقية كحرب المرتدين أو البغاة . والثاني : قيل لا حرب حقيقية وإنما هو تهديد وتخويف . وجمهور المفسرين على الأول ، وينكر (حرب) للتعظيم. (2) وهذا يعدل القوة الإنجازية للفعل الكلامي لجعل التهديد أكثر خطورة . ومن الناحية الحجاجية فإن العدول إلى الصفة (رسول الله) من اسم العلم (محمد) إلى الصفة (الرسول ، أو النبي) ذكر محمد باسمه أو بصفته في القرآن حوالي (180 مرة). 4 مرات باسم (محمد)، ومرة خامسة باسم (أحمد) وبصفة النبي حوالي (33) مرة ، وبصفة (الرسول ، ورسول الله ، ورسوله) 143 مرة. إن العدول من محمد إلى الرسول (ص) يحقق من الناحية الحجاجية أموراً كثيرة ، فكونه مرسل يقتضي وجود رسالة ، ومرسل إليهم هم البشر ، ومرسل هو الله ، وهو ما يجعل المتلقين ملزمين بقبول الرسالة ومن ثم ينجز الفعل الكلامي ، ويحصل تأثيره ونجاحه ، ولذلك كثر ورود كلمة الرسول في سياقات الأمر والنهي والتشريع عامة. والجملة في سياق التشريع إنشاء طلبية وإن جاءت خبرية. والرسول إذ يرد في هذه السياقات يكون في أحيان كثيرة مقروناً إلى اسم الجلالة ، فيكون الأمر مبرراً ويزيد الأمر وجوباً. إن في عدول القرآن إلى الصفات بحثاً عن إقامة الحجة البراغمية L'argument pragmatique كما يسميها برلمان لأن الحجة البراغمية ترمي إلى تأثير مباشر في توجيه العمل ، ومن ثم تغيير السلوك والمعتقد. (3)

فعل الترغيب / فعل التحريض : فعل كلامي غير مباشر دلت عليه الآية في قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ففي الآية تحريض على الفعل . أي وتصدقكم على معسري غرائكم برؤوس أموالكم خير . أي أكثر ثواباً من الإنظار ، أو خير مما تأخذونه . أي أن إسقاط الدين على المعسر والتنفيس عليه بإغنائه أفضل لكم وجعله الله صدقة لأن فيه تفريج الكرب . (4)

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 90 / 3 - 91

(2) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 73 / 3 .

(3) - ينظر : عبد الله صولة . الحجاج في القرآن . ص 195 .

(4) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 96 / 3 .

فعل التحذير / فعل التهويل : فعل كلامي غير مباشر وارد في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ... ﴾ فالآية فيها تحذير من اليوم الآخر وما فيه من الشدائد ولتقوية الفعل الكلامي نكر (يوما) للتفخيم وعلق الإتياء به للمبالغة في التحذير وعبر بلفظ (ترجعون) وهو من الرجوع وهو أدخل في التهويل.⁽²⁾ فجاء بقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ تذييلا لهاته الأحكام . " لأنه صالح للتهيب من ارتكاب ما نهى عنه والترغيب في فعل ما أمر به أو ندب إليه لأن في ترك المنهيات سلامة من آثامها وفي فعل المطلوبات من ثوابها والكل يرجع إلى اتقاء ذلك اليوم."⁽³⁾

قال تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾

فعل الوعد / فعل الوعيد : فعلا نكاريين غير مباشرين في قوله تعالى : ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فصفة الملك تدل على القدرة ، وذكر المحاسبة يدل على العلم المحيط بالجليل والحقير ، فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين ، وغاية الوعيد للعاصين . في هذا الفصل اتضحت لنا الأفعال الكلامية التي تؤثر في نفس المتلقي ، والمراد منها أن الله عز وجل يؤثر بها في نفوس المخاطبين ، ويجعلهم يميلون بجوارحهم ، وأحاسيسهم وعواطفهم إلى قبول دعوة الإسلام ، والقيام بأعمال العبادة مستبحين وممتثلين لأوامر الله ، والابتعاد عما ينهى عنه ، وهو من جانب آخر يحفز في المسلمين روح الاندفاع للإيمان بالإسلام والدفاع عنه . ومن ثم يتحقق الفعل التأثيري بحمل المخاطبين على فعل أو ترك ، وهو ما عبرت عنه الآيات في موقف الملائكة في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ . وفي موقف إبراهيم عليه السلام : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ . فقد كانت معاني الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب تأخذ بألباب السامعين ، وتهز مشاعرهم .

(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 96 .

(3) - المرجع نفسه . 3 / 97 .

الفصل السابع

الإيقاعات

المبحث الأول : تعريف الإيقاعات وأنواعها

المبحث الثاني : الإيقاعات التصريفية (الإذن والمنع)

المبحث الثالث : الإيقاعات التقريرية (الإعلانات)

المبحث الرابع : الإيقاعات الصريحة

المبحث الخامس : أفعال العقود والفسوخ

الإيقاعات (الإعلانات) : Déclaratives

المبحث الأول : تعريف الإيقاعات

الإيقاعات : هي الأفعال التي ينشأ بمجرد التصريح بها أحداث تغيير في الوضع القائم أي أن القول بأمر ما هو إحداث لذلك الأمر ، فإذا أعلن القاضي : "الموظف بريء" يترتب عليه براءة الموظف فعلا (1) إن إجراء العقود وما إليها من إيقاعات وفسوخ يمثل أهم نقطة في بحث الأفعال الكلامية . وإن أوستين أشار في محاضراته الأولى إلى أن الإيقاعات هي النموذج القولي الذي يحصل به فعل هو هذا النوع من الأقوال (صيغ العقود والإيقاعات) أما غيرها من الأقوال والصيغ المعبرة عن أفعال كلامية فقد جاءت لاحقا بتوسيع النظرية وتعميقها ، غير أن البحث النحوي والبحث البلاغي لم يهتمتا بالصيغ العربية التي توقع بها هذه الأفعال ذلك أن هذه الصيغ تستعمل في الخبر كقول المعتق لعبده :

- أعتقتك (وهو يذكره) .

- أعتقتك (مجريا عملية البيع لا مخبرا بوقوعها في زمن سابق)

فالجملتان متفقتان في الخصائص الشكلية لكنهما مختلفتان في الوظيفة التداولية .

وأغلبهم يعتبر هذه الصيغ في الأصل أخبارا نقلت إلى معنى الإنشاء . بل إن الأحناف من الفقهاء قالوا إنها إخبارات على أصلها اللغوي . (2) والمصدر الرئيسي للبحث في هذا القسم (الإيقاعات) هو كتب الفقه وأصوله فإن المعاملات بين الناس من زواج وبيع ورهن وشهادة وإقرار وإجارة ووصية وما إليها لا تتم إلا بإجراء الفعل الكلامي المناسب تشكل غطاء لأداء الفعل بصورة ناجحة .

ويشترط لنجاح أفعال الإعلانات (في الخطابات البشرية) وجود عرف غير لغوي ، فهذه الأفعال تحتاج إلى مؤسسة خارج اللغة فقد تحدث الأصوليون والفقهاء عن صيغ تتحقق بها الإيقاعات مثل : (أنت طالق - أشهد - بعثك - أوصيت - أعتقت - الخ) وهذا يتيح للمتكلم إنجاز أفعال إعلانية دون حصرها في أشخاص معينين كقولهم (حكمت المحكمة) ، ولا مانع أن يتقيد بهذا الاستعمال ببعض الأشخاص كالعلماء أو الراشدين . والمسؤول عن تحقيق المطابقة في الإعلانات قد يكون المتلقي أو المتكلم وقد يكون غيرهما. (3)

(1) - Voir : J Leech , Principles of pragmatics , p 105

(2) - ينظر : القرافي . الفروق . 1 / 28 .

(3) - ينظر : الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 208 .

وهذه الأفعال هي ذاتها التي عدها سيرل من الإعلانات وقد وضع الفقهاء شروطاً صارمة لصحة هذا النوع من الأفعال لا تكاد تختلف عن الشروط التي وضعها كل من أوستين وسيرل.

وأهم هذه الشروط : أن يكون الكلام واضح الدلالة ، على المراد بحيث يفهم من إيقاع الفعل ، فهما لا لبس فيه ، وأن يكون متبعاً أعراف أهل اللغة ، وأن يكون إيقاع الفعل كاملاً ، وأن يعلم كل من المتكلم والمتلقي ما صدر عن الآخر ويوافق عليه .

وهي "أنواع أفعال الكلام التي تغير الحالة عبر لفظها ، ويتوجب على المتكلم تسنم دور مؤسساتي في سياق معين لإنجاز الإعلان بصورة صحيحة".⁽¹⁾ ويكون إيقاع الفعل فيها مقارناً للفظ في الوجود ، فأنت توقع بالقول فعلاً ، وهذا النوع يتسع ليشمل أفعال العقود والبيع والشراء والهبة والوصية والوقف ، والإجازة والإبراء من الدين والتنازل والزواج والطلاق والإقرار والدعوى والإنكار والقذف والوكالة... الخ وهذه كلها يقع فيها الفعل بمجرد النطق بلفظها كما نص على ذلك الفقهاء.⁽²⁾

فهذا الصنف ينشأ بمجرد التصريح به، إحداث تغيير في الوضع القائم ، فالأداء الناجح لهذه الأفعال يحدث تطابقاً بين المحتوى القضوي والوجود الخارجي ، وهذه الأفعال تقتضي عادة عرفاً غير لغوي.⁽³⁾ ومؤسسات غير لغوية (اجتماعية أو قانونية) مثل : المحكمة - الدستور - التشريع الإسلامي - الحاكم - القاضي . وهذه الأفعال مؤسساتية وليست شخصية كما يقول جوفري ليتش.⁽⁴⁾ واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات أو العكس . (اتجاه مزدوج) .

والأفعال الإيقاعية أفعال كلامية مباشرة ، وهي قليلة في الاستعمال العادي ، لأنها تقتصر في الغالب على الأفعال المؤسساتية أو التشريعية : كالتوكيل ، والتفويض ، والوصية ، والتوريث والإجازة ونحوها لأن الأفعال الكلامية إن استخدمت هنا غير مباشرة فسوف تؤدي إلى اللبس وضياح الحقوق.⁽⁷⁾ ولذلك اعتنى الأصوليون والفقهاء بضبط الصيغ اللغوية التي تتعقد بها هذه الأفعال ، بحيث تسوغ هذه المؤسسة للفعل الإنجازي عند أدائه بصورة ناجحة إحداثاً للتغيير المطلوب... ولا تحتاج الأفعال هنا من شرط الإخلاص سوى الاعتقاد بأن الفعل وقع ناجحاً . فإذا أديت فعل إعلان الحرب

(1) - جورج يول . التداولية . ترجمة : قصي العتابي . ص 89 .

(2) - ينظر : محمد مصطفى شلبي . المدخل في الفقه الإسلامي . ص 434 .

(3) - Voir : Searle , Classification of Illocutionary acts , p 13 .

(4) - Voir : J.Leech , principles of pragmatics , p 106 .

(7) - ينظر : محمود نحلة . مرجع سابق . ص 83 .

أداء ناجحا فالحرب معلنة." (5) وأفعال هذا المجال عند أوستين كانت مبعثرة بين مجال الأحكام ومجال القرارات وكان لسيرل الفضل في تجميعها في مجال واحد. (6)

أنواع الإيقاعات :

تنقسم الإيقاعات باعتبار شرط الصراحة إلى نوعين :

الإيقاعات التامة : بحيث يعتقد المتكلم أن فعله بمجردده يحقق المحتوى القضوي .

الإيقاعات الناقصة : يعتقد المتكلم بأن فعله لا يحقق سوى جزءا من المطلوب. (1)

الفرق بين الإيقاعات والعقود : إن كلا من الإيقاعات والعقود يوجد التلفظ بها حالة جديدة من عقد أو فسخ وما إليهما . لكن الاختلاف يكون في أن الإيقاع يتم بفعل واحد ، أما العقد فلا يتم إلا بفاعلين ، وينعقد بالصيغة (الإيجاب والقبول). فمثلا :

الطلاق بحسب الشرع الإسلامي إيقاع . ويكفي أن يقول الزوج : أنت طالق .

أما الزواج فهو عقد لا يتم إلا بفاعلين يؤدي كل واحد من الطرفين (إيجاب وقبول) ومن ثم توجد العلاقة وهذا الفرق بحسب معايير سيرل هو باعتبار نمط تحقيق الغرض المتضمن في القول وهناك فرق آخر بينهما باعتبار شرط الصراحة أن في الإيقاعات التامة يعتقد المتكلم أنه بمجرد فعله يحقق المحتوى القضوي ، أما في الإيقاعات الناقصة فيعتقد المتكلم بأن فعله لا يحقق سوى جزءا من المطلوب .

الإيقاعات الصريحة والتقريرية : تستعمل الصيغ الموضوعية للدلالة على الخبر لتدل على المعاني الإنشائية . "يكون إيقاع الفعل فيها مقارنا للفظه في الوجود ، فأنت توقع بالقول فعلا". (2) وهي تتسع لتشمل أفعال البيع والشراء والهبة والوصية والوقف واللاجارة والإبراء من الدين ، والتنازل عن الحق ، والزواج والطلاق والإقرار والدعوى والإنكار والقذف والوكالة ... الخ. وهذه كلها يقع الفعل بمجرد النطق بلفظها كما نص على ذلك الفقهاء . (3) بل إن منها ما يقع وإن كان المتكلم هازلا ، فقد جاء في حديث أبي هريرة عن النبي (ص) : (ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة) (4) .

وقد وضع الفقهاء شروطا صارمة لصحة هذا النوع من الأفعال الإنجازية وأهمها : أن يكون الكلام واضح الدلالة على المراد بلا لبس ، وأن يكون متبعا أعراف أهل اللغة ، وأن يعلم المتكلم والمخاطب ما صدر عن الآخر ويوافق عليه ، وأن يكون إيقاع الفعل كاملا ، وأن يكون زمن الفعل حاضرا أو

(5) - علي محمود الصراف . الأفعال الإنجازية . ص 63 .

(6) - ينظر : نفسه . ص 63 .

(1) - ينظر : هاشم طبطائي . مرجع سابق . ص 106

(2) - محمود نحلة . مرجع سابق . ص 98 .

(3) - ينظر : محمد مصطفى شلبي . المدخل في الفقه الإسلامي . ص 434 .

(4) - ابن قيم الجوزية . إعلام الموقعين . 123 / 3 .

مستقبلا ، فإذا كان ماضيا لفظا ومعنى كان إخبارا.⁽⁵⁾ وقد يكون إيقاع الفعل صريحا أو ضمنيا ، فقد ورد إيقاع فعل الوعد صريحا في قوله تعالى : ﴿وَاللّٰهُ يَعِدْكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ ووقع ضمنيا في قوله تعالى : ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص7] وهنا وعدان : الرد والرسالة ، وبين في آية بعدها أن الرد كان وعدا .

الصيغة اللغوية لفعل الشهادة : قد يتحول الفعل الشهادي إلى إنشاء صريح فيصبح مقابلا لظواهر كلامية ثلاث هي (الخبر ، الرواية ، الإخبار الإنشاء) فيكتسب صفة الإنشائية ، ويعامل معاملة 1 الإنشاء عند القرافي : " فإذا قال الشاهد : أشهد عندك أيها القاضي بكذا ... كان إنشاء ، ولو قال : شهدت . لم يكن إنشاء.⁽¹⁾ وكل هذا بسبب الصيغة اللغوية التي تعبر عن فعل الشهادة وهي ميزة عامة في نظائره لأن القرافي يقرر أن فعل البيع وفعل الطلاق تؤثر صيغها في إيقاعها الإنجازي ومن ثم لا يقول بتوحيد صيغ الأفعال الكلامية كما يذهب إليه أوستين والمعاصرين⁽²⁾ .

المبحث الثاني : الإيقاعات التصريفية (الإذن والمنع)

التصرف : وهي الأفعال التي تؤدي بنجاح ينشأ عنه التصرف بعمل معين مثل : الوصية ، والرهن ، والبيع ... وقد ينشأ عنه الكف عن التصرف ومن ثم قسمنا التصرف إلى قسمين :
أفعال الإذن و الإجازة : فمن الأفعال المتعلقة بالإجازة نجد مثلا : الوصية للمرأة المطلقة ، والوصية للوالدين والأقربين ، والرهن ، والبيع ، والقتال في الشهر الحرام .

الوصية للمطلقة :

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [الآية 213]
في هذه الآية فعل كلامي هو الوصية للمطلقة بالمتاع حول ، وكرر هذا الإعلان في قوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ للتأكيد . وهو فعل كلامي من صنف الإيقاعات واتجاه المطابقة فيها هو من القول إلى العالم . ليلتزم الناس بهذا الإعلان مخالفة لعمل أهل الجاهلية وإبطالا لتقاليدهم . لأنه يتضمن محتوى قضويا صادقا وحكما تشريعيًا إسلاميا خالصا مصدره السلطة الإلهية المطلقة . والأمر بالوصية موجه إلى المكلفين من الأزواج ، بعدم إخراج المطلقة من بيتها حولا . وقد أحدث هذا الإيقاع تغييرا في واقع الناس بمجرد إعلانه ، وقد أكد المرسل إرادته في وقوع هذا الفعل وتحققه والعمل به والامتنال له ، وذلك بالإشارة إلى التحذير من مخالفة أمره بقوله تعالى : ﴿وَاللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على أمره.⁽³⁾

(5) - ينظر : محمد مصطفى شلبي . المرجع نفسه . ص 420 .

(1) - القرافي . الفروق . 1 / 74

(2) - علي حسب الله . أصول التشريع الإسلامي . ص 252

(3) - فقد ناسب وصفه تعالى بالعزة وهو ، القهر والغلبة ، وهذا يناسب التكليف . أبو حيان الأندلسي . البحر المحيط . 2 / 463 .

والإيقاعات في هذه الحالة كالأمریات ، يكون المخاطب فيها هو المسؤول عن إحداث المطابقة وهم المؤمنون وكذلك يكون الإيقاع (لِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ) هو نفسه عملية مطابقة . وليس الإخبار هو المراد من تلك الجملة ذات الصيغة الخبرية (لِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) إنما المراد من اللفظ بها إيقاع فعل كما صنف ذلك أوستين في المرحلة الأولى ، وهو فعل الوصية .

الوصية للوالدين : قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ

لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٨٠﴾

تحليل الفعل الإيقاعي (الوصية للوالدين والأقربين) : والمراد به الوصية عند الموت . وقد جاء هذا الفعل الكلامي الإيقاعي حكما مستقلا ، وهو من الأحكام الشرعية التي تستمد قوتها من سلطة الخطاب الإلهي . والغرض الإنجازي للفعل الكلامي هو إحداث المطابقة من القول إلى العالم ، وذلك بالوصية عند الموت ، بجزء من المال للوالدين والأقربين . وهو تشريع إسلامي يبطل عمل أهل الجاهلية الذين قطعوا الأرحام وغفلوا عن أداء الحقوق ، فنقلهم هذا الفعل الإيقاعي إلى واقع جديد ، تسوده مبادئ العدل ، والرحمة ، وصلة الأرحام ، ورعاية الضعفاء ، وحماية الأقربين .

تشريع الرهان في المعاملات :

قال تعالى : ﴿فرهان مقبوضة﴾

والآية دالة على فعل كلامي من صنف الإيقاعات التقريرية التي هي مثل الأمریات غرضها حمل المخاطب على الامتثال للتشريع الإسلامي وللتوجيهات الإلهية المتعلقة بتنظيم المعاملات بين الناس ، وتنص الآية على أن الله شرع لهم حكم الرهن في حالة السفر ولم يتمكنوا من الكتابة لعدم وجود من يكتب ويشهد تلك المداينة . والرهن هو أن يجعل شيء من متاع المدين بيد الدائن توثقة له في دينه ، والرهن يدل على الحبس ، فالمرهون محبوس بيد الدائن إلى أن يستوفي دينه ، والرهن شائع عند العرب فقد كانوا يرهنون في الحملات والديات فربما رهنوا أبناءهم أو أحد صناديدهم ⁽¹⁾ . ويؤخذ من الإذن في الرهن أنه مباح ، والإذن هو أحد الأفعال الكلامية عند الأصوليين .

والفعل الإيقاعي هنا يقر التعامل بالرهن المعروف في الجاهلية فهو لا يبطله ولا يستبدله ، وإنما يستصحب حكمه . " إذ قد علم من الآية أن الرهن معاملة معلومة لدى المخاطبين فلذلك أحيلوا عليها عند الضرورة على معنى الإرشاد والتنبيه . وذهب مالك إلى أن القبض شرط في اللزوم ، لأن الرهن

(1) - ينظر . ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 120 .

عقد يثبت بالصيغة كالبيع والقبض من لوازمه ولذلك يجبر الراهن على تحويز المرتهن ، وأن الله جعل الرهن عوضا عن الشهادة في التوثيق".⁽²⁾

حكم البيع : قال تعالى : ﴿ وأحل الله البيع ... ﴾

العبارة تتضمن فعلا كلاميا إيقاعيا ، والمتكلم هو الله عز وجل جوابا عن كلام متقدم، بادعاء المساواة في قولهم : (إنما البيع مثل الربا) . وجاء الجواب مقرررا الحكم معرضا عن مجادلة المشركين ، إذ لا جدوى فيها ، لأنهم قالوا ذلك كفرا ونفاقا ، وهو من ناحية أخرى إقناع للمسلمين بأن ما قاله الكفار هو شبهة محضة ، وأن الله قد أباح هذا ، وقد أعلن الله هذا القرار ، وهو صادر عن متكلم عليم لوضع قواعد تنظيم حركة المال والمعاملات في الأمة ، "حيث دل بمنطوقه الصريح على جواز البيع وتحريم الربا ؛ فهي دلالة أولية ناتجة عن العلاقة بين دال ومدلول هذه الآية".⁽¹⁾

وغرض الفعل الكلامي الإيقاعي هو: إقرار صنف من المعاملات المشروعة وهو البيع . فالمراد ليس الإخبار بتلك الجملة ، وإنما إنجاز فعل كلامي بتحقيق التغيير بالانتقال من حال إلى حال ، والإيقاعات مثل الأموريات المسؤول فيها عن إحداث المطابقة هم المخاطبون (المسلمون) بحملهم على الامتنال لمضمون هذا التوجيه ، وقد علم السامعون أن المتكلم أحل البيع لأنه إعانة لطالب الحاجات . و حاجيا للأمة .⁽²⁾

حكم القتال في الأشهر الحرم :

قال تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾

فعل كلامي من صنف الإيقاعات وهو إعلان من الله عز وجل إلى الناس ، وحث لهم على عدم القتال في الشهر الحرام كما هو معلوم لدى الناس في الجاهلية والإسلام ولكن المشركين هتكوا حرمة الشهر الحرام (ذي القعدة) حين اعتدوا على المسلمين في عام الحديبية ، وصدوهم عن البيت الحرام ، ولما خرج المسلمون لعمره القضاء في شهر ذي القعدة وكانوا يكرهون القتال فيه أخبرهم الله تعالى أن القتال جائز لهم في هذا الشهر بسبب هتك المشركين حرمة فقال تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ . ثم أكد ذلك بقوله تعالى : (

(2) - ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 121 .

(1) - إدريس بن خويا . البحث الدلالي عند الأصوليين . قراءة في مقصدية الخطاب الشرعي عند الشوكاني . ط 1 / 2009 . مطبعة بن سالم الأغواط . الجزائر . ص 32 .

(2) - : ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 32 .

والحرمت قصاص) ، فاقتضى أن كل من هتك أي حرمة اقتص منه بهتك حرمة .⁽³⁾ قال الزجاج : "معناه جواز قتالهم في الشهر الحرام".⁽⁴⁾

فالفعل الكلامي الإيقاعي أحدث تغييرا في واقع الناس وتحقق به معيار المطابقة من الكلمات إلى العالم بصور الإعلان الإلهي (الحرمت قصاص) ويترتب على الإخلال به مخالفات شرعية . والغرض الإنجازي من هذا الإيقاع هو إلغاء حكم سابق وإبطال مفعوله ليسري القانون الجديد وهو (الشهر الحرام بالشهر الحرام) أي أباح الله لهم قتال المدافعة ، وهو من قبيل قولهم (يوم بيوم والحرب سجال) وعدل القوة الإنجازية للفعل الكلامي باستخدام (الباء) في قوله (بالشهر) للتعويض كقولهم (صاع بصاع) ، وليس ثمة شهران بل المراد انتهاك الحرمة منهم ومنكم وهما انتهاكان .⁽¹⁾ والمسؤول عن إحداث المطابقة هم المخاطبون (المؤمنون) وهذا يعني أن اتجاه المطابقة من القول إلى العالم .

أفعال المنع :

المنع : هو النهي عن إيقاع بعض الأفعال ، لعدم الإذن للمكلف القيام بإنجازها ، فكأن الإنجاز هنا هو في التوقف عن التصرف ، أو العمل المنصوص عليه ، ويشمل هذا الصنف أفعال التحريم وما كان في حكمه مثل : تحريم الربا ، ومن المنع قوله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ وقد جاء النهي عن إيقاع الفعل كالنهي عن نكاح المشركات ، والنهي عن تزويج المشركين . فقد قال الألويسي : "والمراد النهي عن إيقاع هذا الفعل ، لأنهم كفار يدعون إلى النار".⁽²⁾

تحريم الربا : قال تعالى : ﴿وحرم الربا﴾

العبارة تتضمن فعلا كلاميا إيقاعيا ، والمتكلم هو الله عز وجل جوابا عن كلام متقدم بادعاء المساواة في قولهم (إنما البيع مثل الربا) . وجاء الجواب مقرر الحكم معرضا عن مجادلة المشركين ، إذ لا جدوى فيها لأنهم قالوا ذلك كفرا ونفاقا ، وهو من ناحية أخرى إقناع للمسلمين بأن ما قاله الكفار هو شبهة محضة ، وأن الله قد حرم هذا ، وقد أعلن الله هذا القرار ، وهو صادر عن متكلم عليم لوضع قواعد تنظيم حركة المال والمعاملات في الأمة ، وغرض الفعل الكلامي الإيقاعي هو إبطال صنف من المعاملات عرفت في الجاهلية وهي الربا . فالمراد ليس الإخبار بتلك الجملة وإنما إنجاز فعل كلامي بتحقيق التغيير بالانتقال من حال إلى حال ، والإيقاعات مثل الأموريات المسؤول فيها عن إحداث

(3) - أبو حيان . البحر المحيط . 2 / 272 .

(4) - الزجاج . معاني القرآن . 1 / 228 .

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . مرجع سابق . 2 / 210 .

(2) - الألويسي . روح المعاني . 2 / 708 .

المطابقة هم المخاطبون (المسلمون) بحملهم على الامتثال لمضمون هذا التوجيه ، وقد علم السامعون أن المتكلم حرم الربا لأنه استغلال لحاجة الفقير ، وهو محرم ألغيت حاجياته لما عارضها من المفسدة .⁽³⁾

المبحث الثالث : الإيقاعات التقريرية (الإعلانات) :

أفعال القرارات والأحكام :

وهو صنف يتصل بالأحكام والتصريحات التي يصدرها المتكلم تجاه المتلقي ، ومن أمثلتها :

إعلان الحقوق والواجبات ، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ و﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

وكذلك مثل إعلان أحكام القصاص كما في قوله تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ . وقوله تعالى :

﴿والحرمة قصاص﴾ . ومثل قرار إعلان الحرب على المرابيين ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ .

قال تعالى : ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ [الآية 178] .

هذه أفعال كلامية إيقاعية من صنف الإيقاعات التقريرية Assertive . Declaratives

لأنها أفعال تؤثر على العالم الاعتباري القانوني ، ويصل تأثيرها إلى ضبط العلاقات بين الناس ، ويترتب على الإخلال بها مخالفات شرعية ، وعقوبات قانونية واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات ، ومن الكلمات إلى العالم (اتجاه مزدوج) كما سماه سيرل . "وهذا الاتجاه يلائم الإيقاعات والتقريريات ."⁽¹⁾

وقانون الحر بالحر في أحكام القصاص هو محتوى قضوي صادق ، ومصدر هذا القرار هو السلطة التشريعية الإلهية ، والأمر به موجه إلى المكلفين من أولياء الدم يتضمن الحق بالتقابل المذكور (الحر بالحر) وعدم مجاوزته إلى أخذ الحر بالعبد كما يفعل أهل الجاهلية . وهذه الشروط المحققة لإنجاز الفعل تجعله كافيا لتحقيق المطابقة بين القول والعالم .⁽²⁾ والغرض من هذا الفعل هو إحداث تغيير في العالم بسن هذا القانون الذي يلغي أحكام الجاهلية ويبطلها بإعلان تشريع إسلامي خاص به بالإستناد إلى مؤسسة غير لغوية - Institution Extra-linguistic لهذا الصنف من الأفعال محدود جدا كما يقول سيرل .⁽³⁾

أما الحالة النفسية التي تعبر عنها الإيقاعات ، فهي إرادة المتكلم -وهو الله عز وجل- في وقوع هذا الفعل وتحقيقه بنجاح .⁽⁴⁾ وبذلك يكون قد أوقع فعلا بمجرد القول . عن طريق إيجاد واقع لأنه لا يراد بالإيقاعات وصف واقع ، ومن ثم تحقق الانتقال إلى واقع جديد يهيمن فيه

(3) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 32 / 3 .

(1) - مسعود صحراوي . مرجع سابق . ص 63 .

(2) - 45 p , 1985 , Cambridge University Press , Foundations of Illocutionary logic , Searle & Vanderveken . Voir :

(3) - IBID . P 57 .

(4) - ينظر : ططباناني . مرجع سابق . ص 32 .

الحكم الشرعي بحيث : لا يقتل الحر إلا بالحر ، ولا يقتل العبد إلا بالعبد ، ولا تقتل المرأة إلا بالمرأة.⁽⁵⁾ وتعتبر سلسلة الأفعال الإيقاعية المذكورة عن أفعال كلامية أخرى متضمنة في القول هي : التخصيص والتبيين ، لأن وظيفة هذه الجملة تبين ما قبلها وتخصيص بعض جزئياتها . وذكر الإمام الرازي الغرض الإنجازي لهذه الآية فقال : "إن من فوائدها بيان إبطال ما كان عليه بعض أهل الجاهلية من مخالفات ، ففائدة التخصيص زجرهم عن قتل العبد الحر من قبيلة القاتل ، والآية محكمة ، وفيها إجمال بينه في مواضع أخرى."⁽⁶⁾ وهناك من يرى أن اتجاه المطابقة في الأفعال الكلامية الإيقاعية هو من العالم إلى القول ، فالإيقاع (الحر بالحر) يراد به تغيير العالم . من عالم فيه يقتل الحر بالعبد ، إلى عالم فيه يقتل الحر بالحر. وهذا يعني أن اتجاه المطابقة هو من العالم إلى القول . فالإيقاعات من هذه الناحية مثل : الأمرات والوعديات .

لأن المسؤول عن المطابقة في الأمرات هو المخاطب وهم المؤمنون ، وهذا هو الشرط الأساسي ممثلاً في إرادة المتكلم التأثير في المخاطبين لينجزوا الفعل . وكذلك في هذا الصنف من الأفعال الكلامية يكون الإيقاع (الحر بالحر). هو نفسه عملية مطابقة من العالم إلى القول .⁽¹⁾ ونفس الشيء يقال عن الإيقاعين (العبد بالعبد) و (الأنثى بالأنثى) .

قال تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ الآية 179 .

فعل كلامي إيقاعي ، فالمتكلم هو الله عز وجل والمخاطبون هم المسلمون ، والغرض من هذا الفعل الكلامي هو تشريع حكم القصاص بديلاً عن الثأر المعروف في الجاهلية ، ومن ثم سعى هذا الفعل الإيقاعي إلى تغيير سلوك الناس في الواقع ، ونقلهم من أحكام الجاهلية إلى عدالة الإسلام . ويتضمن هذا القرار : أن لا يقتل إلا القاتل تحقيقاً للمماثلة ، وقد كان في العرب من لا يرضى أن يأخذ بعبد إلا حراً ، وبوضيع إلا شريفاً ، وبامرأة إلا رجلاً . فردهم الله عن ذلك إلى القصاص .⁽²⁾ وهذا الفعل الكلامي الإيقاعي يعتبر حكماً شرعياً يستمد قوته من سلطة المشرع سبحانه وتعالى باعتبار خطابه مقابلاً للإطار المؤسساتي ، ويتضمن القول محتوى قضوياً صدقاً ، والأمر فيه موجه إلى المكلفين من أولياء الدم ألا يثأروا من القاتل على تقاليد الجاهلية بأن يقتلوا العشرات من قبيلة القاتل ، بل يحتكموا إلى هذا القرار الشرعي

(5) - ينظر : القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 2 / 165 .

(6) - فخر الدين الرازي . التفسير الكبير . 3 / 54 .

(1) - ينظر : الطبطباني . مرجع سابق . ص 131 .

(2) - ينظر : أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . 1 / 61 .

وهو مبدأ القصاص ،إبطالا لعمل أهل الجاهلية ، ويتضمن القول إرادة المتكلم وقوع هذا الفعل الكلامي ، وتحققه في الواقع بنجاح ، وبذلك يكون قد أوقع فعلا بمجرد القول .

قال تعالى : ﴿ وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْعُرْفِ ﴾

الفعل الكلامي الأول من صنف الإيقاعات التقريرية (ولهن مثل الذي عليهن) وغرض هذه الإيقاعات تقرير أحكام شرعية ، بمعنى أن لهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن . فجاء هذا الإعلان الإلهي بالدعوة إلى التزام كل طرف بحقوق الآخر. فحقوق الرجل على النساء مشهورة ، أما حقوق النساء فكان يميزها الغموض والإهمال والتهاون وبخاصة في العصر الجاهلي . فلما جاء الإسلام أقامها ، وفي الآية إعلان لحقوق النساء وإصداع بها وإشادة بذكرها وإبطالا لمعاملة الجاهلية ، وما فيها من مهانة وتحقير، ومن ثم كان الفعل الكلامي يعبر عن عن إرادة المتكلم في تحقيق التغيير ، وإظهار عدالة الإسلام وإعلان هذه الحقوق . فأصبحت المرأة ترث وتشارك في اختيار مصيرها ، وإن كان هذا الإعلان مجملا فقد جاء تفصيله في مواضع أخرى .

ولتعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي قدم الظرف (لهن) للإهتمام بالخبر ، فقدم ليصغي السامعون إلى المسند إليه.⁽¹⁾ ومصدر هذا الإعلان هو السلطة الإلهية المشرعة ، موجه إلى المكلفين لإحداث المطابقة في الواقع ، وإعطاء الحقوق لأهلها . فتكون المرأة بذلك في واقع جديد ، يكفل لها العزة والمساواة فالآية تبين أن لكل واحد من الزوجين حق على الآخر ، لأن العبارة (ولهن مثل الذي عليهن) تضمنت الوجوب.⁽²⁾ وليس غرض الجملة الإخبار، إنما الغرض إنجاز فعل لتحقيق التغيير في الواقع وإبطال أحكام الجاهلية .

قال تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هذا فعل كلامي من صنف الإيقاعات التي تهدف إلى تقرير أحكام شرعية . فعلى النساء مزيد إكرام وتعظيم لرجالهن ، والعلة في ذلك هي : كون الرجل يغالب الشدائد والأهوال ، ويسعى دائما في مصالح زوجته ، ويكفيها تعب الاكتساب ، فبإزاء ذلك صار عليهن درجة للرجال في مبالغة الطواعية .⁽³⁾ فالفعل الكلامي التقريري يخبر عن مكانة الرجل وفيه إثبات لتفضيل الأزواج في حقوق كثيرة على نسائهم . وقوى إنجازية الفعل الكلامي بتقديم الخبر ، وقدم للاهتمام بما تفيده اللام من عمى استحقاقهم تلك الدرجة وفي هذا الاهتمام مقصدان : أحدهما : دفع توهم المساواة بين الرجال

(1) - ينظر : الطاهر ابن عاشور . التحرير والتنوير مرجع سابق . 396 / 2 .

(2) - ينظر : الرازي . مرجع سابق . 101 / 3 .

(3) - ينظر : أبو حيان . مرجع سابق . 462 / 2 .

والنساء مطلقا . وثانيهما : تحديد إثارة الرجال على النساء بمقدار مخصوص لإبطال إثارةهم المطلق الذي كان متبعا في الجاهلية .⁽⁴⁾ وليس غرض الجملة الإخبار ، إنما الغرض حمل المخاطبين إنجاز فعل على تحقيق ذلك التغيير المنشود .

وإبطال أحكام جاهلية سابقة . ولذلك جاءت جملة التذليل (والله عزيز حكيم) لإقناع المخاطبين ، ومن ثم يعلم المتلقين أن الله لما شرع حقوق النساء يقصد الحث على الاستجابة والامتثال للمشرع الحكيم . ولا يرون في المساواة بالنساء إهانة لكرامتهم وعزتهم . فإن الأمر بذلك هو العزيز الحكيم الذي لا يعجزه أحد . "وأنه حكيم يعلم صلاح الناس ، وأن عزته تؤيد حكمته فينفذ ما اقتضته الحكمة بالتشريع ، والأمر الواجب امتثاله ، ويحمل الناس على ذلك وإن كرهوا."⁽⁵⁾

قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (*)

يتضمن هذا القول فعلا كلاميا إيقاعيا من صنف الإعلانات ، إذ فيه يعلن المتكلم وهو الله عز وجل هذا المبدأ التشريعي الإسلامي الإنساني . والمكلفون بإحداث المطابقة هم المؤمنون المقاتلون بصفة خاصة ، والمكلفون بصفة عامة . والغرض من هذا الفعل الكلامي هو تشريع الحكم الإسلامي المتعلق بالقتال وإعلانه إلى الناس كافة ، ويتضمن القول محتوى قضويا صادقا معبرا عن إنسانية الإسلام وعالميته ، ومبلغا لفكرة التسامح ، وأن الإسلام هو الإيمان عن قناعة واختيار . ويسعى هذا الفعل الكلامي إلى تحقيقه في الواقع ؛ بأن لا يفهم الناس أن القتال يراد به دخول العدو في الإسلام . فهذه الآية تتضمن أحكاما متفرعة عن الأمر بالقتال مما قد يفهم أن القتال لأجل دخول العدو في الإسلام هو المقصود ، فبين أنه لا إكراه على الدخول في الإسلام . وقد جاء الفعل الكلامي في صيغة خبرية ليؤدي بها معنى النهي (لا إكراه في الدين) ؛ أي لا تكرهوا في الدين وتجبروا عليه.⁽¹⁾ ولتقوية إنجازية هذا المنطوق استعمل السياق الأداة (قد) وهي أداة تحقيقية صدرت بها جملة (قد تبين الرشد من الغي) لزيادة تقرير المضمون وتعليله ، سيما وأن هذه الآية جاءت عقب آية الكرسي وهذا يحملها من الدلالات ما لا يخفى ، فكان الجملة المتضمنة للفعل الكلامي جاءت جوابا عن سؤال حول أهل الشرك : أيتروكون عليه أم يكرهون على الإسلام ؟ فكانت الجملة استئنافية بيانيا.⁽²⁾ والألفاظ المستعملة في السياق تساهم في تعديل القوة الإنجازية للفعل الكلامي ، (فالإكراه) "هو الحمل على فعل مكروه ، والهمزة فيه للجعل ؛ أي جعله ذا كراهية ، ولا يكون ذلك إلا بتخويف وقوع ما هو أشد كراهية من الفعل المدعو إليه."⁽³⁾ والمراد نفي

(4) - ينظر : ابن عاشور . مرجع نفسه . 2 / 401 .

(5) - نفسه . 2 / 403 .

(*) - هناك خلاف حول كون الآية محكمة أو منسوخة .

(1) - ينظر : الألوسي . مرجع سابق . 3 / 20 .

(2) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 3 / 25 .

(3) - ابن عاشور . نفسه . 3 / 25 .

أسباب الإكراه .والفعل الإيقاعي مثل الأفعال الأمرية اتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم ، بحيث يطلب من المخاطبين ألا يكرهوا أحدا على الدين ، ويطلب تحقيق ذلك في الواقع ، وذلك هو مراد المتكلم الذي أنجز الفعل بمجرد التلفظ ، بحيث يترتب على عدم الامتثال الوقوع في مخالفات شرعية وقانونية ، ولعل ذلك ما أراده الرسول (ص) بقوله "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" عندما قتل رجلا نطق بشهادة الإسلام .⁽⁴⁾

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

الغرض الإنجازي لهذا الفعل الكلامي هو إعلان الحرب على المرابين ، فالآية تدل على معنيين :

الأول : الإعلام بحرب حقيقية كحرب المرتدين أو البغاة .

والثاني : قيل لا حرب حقيقية وإنما هو تهديد وتخويف .

وجمهور المفسرين على الأول . ونكر (حرب) للتعظيم وهذا يعدل القوة الإنجازية للفعل الإيقاعي ، ليجعل التهديد أقوى وأكثر خطورة . وهذا الإعلان صادر عن السلطة الإلهية في سياق تشريع الأحكام الإسلامية فقد أوقع المتكلم بالقول فعلا بإعلان الحرب ، مما يؤدي إلى إحداث تغيير في الوضع القائم ، ومن ثم يحدث التطابق بين المحتوى القضوي والوجود الخارجي .والقصد هو تغيير الواقع السائد في العصر الجاهلي ، بانتشار التعامل الربوي ، والقضاء على ما تبقى منه في بداية العهد الإسلامي . وجاء هذا الإعلان بعد أن بين سبحانه وتعالى عواقب الربا وحرمة ، وكيف أنه يحقه ولا يبارك فيه وهو بجانب ذلك يشجع على الإحسان ، والصدقات التي يباركها ويضاعفها . وأن إيمان الذين آمنوا معلق على ترك ما بقي من الربا وذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . والمشرع الحكيم "ترك لهم ما سلف من الربا ، ولم يقرر استرداده منهم ولا مصادرة أموالهم."⁽¹⁾ فإن لم يفعلوا فليتقوا هذا الإعلان المزلزل في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ . وعلى قراءة (فأذنوا) أي كونوا على علم ؛ بمعنى اعلم ذلك واستيقنوه ، وكونوا على إذن من الله عز وجل ، وعلى قراءة (فأذنوا) بمعنى أعلموا غيركم وأخبروهم بأنكم على حربهم .⁽²⁾ "ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالا كانوا مرتدين ... وإن لم يكن ذلك منهم استحلالا جاز للإمام محاربتهم ألا ترى أن الله تعالى قد أذن في ذلك."⁽³⁾ "وقد أمر رسول الله

(4) - ينظر : ابن هشام . السيرة النبوية . 429/2 .

(1) - سيد قطب . في ظلال القرآن . 1 / 304 .

(2) - ينظر : القرطبي . الجامع لأحكام القرآن . 3 / 235 .

(3) - القرطبي . المرجع نفسه . 3 / 235 .

(ص) عامله على مكة بعد نزول هذه الآيات أن يحارب آل المغيرة هناك ، إذا لم يكفوا عن التعامل الربوي ، وأمر الرسول (ص) في خطبته يوم فتح مكة بوضع كل ربا الجاهلية ، وأوله ربا عمه العباس".⁽⁴⁾ وقال ابن عباس : "من كان مقيما على الربا لا ينزع منه فحق على إمام المسلمين أن يستثيبه فإن نزع وإلا ضرب عنقه".⁽⁵⁾ وهكذا تحقق الإنجاز الناجح للفعل الكلامي ، الذي أسهم في تغيير الواقع .

الإيقاعات الصريحة:

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ 117

في قوله تعالى : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فعل كلامي إيقاعي يتحقق الفعل بمجرد التلفظ بالمنطوق الإنجازي ، أي يحصل الشيء ويتحقق وجوده بصدر الأمر الإلهي إلى المأمور ، فيتمثل له ، أو يتحقق في الوجود . وجاءت هذه الآية لكشف شبهة النصاري وإثبات أنه لا يتخذ ولدا وأن كل ذلك راجع إلى التكوين والتقدير . وغرض الفعل الكلامي إظهار قدرة الخالق سبحانه وتعالى على سرعة الخلق والإيجاد ولذلك جاء بالفعل (كان) وكان هنا تامة لا تطلب خبرا "أي يقول له : إيجد فيوجد ، والظاهر أن القول والمقول ، والمسبب هنا تمثيل لسرعة وجود الكائنات إذا تعلق إرادة الله بذلك".⁽¹⁾ ويكون الإشكال هنا في من يحدث المطابقة في الواقع ؟ من الكلمات إلى العالم وهنا مكن الإعجاز ، وظهور قدرة الخالق على الإيجاد إذ ليس المراد بقوله : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾⁽²⁾ أنه تعالى يقول له كن فحين إذن يتكون ذلك الشيء ، فقد يكون الخطاب لمعدوم ، أو يكون لموجود بأن يصير موجودا أو أن المخلوق قد يكون جمادا ، فتكون الكائنات المخلوقة هي المسؤولة عن إحداث المطابقة في الوجود بأن تستجيب للأمر الإلهي وقد أول الرازي ذلك بأن المراد بهذه الكلمة سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء.⁽³⁾ ووافقه العلامة الألوسي بأنه : "ليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال ، وإنما هو تمثيل لحصول ما تعلق به الإرادة بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف ، وهذا من قبيل الاستعارة التمثيلية... وكان أصل الكلام إذا قضى أمرا فيحصل عقيب دفعه فكأنما يقول له ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾". ووافقهما الشيخ الطاهر ابن عاشور على تأويل القول الإيقاعي بأنه يراد به سرعة نفاذ قدرة الله ، فقد "شبه الله تعالى بتكون شيء وحصول المكون عقب

(4) - نفسه . 235 / 3 .

(5) - سيد قطب . المرجع نفسه . 1 / 330 .

(1) - ينظر : ابن عاشور . مرجع سابق . 1 / 687 .

(2) - الألوسي . روح المعاني . 1 / 508 .

(3) - ينظر : الرازي . التفسير الكبير . 2 / 30 .

ذلك بدون مهلة بتوجه الأمر للأمور بكلمة الأمر وحصول امتثاله عقب ذلك ، لأن تلك أقرب الحالات المتعارفة التي يمكن التقريب بها في الأمور التي لا تتسع اللغة للتعبير عنها.⁽⁴⁾ ، ثم قال: وإلى نحو هذا مال صاحب الكشف .

وعند سيرل فقد تحقق في هذا القول الإيقاعي إتجاهي المطابقة كلاهما معا ، بحيث أصبح المحتوى القضوي مطابقا للعالم ، وهذا الصنف من الأفعال يسميه سيرل الإيقاعات الخارقة للطبيعة Super natural Declaration. ويعزو سيرل إمكانية إحداث الله التغييرات في العالم غير الاعتباري بالإيقاع إلى القدرة الخارقة Supernatural Power التي يفتقر إليها البشر ، ويرى أنه من الممكن للإيقاعات أن تستغني عن المؤسسات في تحقيق محتواها القضوي⁽¹⁾ ، مثل جملة : (ليكن نور)^(*) أما محدودية التغييرات التي يحدثها البشر بالإيقاع، فليس مردها إلى محدودية الإيقاع نفسه ، بل مردها إلى محدودية القدرة البشرية.⁽²⁾ لا نشك أن القدرة الإلهية تستغني عن الجملة المذكورة في إيجاد النور، وأن إرادة القادر المطلق وحدها كافية لتحقيق التغيير.⁽³⁾

فالفعل الكلامي هنا يتحقق بمجرد صدور الأمر ، وبذلك يكون المتكلم قد أنجز فعلا بقول ، لكنه غير متوقف عليه ، ولعل سيرل يقصد ما ينجزه المولى عزوجل بقدرته الخارقة وإرادته المعجزة وبسلطة جبروته القاهرة في امتثال الكائنات لإرادته ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة الآية 65] وكذلك إخضاعه الكائنات لطاعته كقوله تعالى للسموات والأرض ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَادِيًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت 11] هذا هو الإيقاع الصحيح ، الذي له محتوى قضوي صادق ، فقد كان إنشاؤه كافيا لتحقيق المطابقة بين القول والعالم ، أما الفعل التأثيري فهو في إستجابة المخلوقات وامتثالها وخضوعها لأمر الله .

أفعال العقود والفسوخ :

أما هذا النوع فلم نجد له أمثلة في سورة البقرة ، ولعل ذلك راجع إلى كون العقود تتعقد بفاعلين ، مع إتمام العقد بالصيغة (الإيجاب والقبول) بين الطرفين كما في عقود الزواج ، والبيع ، والإجازة ، والرهن والوكالة ، والنتازل ، والإقرار وغيرها ، فهي في الغالب من خصائص المعاملات بين الناس ، وإن وردت فهي من المجاز ، وهو لا تتعقد به الصيغ الإيقاعية .

(4) - ابن عاشور . نفسه . 1 / 688 .

(1) - ينظر : هاشم طبطباني . مرجع سابق . ص 135 .

(2) - Voir : Searle & Vanderveken ., Foundations of Illocutionary logic , Cambridge University Press , 1985 . p 57

(*) - ولعل ذلك يقابله في القرآن : (كن فيكون)

(3) - ينظر : هاشم طبطباني . مرجع سابق . ص 136 .

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة أن تكشف عن الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني من خلال المدونة المدروسة (سورة البقرة) ، ممثلة في نظرية الأفعال الكلامية ، وما يتصل بها من قضايا تداولية مثل : المناسبة المقامية ، والسياقية ، وأغراض القائل المقامية ، وبعض الاستراتيجيات الخطابية . والبعد العملي للقول ، وأقسام الأفعال الكلامية وطريقة عرضها، وأثرها في تحقيق الإفادة، والتبليغ والإقناع ، والحجاج، والتأثير، والقوة الإنجازية وغير ذلك من هذه القضايا وقد تجلّى من خلال ذلك الكثير من وجوه الإعجاز في البلاغة القرآنية وفصاحته بما ليس في مقدور البشر أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

لقد سعى هذا البحث من خلال السياقات اللغوية في سورة البقرة ، مستثمراً نظرية الأفعال الكلامية إلى التعرف على بنية الفعل الكلامي في النص القرآني ومكوناته وتحديد أنواعه وأغراضه ومستوياته من خلال التداولية الصغرى والتداولية الكبرى ، وشروطه التأسيسية ودرجة الشدة وشروط الصراحة ، وحصر أنواع الكلام في صنفين (الإيقاعات والتقريريات) وإحداث المطابقة فيه ، وما حدث فيها من تحويل دلالي أو بقائها على أصلها المباشر .

تعتبر التداولية ميداناً لغوياً مكماً للسانيات البنيوية ، فهي تحاول فهم الاستعمال اللغوي من خلال سياقات غير لغوية ؛ أي السياقات الاجتماعية والثقافية ، ومقاصد المتكلمين وعلاقة العلامات بمستعملها ، وتستعين أيضاً بالعناصر اللغوية المستعملة في تعديل القوة الإنجازية ومن ثم تعتبر الأفعال الكلامية لب التداولية فهي الوحدة الأساسية في الخطاب ، والتداولية لا تهتم كثيراً بمعنى الجملة إنما تبحث في ماذا يعني المتكلم بتلك الجملة .

إن نظرية الأفعال الكلامية الحديثة التي أسسها رواد الفلسفة التحليلية مثل فثجنشتاين وأوستين ، وسيرل وغيرهم . هي في نظرنا امتداد لنظرية الخبر والإنشاء في التراث العربي ، ويمكن القول أيضاً أنها مبحث يتناول فرعاً من فروع الخبر والإنشاء وهو الصنف الذي لا هو خبر ولا إنشاء، أو هو ما كان ظاهره خبر ومضمونه إنشاء ، وما كان بينهما من مجالات متداخلة ، ولم يعتن أهل اللغة والبلاغة والنحو بهذا الصنف إلا قليلاً ، ولكن اهتم بدراسته الأصوليون والفقهاء والمفسرون حين فسروا النصوص القرآنية والحديثية ، وحين حللوا ضوابط صيغ العقود، والعهود ، والإيقاعات ، والتعاملات ، والمنازعات والأحكام الخطيرة المرتبطة والمتعلقة بحقوق الآخرين بمقاصد الشريعة : حفظ الدين ، وحفظ النفس ،

وحفظ العرض ، وحفظ المال ، وحفظ العقل . كما اهتم بهذا الفرع علماء التشريع والقانون لاحقا ولكن تأثير النظرية الأوستينية ، ظاهرة في هذه المستويات ، ولقد طرح سيرل تساؤله المشهور : كيف يمكن للخبر أن يشكل أمرا ؟ أو كيف تعمل الإنشائيات مع نظائر أخرى من هذه الأسئلة ولكن علماء العرب ناقشوا حلول هذه المشكلات حين اعترضتهم في حياتهم العامة ، وفي تحليلهم للخطابات الواردة بتلك الصيغ ، كما هو عند القاضي أبي بكر بن العربي في الأحكام ، والإمام القرافي في الفروق ، والزمخشري في الكشاف ، وفخر الدين الرازي في تفسيره وغيرهم . بل إن منهم من توسع في تعليل وتحليل الوظائف التداولية لهذا الاستعمال ومسوغاته ، وبخاصة مسوغ استعمال الخبر في معنى الأمر وما يحمله من دلالات كقوله تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ ، و ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ ، و ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ ونظائرها كثيرة في القرآن الكريم .

- حاولت هذه الدراسة أن تكشف عن بعد تداولي آخر ، في هذه المدونة وهو : الاستلزام الحواري وشروط الملاءمة التي اشتهرت عند السكاكي قديما ، وسعى الفيلسوف (غرايس) إلى تحليلها وإثرائها حديثا ، فوضع مراحل للوصول فكلاهما وضع مراحل للوصول إلى معرفة المعنى المستلزم مقاميا . أما معيار المطابقة فقد درسه السيوطي في (همع الهوامع) قديما ، وتناوله الفيلسوف جون سيل حديثا وقسمه إلى أربعة أنواع ، لكنه لم يسلم من النقد وإعادة النظر . أما تعديل القوة الإنجازية فقد تناوله المفسرون والشرح ، وعلماء المعاجم كما فعل أبو هلال العسكري في كتابه : (الفروق اللغوية) ، حيث عمل على إبراز الفروق الدلالية بين الوحدات المعجمية ، وتناول هذا الموضوع حديثا جون سيرل ، واهتم به كثيرا الدكتور محمد العبد في دراساته ، الذي وضع تنظيرا شاملا لتعديل القوة الإنجازية ، وبيان طرقها ووسائلها . وضبط السمات الدلالية الفارقة ، والمؤشرات اللغوية المميزة بين المنطوق الإنجازي القوي والأقوى ، والمنطوق المضعف أو الملطف .

- ساهمت التداولية حديثا في التنبيه على مبادئ التعاون والتأدب والتلطف والملاءمة والتصديق ، وهي الظواهر التي أشار إليها قديما الإمام الماوردي ، وابن قتيبة ، والجاحظ ، والغزالي وغيرهم .

- إن نظرية الأفعال الكلامية كما قدمها رواد الفلسفة التحليلية ، جديرة بالتقدير على الرغم مما قيل فيها ، وما وجه إليها من مآخذ إلا أنها فتحت آفاقا جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، وحركت همم الباحثين نحو التأسيس والتنظير الموازي ، والكشف عن الأبعاد التداولية في المخزون التراثي ، وعن

الوظائف الحجاجية والاستلزام الحواري وسائر المكونات التداولية في النظر النحوي ، أو التقعيد البلاغي من خلال المتن والشروح .

- يمتلك المنهج التداولي آليات تؤهله لتحليل الخطابات بجميع أنواعها، دينية أو قانونية أو سياسية أو أدبية : شعرية كانت ، أو سردية ، أو مسرحية ، أو رسائية ، أو تراثا شعبيا . الخ
- أما الأفعال الكلامية غير المباشرة فهي الأكثر استعمالا في الخطاب القرآني ، فقد غلب استعمال القوة الإنجازية الضمنية في سورة البقرة أكثر من القوة الإنجازية الصريحة ، ولعل ذلك راجع إلى ثقة المرسل في الكفاية التداولية للمتلقي ، وفي كفاءته على التأويل والفهم .
- إن تقسيم الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف ، اقتضى تخصيص فصل لكل قسم منه .
- الأفعال الكلامية الإخبارية (التقريرية) فكانت الأفعال الكلامية الإخبارية دالة على قوة إنجازية مباشرة وأخرى مستلزمة. أما المباشرة فهي : الوصف والإخبار والتقرير . أما القوة الإنجازية المستلزمة فهي : النفي ، والإثبات ، والتأكيد ، الاعتراض ، المدح، التعظيم ، الثناء ، الذم التحقير ، التقرير ، التعريض ، الوعد ، الوعيد ، الجزاء ، والدعاء ، والنهي ، والإباحة ، والأمر ، والتحليل ، والتحريم ، والحث ، والترغيب ، والترهيب . والجواب ، والانكار والإعتراف ، والتذكير ، والاستبعاد ، والتسوية

أما التوجيهيات الذي يسمى (الأمريات) أو الطلبيات فتندرج تحته مجموعة من الأفعال الكلامية مثل : الأمر ، النهي ، الاستفهام ، النداء .

أما الاستفهام : فله قوة إنجازية حرفية هي السؤال ، وله قوى إنجازية مستلزمة مقاميا هي : التقرير ، والإنكار ، والتعجب ، والتمني ، والاستبطاء ، والتحقير ، والاستخفاف ، والنقير ، والتهديد ، والوعيد ، والتهكم ، والتوبيخ ، والتعظيم ، والترغيب ، والحث .

أما الأمر : فله قوة إنجازية حرفية ، وله قوى إنجازية مستلزمة مقاميا هي : الوجوب ، والندب والإباحة ، والتسخير ، والإرشاد ، والتذليل ، والتحدي ، والتعجيز ، والوعد ، والوعيد ، والدعاء ، والتهديد . أما النهي : فله قوة إنجازية حرفية هي النهي ، وله قوى إنجازية مستلزمة وهي : الكراهة ، والإرشاد ، والتهويل ، والتعظيم ، والتحذير ، والتعريض ، ووبيان ، والعاقبة ، والتحقير ، والدعاء .

أما النداء : فله قوة إنجازية حرفية هي الأمر الذي يقتضي الوجوب ، والنهي الذي يقتضي التحريم ، والأمر الذي يفيد التقرير ، وله قوى إنجازية مستلزمة مثل : الإباحة ، والتنزيه ، والندب ، والدعاء ، والإرشاد ، الخ .

أما الوعديات فجاءت منه أفعال كلامية منها : الوعد ، والوعيد ، والتهديد ، والتحذير .

أما التعبيرات (الإفصاحية) فاستعمل القرآن أفعالا تعبيرية نفسية واجتماعية منها :
الامتنان ، والاعتذار ، والمدح ، والذم ، والتبشير ، والإنحاء ، والتمني ، والتضجر ، والغضب ،
والتعجب ، والتنديم ، والتحسير ، والتوبيخ ، والرجاء ، والندم ، والتحقير ، وإشفاق ، وتهكم ، ومواساة

أما الإيقاعات : فهي التي تحقق من خلالها أفعال كلامية إيقاعية تامة أو ناقصة ، أو
إيقاعات صريحة ، أو تقريرية ، أو إيقاع الأصالة ، أو إيقاع التبع .

وقد وجدنا من هذه الأنواع مثل : الوصية ، والرهن ، والبيع ، والربا ، والإكراه ، والقتال ، والقصاص
والقتال في الأشهر الحرم .

- كثرة استعمال فعل (الامتنان) في القرآن ، لأن الله أنعم على عباده بنعم كثيرة يمتن بها عليهم
ويذكرهم بها ، فكثيرا ما يقترن التذكير بالامتنان ، وغرضه حث الناس على شكر النعم .

- كثرة التذييل البلاغي للتأكيد والتقرير ، فقد اشتملت على (103) تذييلا ، وهذه سمة تميز الأسلوب
القرآني، يسهم في بنية الفعل الكلامي فمنها قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . الخ
- تأثير الوقف في اختلاف القوة الإنجازية للفعل الكلامي ، ﴿لَارَيْبَ فِيهِ﴾ .

- للقراءات أثر في اختلاف القوة الإنجازية للفعل الكلامي : يعلمون — تحذير ، تعلمون — ترغيب
- الدلالات التحويلية لصيغة النهي أقل كثيرا من الدلالات التحويلية لصيغة الأمر ، ولعل ذلك
يرجع إلى الفارق في شيوع الاستعمال بين الصيغتين ، أو إلى صيغة الأمر ، أو إلى صيغة
الأمر المغنية أحيانا ، فالأمر بالشيء نهى عن ضده .

- كثرة الجمل الاعتراضية في مواقف الاعتراض ، وبخاصة في سياق الاعتراض على
الكفار من اليهود والنصارى ومشركي العرب ، لإبطال مزاعمهم ، وإثبات ضلالهم .
كثرة فعل التوبيخ الموجه إلى اليهود ، والغرض منه ذم سلوكهم وحسدهم للمسلمين ،
واستعلائهم على الرسول (ص) ، وتكذيبهم بما يخبر به ، وإظهار تمردهم على التشريع
الإلهي

- تنوعت الأفعال الكلامية في سورة البقرة ، واحتلت الإخباريات المرتبة الأولى من حيث
العدد ، لأن كثيرا من الآيات في السورة تطرقت لعرض أخبار الأمم السابقة ، وقصص
الأولين وحوادث التاريخ ، وتخبر عن مواقف أخرى .

ويليها في الدرجة الثانية الأفعال الكلامية التوجيهية ، وخاصة الأمرية منها ، فقد كثرت
الأوامر الإلهية فيها ، مبلغة سائر الأحكام الشرعية ، وما تقتضيه الأوامر من وجوب وندب
وإباحة وتشريع ودعاء . الخ

- وقد جاءت الجمل الطلبية في سورة البقرة في (252 جملة) موزعة كالتالي : عدد جمل الأمر 120 ، عدد جمل النهي 40، عدد الجمل الاستفهامية 56 ، عدد الجمل الندائية 36.
- يعد النداء من قبيل الفعل الإنجازي المركب ، فالجملة الندائية تتكون من المنادى وجواب النداء ، فالمنادى يؤدي وظيفة التنبيه والنداء ، بينما جواب النداء أو مضمونه قد يكون أمرا أو نهيا أو خبرا ، وقد يخرج إلى دلالات غير مباشرة كالدعاء .
- يمكن اعتبار الخطاب الإلهي مقابلا للإطار المؤسساتي في الخطاب القرآني ، وخاصة في صنف الإيقاعيات ؛ فصاحب الخطاب هو المشرع الحكيم سبحانه وتعالى وهو صاحب السلطة المطلقة ، التي تسوغ للفعل الإنجازي القدرة على إحداث التغيير المطلوب في الوضع القائم ، لأن تأثير (المؤسسة) في مثل هذه المواقف يكون شديدا على المتخاطبين ، فأفعال الكلام في ذلك تتحقق لا محالة .
- من مميزات الخطاب القرآني تعدد جهات الخطاب وهذا من وجوه الإعجاز فيه .
وقد لاحظنا أن قسم الأفعال الإيقاعية محدود ، وهو أقل الأقسام استعمالا ،
ولقد ورد بعض من هذا الصنف في سورة البقرة في شكل صنفين هما : أفعال القرارات والإعلانات والتصريح بالأحكام ، وصنف آخر هو أفعال التصرف الذي ينقسم إلى الإجازة والمنع ، أما الصنف الثالث وهو الإيقاعيات الصريحة ، الذي يشمل أفعال العقود والفسوخ ، فلم نجد له أمثلة في هذه السورة ؛ ولعل ذلك راجع إلى كون العقود إنما تتجزأ بفاعلين ، مع إتمام العقد بالصيغة وهي (الإيجاب والقبول) بين الطرفين كما في الزواج والبيع والإيجارة والوكالة وغيرها ، فهي في الغالب من خصائص المعاملات بين الناس ، وإن وردت فهي من المجاز ، وهو لا تتعدد به الأفعال الإيقاعية .
- أن الصيغة اللغوية الواحدة ينتج عنها عدة درجات من المعنى ،
أولها : المعنى المباشر (معنى الصيغة) ، والثاني : معنى المعنى . وهو القوة الإنجازية غير المباشرة والثالث : معنى معنى المعنى وهو قوة إنجازية مستلزمة مثاله : خروج الاستفهام إلى التوبيخ ، وخروج التوبيخ إلى التعجيب ، فهناك ثلاث درجات من المعنى
(الاستفهام ← التوبيخ ← التعجيب) وذلك كما في قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .
وبخصوص تقسيم الأفعال الكلامية ، فقد استقر اختيارنا على التقسيم الخماسي المعدل الذي قدمه سيرل مع حذف التعبيرات النفسية ، وعدم إدراجها مع المتضمنات في القول ، لأنها مجرد تعبير عن ثبوت حالة نفسية لدى المتكلم ، ومع إدراج قسم الاستفهاميات على أنه

صنف مستقل ، كما أشار إلى ذلك بعض الدارسين ، وقد اعتمد رؤيته الخماسية معظم من تابعوا نظريته من العلماء مثل : فان دايك ، وولسن ، وفيش وحاولوا تطبيقها على بعض النصوص ، كما حاول بعضهم تطوير رؤية سيرل باقتراحهم مجالا سادسا هو الإخباريات التمثيلية ، وهي أفعال تمثل وضعاً معيناً ، يشير إليه القول كالتأكيد ، والتصريح وغيرها .

وكل الجهود المبذولة لإعادة تقسيم الأفعال لم تتجاوز تقسيم سيرل ، باستثناء بعض المحاولات التي ظهرت عاجزة عن الاتفاق على تقسيم موحد ، يقوم على معايير مشتركة .

وإن الدراسات لم تتوقف فهي تطمح لتطوير هذه التقسيمات أو استحداث تصنيفات جديدة .

- و أن مجموعات الأقسام الخمسة كلها متداخلة ، إذ يتدخل السياق أحيانا ليجعل من فعل الحكم فعل ممارسة أو العكس ،

- إن كثيرا من أفعال القول لها وظيفة حاجية ، بتوجيه المتلقي إلى فعل شيء أو تركه ، ويستعمل القرآن أفعال الاستفهام أو النفي أو الإثبات في الحجاج على أنها الحجج بعينها ،

- ويعد الاستفهام من أنجع أنواع الأفعال الكلامية حجاجا ، وبخاصة الاستفهام التقريري ، كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ .

- يلاحظ إمكانية بناء نظرية عربية موازية لنظرية سيرل في الأفعال الكلامية ، انطلاقا مما قدمه العلماء العرب في أقسام الكلام ومعاني الأساليب ، من خلال علوم البلاغة ، والأصول ، والنحو ، والكلام .

وفي الأخير نختم بهذا الدعاء الذي أورده الألوسي في هذا الموضع من تفسيره لسورة البقرة :

اللهم اجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب ، ووفقنا للعمل الصالح والقول المصيب ، واجعل

القرآن ربيع قلوبنا ، وجلاء أسماعنا ، ونزهة أرواحنا ، ويسر لنا إتمام

ما قصدناه ، ولا تجعل لنا مانعا عما بتوفيقك أردناه ،

وصل وسلم على خليفتك الأعظم

محمد المصطفى الأكرم

أمين .

والحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر و المراجع

المراجع العربية :

- 1- القرآن الكريم : رواية حفص عن عاصم .
- 2- أبو حيان الأندلسي . البحر المحيط . تحقيق : الشيخ زهير جعيد . 2005 . دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت . لبنان .
- 3- الأمدي (سيف الدين أبو الحسن) . الإحكام في أصول الأحكام . ط 1 / 1981 . دار الفكر بيروت
- 4- الاستربادي (رضي الدين) شرح الكافية في النحو لابن الحاجب ، تح : أحمد السيد أحمد ، المكتبة التوفيقية.
- 5- الأنباري (أبو البركات) الإنصاف في مسائل الخلاف . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد . دار الطلائع . 2005 م
- 6- أبو بكر بن العربي . أحكام القرآن . تحقيق . علي محمد البجاوي . 1987 . دار المعرفة . بيروت .
- 7- أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، ضبطه وحققه : حسام الدين القدسي . دار الكتب العلمية 1981
- 8- الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين محمود) . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم . تحقيق سيد عمران دار الحديث . القاهرة . 2005 م .
- 9- ابن جزي . تقريب الوصول إلى علم الأصول ، تحقيق : محمد علي فركوس . ط 1 / 1990 . دار التراث الإسلامي . الجزائر .
- 10- ابن جني (أبو الفتح عثمان) ، الخصائص ، تح : عبد الحكيم بن محمد ، المكتبة التوفيقية.
- 11- الأصفهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله) . حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا . ط 1/1997 م دار الكتب العلمية . بيروت .
- 12- ابن خلدون (عبد الرحمن) ، المقدمة كتاب العبر ، دار الكتاب اللبناني ، ومكتبة المدرسة ، بيروت 1960 .
- 13- ابن رشد (القرطبي) ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، دار القلم بيروت ، ط 1/1988
- 14- ابن فارس (أبو الحسين أحمد) . المقاييس في معجم اللغة . حققه : شهاب الدين أبو عمرو . دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت .
- 15- الصاحب . ط 1/1997 دار الكتب العلمية بيروت .

- 16- ابن قيم الجوزية إعلام الموقعين عن رب العالمين . اعتنى به وراجعته : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل ط 1973 .
- 17- ابن عاشور (الطاهر) ، تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر والتوزيع .
- 18- ، دار سحنون للنشر والتوزيع / 1997 م . تونس .
- 19- أبو الفداء الحافظ ابن كثير . البداية والنهاية . ط2 / 1997 . دار الكتب العلمية . بيروت لبنان .
- 20- ابن منظور . لسان العرب . ط3 / 2004 . دار صادر ، بيروت .
- 21- ابن المنير . الانتصاف . على هامش الكشف . ط3 / 1987 . دار الكتاب العربي . بيروت
- 22- الباقلاني (أبو بكر) . إعجاز القرآن على هامش الإتقان . عالم الكتب .
- 23- البخاري (أبو عبد الله محمد ابن اسماعيل) صحيح البخاري . 1981م دار الفكر للطباعة والنشر .
- 24- ابن هشام (جمال الدين الأنصاري) ، شرح شذور الذهب ، تح : محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ط 1997
- 25- ابن هشام . السيرة النبوية . تحقيق : مصطفى السقا .
- 26- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) . الحيوان . ط1 / 1998م دار الكتب العلمية . بيروت لبنان
- 27- الجرجاني (عبد القاهر) ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، شكله وشرح غامضه وخرج شواهد : ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية صيدا بيروت 2003
- 28- الجرجاني (علي بن محمد بن علي) : التعريفات . تح : نصر الدين التونسي .
1. شركة القدس القاهرة ط 1 / 2007 .
- 29- الرازي (فخر الدين) . التفسير الكبير ومفاتيح الغيب . ط1 / 1981م دار الفكر للطباعة والنشر .
- 30- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز . تحقيق : بكري شيخ أمين دار العلم للملايين . ط 1 / 1985 . بيروت .
- 31- الراغب الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن . تحقيق : صفوان عدنان داوودي . ط3 / 2002 . دار القلم دمشق .
- 32- الزجاجي (أبو القاسم) ، الإيضاح في علل النحو ، تح : مازن المبارك . دار النفائس ط5 / 1986
- 33- الزجاج (أبو اسحاق) معاني القرآن وإعرابه . تحقيق : عبد الجليل شلبي . 2004 . دار الحديث . القاهرة
- 34- الزركشي البرهان في علوم القرآن ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت .
- 35- الزمخشري ، الكشف ، رتبة وضبطه وصحح له : مصطفى حسين أحمد ، دار الكتاب العربي ، ط 3 / 1987

- 36- أساس البلاغة ، تح : عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة .
- 37- العلوي (يحيى ابن حمزة) . الطراز . المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . تحقيق عبد الحميد هنداي . ط1/2002م . المكتبة العصرية . صيدا . بيروت .
- 38- العكبري (أبو البقاء) . التبيان في إعراب القرآن . ط1/ 2008 م . القدس للنشر والتوزيع .
- 39- الغزالي (أبو حامد) . المستصفى من علم الأصول ، المطبعة الأميرية ، بولاق 1322هـ
- 40- الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، دار الجيل بيروت ، لبنان .
- 41- القاضي (عبد الجبار) ، شرح الأصول الخمسة ، تح : عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1988
- 42- القرافي (أبو العباس) ، الفروق وأنوار البروق في أنواء الفروق ، صححه : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، ط1 / 1998 .
- 43- القرطبي (أبو عبد الله) الجامع لأحكام القرآن . 1993م . دار الكتب العلمية .
- 44- القزويني (جلال الدين الخطيب) ، الإيضاح في علوم البلاغة ، اعتنى به وراجعته : عماد بسيوني زغلول ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط3 .
- 45- السبكي (بهاء الدين) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (ضمن شروح تلخيص المفتاح) مصطفى البابي الحلبي ، مصر 1948 .
- 46- السكاكي (أبو يعقوب) ، مفتاح العلوم ، ضبط وتعليق : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط2 / 1987 .
- 47- سيبويه (أبو بشر عمر بن قنبر) . الكتاب ، تح: عبد السلام هارون ، دار الجيل بيروت ، ط1 .
- 48- السيوطي (جلال الدين) ، الاقتراح ، إشراف: توفيق شعلان ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة 2003 .
- 49- الإتقان في علوم القرآن . عالم الكتب .
- 50- لباب النقول في أسباب النزول . عالم الكتب .
- 51- الشوكاني (محمد) . إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول . د.ت . دار المعرفة . بيروت
- 52- الشاطبي (أبو إسحاق) ، الموافقات في أصول الشريعة ، علق عليه : محمد حسنين مخلوف ، دار الفكر .
- 53- الشيرازي (إبراهيم) ، شرح اللمع في أصول الفقه ، تح : عبد المجيد تركي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت . 1988.
- 54- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد) : أدب الدنيا والدين . 2012. دار الفكر . بيروت .

- 55- ابن خويا (ادريس) :البحث الدلالي عند الأصوليين . قراءة في مقصدية الخطاب الشرعي عند الشوكاني . ط1 / 2009 . مطبعة بن سالم الأغواط . الجزائر . ص 32 .
- 56- أبو عامود (محمد أحمد) . البلاغة الأسلوبية . تصوير الموت في القرآن الكريم . ط1/2009 مكتبة الآداب
- 57- أبو زيد (نصر حامد) . مفهوم النص . دراسة في علوم القرآن . ط7 / 2008 . المركز الثقافي العربي .
- 58- ابراهيم (السيد) . نظرية الرواية دراسة لمناهج النقد الأدبي . في معالجة فن القصة . 1998 . دار قباء للطباعة والنشر . القاهرة . مصر .
- 59- البقري (أحمد ماهر) أساليب النفي في القرآن الكريم . دار المعارف الاسكندرية . ط2/1984
- 60- الأحمدى (محمد) . مفهوم الحياة في القرآن والحديث . ط1 / 2011 . دار السلام للطباعة والنشر . القاهرة . مصر .
- 61- .أحمد فرج (حسام) . نظرية علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري) . ط 2/2009 مكتبة الآداب . القاهرة .
- 62- أدرأوي (العايشي) ، الاستلزام الحواري في التداول اللساني . ط1 / 2011 ، منشورات الاختلاف .
- 63- أرمينكو (فرانسواز) . المقاربة التداولية . ترجمة :سعيد علوش . المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع . ط1/ 1997 . سوريا .
- 64- أزابيط (بن عيسى) نظرية الكم الخطابي . ضمن كتاب التداوليات . ط1/2011 . عالم الكتب الحديث
- 65- اسماعيل (أشواق) . الإقتضاء ودلالاته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم .
- 66- أوركيوني (كيربرات) . المضمرة . ترجمة :ريتا خاطر . ط1/2008م مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . لبنان .
- 67- أوستين (جون) . نظرية أفعال الكلام العامة . ترجمة : عبد القادر قنيني . إفريقيا الشرق . الدار البيضاء 1991.
- 68- أولمان ستيفن . دور الكلمة في اللغة . ترجمة : كمال بشر . مكتبة الشباب . القاهرة .
- 69- بلخير (عمر) . مقالات في التداولية والخطاب . دار الأمل للطباعة والنشر ، 2013 . الجزائر
- 70- بعيطيش (يحيى) . الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو . ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة ط1/2011 عالم الكتب الحديث .الأردن
- 71- بغورة (الزواوي) ، الفلسفة واللغة ، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ، دار الطليعة بيروت ، ط 1 / 2005 .
- 72- بسيوني (عبد الفتاح فيود) ، علم المعاني ،دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ، ط2 / 2004 مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة مصر

- 73- بلعقروز(عبد الرزاق) ، تحولات الفكر الفلسفي المعاصر أسئلة المفهوم المعنى والتواصل ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 / 2005 .
- 74- بوجادي(خليفة) في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ،بيت الحكمة، ط1 / 2009 .
- 75- بوقرة (نعمان) ،محاضرات في المدارس اللسانية ، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة 2006 .
- 76- بول ريكور. نظرية التأويل -الخطاب وفائض المعنى . ترجمة سعيد الغانمي. ط2 / 2006 . المركز الثقافي العربي . المغرب .
- 77- الباهي (حسان) . الحوار ومنهجية التفكير النقدي . افريقيا الشرق ، المغرب 2004 .
- 78- جبار (سعيد) . الخبر في السرد العربي الثوابت والمتغيرات . ط1/2004 . شركة النشر والتوزيع المدارس . الدار البيضاء . المغرب .
- 79- جورج يول . التداولية . ترجمة قصي العتابي . ط1/2010 الدار العربية للعلوم ناشرون .الرباط
- 80- حجازي(محمود فهمي). مدخل إلى علم اللغة . دار قباء القاهرة .1998م
- 81- حسام (أحمد قاسم) . تحويلات الطلب ومحددات الدلالة مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف ، ط1 / 2007 . دار الآفاق العربية ، القاهرة مصر .
- 82- حسن بحيري (سعيد) . علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات) ط 1 / 2004 . مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . القاهرة . مصر .
- 83- حسن الشيخ (عبد الواحد). دراسات في علم المعاني . مطبعة الإشعاع .الاسكندرية .مصر .
- 84- حسان (تمام) . البيان في روائع القرآن ، ط2 / 2003 . عالم الكتب
- 85- اللغة العربية معناها ومبناها . ط4/2004 . عالم الكتب . القاهرة .
- 86- حسني (محمد). الموسوعة الكبرى للإعجاز العلمي في القرآن. ط 1 / 2006 . دار التقوى . القاهرة .مصر
- 87- حمود (جمال) . فلسفة اللغة عند فتنشتاين . منشورات الاختلاف . الجزائر
- 88- حمادي(مثنى نعيم) . الجهود البلاغية لابن الجوزي . ط 1/2005 . مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة
- 89- الخالدي(كريم حسين ناصح) الخطاب النفسي في القرآن الكريم . ط1/2007 . دار صفاء . عمان الأردن
- 90- خليفي (بشير) ، الفلسفة وقضايا اللغة ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2010.
- 91- الخفاجي(بان) . مراعاة المخاطب .في النحو العربي . ط1/2008 . دار الكتب العلمية . بيروت .
- 92- دحمون (كاهنة) . الجملة الاعتراضية بنيته ودلالاتها في الخطاب الأدبي . دراسة تداولية
- 1- دلاش(جيلالي) ، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، تر : محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجامعية 1992
- 2- درويش(محي الدين) . إعراب القرآن الكريم . ط9/2003 . دار ابن كثير للطباعة والنشر . بيروت .

- 3- دومينيك مونغونو ، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة : محمد يحياتن . منشورات الاختلاف . ط1 / 2008 .
- 4- زاهد(زهير غازي) . في النص القرآني وأساليبه . ط1/2012 . دار صفاء للنشر والتوزيع عمان الأردن
- 93- الزهري (نعيمة) . الأمر والنهي في اللغة العربية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1997
- 94- زيتيسلاف واورزنيك . ترجمة : سعيد حسن بحيري . ط1/2003 مؤسسة المختار . مصر
- 95- الطبطبائي(طالب سيد هاشم) ، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب . مطبوعات جامعة الكويت . 1994 .
- 96- طبل(حسن) . المعنى في البلاغة العربية . ط1/1998 . دار الفكر العربي . القاهرة . مصر .
- 97- طه (عبد الرحمن)، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي، ط2/2000
- 98- ، اللسان والميزان ،المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط1
- 99- طلحة (محمود) .تداولية الخطاب السردي دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي.ط1/2012.عالم الكتب الأردن
- 100- طهماز(عبد الحميد) الإسلام الله تعالى في سورة البقرة . ط1/1993 . دار القلم . دمشق . سوريا .
- 101- الطويخي (طلال يحي) الجمل التي لا محل لها من الإعراب في القرآن الكريم . ط1/2007 . دار دجلة . عمان . الأردن .
- 102- .
- 103- صابر (الحباشة) ، الأسلوبية والتداولية ، مداخل لتحليل الخطاب . ط1 / 2011 . عالم الكتب الحديث.
- 104- الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقرطبي . ط1 / 2010 . الدار المتوسطة للنشر . تونس
- 105- مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية . ط1/2011 دار صفحات للدراسة والنشر دمشق
- 106- التداولية والحجاج .مداخل ونصوص . ط1 / 2008 .صفحات للدراسات والنشر .دمشق
- 107-في المعنى .مباحث دلالية معرفية . ط1/ 2008 .المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء .المغرب .
- 108- الصبيحي (محمد الأخضر) ، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه . ط1/2008 ، منشورات الاختلاف . الجزائر .
- 109- الصراف(علي محمود حجي) في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ط1 / 2009
- 110- صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب ، ط1 / 2008 ، دار التنوير للنشر والتوزيع. الجزائر .
- 111- صولة (عبد الله) . الحجاج في القرآن . ط2 / 2007 ، دار الفارابي ، بيروت .

- 112- سرحان (ادريس). التأويل الدلالي -التداولي للمفوضات. ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة ط2011/1 عالم الكتب الحديث .الأردن
- 113- سعد(محمد توفيق). صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم .ط1/1993.مطبعة الأمانة القاهرة
- 114- سيرل(جون) العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي) ،تر: سعيد الغانمي ، منشورات الاختلاف ، ط 1 / 2006
- 115- السيساوي(يوسف). الإشارات . مقاربة تداولية . ضمن كتاب التداوليات . علم استعمال اللغة ط2011/1 عالم الكتب الحديث .الأردن
- 116- سيد قطب .في ظلال القرآن . ط11/1985م . دار الشروق .
- 117- السامرائي(صالح فاضل) . معاني النحو . ط1/2000م . دار الفكر للطباعة والنشر . عمان الأردن .
- 118- السامرائي (ابراهيم عبود) . الأساليب الإنشائية في العربية. ط1/2007. دار المناهج للنشر والتوزيع . عمان .
- 119- شارودو (باتريك) .الحجاج بين النظرية والأسلوب. ترجمة :أحمد الودرني .ط1/2009دار الكتاب الجديد .ليبيا
- 120- شلبي(محمد مصطفى) ، المدخل في الفقه الإسلامي ، الدار الجامعية بيروت ، ط 10 / 1985
- 121- شبل محمد (عزة) علم لغة النص (النظرية والتطبيق) ، ط2/2009 مكتبة الآداب . القاهرة .
- 122- شعير (محمد رزق) . الفنولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم . ط1/2008 . مكتبة الآداب القاهرة
- 123- الشهري (عبد الهادي ابن ظافر) . استراتيجيات الخطاب . مقاربة لغوية تداولية . ط1/2004. دار الكتاب الجديد . بيروت .
- 124- العبد (محمد) العبارة والإشارة .دراسة في نظرية الاتصال . ط2/2007.مكتبة الآداب مصر .
- 125- العبد (محمد) تعديل القوة الإنجازية . ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة . علم استعمال اللغة ط2011/1 عالم الكتب الحديث .الأردن
- 126- عبد الله (شكر محمود) . دلالة الجملة الإسمية . ط1/2009 م دار دجلة .الأردن .
- 127- عبد الباقي (محمد فؤاد) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .دار الجبل . بيروت .
- 128- عبد الحق(صلاح اسماعيل) التحليل اللغوي عند مدرسة أوكسفورد ط1/1993 .
- 129- عبد العزيز (أحمد علي) .من بلاغة القرآن. ط1/2011 دار اليقين للنشر والتوزيع . مصر .
- 130- عبد العزيز(محمد حسن) ، علم اللغة الاجتماعي . مكتبة الآداب . القاهرة ط 1 / 2009.
- 131- عبد العزيز (عتيق) . علم المعاني . ط1 / 2006 . دار الآفاق العربية . القاهرة ، مصر .
- 132- عطية (مختار) .الإطناب في القرآن الكريم. دراسة بلاغية . 2008 دار الجامعة الجديدة الاسكندرية .مصر .
- 133- عشير(عبد السلام) ، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج .افريقيا الشرق ، المغرب. ط 1 / 2006 .

- 134- عكاوي (إنعام فوال) . المعجم المفصل في علوم البلاغة ط2/1996م . دار الكتب العلمية بيروت
- 135- علي (حسب الله) أصول التشريع الإسلامي ، القاهرة 1959
- 136- عمارة(ناصر) الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي ، منشورات الاختلاف، ط1/ 2009
- 137- عمر (أحمد مختار) . أسماء الله الحسنى . دراسة في البنية والدلالة. ط1/1997 . عالم الكتب
- 138- العيد (يمنى) . في معرفة النص دراسات في النقد الأدبي . ط4/1999م دار الآداب . بيروت .
- 139- عيد (محمد عبد الباسط) . النص والخطاب . قراءة في علوم القرآن . مكتبة الآداب. القاهرة ط1/2009 .
- 140- العمري (محمد) . البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول . ط1/ 2005م . إفريقيا الشرق . المغرب .
- 141- فرهود (عبد الرحمن) . دراسات في ظواهر نحوية . ط1/ 2009 . دار الحامد . عمان . الأردن .
- 142- قادر (فخرية غريب) . تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات المعاصرة ،
- 143- كروم (أحمد). الاستدلال في معاني الحروف . دراسة في اللغة والأصول. ط1/ 2009 . دار الكتب العلمية بيروت
- 144- كلماير. أساسيات علم لغة النص . ترجمة :سعيد حسن البحيري . ط1/2009 نشر مكتبة زهراء الشرق . القاهرة
- 145- كارل ديتر بوننتج. المدخل إلى علم اللغة . ترجمة : سعيد حسن بحيري . ط2/ 2006 . مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . مصر.
- 146- المخزومي (مهدي) في النحو العربي نقد وتوجيه . منشورات المكتبة العصرية ط1/1981 بيروت.
- 147- - المسدي (عبد السلام) . الأسلوبية والأسلوب. ط2/1982 . الدار العربية للكتاب . ليبيا .
- 148- المتوكل (أحمد) ، آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي . كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط
- 149- - - - - اللسانيات الوظيفية : مدخل نظري ، منشورات عكاظ ، 1989 .
- 150- - - - - الوظائف التداولية في اللغة العربية . ط1/1985 . دار الثقافة . الدار البيضاء
- 151- - - - - قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية . دار الأمان . الرباط . 1995 م
- 152- مرزوق (حلمي) . في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني) . ط1/2004 . دار الوفاء للطباعة والنشر . الاسكندرية . مصر
- 153- مقبول (إدريس) ، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ، عالم الكتب الحديث ، إربد الأردن ط1/ 2006
- 154- نحلة(محمود) ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، ط1/2006 .
- 155- - - - - علم المعاني . ط1/1990 . دار العلوم العربية . بيروت .
- 156- نايف(بشار ابراهيم) . البنية الزمانية في القرآن الكريم الاستباق والاسترجاع . ط1/2011 . دار الكتب العلمية .
- 157- نوارى (سعودي) ، في تداولية الخطاب الأدبي. ط1/2009 . بيت الحكمة . العلة . الجزائر
- 158- نهر (هادي) . علم الدلالة التطبيقي.

- 159- هارون(عبد السلام) ، الأساليب الإنشائية ، في النحو العربي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط5/2001
- 160- الوزان (تحسين عبد الرضى) . الصوت والمعنى . ط1/ 2011 ، دار دجلة ، عمان ،الأردن
- 161- ياقوت (محمود سليمان) ، منهج البحث اللغوي . دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ط1/2003
- 162- ----- . المبني للمجهول في الدرس النحوي والتطبيق في القرآن الكريم . ط1/ 1989. مصر
- 163- يقطين (سعيد) تحليل الخطاب الروائي . الزمن ،السرد ،التبئير. المركز الثقافي العربي . 1989م

المجلات :

- 164- بعلي (حفناوي)، التداولية ، البراغماتية الجديدة ، مجلة اللغة والأدب ، ع 17/2006 .جامعة الجزائر .
- 165- بلبع (عيد) ، التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا مورييس ، مجلة فصول ، ع 66 / ربيع 2005 .
- 166- بوقرة (نعمان) .نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية .مجلة اللغة والأدب .ع17/2006 .
- 167- حمام (أبو القاسم) .الكناية .هروب من اللغة . مقال .مجلة الأثر .مارس 2006 . جامعة ورقلة
- 168- الرقبي (رضوان) .الاستدلال الحجاجي التداولي.مجلة عالم الفكر. مجلد 40 / 2011.الحجاج .عدد خاص.
- 169- العبد (محمد) ، تعديل القوة الإنجازية ، مجلة فصول ، ع 65 / خريف 2004 .
- 170- عبد العزيز(محمد حسن). كيف ننجز الأشياء بالكلمات . مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة .عدد 19
- 171- عبد الرحيم خير الله عمر الشريف . أصل الاستدلال بعادة العرب لمعرفة القرآن الكريم . مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية . عدد 94 / سبتمبر 2013 .
- 172- عز الدين الناجح . دراسة حكمة عطائية .مقاربة تداولية مجلة الخطاب جامعة تيزي وزو
- 173- غماري (نصيرة) ، نظرية أفعال الكلام عند أوستين ، مجلة اللغة والأدب ، ع 17/2006 .
- 174- لوصيفي (الطاهر) ، التداولية اللسانية ، مجلة اللغة والأدب ، ع 17
- 175- شنان (قويدر). التداولية في الفكر الأنجلوسكسوني المنشأ الفلسفي والمآل اللساني .أعمال ملتقى علم النص . مجلة اللغة والأدب ،عدد17 / 2006 . جامعة الجزائر .

المراجع الأجنبية :

- 176- Austin (John Langshaw), How to do things with words, 2nd, Oxford University Press, 1975.
- 177 - ADAM, J. M. LA Linguistique Textuelle. introduction à l'analyse textuelle des discours. Armand Colin Paris, 1^{ed}/ 2005.
- 178-les textes types et prototypes. Nathan, Paris, 3^{ed} 1997.
- 179- DUCROT, O. Dire et ne pas dire, Paris, Hermann (1972)
- 180- Halliday M. A. K. and Hassan Ruqaiya : Cohesion in English. Longman, London (1983).
- 181- Holdcroft David, WORDS & DEEDS Problems in the theory of Speech Acts. Clarendon Press. Oxford 1978.
- 182- Leech, Geoffrey. The Principles of pragmatics, Longman New York 1983.

- 183- Perlman. Ch. and L. Olbrechts tytéca : The new rhetoric , a tretise on -
argumentation ,translated by john Wilkinson and Purcell weaver , University of notre
dame Press 1971
- 184- Recanati ,F : le potentiel illocutoire des phrases declaratives (un cahier de
luinguistique française 2 ,1^{er} partie ,Genève 1981
- 185-. Van Dijk Teun ,Text and Context , Explorations in the Semantics and
Pragmatics of Discourse , longman , London and New YORK , (1980).
- 186- Searle .John . SPEECH ACTS . An essay in the philosophy of language . - 1
Cambridge University Press 1972
- 187- Searle.Johne . Indirect speech acts . syntax and semantics . vol 3 .New York : - 2
Academie . Press . 1975.
- 188-Searle j: Expression and Meaning : Studies in the theory of Speech Acts
Cambridge University Press,1979.
- 189- Searle & Vanderveken ., Foundations of Illocutionary logic , Cambridge
.University Press , 1985
- 190 - Grand Larousse Universel , Paris Cedex , Tome 12.
- 191- Petit Larousse en couleur ,Librairie Larousse , Paris , 1980.

فهرس الموضوعات

مقدمة.....	ص (أ - ح)
تمهيد.....	ص (1-14)
الفصل الأول : اللسانيات التداولية.....	ص 15
المبحث الأول : ماهية التداولية وأقسامها ومحاورها.....	ص 17
المبحث الثاني : الأصول الفلسفية للفكر التداولي.....	ص 21
المبحث الثالث : أسس التداولية.....	ص 27
المبحث الرابع : علاقة التداولية بالعلوم الأخرى.....	ص 33
الفصل الثاني : نظرية الأفعال الكلامية.....	ص 37
المبحث الأول : الأفعال الكلامية في الدراسات الغربية.....	ص 38

المبحث الثاني : نظرية الخبر والإنشاء عند العرب	ص 52
الفصل الثالث : الإخباريات.(التقريريات)	ص 65
وصف المدونة :	ص 66
تعريف الإخباريات	ص 67
وصف المؤمنين	ص 74
وصف الكافرين	ص 76
وصف المنافقين	ص 77
البعد الحجاجي في محاوره بني إسرائيل	ص 87
تحويل القبلة	ص 117
قوانين الخطاب	ص 122
كتم العلم	ص 132
الفعل الكلامي في القصص في القرآني	ص 158
الفصل الرابع : التوجيهيات	ص 190
توجيه المكلفين إلى أحكام القصاص	ص 217
التحذير من أكل المال بالباطل	ص 228
تشريع الجهاد وتحريم العدوان	ص 226
توجيه المكلفين إلى أحكام الحج والعمرة	ص 239
أسئلة الصحابة والإجابة عنها	ص 250
أحكام الأسرة والطلاق	ص 263
أحكام المعاملات المالية	ص 279
الفصل الخامس : التعبيرات	ص 285
مفهوم التعبيرات وأقسامها	ص 286
الدلالة الإفصاحية	ص 288
فعل التهويل والسخط	ص 289
فعل الامتتان	ص 290
فعل التعجب	ص 294
فعل التحذير	ص 303
فعل المدح	ص 304
الفصل السادس : الوعديات	ص 305

تعريف الوعديات.....	ص306
طرق التعبير القرآني عن الوعديات.....	ص306
أفعال الوعد والوعيد	ص308
أفعال التهديد.....	ص312
أفعال التهويل والزجر.....	ص318
أفعال البشارة.....	ص324
أفعال التخويف.....	ص326
الفصل السابع : الإيقاعيات.....	
تعرف الإيقاعيات	ص328
أنواع الإيقاعات	ص329
الإيقاعات التصريفية	ص331
أفعال الإذن وأفعال المنع.....	ص331
الإيقاعيات التقريرية	ص334
الإيقاعيات الصريحة	ص340
ألفاظ العقود.....	ص341
الخاتمة.....	ص342
فهرس المراجع	
فهرس الموضوعات	